المركز القومى للترجمة

هلال وراء الغيوم

الولايات المتحدة والعالم المسلم ١٧٧٦ - ١٨١٥

تراث حروب البربر



المشروع القومى للترجمة

1616 تأليف: روبرت جى آليسون

ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى

هلال وراء الغيوم

الولايات المتحدة والعالم المسلم (١٧٧٦ - ١٨١٥)

(تراث حروب البربر)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: 1616
- هلال وراء الغيوم : الولايات المتحدة والعالم المسلم (١٧٧٦ - ١٨١٥)
- روبرت جى آليسون
- أسامة الغزولى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Crescent Obscured

By: Robert J. Allison

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E-mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

هلال وراء الغيوم

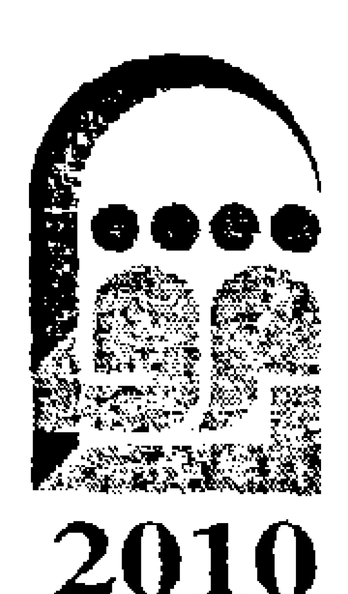
الولايات المتحدة والعالم المسلم

(١٧٧٦ - ١٨١٥)

« تراث حروب البربر »

تأليف: روبرت جى آليسون

ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

آليسون، روبرت جى
هلال وراء الغيوم: الولايات المتحدة والعالم المسلم
(١٧٧٦-١٨١٥) (تراث حروب البربر)/ تأليف: روبرت جى آليسون؛
ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٣٣٦ ص؛ ٢٤ سم
١ - الاستعمار الأمريكى .
(أ) الغزولى ، أسامة (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٣٢٥,٣٧٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/٩٥٥٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 067 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

مائتا عام من العتمة

عولجت الحروب البحرية التى دارت بين جاراتنا دول الشمال الإفريقى الأربع وبين الولايات المتحدة الأمريكية، فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر وحتى منتصف العقد الثانى من القرن التاسع عشر، فى عشرات الكتب والرسائل الجامعية لكننا اخترنا أن نقارن بين الكتاب الذى نقدم له هنا، وهو "هلال وراء الغيوم" الذى ألفه روبرت آليسون، رئيس قسم التاريخ بجامعة سافوك الأمريكية، وبين كتاب آخر حول الموضوع ذاته، وهو كتاب" القوة والعقيدة والوهم" تأليف مايكل أورين الذى صدر بعد كتاب آليسون باثنى عشر عاما وترجم إلى العربية فى عام ٢٠٠٩، بخاصة وأنهما يعالجان قضية واحدة من وجهتى نظر مختلفة، وهى قضية الصراعات العسكرية والسياسية بين الولايات المتحدة وجاراتنا فى الشمال الإفريقى، وإن خصص آليسون للقضية كتابه كله فى حين اعتمد عليها أورين منطلقًا لبحثه الأوسع فى العلاقات العربية الأمريكية.

فى كتاب "القوة والعقيدة والوهم" يكرس المؤلف مايكل أورين جهوده كأكاديمى وكاتب لخدمة المشروع الصهيونى. ولا غرو فهو يهودى أمريكى المولد، يقول عن نفسه إنه قرر فى نحو العاشرة من عمره أن يصبح صهيونيا. وقد هاجر إلى إسرائيل وخدم فى جيشها كضابط احتياط، ثم أصبح أستاذا للتاريخ فى الولايات المتحدة التى لم يتخل عن جنسيتها بعد حصوله على الجنسية الإسرائيلية. ولا يستبعد كاتب هذه السطور أن يكون قرار تعيين مايكل أورين سفيرا لإسرائيل فى واشنطن فى عام ٢٠٠٩ قد تأسس على اعتبارات من بينها أنه ألف كتاب "القوة والعقيدة والوهم"،

بمنطق يناسب المصالح الصهيونية ويناسب رؤيتها لما يحدث بين الولايات المتحدة وبلدان الشرق المسلمة منذ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى الآن.

وقد يحسب للدبلوماسية الإسرائيلية أنها تختار سفراءها من هذا النمط من الرجال الذين جسدوا إيمانهم بالعقيدة السياسية للدولة بالخدمة الميدانية وبعمل أكاديمى نختلف معه، اختلافا جوهريا، لكننا نشيد بالجهد المبذول فيه، وبحرص مؤلفه – الذى تغلبت عنده الدوافع السياسية على الميل الأكاديمى إلى الرطانة المتعالية – على تقديم كتاب تسهل قراءته، لسلاسة اللغة وأسلوب العرض كما أشار بحق زاكارى رايد فى ريتشموند ـ تايمز ديسباتش. وسهولة القراءة أمر مهم لكتاب دعائى كهذا تربو صفحاته على سبعمائة صفحة.

وإعجابنا بجهد المؤلف وبأسلوب عرضه لمادته وبسلاسة لغته لا ينفى، كما أوضحنا، اعتراضا جوهريا على وجهات نظره وعلى الرسالة التى يوجهها لقارئه. يطلق أورين على جاراتنا فى شمال إفريقيا اسم "دول البربر" ويفعل آليسون الشيء ذاته، لكن هذا الأخير يشير إلى أن استخدام كتاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لهذه التسمية قصد به الربط بين هذه الدول وبين البربرية والوحشية؛ أما استخدام آليسون لها فهو جزء من تقنية اتبعها فى كتابه " هلال وراء الغيوم" بدقة والتزام، وهى تقنية تقتضى أن يستخدم معجم من ينقدهم عند عرضه لأفكارهم، ثم يحلل أسلوبهم وأفكارهم بعد ذلك بقدر أكبر من الحرية فى اختيار المفردات والتراكيب؛ وهو ما قد يوحى للقارئ المتعجل بأن الرجل يكن للمسلمين ولتراثهم ولنبيهم العظيم الكراهية النابعة من الجهل وسوء الفهم، التى نجدها عند كثير من كتاب الغرب فى الفترة محل البحث.

وهم القوة

ولا تقف المسألة عند التسميات والألفاظ والتراكيب، فيما يتعلق بالفارق بين معالجة مايكل أورين فى "القوة والعقيدة والوهم" لحروب أمريكا مع دول الشمال الأفريقى وبين معالجة روبرت آليسون لها فى "هلال وراء الغيوم"، ففى حين يستخلص

أورين من الصراعات، التى دارت بين الولايات المتحدة الأمريكية هذه الدول والنتائج المباشرة التى تمخضت عنها الصراعات، درسا مفاده أن "القوة" هى السبيل الوحيد للتعامل مع العرب، وأن التعامل بهذا الشكل من "القوة" العسكرية لم يؤمن مصالح الولايات المتحدة، فقط، بل كان السبب الرئيسى فى ميلادها وتطورها كنظام ديمقراطى فيدرالى تقوده حكومة مركزية فعالة، نجد أن آليسون فى "هلال وراء الغيوم" يفضح وهم "القوة"؛ فالجهود البرية والبحرية التى بذلتها الولايات المتحدة لإسقاط حكومة ليبيا (الحكومة الطرابلسية، كما كانت تعرف آنذاك) لم تحقق أى نجاح عسكرى، بل كانت مجرد مقدمة لقبول إدارة توماس جيفرسون بما ألح الأمريكيون على رفضه لسنوات طويلة، وبما زعموا أنهم يتعالون عليه، من دفع مبالغ مالية ولو "بنس واحد" لحكومات شمال إفريقيا ثمنًا للسلام معها، وكان رائدهم فى ذلك الرفض وفى ادعاء القوة هو الرئيس توماس جيفرسون منذ كان وزيرا للحكومة الأمريكية فى باريس.

فقد صحب تحرك الأسطول الأمريكى باتجاه سواحل طرابلس تشكيل قوة من المرتزقة المصريين والمغاربة والبربر واليونانيين (الذين شكلوا معظم القوة) وانطلقت القوة، بعد أن ضرب الأسطول الأمريكى الحصار على سواحل ليبيا، من صحراء مصر الغربية إلى درنة، بأمل أن يشجع هذا التدخل الشعب الليبى ليثور ضد "الطاغية" فى طرابلس ويسقطوه، فينصب الأمريكيون بدلا منه شقيقه، الذى تحالف معهم والذى وصفه أحد القادة الأمريكيين بأنه "مخنث" لا يصلح لشىء. لكن واشنطن سرعان ما أصدرت أوامرها لفرقة المرتزقة بالانسحاب، لأنها توصلت إلى اتفاق سلام مع حاكم طرابلس "يوسف باشا قرامانلى" أنهى المواجهات البحرية والبرية، ولأن الشعب الذى توقعت أن يؤازر الغزاة، لم يفعل ذلك.

وقد وصف المؤلف روبرت آليسون قائد الحملة البرية الأمريكية وليم إيتون، بأنه تاجر خدم فى الجيش الأمريكى وعين قنصلا لبلاده فى الجزائر، حيث استبدت به الهلاوس وأصابته البارانويا. ورغم أن أعلى رتبة عسكرية وصل إليها أيام كان فى الجيش كانت رتبة الكولونيل (عقيد)؛ فقد أصبح يُشار إليه باعتباره حاملا لرتبة

الجنرال، منذ قام فى صيف ١٨٠٥ بمحاولته العسكرية الفاشلة لإسقاط الحكومة الليبية، بتشجيع من إدارة جيفرسون، وليس بتكليف رسمى. ولهذا السبب فإن الإشارة الواردة فى أنشودة البحرية الأمريكية، التى ما زالت ترددها إلى اليوم، إلى أمجاد عسكرية على "شواطئ طرابلس" هى إشارة بلا أساس تاريخى، لأن من قام بها كانوا، كما وصفتهم الصحافة الجمهورية المقربة من الإدارة الأمريكية "عصابة قامت بحملة لصوصية " ولم يكونوا قوة نظامية ولم يخوضوا حربا بل قاموا بعملية محدودة ضد مدينة من مدن ليبيا. وقد وصفتهم الصحافة المقربة من الحكومة بهذه الصفة آنذاك لأن الإدارة التى راهنت عليهم، جزئيا، لم تعد تعتبرهم أكثر من عبء سياسى يضر ولا ينفع، ولأنهم ليسوا من القوات المسلحة الأمريكية ولم يحققوا الهدف السياسى المنشود. أما المعارضة الاتحادية لإدارة جيفرسون فقد تبنت قائد الحملة الفاشلة وحاولت أن تصنع منه بطلا تغطى بأسطورته على أسطورة أخرى اصطنعتها إدارة جيفرسون، عندما صورت الضابط ستيفن ديكاتور بصورة البطل التاريخى، بسبب عملين قام بهما.

فقد استولى الليبيون (الطرابلسيون بلغة ذلك العصر) على فخر البحرية الأمريكية الفتية وهى الفرقاطة فيلادلفيا وأوقفوها على شاطئهم ليصلوا بنيران مدفعيتها السفن الحربية الأمريكية التى حاصرت ميناء طرابلس.

ونجح ديكاتور وبعض رجاله فى التسلل إلى فيلادلفيا وإحراقها، ليحرموا الليبيين من الميزة العسكرية التى أمنتها لهم مدفعيتها الحديثة. واعتبرت الإدارة ذلك العمل نصرا مؤزرا. ورد خصوم الإدارة بالإشارة إلى أن ديكاتور أحرق السفينة التى تكلفت مبالغ طائلة من أموال دافعى الضرائب، ولم يحررها، ولم يستردها من الليبيين.

العمل الثانى الذى أنجزه ديكاتور كان أنه علم بأن أخاه جيمس ديكاتور قتل بيد قبطان ليبى، فبحث ديكاتور عن القاتل، وصعد إلى سفينته مع عدد من رجاله ودارت معركة بالأيدى، انتقم فيها ديكاتور لأخيه بقتل قاتله. وهذا هو موضوع أولى اللوحات فى كتاب " هلال وراء الغيوم".

وقد اعتبر أعظم قائد بحرى آنذاك – وربما أعظم قائد بحرى فى التاريخ – وهو أمير البحر البريطانى اللورد نيلسون أن ما فعله ديكاتور كان "أكثر الأعمال جسارة وإقداما فى ذلك العصر"، وأعلن البابا بيوس السابع، كما ذكر آليسون، أن "القائد الأمريكى فعل، بقوة صغيرة وفى زمن وجيز، ما لم تفعله الأمم القوية فى العالم المسيحى، من أجل المسيحية، منذ قرون".

لكن المعارضة الأمريكية فى ذلك العصر كان لها رأى آخر، فالبطل الذى يشيد به اللورد نيلسون والبابا بيوس – لم يطلق سراح أسير أمريكى واحد؛ وقد كان على رأس الأهداف المعلنة، لا الأهداف الحقيقية، للحرب الأمريكية على طرابلس الغرب إطلاق سراح الأسرى من البحارة والمسافرين على السفن الأمريكية التى اختطفها القراصنة الطرابلسيون.

ويقول روبرت آليسون إن "ديكاتور أخذ الهزيمة وحولها إلى نصر" شارحا الآليات التى استخدمها الجانب الأمريكى فى إكساب العملين اللذين قام بهما ديكاتور دلالات رمزية غطت على إفلاس القوة الأمريكية فى مواجهة الليبيين وعلى انحناء الجمهورية الفتية أمام قوة " ملكية" ليست "مستبدة" فقط بل وشرقية مسلمة أيضا. وتكرر اللجوء إلى المعالجات الرمزية، مرة ثالثة، للتغطية على الاخفاقات المتتالية التى منى بها الأمريكيون فى تلك المواجهات عندما وضعوا شحنة ضخمة من الديناميت على ظهر زورق توجه به طاقمه ليفجروا قلعة حاكم طرابلس يوسف باشا قرامانلى الساحلية. لكن القارب انفجر بمن عليه من البحارة قبل أن يقترب من القلعة بدرجة تكفى لأن يؤثر فيها الانفجار. ويرى روبرت آليسون أن القارب انفجر إما بالخطأ من جانب الأمريكيين أو لأن قناصا ليبيا تمكن من تفجيره، مضيفا أن الإدارة الأمريكية تجاهلت الاحتمالين واختارت أن يكون البحارة الأمريكيون هم الذين قرروا أن يفجروا القارب وهم على متنه، مفضلين الموت على الأسر.

وربما اختار آليسون هذا التفسير لأن" تيمة " تفضيل الموت على الأسر تكررت فى كثير من مكونات السردية الأمريكية للأسر، ويتفرع منها تفضيل من يقع فى الأسر

الموت على أن يخضع لمشيئة المسلمين أو ـ وهو المصير الأسوأ بنظرهم ـ أن يتحول إلى دينهم.

ولأن بحارة الزورق ماتوا جميعا وتركوا للآخرين حرية تفسير ما جرى فإننا نكتفي بأن نشير إلى أن تفسير انفجار الزورق الأمريكي باعتباره عملا انتحاريا فضل مرتكبوه الموت على الأسر هو تفسير ربما استلهم ما كتبه جون رودجر في يومياته عن انتصاره على فرقاطة ليبية في ١٨٠٢ فجر بحارتهم الفرقاطة – كما زعم رودجر – مفضلين الموت على الأسر، وهذا قد يعني أن صناعة الأساطير الأمريكية كانت تعمل في اتجاهين لا في اتجاه واحد.

وبالنهاية اتفق الليبيون والأمريكيون على وقف القتال ومبادلة ثلاثمائة أسير أمريكي بمائة أسير ليبي، وبجزية يدفعها الأمريكيون لليبيين.

وعندما يفكك روبرت آليسون أسطورة "القوة" التي صنعتها إدارة جيفرسون بعد تلك الحرب فهو يكشف عن الكيفية التي عملت بها عقلية رفضت أن ترى الواقع كما هو، وفضلت أن تعيد إنتاجه وفقا لأوهامها، متشبثة بأسطورة مفادها أن أمريكا هي وريثة مهمة "مقدسة" بدأتها مملكتا قشتالة وأراغون المسيحيتان في غرناطة في ١٤٩٢، عندما هزمتا آخر الممالك العربية في إسبانيا، مملكة غرناطة، وطردتا المغاربة وطاردتاهم إلى الساحل الإفريقي. ويشير المؤلف إلى أن الرغبة في مواصلة الحرب على الإسلام والمسلمين هي التي جعلت الملكين المسيحيين إيزابيلا وفرديناند يمولان رحلة كولومبوس إلى الأرض الجديدة، بحثا عن ذهب ينفقان به على حربهما ضد المسلمين التي انتقلت وراءهم إلى الساحل الإفريقي.

بهذه الإشارة نفهم أن الأمة التي ولدت نتيجة لرحلة كولومبوس إنما ولدت نتيجة رغبة في مواصلة الحرب على الإسلام والمسلمين، وهذا يلقي ضوءا كاشفا على الطريقة التي فهم بها الأمريكيون هذه الحرب والتي لا يزال كاتب مثل أورين يروِّج لها.

والحقيقة التي لم يهتم كتاب "هلال وراء الغيوم" بالوقوف أمامها هي أن اكتشاف أمريكا كان له تأثير خطير بالفعل على توازنات القوة بين الدول الأوروبية المسيحية

والدول المسلمة فى الشرق، فالذهب الذى تدفق من العالم الجديد جعل العالم المسلم يترنح و ليس بفعل ضربات عسكرية، فقد كان حكامه العثمانيون جبابرة فى الحرب، لكن تدفق الذهب أطلق موجة تضخم عالمى خنقت النظام العثمانى الذى لم يكن قادرا على تحديث عالمه المسلم "المستقر، التقليدى، المكتفى ذاتيا"، كما يقول ردجركراولى فى كتابه "الإمبراطوريات البحرية" الذى نتمنى أن ينقل إلى العربية قريبا.

وقد صارت الأزمة واضحة عندما اضطرت مصر، وهى الولاية العثمانية الوحيدة التى كانت تسك عملتها الذهبية من مواردها المحدودة فى إفريقيا، إلى خفض قيمة عملتها بمقدار ثلاثين بالمائة، فى عام ١٥٦٦، وأصبح الريال الإسبانى سيد العملات فى العالم المسلم، وصارت خيرات هذا العالم يمتصها من يمتلكون الذهب فى أوروبا المسيحية.

وبعد ستين عاما من الحرب الطاحنة بين القوتين الأعظم فى العالم، بين الإمبراطورية العثمانية سيدة العالم المسلم وإمبراطورية الهابسبورغ الإسبانية سيدة العالم المسيحى للسيطرة على البحر الأبيض بين ١٥٢١ و١٥٨٠، وهى الحرب التى انتهت بأن وقع الجانبان إتفاق سلام اعتبره كثير من المؤرخين نهاية للحرب الصليبية المتأخرة. وبعد هذا الاتفاق انتقل مركز الصراعات الدولية بعيدا عن المتوسط، وأدار كل من الخصمين ظهره للآخر، كما يقول كراولى.

ركز العثمانيون جهودهم الحربية على جبهتى القتال مع الفرس فى الشرق الأوسط ومع الهنغاريين فى الشرق الأوروبى، واتجه الإسبان بطموحاتهم التوسعية إلى المحيط الأطلسى بعد أن قهر ملكهم فيليب البرتغال ونقل عرشه إلى لشبونة.

لكن انسحاب الأسود أخلى الساحة للثعالب. فمنذ عام ١٣٠٩ كان الفرسان الهسبتاليون المعروفون باسم فرسان القديس يوحنا قد أقاموا قاعدة لهم فى رودس ينطلقون منها لضرب السفن والمرافئ المسلمة. وفى ١٥٣٠ منح شارل الخامس جزيرة مالطا لهؤلاء الفرسان فأصبح اسمهم "فرسان مالطا" وتوسعوا فى الحرب ضد

دول الشمال الإفريقى التى كانت بحرياتها تعتبر المتوسط بحيرة مسلمة، واستمر الأمر كذلك حتى سطا نابليون على مالطا ونهب كنوز قراصنتها وأنهى وجودهم العسكرى.

وظلت سفن المغاربة من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب مسيطرة على المتوسط تفرض الجزية على كل سفينة أوروبية تجتازه أو تعمل بالتجارة فى موانئه، وفرضت بذلك ما يمكن أن نسميه سلاما مغاربيا على المتوسط استسلمت له أوروبا.

ويرجع الغضب المغاربى الذى حرك كثيرا من الهجمات على السفن الأمريكية إلى تباطؤ الولايات المتحدة فى توقيع اتفاقات سلام معها. فلما توصلت إلى اتفاق سلام مع مراكش لم تعد هذه الأخيرة مصدر خطر على بحريتها. لكن جيفرسون، وهو يتأهب لحربه ضد المسلمين فى تلك البقعة، يتجاهل هذه الحقيقة ويؤسس توقعه - الذى أثبتت الأيام صحته - بأن مراكش لن تحارب إلى جوار شقيقاتها على "النهج المعتدل والصحيح" الذى اتبعه القنصل الأمريكى جيمس سيمبسون وعلى "علو الهمة والنشاط" لدى الكومودور بريبل، متجاهلا جوهر الموقف التعاقدى الذى التزمته مراكش.

ونضيف إلى الاعتبار الذى أشرنا إليه لتونا، كسبب لامتناع مراكش عن محاربة أمريكا، وهو الالتزام المراكشى بمعاهدة السلام سببا أخطر، وهو أن البنية السياسية لمراكش (المملكة المغربية الآن) لم يصبها الضرر الذى لحق بجارتها الكبرى الجزائر، التى حولها أمير البحر العثمانى برباروسا، بانقلابه الشهير، إلى دولة لا تحتكم إلى النظام بل تحتكم إلى القوة، وأن الحكم فى مراكش كان لسلالة مستقرة وليس لعناصر غريبة ترتزق بالسيف كما جرى فى معظم الأقطار الإسلامية فى تلك الفترة.

لكن هذا لا يلغى أن تأجيل الولايات المتحدة للحظة اتخاذ قرار بالتفاوض مع دول المغرب العربى كان السبب الأساسى فى المواجهات العسكرية بينها وبينهم، وقد اكتسب هذا الأمر شكلا أكثر جدة مع طرابلس الغرب (الجماهيرية الليبية اليوم) لأن يوسف باشا قزامانلى لم يكن سعيدا بنظرة الولايات المتحدة إليه باعتباره أقل شأنا من داى الجزائر.

وعندما كانت الولايات المتحدة مجرد مستعمرات تابعة للتاج البريطانى كانت تحظى، كما بين آليسون فى "هلال وراء الغيوم" وأورين فى "القوة والعقيدة والوهم" بحماية الأسطول البريطانى. وعندما استقلت كان عليها أن تفعل أمرا من اثنين، إما أن تدفع الجزية لدول الشمال الإفريقى، كما كانت معظم دول أوروبا تفعل، أو أن تنشئ سلاحا بحريا قويا تحمى به سفنها التجارية كما فعلت بريطانيا وفرنسا.

لكن اعتبارات مهمة يناقشها كتاب "هلال وراء الغيوم" أجلت لحظة القرار، فيما كان عدد البحارة والمسافرين الأمريكيين الذين يقعون فى قبضة المغاربة يتزايد، والسفن التى يأسرونها تتوالى فى حين استمر الجدل فى أمريكا حول أفضل الطرق وأرخصها لمواجهة هذه المشكلة.

لكننا نحب أن نضيف إلى الأسباب التى ذكرها روبرت آليسون وناقشها بالتفصيل فى "هلال وراء الغيوم" سببا أهم جعل الولايات المتحدة تتمهل طويلا قبل الإقدام على عمل ما بشأن أسراها لدى دول الشمال الإفريقى.

لقد كانت الولايات المتحدة (وتوماس جيفرسون بالتحديد) تنظر إلى البحر المتوسط باعتباره منطقة تحتاج إلى سيد جديد، ولهذا السبب فقد كان جيفرسون يدرس تاريخ وسياسات الإمبراطورية العثمانية التى يريد أن يرثها، ليس كقوة استعمارية تنهب وتمضى لحال سبيلها، بل باعتبار بلاده صاحبة رسالة من شأنها أن "تضع نهاية لألف سنة من السياسة كنتيجة حتمية لطيبة القلب والتكامل العقلى واستقامة الطباع".

جاء هذا الكلام بعد ألف سنة من البعثة المحمدية وهو الأمر الذى يشير بوضوح - إلى أسباب عميقة وخطيرة جعلت هذا الاستعمارى الجديد يتمهل غير عابئ بعذابات الأسرى من مواطنيه فى المنافى البعيدة.

رجل فى قلب المأساة

هذه مأساة حقيقية. مئات من الرجال والنساء يقعون فى الأسر وحكومتهم تؤجل إنقاذهم حتى يتفق أقطاب النخبة على أفضل السبل للمواجهة. وفى قلب هذه المأساة التى امتدت من ١٧٦٦ إلى ١٨٠١ يقف توماس جيفرسون، الرجل الذى رفض إنشاء أسطول عندما كان ذلك غير مناسب لأجندته السياسية ووافق على إنشاء أسطول عندما أصبح ذلك ملائما له، من الناحية السياسية؛ الرجل الذى زعم أنه يرفض أن يدفع الجزية للملوك المسلمين "الطغاة" كما كانت تفعل أوروبا، ثم دفع كما دفعوا.

لا ينتقد مؤلف "هلال وراء الغيوم" جيفرسون وإن عرض آراء منتقديه. لكن مؤلف "القوة والعقيدة والوهم" ينتقده واصفا إياه بأنه كان:

على غرار بلاده - رافضا للسياسات الأوروبية، وإن كان متلهفا على التجارة وراء البحار، حريصا على السيادة القومية، وإن كان يميل إلى حماية امتيازات الولايات؛ ملتزما بحقوق الإنسان وإن ظل ينكر هذه الحقوق على السود وعلى سكان أمريكا الأصليين.

وهذه النقطة الأخيرة هى الأسوأ فى شخصية جيفرسون مالك العبيد الذى عاشر إحدى جواريه معاشرة الأزواج وأنجب منها ولدين، ولم يعتقها ولم يعتق ولديه منها.

لا يذكر مؤلف "هلال وراء الغيوم" هذه المسألة ولا يشير إليها من قريب أو من بعيد، رغم أنها متصلة بالرسالة المركزية لكتابه. فإذا كانت "القوة "الأمريكية هى الرسالة المركزية فى كتاب مايكل أورين، فتجاهل الأمريكيين لنظام العبودية فى بلادهم حتى ١٨٠٨ هو ما يركز عليه روبرت آليسون.

ويقارن آليسون بين أوضاع العبيد فى العالم الإسلامى وأوضاعهم فى الولايات المتحدة على نحو يظهر المسلمين أكثر رأفة وأكثر إنسانية وأكثر صدقًا مع أنفسهم ومع الرسالة الدينية للدين، أى دين.

ويخلص آليسون من هذا إلى أن الأمريكيين رأوا فى العالم الإسلامى ما أحبوا أن يروه وتجاهلوا أمورا كثيرة كان يمكن أن يتعلموها من المسلمين ليصبحوا أفضل وأرقى، بل وليصبحوا أقرب إلى الرسالة الأخلاقية لدينهم.

وفى نهاية الكتاب يسرد آليسون قصة البحار الأمريكى جيمس رايلى الذى وقع فى الأسر فى موريتانيا واشتراه عربى مراكشى رحيم اسمه سيدى حامد، أخذه إلى القنصل البريطانى فى طنجة فافتداه وعددا من مرافقيه، ثم عاد سيدى حامد ليبحث عن بقية رفاق رايلى ويعمل على تحريرهم.

وقد سجل رايلى قصته فى كتاب بيعت منه مليون نسخة فى القرن التاسع عشر، وترجم إلى عدة لغات، واعتبره إبراهام لينكولن واحدا من ستة كتب أثرت فيه وفى مسيرته السياسية، ومنها التوراة وحكايات أيسوب وسير العظماء.

لكن بعض التفاصيل التى أوردها كتاب رايلى، الذى تعرض لأهوال الغرق والتيه والأسر والمهانة والتعذيب والجنون تشير إلى أن وصفه لرحلته لم يكن وصفا ملتزما بالحقيقة الواقعية، بل خالطه كثير من الخيال.

ويلفت النظر فيما نقله آليسون عن هذا الكتاب أن رايلى رأى القنصل البريطانى فى منامه وعرف أنه سيدفع فديته قبل أن يلتقيه فى الواقع أو حتى يسمع عنه، وعندما قابله، عرف أنه هو المخلِّص الذى رآه فى المنام وأدرك أنه هو وسيدى حامد مبعوثان إليه من قوى خفية رحيمة هى - وحدها - التى تصنع قدره.

ولولا أن رايلى أسمى ابنه باسم ذلك القنصل وعاد إلى مقابلته ومقابلة إمبراطور مراكش، بعد أن تجاوز محنة الأسر واستأنف عمله كقبطان تجارى، لظن قارئ مثل كاتب هذه السطور أن القنصل شخص خيالى اخترعه رايلى، ولولا أن رايلى شجع بعض رفاقه على تسجيل وقائع تجربتهم المريرة فى الأسر وما انتهى إليه على أيدى سيدى حامد والقنصل لداخلنا الريب فى القصة كلها.

لكن ما يسرده آليسون من تفاصيل عن رايلى وسرديته الملحمية يعكس إحساسا عميقا عند الرجلين، عند آليسون ورايلى، بالتواضع الواجب أمام القوى الإلهية المدبرة لشؤون الكون و إحساس رايلى وآليسون ينبع من موروث دينى عمقته الكتب العظمى فى تاريخ الحضارة الغربية والتى يعود بعض روائعها إلى ما قبل عصر الديانات السماوية.

فالأهوال التى يجتازها رايلى مع رفاقه تذكر القارئ بالأهوال التى اجتازها البطل الأسطورى إينياس فى ملحمة الإينيادة التى كتبها فيرجيل، بخاصة عندما يبحر إينياس باتجاه الشمال لمدة تسعة أيام، تماما كما تتقاذف الأمواج رايلى ورفاقه تسعة أيام، وبعد معاناة فى البحر يصل إينياس ورفاقه إلى البر فى كوماى، فى غرب إيطاليا ، كما وصل رايلى والرفاق إلى البر فى غرب القارة الأفريقية.

وليس غريبا أن يتأثر سرد رايلى لرحلة عذابه بالإينيادة التى يجد القارئ فيها صورة لرحلة بنى إسرائيل باتجاه أرض الميعاد، كما يجد فيها تفاصيل أخرى توحى بأجواء رحلة نوح وذويه بعد الطوفان، بخاصة وأن العقل الأمريكى، فى كل مراحل تطوره، شديد التأثر بالموروثات الإغريقية والرومانية والعبرانية.

ورقم تسعة الذى يحدد عدد أيام العذاب التى عاناها البطل أينياس ورفاقه فى إينيادة فيرجيل يذكرنا، فى الوقت ذاته، بأن الأنشودة التاسعة فى "الأنشودة المقدسة" أو "الكوميديا الإلهية" (ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، الجزء الأول" الجحيم"، ص ١٧٣-١٨٢) هى "أنشودة رسول السماء الذى هبط لكى يفتح أبواب الأمل أمام القلوب اليائسة.

لكن الشخصية المضيئة فى "سردية" رايلى ليست رسول السماء بل إنسان آمن برسول السماء محمد بن عبد الله وانفتح قلبه لعذابات رايلى الذى لم يهتم بأن يسأله

إلا عن موطنه وعن أسرته وعن النبى محمد. وعندما علم أن رايلى ترك وراءه زوجة وأطفالا بكى. وعندما قال له رايلى إن كل ما يعرفه عن النبى هو أنه ولد فى مكة وأنه الآن فى الفردوس اعتبر ذلك كافيا لأن يأخذ بيده على طريق الخلاص من الأسر.

ومثل سيدى حامد فى "سردية" رايلى كانت شخصيات روائية كثيرة نطقت بما يراه المؤلف الحق المبين، مثل تلك الكلمات التى نطق بها شيخ حاور الطبيب أبدايك أندرهيل فى رواية "أسير الجزايرلية" التى ألفها رويول تيلر. يقول الشيخ إن المسلمين "لم يجبروا أحدا حتى اليوم على اعتناق ديانتهم" وإن من يتحول إلى الإسلام، مختارا، يعتبرونه أخًا لهم، لأن أرواح المؤمنين ترتبط كلها فى رباط عطر من المحبة الأزلية. إننا نترك للمسيحيين فى جزر الهند الغربية، ومسيحيى مزارعكم الجنوبية أن يعدُّوا الأفارقة التعساء ليدخلوهم عقيدتكم ثم يستخدموا إخوانهم فى المسيحية هؤلاء كما تستخدم البهائم.

وقد تعلم بطل هذه الرواية الدكتور أبرايك أندرهيل درسا عظيما عندما وقع فى الأسر بأيدى الجزائريين، بعد أن كان طبيبا على سفينة محملة بالعبيد الأفارقة الذين اشتراهم الأمريكيون ليشغلوهم فى مزارع الجنوب. ولكن البحارة الجزائريين الذين استولوا على السفينة الأمريكية أخذوا واحدا من الأفارقة السود ليصبح بحارا مثلهم فى حين حبسوا الطبيب الأمريكى الأبيض فى جوف السفينة. وراح البحار الأسود يطعم الطبيب الأبيض السجين ويحسن إليه، رغم أن ذلك الأبيض كان سجانه وآسره، قبل أن يحرره الجزائريون. وهذه التجربة أعدت الطبيب نفسيا لتفهم ما قاله له الشيخ المسلم.

ويعلق آليسون على الحوار الذى دار بين الطبيب الأمريكى والشيخ المسلم بأن المؤلف رويول تيلر أقدم على أمر لم يعتده الأمريكيون عندما سمح لمن يناصر الدين الإسلامى ويدعو إليه بأن يلقن الأمريكيين درسا حول الواجب الأخلاقى. ورغم أن الأمريكيين كانوا يعتقدون أن الإسلام عقيدة زائفة وأن نبوة رسولنا الكريم مكذوبة، فقد صاغ رويول تيلر روايته بما فيها من وقائع ومحاورات على نحو تجاوز التعصب السائد فى عصره.

وقد عرض المؤلف وجهات نظر من يرون محمدا وعقيدته على نحو صحيح، أولئك الذين يدركون أن الرسالة المحمدية هى نور هاد للبشرية، ووجهات نظر من يكفرون بها ويرمونها بما ليس فيها ، بحياد بالغ، رغم أنه يميل وهو المسيحى المخلص والوطنى المحب لبلاده إلى الاعتراف بعظمة محمد وبعمق إنسانيته وبالمغزى الأخلاقى والحضارى لرسالته. ولهذا فقد حرص على أن يستخدم لفظ "ما هو ميت "عند نقل آراء من يسعون للنيل من النبى واستخدام اسم محمد (بورك الاسم ومن حمله) عند نقل آراء أقرب إلى الحكمة والعدل، حتى ينصرف كيد الكائدين إلى "ما هو ميت "باعتباره شخصية ابتدعها العقل الغربى فى القرون الوسطى، ولا علاقة لها بالرسالة والرسول. ولأن المؤلف لم يشر إلى موقفه هذا إلا فى هوامش الكتاب فقد أوردنا نحن الإشارة إلى ذلك، بين قوسين، فى صلب المتن.

وكما نطق الشيخ فى رواية تيلر بما يعتبر روبرت آليسون أنه الحق ينقل آليسون عن مؤلف رواية "الإنسانية فى الجزائر" قوله "لأننا تعلمنا وتعودنا منذ الطفولة على أن نعتبر ديانتنا نحن العلامة الوحيدة على الحضارة، يصعب علينا أن نتصور أنه من الممكن أن يكون لدى واحد من أتباع ما هو ميت قلب يشعر، أو أن يكون قادرا على عمل الخير".

المحقق الماكر

ولم يكن مؤلف "هلال وراء الغيوم" روبرت آليسون موافقا على كل ما أوحى به الروائيون وكتاب المسرحيات وكتاب السير والرحالة من أفكار ورؤى لصالح المسلمين وحضارتهم، ففى عرضه لما كتبته الليدى مونتا غيو عن النساء المسلمات يرفض ما تقوله من أن الحجاب (والأرجح أنه يقصد النقاب) يعطى المراة خصوصية لا تتمتع بها الأوروبية السافرة، كما يميل إلى تكذيبها عندما تقول إنها رأت المسلمات عرايا فى حمام النساء، فى سياق سردها لزيارة لحمام عام صورت فيها المسلمات تصويراً نبيلاً.

وفى الوقت ذاته فقد عرض، أيضا، كل ما كتب ضد الإسلام والمسلمين دون أن يخلص النصوص المعروضة من ضراوة الغضب وشراسة الكراهية. لكنه ظل يقلب فى النصوص الرسمية والأدبية بحياد المحقق الماكر الذى يراكم الدليل الدامغ الذى يستند إليه فى قرار يؤمن بأنه العدل كله، مؤهلا النطق به حتى اللحظة التى تكتمل فيها الصورة.

ورغم أن المؤلف يعطى الوثائق والمستندات الرسمية حقها من الاهتمام الوافى فتركيزه ينصب على الأعمال الأدبية والفنية عامة، والروائية بشكل خاص، فلماذا كل هذا الاهتمام بالخيال ؟

ربما لم تعرف الإنسانية مثالا كاشفا لقوة الخيال الإنسانى باعتباره صانعًا للمعنى وباعتباره قوة فى وجه الموت – ذروة اللامعنى – يضاهى مثال شهرزاد، التى ظلت تروى كل ليلة قصة لملك سفاح صنعت له حكاياتها عالما كان أجمل من أن يهدمه بقتلها، فأنقذت بذلك نفسها وأنقذت ألف امرأة أخرى، وحولت القاتل المسكون بالشك والخوف والغضب إلى إنسان ملىء بالرجاء فى الغد، وإلى زوج وأب وملك عادل.

نحن نصنع بالخيال الأدبى والفنى العالم على النحو الذى نريده، ولهذا فقد كان من الضرورى أن يتفحص آليسون الروايات والمسرحيات والقصائد التى صاغ بها الأمريكيون العالم الشرقى وأعادوا إنتاج تجربتهم مع الآخر المسلم، كما تفحَّص المستندات والوثائق التى سجلت مصادر الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد الجمهورية الأمريكية الشابة، و كان ذلك الخطر أوروبيا خالصا؛ بريطانيا فى المقام الأول وفرنسيا فى المقام الثانى.

فكثير من حكومات ذلك الزمان، وبخاصة بريطانيا وفرنسا، كانت تبسط حمايتها على القراصنة وتقاسمهم الغنائم التى ينهبونها فى البحر، تاركة لهم كل ما ينهبونه على البر. أما البحر المتوسط فكما أوضحنا من قبل، لم تكن القوى الأوروبية مسيطرة عليه، وكانت الغريزة الإمبراطورية لدى الولايات المتحدة توجهها إليه لتملأ ما اعتبرته فراغا يمكن أن تنطلق منه لغايات أكبر.

ويشير المؤلف آليسون، إشارة خاطفة، إلى أن جيفرسون الذى كان يشارك معاصريه من الأمريكيين، وربما يفوقهم، فى التشدق بعبارات الترفع عن السياسات الأوروبية الاستبدادية والفاسدة، كان حريصا على أن لا يكرر الخطأ المأساوى الجسيم الذى وقع فيه العثمانيون ففاتهم ركب الحضارة، فقد عزل العثمانيون أنفسهم عن أوروبا أكثر مما يجب، ولم يكن جيفرسون يريد أن تتحول رغبة أمريكا فى تجنب ويلات الحروب الأوروبية عزلة تشبه العزلة التى ظنتها إسطنبول سدا بوجه التحولات العصرية، الروحية والمادية، التى حققتها لأوروبا ثورات الإصلاح الدينى والعقل والتنوير والتطور الرأسمالى، فانتهت الإمبراطورية العثمانية زبونا تعيسا عند كل المصارف الأوروبية.

رفض جيفرسون سياسات أوروبا وحرص على أن لا ينعزل عنها. ولم ير فى البحر المتوسط إلا ساحة للنمو التجارى والسياسى. وعندما شن الحرب على طرابلس الغرب ثم عقد معاهدة السلم معها لم يكن الهدف الأول هو إطلاق الأسرى الأمريكيين كما توحى بذلك قائمة الأولويات المعلنة على الشعب الأمريكى، بل كان الهدف الأول هو بناء جمهورية إمبراطورية على الطراز الرومانى، حدت لنفسها دورا فى المنطقة العربية أعلنت أجندته صراحة فى ١٩١٩، لأول مرة وليس لآخر مرة.

لكن ارتباكات جيفرسون العسكرية والسياسية أمام داهية طرابلس الغرب أجبرته على أن يدفع هو ورجاله الجزية. ولأن الأخبار كانت تأخذ، بحسابات آليسون، ستة أسابيع لتصل من ساحل المغرب العربى إلى أمريكا فقد كانت المدة كافية لتلفيق وإطلاق قصص "القوة" المكذوبة.

ومنذ بداية وقوع أسرى أمريكيين فى أيدى المغاربيين فى ١٧٧٦ وحتى توقيع المعاهدة بين إدارة جيفرسون وحكومة يوسف باشا قرامنلى انشغلت أمريكا، بالجدل بين الذين يضعون مصالح التجارة فوق أوهام الإمبراطورية وبين الذين يسعون لتأسيس إطار إمبراطورى للمصالح التجارية، عن رؤية تجربتها مع العالم المسلم فى ضوء هلاله المبارك.

وقد حاول مؤلف الكتاب تبديد غيوم التعصب والغضب والطمع والاستكبار التى حجبت الهلال الإسلامى عن البصيرة الأمريكية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لكن المؤرخ الذى يرى حقائق القرون الخالية بكل هذا الوضوح يبدو متعصبا وعاجزا عن رؤية الحقيقة المعاصرة، وهو يتحدث عن الثورة الإيرانية فى أواخر القرن العشرين.

لغز الثورة الإيرانية

لقد فوجئ بالانعطاف إلى الدين فى الثورة الإيرانية وظن أن لذلك تفسيرًا وحيدًا هو أن العقيدة الدينية كانت كل ما تبقى لدى الإيرانيين بعد أن حرمهم نظام الشاه من كل طيبات العيش ومن كل أمل فى الحياة، فرفضوا عصرهم والحضارة الغربية المهيمنة عليه ورفضوا "الحرية والتقدم" وهما روح كل ثورة ومشعلها الأعظم.

صحيح أن نظام الشاه جرد غالبية الشعب الإيرانى من أشياء كثيرة، ولم يجردهم من إسلامهم لكنه عجز أيضا عن أن يجردهم من حبهم للحياة والحرية والتقدم. ورغم قوة الإسلاميين الإيرانيين والتأثير الكاريزمى الطاغى لآية الله خومينى فقد كان حزب توده الشيوعى والليبراليون عناصر أساسية فى المشهد الافتتاحى للثورة، فكيف جرى ما جرى؟

هذا سؤال يتعين أن يبحث علماء السياسة والمؤرخون بحثا متأنيا ورصينا عن جواب له، أما أن يدير الكاتب ظهره للثورة الإيرانية ثم يقول (بشوفينية أظهرها فى مقدمة كتابه، وظل يحاربها بكل بسالة طوال الفصول التسعة التالية): عدت إلى دراسة ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير، فهذا قول يحسب عليه، بخاصة وأنه يتحدث بعد ذلك عن شبح التمرد الإيرانى ضد التقدم والحرية.

وموقف الكتاب العبر من الثورة الإيرانية مهم لأن أزمة الرهائن الأمريكيين فى دول شمال إفريقيا المسلمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هى التى ساعدت

على تكريس المغزى الذى ركز عليه الخطاب السياسى والإعلامى الأمريكى فى أزمة رهائن السفارة الأمريكية فى طهران فى القرن العشرين.

لم تستفزنى فى هذا الكتاب عبارة أكثر من "ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير" ففى هذه العبارة يتورط آليسون فيما تورط فيه من انتقد أداءهم من الغربيين الذين عاصروا الصراع بين أمريكا ومسلمى الشمال الإفريقى وأساؤوا فهمه، لأنها عبارة تشير إلى أنه مثلهم يعتبر أن الشرقى هو ذلك الكائن غير العقلانى الذى لا يمكن لأحد توقع تصرفاته، لأنه لا يتصرف وفق قواعد يمكن استنباطها أو لتحقيق مصالح وغايات يمكن رصدها، فهو كائن شاعرى همجى غامض هائج وغاضب لغير ما سبب، وراض مستسلم لغير ما سبب.

وهذا غير صحيح. وغير صحيح أن الشعب الإيرانى ثار ضد التقدم والحرية. وجزء من عجز آليسون عن الفهم يعود إلى أنه نظر إلى أحدث فصول الثورة الإيرانية، ذلك الذى بدأ فى ١٩٧٨ باعتباره بداية ونهاية.

يرى سايروس غانى Cyrus Ghani فى كتابه المهم "إيران وصعود رضا شاه" أن الثورة الإيرانية من أجل الدستور والاستقلال بدأت فى ١٩٠٦، وإن كان وعى إيران القومى الحديث ولد فى ١٩١٩، بعد الاتفاق بين لندن وطهران، فى ذلك التاريخ، وأن صعود رضا شاه كان من النتائج المباشرة لاتفاق ١٩١٩، بكل عيوبه وميزاته.

ويرى غانى أن رضا شاه نجح فى الفترة بين ١٩٢٦ و ١٩٤١ فى التقدم باتجاه التحديث و "الحد من سلطة الملالى" إلى درجة كان يمكن أن تنهض بإيران لولا عيوب فى شخصية رضا شاه ولولا - وهذا هو الأهم - قرار بريطانيا وروسيا غزو إيران فى ١٩٤١.

ومن جهة أخرى فإن فخر الدين عازمى فى "السعى من أجل الديمقراطية فى إيران" يقول إن "ما يبدو أنه توجه مخلص رغم أنه، فى النهاية، نفاق يزعم الدعوة إلى

الديمقراطية – وأحدث صوره تجدها بشكل خاص عند المحافظين الجدد فى أمريكا – هو أمر مؤذ" ويحط من شأن بلدان مثل إيران التى سعت منذ عشرات السنين إلى القيم والممارسات الديمقراطية، و بذلت الجهود المخلصة لتحقيقها قبل أن يحدث ما نراه الآن من استيلاء على "الديمقراطية" لأغراض البروباغندا.

وإذا كان غانى يرى أن البريطانيين والروس أحبطوا جهود رضا شاه التحديثية وحالوا دون الحد من خطر الملالى. وإذا كان عازمى يرى أن الثورة الديمقراطية فى إيران تم حرفها عن مثارها بفعل فاعل، فالمعاصر لأحداث الثورة فى بداياتها يرى الشيوعيين والليبراليين يقومون بأدوار مهمة فى إطلاق الثورة من عقالها، ثم يرى إقصاءهم عنها واستيلاء القوة الأكثر تنظيما على الثورة، كما حدث فى روسيا فى ١٩١٧ عندما سرق البلاشفة الثورة الديمقراطية.

ويشير خوان كول فى كتابه المهم عن "الكولونيالية والثورة فى الشرق الأوسط"، الذى زين غلافه بصورة عرابى باشا وجنوده، إلى الأسلوب الذى اختطف به الملالى ثورة إيران ضد الشاه وحولوها إلى ثورة إسلامية بالاعتماد على أسلوب تعبئة الموارد – الذى اتبعته الثورة العرابية فى مصر فى القرن التاسع عشر – باستخدام" شبكات الحشد والتجنيد والقواعد الاجتماعية والديمغرافية والبنى المجتمعية التحتية وجمع التبرعات وتنمية المهارات التنظيمية والتكامل والسيطرة والقدرة على التكيف" وأخيرا وآخرا، أى فى المقام الأخير فعلا وقولا، تأتى الأيديولوجية.

هذه أحدث تقنيات العمل من أجل التحول الاجتماعى تم تكريسها لاختطاف الثورة ثم الانحراف بها بعيدا عن الحرية والتقدم، وهذا جزء من انقلاب عالمى مطول ومتتابع الأجزاء على قيم التنوير **ENLIGHTENMENT** وثمار عصر العقل **AGE of REASON**، وقد بدأ هذا الجزء مع وصول جيمى كارتر إلى سدة الرئاسة فى الولايات المتحدة؛ جيمى كارتر الذى وصف الخمينى بأنه "رجل مقدس" والذى كان بين أهم مستشاريه من اعتبر الخمينى صورة جديدة من غاندى.

ورغم أن ما قاله الكاتب عن الثورة الإيرانية هو مجرد هامش فى مفتتح الكتاب فإن مغزاه يظل يلاحق القارئ حتى آخر صفحة من صفحاته، وكان المتوقع أن يعود الكاتب فى نهاية كتابه ليقارن بين أزمة الرهائن فى السفارة الأمريكية فى طهران عشية الثورة الإيرانية والأزمة المطولة للرهائن الأمريكيين فى دول الشمال الإفريقى، قبل قرنين من الزمان.

لم يفعل المؤلف ذلك وترك لنا هذه المهمة، لينصرف هو إلى مهمة أخطر وهى تبيان المحاولة الأمريكية لحجب نور الهلال طوال قرنين من الزمان. وقد نجح المؤلف فى الدفاع عن التسامح والإخاء والنور، نجاحا يثير علامتين: علامة استفهام وعلامة تعجب إزاء موقفه الغريب من ثقافة تعلم احترامها، كما قال هو، منذ نعومة أظافره.

هذا الموقف الغريب يعنى أن المؤلف روبرت آليسون يقدِّم فى كتابه "هلال وراء الغيوم" مبررات النظر إلى قسم كبير من الشرق المسلم، يضم دول المغرب العربى الأربع، بشكل أفضل مما نظر به أسلافه إليه، وبشكل أفضل مما يرسمه صهيونى معاصر مثل مايكل أورين له، وليس هدف آليسون من ذلك هو بناء الجسور بين الشرق والغرب بقدر ما هو وضع أساس أفضل للتعامل مع الآخر والتعلم منه لكى نصبح (نحن الأمريكيين) أفضل وأكثر إنسانية.

لكنه يبقى على المسافة بينه وبين ذلك الآخر كأساس لـ "نظرة تقسم العالم إلى أقسام أو كيانات كبيرة" حسب تعبير إدوارد سعيد، متوهما أن درجة من التقدير الأعلى للآخر كفيلة، مع الحفاظ على ذلك التقسيم، بأن تجنب البشرية العيش "فى جو من التوتر الذى يُعتقد أنه وليد اختلاف جذرى".

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نتساءل كما تساءل إدوارد سعيد فى كتابه "الاستشراق" (ترجمة محمد عنانى – الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٠٤):

"هل يستطيع المرء تقسيم واقع الإنسانية... إلى ثقافات وتواريخ وتقاليد ومجتمعات بل وأجناس تختلف اختلافا بينا ثم ينجو من العواقب بصورة إنسانية ؟ وبالنجاة من العواقب بصورة إنسانية أقصد أن أسأل إن كان لدينا سبيل لتجنب العداء الذي يعبر عنه التقسيم، وليكن تقسيم الناس إلى فريقنا "نحن" (الغربيين) وفريقهم "هم" (الشرقيين). فالواقع أن أمثال هذه التقسيمات كان القصد من استعمالها تاريخيا وفعليا تأكيد أهمية التمييز بين بعض الناس وبعضهم الآخر لغايات لم تكن تدعو في العادة إلى الإعجاب بصورة خاصة. وعندما يلجأ المرء إلى استخدام التقسيم إلى فئات مثل الشرقي والغربي باعتباره نقطة الانطلاق والغاية من التحليل والبحث ووضع السياسات العامة ؛ فالنتيجة عادة ما تكون استقطاب التمييز - أي زيادة "شرقية" الشرقي و "غربية" الغربي - والحد من التلاقي الإنساني بين الثقافات والتقاليد والمجتمعات المختلفة.

لهذا السبب فإن كتاب "هلال وراء الغيوم" يبقى مهما، للقارئ الأمريكي، لأنه يمنحه فهما أفضل لماضيه ولعلاقة بلاده ببلدان الشرق المسلم، وللقارئ العربي، لأنه يمنحه فهما أفضل لفصل من فصول علاقتنا مع الغرب وفصل من فصول تطور الفكر الغربي في نظرته إلينا؛ ويبقى مهما، بشكل عام، باعتباره خطوة باتجاه الخروج من مائتي عام من العتمة، وفي الطريق إلى نور التفاهم والمحبة الإنسانية.

أسامة الغزولي

القاهرة - فبراير ٢٠١٠

إلـى فيـليـس



هذه النسخة من كليشيه شهير، طبع لأول مرة قبل الحرب الأهلية، تظهر بطلين أمريكيين وعدوين مسلمين. علم ستيفن ديكاتر، عقب المعركة البحرية الشرسة فى ٣ أغسطس ١٨٠٤، بأن أخاه جيمس قتله ضابط تركى (**TURKISH** تعنى هذه الكلمة هنا مسلمًا أيا كان جنسه أو موطنه - المترجم) بعد استسلامه. وتتبع ديكاتر قاتل أخيه، الذى يظهر هنا وقد صوب ديكاتر مسدسه إلى عنقه. وكاد ديكاتر نفسه أن يلقى مصرعه على يد بحار من طرابلس الغرب يظهر فى الصورة رافعًا سيفه. لكن البحار الأمريكى دانييل فريزر، الذى يعرف أيضًا باسم روبن جيمس، ألقى بنفسه بين السيف التركى وقبطانه. وهذا الرسم المحفور يشير إلى العدو الطرابلسى بلقب "الجزايرلى"، خالطًا بذلك بين أعداء أمريكا من المسلمين فى ١٨٠٤ وأعدائها منهم فى ١٧٩٣.

تنـــويه

ساعد كثيرون على إتمام هذا المشروع. أولاً، كان شيلدون ماير، من مطبعة جامعة أكسفورد، مصدر تشجيع لى منذ المراحل المبكرة. وقامت هيلين غرينسبيرغ بعمل رائع كمحررة، وأشكرها على صبرها.

وقد ساهم الأساتذة والطلاب فى برنامج هارفارد لتاريخ الحضارة الأمريكية، كلهم تقريبا، فى هذا المشروع. ويستحق ستيفان ثيرنستون أن أخصه بالشكر على تلطفه وكرمه، وكان ويرنر سولرز ناصحاً أميناً منذ التحقت بدروسه فى المدرسة الملحقة بهارفارد، وقدم درو ماكوى، وهو الآن فى جامعة كلارك، لطلابه مثالا ما زلنا نسعى إلى احتذائه، وقرأ آلان هايمرت مسودة أولى لهذه المخطوطة وقدم التشجيع والنقد، وكانت المشاعر الطيبة والحس السليم لدى وارنر بيرثوف مصدر إلهام.

وكان بيرنادر بايلن مستشاراً لى منذ بداية هذا المشروع. وقد تعلمت من نسخة مستعملة من "الأصول الأيديولوجية للثورة الأمريكية" أن الأفكار مهمة، وأن ما يعتقده الناس هو أمر ذو خطر، فقررت أن أتم دراستى بالكلية. ويوم اشتريت ذلك الكتاب، أصبحت دارساً للتاريخ، وبعده بعشر سنوات أتوجه بالشكر للبروفيسور بايلن لأنه ساعدنى على أن أصبح مؤرخاً. ولا يمكن أن أوفيه حقه من الشكر على صبره ولطفه. فأسئلته وتعليقاته لم تحسن هذا العمل فحسب، بل وجعلتنى أعمق فكراً، ككاتب وكمدرس.

وقد ساعد الزملاء الدارسون فى هارفارد، وهم الآن علماء ومعلمون لهم مكانتهم، هذا المشروع مساعدة غير محدودة. وأتوجه بشكر خاص إلى بلوين بوريسيوس

وريتشارد بنيت وسينثيا بلير وستيف هولمز ودان بى ميللر ودانييل تيريس وآندرو وولش ورويرت جونستون وجيفرى بازلى وغريشين كونيغ وبنجامين شميث ومارتا بيرنز ومارك بيترسون وبين شوان هوانغ وروزمارى كروكيت وهيثر ريتشاردسون وتيد ويدمر على كل مساهمة قدمها كل واحد منهم. ويستحق اثنان آخران شكرا خاصا فريد دانزيل الذى كان حماسه لهذا المشروع يفوق حماسى، فى أغلب الأحيان، وتوماس جى براون الذى أشركنى فى رؤاه حول مشاكل الكتابة.

وقد ساعدت روث ديترو وكريستين ماكفادين وسوزان هونر ومارشا دامبرى ولورا جونسون وشارون لنزى على جعل السنوات التى قضيتها فى هارفارد وسافوك ممتعة وساعدت مهاراتهن المهنية أيضًا على جعل هذه السنوات مثمرة لى ومجزية لطلابى. وساهم كريستوفر ماريون وإليزابيث موللن من مكتب المساعدة المالية فى هارفارد فى مساعدتى على إتمام دراستى الجامعية، وأنا مدين بشكر خاص إلى صندوق هيربرت ليمان فى هارفارد على سنة قضيتها باحثًا، وقد ساهم طلابى فى المدرسة الملحقة بهارفارد فى هذا العمل مساهمة يصعب أن يتصوروها.

وأشكر الشخص الذى عين لويس بى مازر فى المكتب المجاور لمكتبى، فوجود لومازر فى المكتب المجاور كان نعمة من نعم هذه الدنيا بالمعنيين المجازى والحرفى. وأشكر ويلفرد رولمان لأنه أشركنى فى معارفه حول شمال إفريقيا وعلى حماسه للتقاطع بين التاريخ الأمريكى والتاريخ والمسلم. وقدم دنيس سيكوتيس أفكارًا بطريقته الفريدة. وقام توماس جى سلوتر بقراءة متعاطفة وإن كانت نقدية لنسخة مبكرة، وهذه النسخة تحسنت كثيراً بفضل تعليقاته. وقد حسن نقد فريد آندرسون، أيضًا، المنتج النهائى.

وقدمت العديد من المكتبات موارده لجعل هذا المشروع ممكنًا. فمكتبة هنرى إى هنتغتون يلذ للمرء أن يعمل فيها، ولحسن الحظ فقد كنت زميلاً فى برنامج روبرت ميدلكوف. وأشكر مارى رايت وسوزان نولتى وكذلك الأساتذة الذين تجمعوا فى أثناء إقامتى القصيرة والمهمة: مارتن ريدج وبول إم زال، وكلوديا بوشمان ووليم بنكاك

ويروكس سيمبسون، وبالطبع، هوارد شور. وأشكر أيضًا الجمعية الأثرية الأمريكية ومكتبة بوسطن العامة ومجمع بوسطن وكاتارينا سلوتريباك من غرفة الطباعة، بشكل خاص، ومعهد إيسيكس فى ساليم، ومكتبة نيويورك العامة وهيئات شبكة مكتبات هارفارد، بخاصة مكتبة هوتون، ومجموعة مسرح هارفارد وغرفة وثائق الحكومة.

وقد كان والدا زوجتى فيليب وإيفلين غوديانو كريمين بشكل خاص، ربما لأنهما كانا يأملان أن لا أطيل فى الحديث عن التاريخ الأمريكى معهما. ويملك مايكل غوديانو الكراج الوحيد، على حد علمى، الذى فيه صورة جيمس ماديسون. وقد أبقى هو وابنه مايكل على سيارتنا فى الشارع، وجعلانى أدرك، فى أكثر من مناسبة أن لا أحد يقول "حمداً لله على أن قريب زوجتى مؤرخ" كما أشكر جوزيف ومارغريت غوديانو وأطفالهما آليسون وفيليب وجوزيف الذين قد تكون لديهم هم أيضًا تصور عن الأعمام المؤرخين. وأشكرهم على محاولاتهم الدؤوبة للبقاء هادئين عندما كنت أعمل على هذه الدراسة، وأعتز باللحظات التى فشلوا فيها فى المحافظة على هدوئهم.

وأمى مسؤولة عن اتصالى بالعالم المسلم وقد أظهرت بعد نظر بالغًا عندما دارت بى فى "مشهد" و"شيراز" وأنا فى سن حساسة. وقد قرأ أبى نسخة مبكرة من الكتاب وعلق عليها بشكل كامل، وكان يمكن لهذه النسخة أن تكون أفضل كثيراً لو أنى اتبعت مشورته. وقد كان ماثيو غولبريث وسوزان غولبريث مصدراً لا ينضب للتشجيع وآويانى فى أثناء رحلاتى البحثية إلى نيويورك. وعمل فرانك وسوزان جونسون على أن يكون ستاد شيا على جدولى البحثى. ومكنتنى جين دايفيس من إتمام الدراسة بالكلية. وأكثر من ذلك فقد جعلتنى أتصور أنى قادر على ذلك من دون مساعدتها.

وقد ساعد الأصدقاء بدورهم. أوجه شكرا خاصا إلى كارين ليتون وموررين كونوللى وابنها مايكل، وإلى مارى فرانسيس دايفيس وكيث ومارغريت بيرغمان. وربما كان دوغ شيدل يتمنى لو أنى قلت المزيد عن الدراجات رغم أنه، حتى الآن، لا يذكر جيفرسون فى كتبه.

وأخيراً، فعندما آتى إلى الشكر الموجه إلى فيليس، فإنى أدرك كم أنى غير مؤثر ككاتب. فمساهماتها تتجاوز قدرتى على الكتابة، إلى حد بعيد. فهى لا تكف عن خلق لحظات من السعادة الغامرة التى تومض فى الذاكرة، رغم انشغالاتى المهنية التى تجعل تلك اللحظات خاطفة. وقد ناضل البروفيسور بايلن والزملاء المشار إليهم آنفًا ليجعلوا منى مؤرخًا أفضل، أما هى فتعين عليها أداء المهمة الأصعب لتجعل منى شخصاً أفضل. وقد ناضلت هى الأخرى لتبقى على هذا الكتاب فى منظوره الصحيح. وقد ساعدها جون روبرت الذى جاء فى المراحل الأولى من البحث وفيليب الذى انضم إلينا فى أثناء الكتابة على النجاح فى مهمتها. وإليها أهدى الكتاب، وإليهم جميعًا أهدى حياتى.

مقدمة المؤلف

كنت أقضى عطلة فى إيران فى ١٩٧٨ عندما انفجرت الثورة. فاجأت الثورة الإيرانية أمريكيين كثيرين. وباعتبارى من المعجبين بتوماس باين، فقد كنت أتوقعها. كان زعماء إيران يتمتعون بمنافع التحديث السريع ومظاهر البذخ الغربى، فيما كانت غالبية الشعب الإيرانى تعيش فى الفقر. فصلت الهوة بين الأغنياء والفقراء كما هو الحال فى معظم بلدان العالم، لكنها كانت تفصل أيضًا بين الحضريين والكوزموبوليتانيين من الإيرانيين وبين أولئك الذين لم يكن لديهم إلا عقيدتهم الدينية يقيمون بها حياتهم اليائسة.

ورغم أن باين وغيره ممن كتبوا عن الثورة أعدونى للحدث الضخم، فإنى لم أتوقع المنحى الدينى الذى اتخذته ثورة إيران. لقد تطلع معظم الثوريين فى القرنين الأخيرين إلى التقدم والحرية، لكن الشعب الإيرانى رفض هذين المبدئين المركزيين فى العقيدة الغربية. وبالحقيقة فقد كانت الثورة الإيرانية رفضًا للنظام الاجتماعى الغربى الذى آمن به محمد رضا بهلوى أكثر مما كانت إدانة له ولأسرته الفاسدة المستبدة. فالشعب الإيرانى لم يثر ضد حكامه الخائبين بل ضد حكامنا نحن. وقد تحول غضب الثورة الإيرانية بكامله، مع مرور الوقت، باتجاه الولايات المتحدة، وفى ١٩٧٩ استولى الإيرانيون على السفارة الأمريكية فى طهران وأخذوا اثنين وخمسين أمريكيا كرهائن. انفجرت إيران بعد سنوات القمع والتفاوت الفاضح، وبعد ذلك انفجرت الولايات المتحدة غضبًا على هذا الهجوم على سفارتها. وفى المدن الأمريكية كان الطلاب الإيرانيون يُضرَبون بأيدى الدهماء الغاضبين، وبث الإذاعات أغنيات مثل "اقصفوا إيران"، وراحت نشرات الأخبار المسائية تذكرنا بعدد الأيام التى عاشها اثنان وخمسون

أمريكيا محرومين من الحرية، واعتبر الرئيس جيمى كارتر، الذى حاول إنهاء الأزمة بالتفاوض، ضعيفًا وأخرجه الناخبون من منصبه.

وإذ أقلقتنى هذه الأحداث التى تسببت بها فى أمريكا ثورة لم يفهمها إلا قلة من الأمريكيين، عدت إلى دراسة ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير، والمرحلة المبكرة من التاريخ الوطنى الأمريكى. لكن بقى شبح الثورة الإيرانية على التقدم والحرية، رافضًا أن ينصرف. وكما يحدث عندما يحوِّل جنى من ألف ليلة وليلة ما هو مألوف إلى شىء غريب، ظهرت صور العالم المسلم فى كل مكان بحثت فيه فى التاريخ المبكر للجمهورية الأمريكية. ويعرف كل أمريكى، تقريبًا، أن الولايات المتحدة حاربت "قراصنة البربر" فى مطالع القرن التاسع عشر، وهى حرب يخلدها نشيد فيالق مشاة البحرية. كان هذا مدى معرفتى الخاصة بهذه المواجهة بين أمريكا والعالم المسلم.

لكن هذه الحرب لم تكن ظاهرة منعزلة، لم تكن مواجهة بالمصادفة. فقد بدأت المواجهة بين أمريكا والعالم المسلم، بالفعل، قبل أن توجد الولايات المتحدة، وربما قبل أن يدرك الأوروبيون أن أمريكا موجودة. فعندما هزمت الملكتان المسيحيتان فى قشتاله وآرغون مملكة غرناطة المسلمة فى ١٤٩٢ كان لدى صاحبى الجلالة المسيحيين للغاية إيزابيلا وفرديناند فائض من المال للإنفاق على رحلة كولومبوس إلى الشرق. ولكن مهما كانت الأهمية التى ترتبت على هذه الرحلة بالنسبة لتاريخنا فإن فرديناند وإيزابيلا كانا يأملان أن العثور على طريق جديدة إلى الهند يمكن أن يؤمن لهما مصدر دخل جديد لتمويل حربهما المقدسة ضد المسلمين الذين أجبروهم على التراجع إلى مراكش والجزائر. وقد كان اهتمام الأوروبيين فى القرن السادس عشر بطرد الأتراك من المتوسط ومن شرق أوروبا أكبر من اهتمامهم باستعمار الأمريكتين. وقبل أن يوجه جون سميث (JOHN SMITH يمكن أن تعنى الأمة الإنكليزية، وأول من يشار إليه بهذا الاسم، باعتباره رمزًا للإنكليز، هو "كابتن جون سميث" الذى ألف تشارلز دادلى وارنر كتابًا عن مغامراته يحمل هذا العنوان. والإشارات التالية تحيل إلى وقائع موجودة فى الكتاب الذى يمجد رواد الاستعمار الإنكليزى تمجيداً مبتذلا - المترجم)

عنايته إلى أمريكا، فقد كان يحارب الترك فى أوروبا الشرقية وقد أسره باشا نالبريتس (الصحيح أنه اشتراه ممن أسروه فى سوق الرقيق – المترجم) ولم تتقدم بوكاهونتاس من بنات الترك لتفتديه بحياتها فقتل الباشا وهرب. قد تكون هذه أول مواجهة بين "أمريكى" وبين طاغية مسلم (ابتداء من هذه العبارة يستخدم المؤلف اللغة التى يستخدمها من ينتقدهم ويرفض وجهات نظرهم من المعادين للإسلام على أسس عنصرية – المترجم)، لكنها لن تكون الأخيرة. ففى ١٦٢٥ أسر المراكشيون سفينة أمريكية، وبعد ذلك بعشرين عامًا أوقعت سفينة صنعت فى كامبريدج بولاية ماساشوسيتس وعليها طاقم من تلك المستعمرة الهزيمة بسفينة جزائرية فى عرض البحر فى معركة اعتبرها جيمى فنيمور كوبر، بعد ذلك، أول معركة بحرية أمريكية.

وعندما تحاربت بريطانيا والجزائر فى ١٦٧٣ أسر الجزائريون سفينة من نيويورك. وجمعت الكنائس فى تلك المدينة أموالاً تفتدى بها البحارة. وفى نهاية القرن السابع عشر وقع جوشوا جى وهو بحار من ماساشوسيتس فى الأسر فى سالى المغربية. وعندما عاد إلى موطنه فى بوسطن أصبح مشهوراً: فقد كتب قصة أسره وخلاصه واحتفى كوتن ماثر بخلاصه فى موعظة له.

وهذه الأحداث مهمة ويجب اعتبارها جزءًا من نضال أكبر لم ينته بطرد الأتراك العثمانيين من أمام بوابات فيينا أو بهزيمة بحريتهم فى لوبانتو. لقد كان هذا أكبر من صراع على طرق التجارة أو على الأراضى. فقد اعتبر الأمريكيون فى ذلك الزمن أن هذه الأحداث جزء من النزاع بين المسيحيين والمسلمين، بين الأوروبيين والأتراك أو المغاربة، وبالنهاية، بين ما استقروا على تسميته الحضارة وما يعرفه العالم المتحضر حديثًا باعتباره بربرية. وقد ورث الأمريكيون هذا الفهم للعالم المسلم وتتبعوا هذا العدو بإصرار يفوق إصرار الأوروبيين.

وبنهاية القرن الثامن عشر لم تكن دول البربر فى شمال إفريقيا (الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس الغرب) تهدد إلا الدول الضعيفة مثل الدينمارك والسويد والدويلات الإيطالية والولايات المتحدة. فلم تكن القوة البحرية لهذه الدول تضاهى أساطيل

بريطانيا وفرنسا. وبعد أن لم تعد دول البربر مصدر تهديد لإنكلترا وفرنسا، فقد تحولت إلى أدوات لها. وكان القول الشائع فى القرن الثامن عشر فى إنكلترا وفرنسا وهولندا أنه لو كانت الجزائر غير موجودة لكان من مصلحة إنكلترا أو فرنسا أو هولندا أن تنفق المال لتوجدها. فقد كان بوسع الإنكليز والفرنسيين والهولنديين أن يدفعوا للجزائريين ليهاجموا منافسيهم وليجعلوا المتوسط منطقة خطر على الدينماركيين والسويديين والإسبان والبرتغاليين والإيطاليين.

وقد سارع البريطانيون إلى إبلاغ الجزائر عندما استقلت الولايات المتحدة، وفى ١٧٨٥ أسر الجزائريون سفينتين أمريكيتين وإحدى عشرة سفينة أخرى فى ١٧٩٣. وخلقت هذه العمليات مشاكل للقادة السياسيين الأمريكيين - جون آدامز وجون جاى وبنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون - ومتاعب لا تقل إزعاجًا للمواطنين الأمريكيين. وعلى الفور اقترح جيفرسون، الذى كان وزيراً لدى فرنسا منذ ١٧٨٥، شن الحرب التى رأى أنها سوف تثبت لكل من دول إفريقيا وأوروبا أن الولايات المتحدة أمة من طراز جديد، لا يمارس ألعاب سياسة القوة المتبعة فى أوروبا.

ورأى جون آدامز، الذى تبنت إدارته شعاراً يقول "الملايين من أجل الدفاع ولا سنتا واحدا كجزية"، أن الولايات المتحدة، شأنها شأن الأوروبيين، يجب أن تدفع جزية للجزائر. اعتقد آدامز أن السلام يمكن أن يكون أقل كلفة من الحرب وأن الجزية للجزائريين والطرابلسيين هى ثمن التجارة فى المتوسط.

وانتصر رأى آدامز. وبمجرد أن هدأت العلاقات مع الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، بفضل المعاهدة، أرسل الرئيس آدامز القناصل إلى دول البربر. وكان لهؤلاء القناصل دور مزدوج كدبلوماسيين وكرجال أعمال مستقلين يكملون رواتبهم الضئيلة بمشروعاتهم التجارية الخاصة بهم. كانوا يناكفون بعضهم بعضًا ولا يميزون بين مصالحهم الشخصية ومصالح بلادهم. وبدلا من صيانة السلام الأمريكى فى المتوسط فإن هذه السياسة أفضت إلى الحرب مع طرابلس الغرب.

وانطوت الحرب مع طرابلس الغرب على أهمية أيديولوجية كبرى، بالنسبة للأمريكيين، الذين تصوروا أنهم يفعلون ما عجزت الأمم الأوروبية عن فعله أو ما لم تتوفر لديها الإرادة لتفعله: إلحاق الهزيمة بالاستبداد والقرصنة الإسلاميتين. وبرهنت هذه الحرب للأمريكيين على وضعهم الحقيقى كأمة وأكدت أن أمتهم من شأنها أن تكون أمة مختلفة - مختلفة عن أمم أوروبا الراضية بدفع الجزية لدول البربر، وعن الدول المسلمة التى دمرها حكامها ومزقها شعبها المعوز المتوحش. وبالنسبة للأمريكيين تجاوز مغزى الحرب الأهداف العسكرية، إلى حد بعيد. وقال البابا بيوس السابع إن الأمريكيين فعلوا فى سنوات قليلة أكثر من كل ما فعله العالم المسيحى فى قرون. لقد أذلوا الدول المسلمة فى شمال إفريقيا. كان هذا هو المقصود بالحرب مع طرابلس الغرب، لكنه كان درسًا موجهًا لأوروبا. أثبت الأمريكيون أنهم يتصرفون بأفضل من الأوروبيين وأنهم لا يخضعون لمطالب طرابلس الغرب ولا يستخدمون دول البربر لطرد منافسيهم من البحر. وألهمت الحرب الشعب الأمريكى بشعور متجدد برسالتهم وقدرهم.

هذه هى القصة. ولكن كما أن شهرزاد تروى حكايا صغيرة كثيرة فى سياق سردها لحكاية كبيرة، فهذه القصة الكبيرة تنطوى على حكايا كثيرة أصغر. وقد استخدمت شهرزاد قصصها الصغيرة لتبرز النقاط فى قصتها الكبرى، وبالمثل فإن الجوانب الثانوية لهذا التاريخ تساهم جميعا فى الكل. كل الأجزاء الثانوية لقصة العلاقات الأمريكية مع العالم المسلم تؤثر على الموضوعات الأكبر، موضوعات الحرية والقوة والتقدم الإنسانى. وقد تدفق سيل من الكتب عن العالم المسلم فى المطابع الأمريكية فى تسعينيات القرن الثامن عشر: قصص الأسرى، تواريخ، من بينها سيرتان عن محمد، روايات وقصائد، والطبعة الأمريكية الأولى من ألف ليلة وليلة. ونقل هذا الأدب صورة متسقة عن العالم المسلم، صورة مقلوبة للعالم الذى كان يسعى الأمريكيون إلى خلقه من جديد. وقد أعطت القدرة على إعادة خلق العالم الأمريكيين فرصًا لا تنتهى لتحسين حياة الناس وفرصًا مماثلة لتدميرها. وفى الأدب الذى يتناول العالم المسلم كان بوسع الأمريكيين أن يروا ماذا يمكن أن يحل بالناس الذين يستقرون على

خيارات خاطئة. لقد منح محمد الناس فرصة للتحول، وقد تحولوا، فاعتنقوا دينًا جديدًا، وبنوا دولاً وإمبراطوريات جديدة، وأعادوا تنظيم الحياة الأسرية. لكن كل تحول أصبح خطأً مأساويًا. فالشعوب التى كانت مزدهرة فى مصر وتركيا وموريتانيا وسوريا أفقرتها حكومات سيئة، وتحولت أراضيهم الخصبة إلى صحارى. وفى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تم الانحراف بالتجارة النزيهة إلى القرصنة بسبب الدايات والباشوات الشرهين. وفى كل مكان نزلوا بالنساء إلى الحريم والسلاملك، كضحايا لتسلط جنسى بغير قيود. كان العالم المسلم درسًا للأمريكيين حول ما يجب أن يتجنبوه، حول العجز عن بناء دولة، وعن تشجيع التجارة، وعن إنشاء الأسر. فمن الضرورى كبح جماح السلطة، وضمان الحرية للرجال والنساء حتى يزدهروا وللمجتمعات حتى تتقدم.

لكن الشعب الأمريكى وإن تجنب بعض الشرور فإنه لم يتجنب الشرور كلها. فكيف للولايات المتحدة أن تدين الجزائر لأنها تسترق الأمريكيين فى حين أن الأمريكيين أنفسهم يسترقون الأفريقيين؟ إذا كان استرقاق الأمريكيين خطأ أفليس استرقاق الأفريقيين خطأ؟ جعلت العبودية فى الولايات المتحدة من تهنئة الأمريكيين لأنفسهم على تجنبهم الطغيان السياسى أو الدينى أو الجنسى أمرًا أجوف ومناقضًا ومخجلاً. ربما أثبتت الحرب ضد طرابلس الغرب أن الأمريكيين خلقوا، بالفعل، أمة من نوع جديد. لكن الأمريكيين عادوا من "الرق" فى الجزائر والمغرب وطرابلس الغرب إلى بلد تجذر فيه الرق بأعمق مما كان فى أى مجتمع مسلم. وبتجنب أخطاء المسلمين الذين كانوا يخضعون دون تساؤل للحكام وللدين، ظن الأمريكيون للحظة أنهم تجنبوا مصير كل إمبراطورية لم تقم إلا لتسقط. لكن العبودية فى أمريكا ظلت تذكرهم، على الدوام، بفشلهم. والدرجة التى سلم بها مواطنوهم بالعبودية باعتبارها شرا لا بد منه أو أقروها باعتبارها خيرًا إيجابيا هى الدرجة التى تصل إليها إدانة الأمريكيين بين يدى إلههم العادل، إله المسيحيين والمسلمين، الذى يقضى بين كل البشر.

يبدأ هذا الكتاب فى زمن الخوف، فى السنوات التى تلت الثورة الأمريكية، قبل إرساء الدستور، قبل أن تكون للولايات المتحدة حكومة أو جيش أو بحرية. وينتهى فى زمن النصر بعد أن هزمت الولايات المتحدة، لا طرابلس الغرب وحدها ولكن إنكلترا، أعظم قوة عسكرية فى العالم. تغلب الأمريكيون على مخاوف الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر، المخاوف من الوقوع فى مهاوى الفوضى أو الاستبداد. وأفضى النجاح فى إقامة حكومة دستورية والحفاظ عليها، والانتصارات العسكرية على طرابلس الغرب وعلى إنكلترا، إلى عهد من الثقة والاطمئنان القومى. لكن بقى الأمريكيون مع مشكلة الرق التى لم تحل باعتبارها مصدر خزى دائم يعكر شعورهم بالتفوق الأخلاقى. ولا يزال ميراث العبودية يطاردنا، وهو ما يثبت أنه شبح أخطر وأقوى من أى جنى أو سلطان أو آية الله.

الفصل الأول

السياسة الأمريكية تجاه العالم المسلم

شعر باتريك هنرى بالقلق. وصل ثلاثة غرباء غامضين، رجلين وامرأة، إلى فيرجينيا فى ذلك الوقت من نوفمبر ١٧٨٥ وشك الحاكم هنرى فى أنهم يخططون لأمور شررة وخادعة. كان أحد من سبقوه إلى منصب الحاكم، وهو توماس جيفرسون، قد خرج من منصبه خروجًا مشينًا، قبل أربع سنوات، بعد أن فشل فى الدفاع عن الولاية ضد غزو بريطانى. لم تعد بريطانيا تهدد سلام فرجينيا وأمنها، منذ اعترفت بالاستقلال الأمريكى، لكن هنرى كان يشك فى أن هؤلاء الغرباء الثلاثة هم طليعة الكشافين لعدو أشد خطرًا. اعتقد أنهم جواسيس وجههم إلى فيرجينيا داى الجزائر.

ولم يكن خوف هنرى من الجواسيس الجزائريين أمرًا غريبًا. كانت الجزائر قد أعلنت الحرب على الولايات المتحدة فى يوليو ١٧٨٥، وشجعها البريطانيون على أن تفعل ذلك، لتفر التجارة الأمريكية من منطقة المتوسط بسبب الخوف. وروت الصحف البريطانية أن الجزائريين قد أسروا، بالفعل، "عددًا غير محدود" من السفن الأمريكية، من بينها سفينة كانت تحمل بنجامين فرانكلين فى طريق عودته من فرنسا. وقالت التقارير إن فرانكلين احتمل "عبوديته بشكل يثير الإعجاب"[1]. وقالت صحيفة فى نيويورك إن الجزائريين اعترضوا سفينة إنكليزية خمس مرات، وهى فى طريقها من لندن إلى لشبونة، ظنًا منهم أنها أمريكية. وكتب المشترع الفيرجينى جون بانيستر إلى توماس جيفرسون، الوزير الأمريكى لدى فرنسا، فى ديسمبر ١٧٨٥ يقول إن "سكان

هذه الولايات شديدو الانزعاج من العداوة مع الجزائريين" وإن هذا الخوف أوقف تجارة الأمريكيين مع إسبانيا وغيرها من البلدان المتوسطية. وكان لهذا "أعظم الأثر على تجارتنا فى الغلال". وفى ظل هذه الأخطار سقطت صناعة النقل الأمريكية فى أيدى البريطانيين" الذين تقتضى مصلحتهم قمعنا عندما يتولون شؤون نقلنا"[٢]. وكتب صمويل هاوس من فيلادلفيا يقول إن التجارة تتدهور وإنه ما من سفينة أمريكية تستطيع أن تنقل بضاعة من أوروبا. وكان هذا الخوف من اختطاف القراصنة البربر للسفن الأمريكية يعنى أن تخطف السفن البريطانية كل أنشطة النقل أو أن يدفع الأمريكيون أقساط تأمين باهظة[٣].

وحذر الفرنسى جيمس لومير هنى من أنه إذا لم يؤذ الجزائريون الساحل الفرجينى بأنفسهم فإن "بعض الأشرار من البريطانيين أوالأيرلنديين أو من جيرسى أو من غويرنسى قد يفعلون ذلك، بتكليف من الجزائر وبعد أن يتنكروا كجزائريين". واقترح لومير أن يتم إرساله هو إلى فرنسا لشراء فرقاطة وأن تكلفه فيرجينيا بحمايتها من الهجوم الجزائرى المرتقب[٤].

بدا هذا الخوف لجيفرسون أمراً محبطاً. فالجزائريون لم يكونوا قد أسروا أى سفينة أمريكية، والبريطانيون كانوا يستخدمون الخوف من الجزائر لتدمير التجارة الأمريكية. صحيح أن المغرب أسرت السفينة التجارية الأمريكية بيتسى فى أكتوبر ١٧٨٤. لكن المغرب فعلت ذلك لغرض محدد. اعترف الإمبراطور مولاى محمد (الذى حكم من ١٧٥٧ إلى ١٧٩٠) باستقلال أمريكا فى ١٧٧٨ لكن الأمريكيين كانوا عاجزين حتى ذلك التاريخ عن إرسال من يفاوضه. ولكى يجذب انتباه الأمريكيين أمر بأسر سفينة أمريكية ووعد بأن يبقيها رهينة حتى تبعث الولايات المتحدة إليه بوكيلها الدبلوماسى[٥].

وعندما سمع صديق جيفرسون جون بيج، بأسر بيتسى سأل إن كان صحيحاً أن "إمبراطور مراكش فاتح الكونغرس عدة مرات" وتم تجاهله وأنه، نتيجة لذلك، أرسل بقراصنته ليطاردوا السفن الأمريكية. وكان بيج يأمل أن تكون هذه "حكاية بريطانية"

شأنها شأن الهجمات الجزائرية وإن ظل على اعتقاده بأن "قليلا من التملق وبعض الهدايا واحتمال أن نتاجر معهم" قد يؤمن التجارة الأمريكية فى المتوسط. وكان ريتشارد هنرى لى يأمل أن ينجح المفاوضون الأمريكيون فى إرضاء دول البربر وفتح المتوسط أمام التجارة، وكان ينتقد "الروح الشرهة والاحتكارية للتجارة والتجار" مثل البريطانيين الذين أغلقوا المتوسط بوجه الأمريكيين مانعين بذلك الاتصال بين أنواع البشر فى مختلف أرجاء العالم"(٦).

وبعد أسر بيتسى ذهب جون آدامز إلى وزير خارجية فرنسا الكونت فيرجين، طلبًا لنصيحته. وأوعز فيرجين إلى آدامز بأن الإمبراطور مولاى محمد، الذى وصفه بأنه الأكثر جشعا" وحرصًا بين الرجال فى العالم" أغاظه تقاعس الأمريكيين عن إرسال هدايا إليه. أخبر فيرجين الأمريكيين بذلك وامتنع عن إسداء مزيد من النصح. واقترح عليهم طلب المشورة من الماركيز دى كاسترى وزير بحرية فرنسا، من أجل المزيد من المعلومات. وعندما تساءل جون آدامز عما إذا كانت فرنسا جددت معاهدة ١٦٨٤ مع الجزائر ابتسم فيرجين وقد راقه أن آدامز كان يعلم ذلك، لكنه لم يُجب على تساؤل آدامز. لم يكن من مصلحة فرنسا أن تساعد التجارة الأمريكية فى المتوسط، وكان فيرجين وآدامز وجيفرسون يعلمون ذلك كلهم. وطلب فيرجين من آدامز أن يوجه تساؤلاته إلى كاسترى، الذى كان آدامز يعلم أنه سيكون أكثر تكتما حتى من فيرجين(٧).

كانت مصلحة إنكلترا تقتضى الإضرار بالتجارة الأمريكية، لكن لم تكن مصلحة فرنسا تقتضى مساعدة الولايات المتحدة. لكن من مصلحة إسبانيا أن تسدى معروفًا إلى الأمريكيين وإلى المغاربة. فقد كانت إسبانيا قد اقتنعت بأن من المرجح أن تصمد الولايات المتحدة وكان وزير خارجية إسبانيا فلوريدا بلانكا يعتقد أن الولايات المتحدة يمكن أن تكون حليفا مهما ضد البريطانيين فى أمريكا الشمالية. كانت إسبانيا تعد لحملة ضد الجزائر، وكان فلوريدا بلانكا يريد مراكش حليفًا فى شمال إفريقيا. وهكذا توسطت إسبانيا لدى مراكش وفى مارس ١٧٨٥ أعاد مولاى محمد السفينة بيتسى،

ووعدت الولايات المتحدة بأن ترسل مفاوضاً[٨]. وخصص الكونغرس ٨٠,٠٠٠ دولار للمفاوضات مع دول البربر الأربع (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب). وأبلغ وزير الخارجية الأمريكي جون جاى المبعوثين بأنهم "سيجدون أنه من المفيد شراء نفوذ أولئك... القادرين على حجب أو تعزيز وجهات نظرهم" بخاصة فى "دوائر البلاط التى يحكمها الانحياز والفساد"[٩].

ورغم أن الدبلوماسيين الأمريكيين كافحوا للفوز بمساندة من الأوروبيين وبمعاهدات مع شمال إفريقيا، فإن الحاكم هنرى ومجلسه كانوا غير مطمئنين إلى ما يجب عمله مع الغرباء الثلاثة من الشمال الإفريقى فى فيرجينيا. وأمر هنرى بحبسهم فى نورفولك، ثم أرسلهم إلى ويليامز بيرغ، وأخيرا جاء بهم إلى ريتشمونر. وبعث هنرى بطبيب ريتشمونر وهو وليم فوشى لاستجواب الغرباء، قدر المستطاع، وللتفتيش فى متاعهم. ووجد فوشى قليلا من المال، ولم يجد سلاحاً، ووجد بعض الوثائق بالعبرية، مع وثائق السفر الخاصة بهم. ورغم أن هذا لم يبد له عدة للغزو، فإن فوشى لم يقتنع برواية الغرباء. قالوا إن الوثائق العبرية كانت للسماح لهم بدخول معبد، وبما أنه فوشى لم يكن يقرأ العبرية فلم يكن بوسعه التصديق على ذلك. ولم تكن روايتهم التى زعموا فيها أنهم مسافرون من إنكلترا تتطابق مع الوثائق الإنكليزية التى يحملونها والتى تشير إلى أن الثلاثة من مراكش. وأوضح الثلاثة لفوشى أن جهلهم بالإنكليزية يحول دون إقرارهم بما تقوله الأوراق المكتوبة بتلك اللغة. ولم يكن استجواب فوشى للثلاثة مرضياً. لم يطمئن لا إلى هيئتهم ولا إلى روايتهم، لكنه لم يستطع أن يثبت شيئاً. وأرسلهم إلى نورفولك، وأمر هنرى بإعادتهم إلى وطنهم، حيثما كان. واستاء الثلاثة لأنهم لن يذهبوا إلى فيلادلفيا حيث كانوا يظنون أن استقبالهم كان يمكن أن يكون ودياً بدرجة أكبر[١٠].

وبعد أن حملت السفن هؤلاء الثلاثة بعيداً عن الولاية، أصدر مشترعو فيرجينيا قانوناً يمنع مثل هؤلاء الغرباء الخطرين من إيذاء الشعب مجدداً، أو من المساس بسلامة فيرجينيا. وخول المجلس التشريعى الحاكم سلطة ترحيل الغرباء المنتمين لبلدان فى حالة حرب مع الولايات المتحدة. وكان هذا القانون فى فيرجينيا مقدمة لقانون ١٩٧٨

عن الأعداء الغرباء، الذى أعطى رئيس الولايات المتحدة سلطة ترحيل الغرباء المنتمين إلى بلدان فى حالة حرب مع الولايات المتحدة. وسوف تعلن فيرجينيا فى ١٩٧٨ أن قانون ترحيل الأعداء الغرباء انتهاك غير دستورى للسلطة. ففى ١٧٨٦ كان المجلس التشريعى فى فيرجينيا يحاول السيطرة على غرباء ذوى مظهر مريب، لكنه حد فى الوقت ذاته من سلطة الولاية. فقد أعطى التشريع الحاكم سلطة ترحيل غير المرغوب فيهم، لكنه أقر أيضًا قانون الحرية الدينية الذى يحظر أى تشريع فى المستقبل يمكن أن ينطوى، كما قال راعى مشروع القانون جيمس ماديسون "الأمل الطامح إلى إصدار قوانين تحكم العقل الإنسانى". ودون أن يقف عند حد التسامح مع المعتقدات الدينية المختلفة فإن القانون الفيرجينى، حسب واضع صيغته توماس جيفرسون، ضمن الحرية الدينية "لليهودى والأمى، للمسيحى والمحمـدى والهنـدوسى والوثنى من كل مذهب". لقد أبعد الفرجينيون الغـرباء عن البـلاد فيما حفظوا حقهم فى أن يتعبدوا فى معبد أو فى مسجد[11].

وسوف يعتبر جيفرسون، فى فترة لاحقة، أن هذا القانون الذى يضمن حرية الاعتقاد الدينى واحد من أعظم إنجازاته. لكن ثبت أن تحرير العقل الأمريكى أسهل من تحرير البحار لصالح السفن الأمريكية. وظل جيفرسون وآدامز ينتظران طوال صيف ١٧٨٥ أن يرسل الكونغرس مفاوضًا. وأكد أصدقاء جيفرسون فى أمريكا له أنه ليس الوحيد الذى يتساءل عما ينتوى الكونغرس عمله. وكتب فرانسيس هولكبنسون من فيلادلفيا يقول "ما نعرفه نحن هنا عن الكونغرس لا يزيد كثيرًا عما تعرفه وأنت فى فرنسا - وربما كنت أنت تعرف أكثر". فقد كان الكونغرس "نادرًا ما يذكر فى الصحف أو لا يذكر أبدا، وكان الكلام عنه أقل مما لو كان موجودًا فى جزر الهند الغربية". وكتبت إليزا هاوس تريست تقول "بين الحين والحين نسمع عن عضو محترم يتخذ زوجة وإلا لما كنا شعرنا بوجود هيئة تدعى الكونغرس"[12].

وبعث الكونغرس جون لامب، تاجر البغال من كونيكتكت الذى لديه قدر من الخبرة بالمتوسط، إلى باريس فى ربيع١٧٨٥. ولم يصل لامب إلى باريس إلا فى الخريف،

ولم يبلغ الجزائر إلا فى ربيع ١٧٨٦. وعندئذ أدرك جيفرسون وآدامز أن لامب قليل الكفاءة، وكان أوان العثور على غيره قد فات. ولم يعتبر جيفرسون أن تدنى الصلاحية عند لامب يمثل مشكلة، وقال إنه حتى الملاك يعجز عن مفاوضة الجزائر. وفيما كان جيفرسون وآدامز ينتظران لامب البطىء، أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة، وفى سبتمبر١٧٨٥ علم جيفرسون أن الجزائر أسرت سفينتين أمريكيتين.

وأراد الكونغرس أن يتفاوض، وبدا أن معظم الأمريكيين يفضلون دفع الجزية عن شن الحرب. وكان معظم الأمريكيين يدركون أن البلاد من دون حكومة مركزية قادرة على جمع المال أو القوة العسكرية، لم تكن فى مركز يساعد على خوض حرب فى المتوسط . وحث جون بيج وريتشارد هنرى لى جيفرسون على استخدام التملق والهدايا لضمان حرية التجارة فى المتوسط، وأزعج بيج ما علمه من أن مولاى محمد فى المغرب كان يريد السلام مع الأمريكيين منذ ١٧٧٨ لكن الولايات المتحدة استفزته بعجزها عن إرسال مفاوض. ولم يوافق جيفرسون. فرغم أنه كان هو الآخر مدركاً بالحقيقة المؤلمة للضعف المالى والعسكرى للبلاد، فلم يكن بوسعه قبول فكرة دفع الجزية للجزائر أو لمراكش. وقد أخبر بيج بأنه لا يعرف كم تتكلف معاهدة مع مراكش، لكنه واثق من أن الثمن يفوق ما يمكن أن يتخيله بيج وأنه بالتأكيد "أكثر مما يجب أن يدفعه شعب حر". كان "النص الإنكليزى" للمفاتحات الودية من مولاى محمد للولايات المتحدة "يقول هذا بوضوح. إنه مستعد أن يقبلنا ضمن من يدفعون له الجزية". وسوف تكون الجزائر، أقوى دول البربر، التالية له، تتبعها تونس ثم طرابلس الغرب. قبلت الدول الأوروبية بفكرة دفع الجزية لدول البربر، لكن جيفرسون لم يجد مبرراً "لوضع نصف الكرة الأرضية الآخر تحت أقدامهم" وسوف يشعر كل أمريكى بهذا الغرم وهو يدفع الضرائب.

ولم يكن جيفرسون يعتقد أن شراء السلام مع الجزائر والملكيات الأخرى أرخص من خوض الحرب. يتعلق الأمر "بشرفنا وبشراهتنا" والعجز عن تأسيس هوية وطنية أفضل "سوف يدخلنا قريباً فى حرب بحرية" إن لم يكن مع الجزائر فمع إنكلترا. كان على أمريكا أن تظهر القوة والحيوية لكل من دول البربر ولأوروبا. فشراء السلام،

وهو الحل قصير الأمد، لن يمنع الحرب التى اعتبرها جيفرسون الحل طويل الأمد الوحيد. فضمان "السلام من خلال الوسيط الحربى" يمكن أن يجعل الدولة حديثة الاستقلال تكسب احترام أوروبا(١٣).

لم تكن الولايات المتحدة مستعدة للحرب، لكن جيفرسون كان واثقًا من أنه لن يتعين عليها خوض هذه الحرب وحدها. فقد أكدت مفاوضات إسبانيا لتحرير السفينة بيتسى لجيفرسون المصالح المشتركة بين إسبانيا والولايات المتحدة. فكل من الدولتين كان يتهدده الوجود البريطانى شمالى نهر أوهايو وتورط بريطانيا فى أمريكا الوسطى. وكان جيفرسون يأمل أن يدرك الأمريكيون هذه المصالح المشتركة وينضموا إلى حملة إسبانيا ضد الجزائر(١٤). وكان القائم بالأعمال الأمريكى فى إسبانيا وليم كار مايكل يعتقد أن إسبانيا ميالة إلى التعاون مع نابولى والبندقية ضد الجزائريين. وبما أن إسبانيا ساعدت الأمريكيين فى مراكش، فمن المناسب لأمريكا أن تنضم إلى إسبانيا فى هذا المشروع العسكرى المتعدد الجنسيات. وخول الكونغرس جيفرسون بالتفاوض، لكن جيفرسون لم يكن يرى جدوى من التفاوض مع الجزائر. وقد لخص رسالة وجهها إلى صديقه فى إيطاليا فيليب مازايى بقوله: "أتساءل كيف نطلب السلم، بالسيف أم بالمال؟". وسأل جيفرسون دبلوماسيا من نابولى فى فرنسا عما إذا كانت بلاده ستتعاون مع الولايات المتحدة فى معارك مشتركة ضد دول البربر(١٥). تخيل جيفرسون أن بوسع الولايات المتحدة المساعدة على إنشاء قوة متعددة الجنسيات من بلدان أوروبا الأصغر شأنا مثل إيطاليا والبلدان الإسكندنافية والبرتغال وإسبانيا أيضا. ولم يكن لها أن تتوقع مساندة من بريطانيا أو فرنسا.

وقبل إطلاق رصاصة واحدة كان جيفرسون يعتقد أن الحرب هى السياسة العملية والنزيهة الوحيدة فى التعامل مع الجزائر ودول البربر الأخرى. ولكن باعتباره دبلوماسيا كان ملزمًا باتباع تعليمات الكونغرس. وبحلول خريف ١٧٨٥، وعندما كانت الجزائر قد أعلنت الحرب، بالفعل، وكان باتريك هنرى يخشى وقوع غزو جزائرى، كان جيفرسون لم يتلق، بعد، كلاما رسميا من الكونغرس. وعاد لامب "هذا الخادم الكسول" ببطء إلى أوروبا،

وإن كانت المراسلات الخاصة أبلغت جيفرسون وآدامز بما تضمنته التعليمات، لكن جيفرسون وآدامز لم يكن بوسعهما أن يفعلا شيئا من دون الكلمة الرسمية.

وأصبح الانتظار محبطًا، بدرجة أشد. وعلم جيفرسون فى منتصف سبتمبر أن السفينتين "بولى" و "دوفن" استولى عليهما الجزائريون، وأن إسبانيا والجزائر تتفاوضان. وسمع جيفرسون أن إسبانيا ستعطى الجزائر ما يعادل مليون دولار، وإن لم تكن التفاصيل قد تم الانتهاء منها. وبدا أن البرتغال ونابولى قد توقعان، هما أيضًا، معاهدتين مع الجزائر، مدمرتين بذلك أمل جيفرسون فى إنشاء قوة متعددة الجنسيات. وكان واضحًا أن الوقت ينفد بالنسبة للأمريكيين. وإن لم يصل لامب فى السفينة النظامية التالية أصبح لزامًا على جيفرسون أن يبعث توماس باركلى إلى الجزائر فورًا(١٦).

ولم يندهش البطل البحرى الأمريكى جون بول جونز عندما سمع بأن الجزائر أعلنت الحرب؟ لكنه اندهش عندما لم يحدث ذلك من قبل. كان جونز يأمل أن تدفع هذه الحرب الأمريكيين إلى الاتحاد "فى تدابير تتناسب مع شرفهم ومصالحهم الوطنية" وتنهضهم من "الطمأنينة غير المبررة التى خلقتها نشوة النجاح منذ الثورة". وكان هذا، بالضبط، ما يريد جيفرسون سماعه، وكان يشارك جونز الأمل فى أن يبادر الأمريكيون إلى الفعل "الذى يجعلنا محترمين كشعب عظيم يستحق أن يكون حرا"(١٧).

وكان جيفرسون يقاسم جونز المشاعر ذاتها، لكن الكونغرس قرر التفاوض ولم يكن بوسع جيفرسون أو جونز أن يعلنا الحرب ضد رغبة الكونغرس. وشعر جيفرسون بأنه "معلق بين الغضب والعجز". وانضم جون جاى إلى جيفرسون فى تفضيل الحرب على الجزية، لكن معظم الأمريكيين لم يروا هذا الرأى. ورغم أن بعض الأمريكيين أرادوا الحرب، حسب القنصل الأمريكى فى نيويورك، فإن أعدادًا أكثر بكثير كانوا مستعدين لقبول الجزية لضمان أمن التجارة فى المتوسط. بل إن أولئك الذين أرادوا الحرب كانوا يقرون بضعف بلادهم. وتساءل إيزرا ستايلز، رئيس جامعة بيل "هل يتعين علينا، نحن أيضًا، أن ندعم الجزائر بالمال؟" وقال لجيفرسون DELENDA EST CARTHAGA

(لا بد من تدمير قرطاجة، هذه صيحة حرب رومانية لتعبئة الجهود الحربية التى انتهت بدمار كامل لقرطاجة - المترجم). لا بد من هزيمة الجزائر. وإلى أن تصبح الولايات المتحدة جاهزة لإخضاع الجزائر بالقوة "يجب أن ننفق عشرين ألف جنيه إسترلينى وندعم دولة القراصنة هذه" ما دامت التجارة فى المتوسط يمكن أن تدر دخلا سنويا، بهذا المقدار، على الولايات المتحدة(١٨).

ووافق وزير الولايات المتحدة فى لندن جون آدامز على أولئك الذين فضلوا دفع الجزية على الحرب. ولم يكن يرى آدم أن التفكير الاقتصادى السليم يقتضى التضحية "بمليون جنيه إسترلينى سنويا" من التجارة "لتوفير هدية واحدة قيمتها مائتا ألف جنيه". ولو دفع الأمريكيون كما وقع غيرهم لكان عندهم الآن، هكذا فكر آدامز، مائتا سفينة فى المتوسط، تدر من رسوم النقل وحدها ما يساوى مائتى ألف جنيه إسترلينى. فمن شأن هدية بسيطة إلى داى الجزائر أن تفتح أبواب المتوسط وترفع سعر القمح الأمريكى. وبدلا من ذلك، فإن تردد الأمريكيين فى دفع رشاو قليلة كان يعنى إغلاق المتوسط ومعاناة الزراع والفلاحين الأمريكيين. وانضم آدامز إلى جيفرسون وغيره من رجال الدولة الميالين للحرب فى إظهار الأسى لأن "سياسة العالم المسيحى جعلت من كل بحارته جبناء أمام راية محمد" ووافق على أن "البطولة والعظمة يقتضيان منا أن نعيد الشجاعة إلى بحارتنا". لكن ما كان يعلمه عن الشخصية الأمريكية وعن الطبيعة الإنسانية كان كافيًا لأن يحول دون أن يظن أن أهل وطنه يمكن أن يكونوا مختلفين، على الإطلاق. بالطبع، لو أن الشعب الأمريكى انعقدت إرادته على أن يحارب الجزائريين والأهم من ذلك، لو أنهم خصصوا أموالاً للقضية، لفعلوها". لكن صعوبة إقناع شعبنا بذلك، لم تفت فى عضدى، قط(١٩). هل كان بوسع جيفرسون أن يقنع مزارعى فيرجينيا وكارولينا الجنوبية بمساندة إنشاء قوة بحرية ؟ كان آدامز يعلم أن الناس فى بنسلفانيا وسائر ولايات الشمال كان يسعدهم أن يفعلوا ذلك، وكان هو نفسه يعتقد أن الوقت مناسب لإنشاء قوة بحرية. لكن آدامز أنفق معظم وقته فى أوروبا يحاول اقتراض المال لسداد الديون الأمريكية. وكانت لديه صورة شديدة الوضوح عن قلة المال الذى تملكه الولايات المتحدة أو الذى تستطيع جمعه.

لم يستعد الأمريكيون للحرب ولم يتفاوضوا حول السلام. وأعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة، وعقدت إسبانيا سلاماً مع الجزائر، وكان محتملاً أن تفعل نابولى والبرتغال الأمر ذاته، مطلقين يد الجزائر، بالكامل، لتهاجم السفن الأمريكية فى الأطلسى. وتشكى وليم كار مايكل من أن الولايات المتحدة لم تغتنم الفرصة، إما بالانضمام إلى الهجوم الإسبانى على الجزائر، وإما بالدفع لإسبانيا حتى تهاجم الجزائر. وكتب إلى جيفرسون يقول له: "ها هى النتائج المدمرة، يا سيدى، للاهتمام بالاقتصاد فى توقيت سيئ".

وجدد جيفرسون اتصالاته مع وزراء خارجية نابولى وغيرها من الدول المتوسطية، يحثهم على عمليات مشتركة ضد الجزائر. ودرس تاريخ الهجمات الفرنسية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ضد الجزائر، بخاصة الحصار البحرى الفرنسى الذى نفذته فرقاطتان وبارجة. وبقى على اتصال وثيق مع جون بول جونز الذى كان يرى ضرورة إرساله إلى الجزائر عندما تفشل مفاوضات لامب، التى كان جيفرسون يعلم أن هذا هو مصيرها. وبالتشاور مع لافاييت الذى كان يقوم بدور الواجهة لجيفرسون، خطط لحلفه متعدد الجنسيات ضد قوى البربر. وكتب إلى عضو برلمان فيرجينيا جيمس مونرو أن السلام مع دول البربر قد يتكلف ٢٥ ألف جنيه إسترلينى لكنه لن يبقى إلا ببقاء اعتقاد دول البربر أن أمريكا قادرة على أن تفرضه. وقال جيفرسون إن الكونغرس يتعين عليه أن يوازن بين ذلك وبين "الكلفة والنجاح المحتمل لفرض السلام بالسلاح". فالحصار لن يكلف أكثر من ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى شهريا وسوف يأتى بنتيجة فى وقت قصير"[٢١]. وجعل جيفرسون لافاييت يكتب إلى هنرى نوكس وغيره من المسؤولين الأمريكيين، مقترحاً تنفيذ الحصار. وقد تصرف لافاييت نيابة عن جيفرسون الذى لم يرغب فى لفت الانتباه إلى اختلافه مع آدامز أو مع الكونغرس. وأبلغ لافاييت أصدقاءه الأمريكيين بأن حصاراً ناجحًا يمكن أن يحول دول البربر من "دول قراصنة" إلى "شعب من التجار" وروج لفكرة إرسال جون بول جونز للتفاوض بحيث تدعم الدبلوماسية بالتهديد بالقوة العسكرية. وكتب لافاييت يقول "كلما أسرعتم بإرساله كلما كان ذلك أفضل"[٢٢].

وبينما كان جيفرسون ولافاييت وجونز يناقشون هذا الخيار العسكرى فى باريس، كان جون آدامز يسعى، فى لندن، وراء حل دبلوماسى. وفى فبراير ١٧٨٦ وصل إلى لندن عبد الرحمن سفير طرابلس الغرب. وعقد ثلاثة اجتماعات مع آدامز، الذى اعتبره "إما سياسيا حاذقا" أو فى حقيقة الأمر "رجل خير وحكمة". وإذا كان عبد الرحمن منزها عن الغرض كما ادعى فإن "العناية تفتح لنا، على ما يبدو، فرصة لإدارة هذا الأمر الشائك باتجاه نهاية سعيدة"(٢٣). وأخبر آدمز جيفرسون بضرورة أن يأتى إلى لندن، فوراً. فلا شىء يمكن عمله يساوى نصف قيمة التوصل إلى سلام مع دول البربر.

ورغم أن آدامز كان يخشى من أن تطلب طرابلس الغرب أكثر مما تقدر أمريكا على دفعه، فقد كان على استعداد للذهاب إلى هولندا لاقتراض المزيد. فلم يكن يرغب فى إضاعة هذه الفرصة للحؤول دون "حرب شاملة ورهيبة مع دول البربر هذه، من شأنها أن تستمر لسنوات طويلة". وأخبر جيفرسون بضرورة أن يقنعوا الكونغرس بالمبادرة إلى الفعل. وكان آدامز نفسه شديد "التأثر والقلق" لأنه سيتعين عليه أن يذهب بنفسه إلى نيويورك وإلى الجزائر لحل المشكلة(٢٤).

ورغم أن جيفرسون لم يتوقع أن تسفر المفاوضات مع عبد الرحمن عن شىء. فقد وصل إلى لندن فى أوائل مارس. لكنهم لم يتوصلوا إلى شىء مع عبد الرحمن. كان ثمن السلام مع طرابلس الغرب ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى، وهو ما كان يعنى أن تونس ستطلب مبلغاً مماثلاً، ومراكش ٦٠,٠٠٠، والجزائر أقوى دول البربر ١٢٠,٠٠٠ وعاد جيفرسون إلى باريس ملتزما، أكثر من أى وقت مضى، بالحصار وبالعمل العسكرى.

ورغم ذلك فلم يكن لدى الولايات المتحدة من الموارد ما يكفى لشن هجوم كما كانت عاجزة عن دفع الجزية الباهظة. وفى أمريكا اعترف جورج واشنطن بأن الحكومة الفيدرالية لم تكن لديها القدرة فى ١٧٨٦ لا على دفع الجزية ولا على توجيه تهديدات ذات مصداقية، ولم يكن يرى أن هذا الوضع سيتغير ما لم ينشئ الأمريكيون حكومة مركزية لديها القدرة على فرض ضرائب(٢٥).

وفى صـيف ١٧٨٦ تحـسن الموقف. وصل إلى مـراكش تومـاس باركـلاى رجل الأعمال والقنصل لدى فرنسا، مبعوثًا من جيفرسون وآدامز للتفاوض حول معاهدة مع مولاى محمد. وقد اتفق باركلاى والإمبراطور على معاهدة خلال أسبوع، والمدهش أن المعاهدة لم تكن تقتضى من الولايات المتحدة أن تدفع جزية لمراكش، فى حين التزمت مراكش بأن تبقى سفن الجزائر خارج الأطلسى. وأبلغ لافاييت جيفرسون بأن أوروبا كلها مندهشة لهذه المعاهدة، التى لم تتطلب جزية، ومنبهرة بالمهارات الدبلوماسية للأمريكيين. وزاد مولاى محمد فى إظهار نواياه الطيبة بتخليص جيمس ميرسيير الفيرجينى الذى غرقت سفينته والذى أسرته قبيلة صحراوية. ودفع جيفرسون تكاليف عودة ميرسيير إلى فيرجينيا[٢٦].

وجاء المزيد من الأخبار السارة عندما لم تتبع نابولى والبرتغال إسبانيا فى الصلح مع الجزائر. والحقيقة أن البرتغال قررت حماية السفن الأمريكية من الجزائريين. واعتبر مندوب رود آيلند فى الكونغرس أن اللفتة من ملكة البرتغال "جديرة بأن تحتذى وتتطلب أن تظهر عرفاننا البالغ، لأننا لا نملك أن ندفع لها بما هو أفضل". ورغم أن نابولى لم تقبل بقيادة التحالف ضد الجزائر، فإنها قررت مساندته[٢٧].

وفى يوليو١٧٨٦ أسرت الجزائر سفينة روسية. وظن جيفرسون أن ذلك قد يدفع بالإمبراطورة كاثرين إلى الانضمام لحلفه متعدد الجنسيات ضد الجزائر، وعندما طلب وزير خارجيتها من تركيا التدخل لإطلاق سراح السفينة، اعتبر السفير الأمريكى فى إسبانيا أن الإمبراطورة من شأنها "أن تشعر بالسرور وهى ترى واحدا من وزرائها يكتب بهذا التعالى إلى قوة تخطب أوروبا كلها ودها، فى الحاضر" ثم أضاف "متى نصبح فى مركز يجعلنا نتصرف هكذا"؟

وكان جورج واشنطن واثقًا من أن كاثرين لن تنسى أن الجزائريين ساندوا العثمانيين ضدها وأنها "سوف تركن إلى التهدئة للحظة، لمجرد أن تبقى أساطيلها فى التدريب على استئصال هذه الشبكات الجانحة"[٢٨]. لكن جيفرسون كان يستعجل اللحظة التى تقدر فيها الولايات المتحدة على أن تنتفض دون أن تعتمد على كاترين

العظمى لحل مشاكلها الدولية. وفيما كان يرقب، بفارغ الصبر، انتفاضة بلاده ضد الترك والجزائريين، راح يسعى لتكوين ائتلاف من الأمم للمساندة المتبادلة ضد دول البربر. وكان جيفرسون يعتقد أن روسيا والبرتغال سوف تنضمان إلى التحالف، بل واعتقد أن هاتين الدولتين سوف تبعثان بمعظم قوات التحالف(٢٩).

وغادر جون بول جونز إلى روسيا فى أغسطس. وأدى استيلاء الجزائر على سفينة روسية وأمور أخرى إلى أن أصبحت روسيا على حافة الحرب مع تركيا، وعرض جونز خدماته على كاثرين العظمى. وفى أكتوبر كان جيفرسون ولافاييت قد أكملا ميثاقهما ضد القرصنة الذى كانا يأملان أن يحظى بتأييد نابولى وروما والبندقية والبرتغال والمدن الألمانية والولايات المتحدة. وكان وارداً أن تستخدم قوات الدول التى توقع على الميثاق ميناء صقلية، وأن تحظى بمساندة من مالطا، وكان لافاييت يعتقد أن ملك نابولى قد يعينهم بكتيبة إذا احتاجوا لذلك. وبسفينتين أو ثلاث من ذوات الخمسين مدفعًا، وست فرقاطات كبيرة، كان يمكن للقوات المتحدة فرض الحصار على الجزائريين. ونقل لافاييت الفكرة إلى الأمريكيين ذوى النفوذ- جورج واشنطن، وهنرى نوكس، وجيمس ماكهنرى - واثقًا من تأييدهم. وكان لافاييت يعلم أن المشكلة الوحيدة ستكون حكومته هو. "الجزء الشيطانى هنا أن أجعل من المقبول لهذه الحكومة أن أتورط فى أمور الحرب"(٣١).

وكان لافاييت على حق، فقد استدعاه فيرجين إلى مكتبه الخاص فى فيرساى، وقال له إن المشروع لن يكون موفقًا. وأكثر من ذلك أن فيرجين تلقى أمراً بأن يطلب من لافاييت أن يتخلى عن المشروع. لم يكن جيفرسون ولافاييت يتوقعان أن تساند إنكلترا أو فرنسا المعاهدة، ولم يتوقعا أن البلدين سيمتنعان عن الإذن للآخرين بأن يفعلوا ذلك. وأخبر فيرجين لافاييت بأن الحكومتين الإنكليزية والفرنسية مستفيدتان من القرصنة البربرية ولن تسمحا لأحد بوقفها. ورغم أن معاهدته كانت معاكسة لسياسات أقوى دولتين فى العالم، ورغم أن لافاييت تعين عليه أن يخرج من الموضوع فإن جيفرسون لم يتخل عن قناعاته. وكتب إلى السفيرين الروسى والبرتغالى وعلم بأن جون بول جونز

يطرح فكرته على كاثرين العظمى. وفى الوقت ذاته كانت المعاهدة مع المغرب تعنى أن الأطلسى كان آمنا ما دامت البرتغال تخفر أرخبيل جبل طارق(٣١).

وقد أصبح المتوسط أكثر أمنا هو الآخر، ليس بفضل الأوروبيين ولكن بفضل تفشى الطاعون. كان المئات يموتون كل يوم فى الجزائر، بين يناير وأغسطس وبلغت الإصابات أعلى معدلاتها بين عمال الموانئ والبحارة. مات ثمانية عشر ألفا بينهم بعض الأسرى الأمريكيين وأصبحت البحرية الجزائرية أسيرة الميناء الموبوء(٣٢).

وفى سبتمبر ١٧٨٧ أعدت روسيا العدة لغزو تركيا وظن جيفرسون أن كاثرين العظمى قد تطرد الترك من أوروبا. وقبل سنتين عندما كانت النمسا تحارب الترك كان جيفرسون يعتبر هزيمة العثمانيين أمراً غير مرغوب فيه. وقد وافق أصدقاءه المتفلسفين على أرض الوطن على أنه من المؤسف أن اليونان خاضعة لسلطان المسلمين الذين أخلى دينهم أرضها من الفنون والعلوم التى خلفتها تلك الأرض. لكن انتصاراً نمسويا كان من شأنه أن يحل مجموعة من البرابرة محل الأخرى، ولن يحيى الأرض واللغة اللتين ينتمى إليهما ديموسيثنز وأرسطو(٣٣). أما عندما كانت روسيا تستعد للحرب ضد تركيا فى ١٧٨٧ فقد كان جيفرسون أكثر تفاؤلاً.

ولم يكن جيفرسون الوحيد بين المثقفين التحرريين الذى شجع الروس للمضى قدما. فقد رأى الأب قنسطنطين دو شاسبوف فولنى، الخصم الصريح لكل نوع من الاستبداد الثقافى، فى تركيا تجسيداً للطغيان وكتب رسالة أيد فيها حرب روسيا ضد العثمانيين، وكافأته القيصرة كاثرينا عليها بميدالية ذهبية. ورأى جيفرسون فى توسع الحرب الأوروبية فرصة لأمريكا، بعد أن أشعلت حرب روسيا ضد تركيا "لهب الحرب بالكامل" فى "جزئين منفصلين من تلك البقعة من الكوكب" ورغم أن إنكلترا وفرنسا لم تتورطا بعد، فقد ظن أن ذلك سيحدث قريبا. وقد كانت إنكلترا مشغولة لدرجة تمنعها من استخدام الجزائر ضد الأمريكيين، وكانت كاثرين تتذكر كيف أن الجزائر ساندت تركيا ضدها، أما جون بول جونز فكان يخدم فى البحرية الروسية.

ورأى جيفرسون وجونز فى تلك الأحداث لحظة عظيمة ليعقد الأمريكيون تحالفًا مع روسيا، وكان جونز يعتقد أن الأمريكيين والروس يمكن لهم الفوز باحترام أوروبا إذا تمكن الاثنان، معًا، من طرد الترك من البحر الأسود. وبعد ذلك كان جونز يعتقد أن الأمريكيين والروس بوسعهما طرد الجزائريين من المتوسط(٢٤).

ورأى جيفرسون فى مصير تركيـا درسًا للأمريكيـين فقد حـاول الأمريكيون، كما حاول الأتراك العثمانيون، أن ينأوا بأنفسهم عن التورط فى شؤون أوروبا. وكانت هذه سياسة حكيمة إلى حد ما أن" لا نورط أنفسنا فى شؤون أوروبا"، لكن الأتراك بالغوا فى هذا الأمر، وكان جيفرسون يخشى من أن يرتكب الأمريكيون الخطأ ذاته. فعندما نأى الأتراك بأنفسهم عن شؤون أوروبا فإنهم "اختاروا اختيارا غير حكيم أن يبقوا جاهلين بها" وبسبب هذا الجهل فإن اهتمامات أوروبا وتحالفاتها تهدد بتدمير الإمبراطورية العثمانية. أراد جيفرسون أن يتبع الأمريكيون طريق الحياد العارف، بتشكيل شبكة من الدول المحايدة فى مواجهة الشبكة الدبلوماسية المرتبكة فى أوروبا(٢٥).

وفيما كان جيفرسون، على هذا المستوى، يعالج النظرية والتحالفات الدولية، فقد بقى عليه أن يعالج الأمور العملية المتعلقة بالأسرى الأمريكيين. لقد فشلت مهمة جون لامب فى ١٧٨٦. وأظهر لامب قلة كفاءة. وأبلغ دافيد همفرى جيفرسون أن الناس فى كونيكتيكت أدهشهم أن تعطى هذه المهمة لجون لامب، حيث إن "شخصيته أدنى قيمة فى هذا المجال مما كنا نتصور". وأبلغ مراسل آخر جيفرسون بأن الدبلوماسى الفاشل واصل العمل فى مهنته كتاجر بغال. "مستر لامب يتأهب للسفر من مينوركا إلى أمريكا الشمالية بشحنة من الجحوش" SIC TRANSIT GLORIA MUNDI(٢٦). (هكذا يمضى مجد العالم، عبارة لاتينية تشير إلى أن لا شىء يبقى على حاله – المترجم)

ولم ينجح جيفرسون فى العثور على وكيل آخر وكان يعلم أن المفاوضات ستكون عقيمة ما دامت الولايات المتحدة لا تملك أسطولاً ولا مالاً وفيرًا لدفع الجزية. كان ريتشارد أوبرايان وعشرون غيره لا يزالون أسرى فى الجزائر، وكان جيفرسون أهم من يتصلون به. وقد نصح أوبرايان بالحذر وبأن لا يخبر الجزائريين بالإستراتيجية

التى كان جيفرسون يتبعها لإطلاق سراحهم. والحقيقة أن ما كان يمكن أن يبوح به أوبرايان كان قليلاً للغاية. ولكى يضعف حماس الجزائريين لأسر المزيد من الأمريكيين تظاهر جيفرسون باللامبالاة بمصير الأسرى. وكانت حجته أنه لو أن الولايات المتحدة عرضت فدية سخية أو أظهرت حماسًا كبيراً لإطلاق رهائنها، لخرج الجزائريون وأسروا المزيد من الأمريكيين. وما بدا قاسيا للرجال فى الأسر كان، كما شرح جيفرسون، حنانًا إزاء أولئك الذين لا يزالون أحراراً. وقد كانت المصلحة العليا للأسرى وللولايات المتحدة تقتضى تخفيض السعر(٣٧).

وقد كان دفع الجزائرين إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لم تكن تسعى لتحرير أسراها أكثر، أو أقل، من أداة من أدوات إستراتيجية الحؤول دون وقوع أسرى فى المستقبل. كان جيفرسون وآدامز يعلمان أن الولايات المتحدة لا تملك المال، فقد كان مواطنوها مترددين فى دفع المال إليها. وقد حاول الكونغرس جعل الولايات تسمح له بأن يحقق موارد مالية بفرض الضرائب لسداد ديونها الحربية، فانفجر تمرد مسلح فى شتاء ١٧٨٦-١٧٨٧.

وكان جيفرسون يعلم أن الشعب الأمريكى يريد من الحكومة أن تقتصد بشكل مبالغ فيه. وكان يرى أن الحرب مع الجزائريين ستكون اقتصادية أكثر من الجزية، وأن الحصار هو الأكثر تأثيرا والأقل كلفة كتكتيك عسكرى. ومع علمه بكراهية الشعب للضرائب فقد اقترح فرض ضريبة على الواردات من المتوسط. فالتجار الذين يكسبون من تلك المنطقة يجب أن يدفعوا ثمن الإبقاء عليها مفتوحة. ولو أن المستفيدين فقط هم الذين يدفعون ضرائب فإن الشعب لن يشعر بالعبء أبداً.

وكان جيفرسون يعلم أيضًا أن الحكومة المركزية تحتاج إلى قدر من السلطة القمعية. كان يعلم أن وجود جيش نظامى سوف يكون تهديداً دائمًا لحرية الشعب، لكن البحرية لا يمكن أن تستخدم ضدهم. فالبحرية من شأنها أن تثبت لأوروبا وللجزائريين أن الأمريكيين شعب مستقل وقوى، شعب يحسب حسابه، شعب يستحق أن يكون حرا، كما قال جونز. لكن شيئا من هذا لم يتحقق عندما كان جيفرسون فى فرنسا.

صحيح أن الولايات المتحدة أعادت تنظيم حكومتها وأعطتها مزيداً من سلطة القمع، لكنها لم تقرر بعد أن تكون لها بحرية، ولم تفرض الضرائب على أصحاب التجارة مع المتوسط. وعاد جيفرسون إلى الوطن من فرنسا في ١٧٨٩، تاركًا وراءه مشاكل الأمريكيين في الجزائر والتجارة مع المتوسط. لكن هذه المشاكل سافرت وراءه: فلدى وصوله إلى فيرجينيا علم جيفرسون أن الرئيس واشنطن عينه وزيراً للخارجية.

وعندما تولى جيفرسون منصبه كأول وزير للخارجية في ظل دستور ١٧٩٠، عاد لمواجهة مشاكل أمريكا مع دول البربر، من جديد. وقد تقدم الأسرى الأمريكيون الباقون على قيد الحياة في الجزائر، وهم في عامهم الخامس في الأسر، الحكومة الجديدة هذه، متسائلة عما تفعله بشأنهم. وقدم الرئيس واشنطن التماسهم إلى الكونغرس، وطلب من تلك الهيئة أن تحدد السياسة الأمريكية في المتوسط. ولكي يساعدهم على ذلك طلب من جيفرسون أن يقدم تقريراً للكونغرس حول المفاوضات مع الجزائر وحول تجارة أمريكا في المتوسط. كان جيفرسون ينتظر أن يجد من يسمع أفكاره وها هو يجد نفسه في مركز من يوصي باتباع سياسة ما. وطرح تقريره ثلاثة خيارات متاحة، الخيارات ذاتها التي أشار إليها في ١٧٨٦. أولا، بوسع الولايات المتحدة أن تدفع فدية الأسرى وتقدم الجزية لدول البربر، كما كانت تفعل كل دول أوروبا. وثانيا، يمكن للتجار الأمريكيين أن يتخلوا عن التجارة في المتوسط. أو، وهذا هو الخيار الأخير، أن تستعمل الولايات المتحدة القوة العسكرية. ورغم أنه ترك القرار للكونغرس، فقد كان واضحاً ما يفضله جيفرسون بين الخيارات الثلاثة: لقد وضع خياره المفضل في ذيل القائمة، واثقًا من أن الكونغرس سوف يرفض الخيارين الأولين[٣٨].

لكن الكونغرس كانت لديه أفكار أخرى. وافق مجلس الشيوخ على ما ذهب إليه واشنطن وجيفرسون من أن حماية التجارة في المتوسط لن تتحقق إلا بالبحرية، لكنهم أرادوا تقوية الماليات العامة قبل البدء بإنشاء بحرية. ووعدوا بتوجيه عنايتهم إلى البحرية بمجرد أن تسمح المالية العامة بذلك، وفي الوقت ذاته خولوا الرئيس

واشنطن سلطة تخصيص ١٤٠,٠٠٠ دولار لتخليص الأسرى الأمريكيين في الجزائر، و١٠٠,٠٠٠ دولار أخرى، سنويا، جزية لكل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

صوت الكونغرس لصالح السلام، لكن جيفرسون لم يكن يريد أن يعلم الجزائريون أن الأمريكيين غير جاهزين للحرب. وقد خوله الكونغرس بإرسال وكيل للتفاوض حول معاهدة: قرر جيفرسون إرسال جون بول جونز، الذي كان قد انتهى لتوه من خدمته في الحرب الروسية ضد تركيا، وكان جيفرسون يعرف أن إرساله إلى الجزائر سوف يقنعها بأن الولايات المتحدة سوف تمضي إلى الحرب إذا استدعى الأمر. وفي يونيه أبلغ جيفرسون جونز بالتكليف، معيداً عليه تاريخ العلاقات الأمريكية مع الجزائر. وكان الترتيب أن يبقى جونز قنصلاً لأمريكا في الجزائر، بمجرد أن يرسي السلام مع الجزائريين. لكن جيفرسون لم يتوقع أن يبقى السلام طويلاً. وأبلغ جونز بأننا "نتطلع إلى اللحظة التي تحتم استخدام القوة مع الجزائريين" وأن جونز يتعين عليه "أن يأخذ راحته في جمع المعلومات" التفصيلية عن كل شيء قد يكون مساعداً في عمليات عسكرية مستقبلية على *الساحل البربري*[٤٠].

ولا بد أن جيفرسون سره أن يجد أن مخططاته في ١٧٨٦ تصبح سياسة عامة. ولكن قبل أن يتلقى جونز التكليف أو التعليمات، عاجله الموت. وكان خيار جيفرسون التالي هو توماس باركلاي الذي وصل بالتفاوض إلى معاهدة دون جزية مع المراكشيين، وعاد قبل برهة إلى طنجة ليعيد تأكيد المعاهدة مع الإمبراطور الجديد. وطلب جيفرسون من باركلاي أن يحذف اسم جونز من نص التكليف ويضع اسمه هو. ولكن قبل أن يتمكن باركلاي من أن يفعل ذلك، عاجله الموت.

وبعد قرابة عامين من تخويله بإرسال وكيل، لم يكن جيفرسون قد عثر على واحد من الأحياء. وأخيراً كلف، في ربيع ١٧٩٣، دافيد همفريز الوزير الأمريكي في البرتغال بالتفاوض. وقد كان همفريز، المساعد الشاعر والثوري للرئيس واشنطن، سكرتيراً لجيفرسون وآدامز وهما يصارعان المعضلة البربرية في باريس. ورغم أن همفريز كان الثالث على قائمة الاختيار، فقد كان خياراً لا يقل جودة عن جونز وباركلاي[٤١].

وعندما تم تعيين همفريز مبعوثًا للجزائر كان واشنطن وجيفرسون يواجهان مشاكل أكثر إلحاحًا من بلوى الأمريكيين الثلاثة عشر فى الجزائر. كانت بريطانيا تزود الهنود فى وادى نهر أوهايو بالإمدادات وتشجعهم على مهاجمة المستوطنين الأمريكيين الذين اندفعوا عبر سلسلة جبال الأليغينز ليستوطنوا منطقة الحدود (مع كندا-المترجم). كانت فرنسا قد ألغت نظامها الملكي وكانت تشجع الدول الأخرى للانضمام إليها فى حرب ضد النظام المستقر. وفى هذه اللحظة أصبحت إسبانيا تخشى الاستيطان الأمريكى فى حوضى النهرين أوهايو والمسيسيبى، وكانت تشجع المستوطنين الأمريكيين فى كنتاكى وتنيسى والإقليم الجنوبى الغربى (الذى هو الآن آلاباما ومسيسيبى) على الاقتناع بأن التاج الإسبانى يمنح حماية من الهنود أكثر مما تمنحهم إياه حكومة الولايات المتحدة الضعيفة والبعيدة. وفى جزيرة سان دومينغى طرد العبيد سادتهم وجاء اللاجئون البيض إلى المدن الأمريكية يحملون معهم الخوف من ثورات العبيد، وأصبحت حكومة واشنطن منقسمة على نفسها حول أمور التمويل والسياسات الدولية: كان وزير الخزانة أليكساندر هاميلتون يضغط من أجل بنك قومى، وضرائب داخلية على الويسكى، وتعرفة جمركية عالية وعلاقات وثيقة مع إنكلترا. وكان وزير الخارجية جيفرسون يعارض البنوك والضرائب والتعرفة، ورغم أنه كان يساند فرنسا الثورية فقد حث الأمريكيين على الحياد فى الحرب الأوروبية. وعندما وصل همفريز إلى الجزائر فى أواخر ١٧٩٣ كان جيفرسون قد استقال من منصبه كوزير للخارجية. وحل محله، فى البداية، إدموند راندولف، ثم بسلسلة من الرجال الموالين لوزير الخزانة أليكساندر هاميلتون الذين كان اهتمامهم بمصالحة بريطانيا يفوق اهتمامهم بسياسة أمريكية مستقلة.

وفى أكتوبر١٧٩٣، وفيما كان همفريز فى طريقه إلى الجزائر، رتب البريطانيون هدنة بين الجزائر والبرتغال. وتملصت لشبونة من الهدنة بمجرد أن سمعت بها، بعد ذلك بأسبوعين. لكن القراصنة الجزائريين نجحوا، فى الوقت ذاته، فى أن يخترقوا خطوط الأسطول البرتغالى الذى يحرس أرخبيل جبل طارق. وعندما تنكرت لشبونة للمعاهدة كان الجزائريون قد أسروا ١٢ سفينة أمريكية أخرى وأكثر من مائة بحار فى

هذه اللحظة أصبحت الولايات المتحدة مستعدة لبناء البحرية التى اقترحها جيفرسون وغيره، قبل ثماني سنوات. لكن المناخ السياسى عندئذ كان مختلفًا بشكل درامي: كان جيفرسون خارج الحكومة، منحازًا إلى المعارضة الجمهورية، التى كانت ترى واشنطن الاتحادية النزعة ودية أكثر مما يجب مع إنكلترا وراغبة فى تأسيس حكومة على النسق البريطانى فى أمريكا. ورأى الجمهوريون فى إنشاء البحرية أداة أخرى لمضاعفة سلطة الحكومة وتساءلوا لماذا لا يوجه الاتحاديون جهودهم ضد العدو الحقيقى لأمريكا، بريطانيا ؟ وبدلا من بحرية تحارب الجزائر، اقترح الجمهوريون نظام تعرفة معقد من شأنه الإضرار بالتجارة البريطانية فى أمريكا. ورفض الاتحاديون الاقتناع بأن البريطانيين كانوا وراء الهجمات الجزائرية واعتقدوا أن الجمهوريين هم أنفسهم أدوات للفرنسيين. وأصبحت كل قضية محملة برمزية تفوق أهميتها السياسية المباشرة وبالأبعاد المتصلة بالصراع الذى يزداد عمقًا، بين الاتحاديين والجمهوريين، وهو صراع لم يكن يدور حول السلطة السياسية فقط، بل حول مدى السلطة السياسية التى يمكن أن يسمح لأى أفراد بامتلاكها.

وفى ديسمبر ١٧٩٣، أودع الرئيس واشنطن لدى الكونغرس رسالة حول المفاوضات مع مراكش، ورغم أن واشنطن ربما توقع أن تكون هذه مجرد رسالة روتينية، بخاصة وأن وزير الخارجية جيفرسون هو الذى أعدها قبل خروجه من المنصب، فقد أصبحت هذه الرسالة نقطة مركزية فى هذا الجدل الحزبى المتزايد المرارة. وأحدثت الرسالة، وهى تقرير عن العلاقات مع دول البربر، رد فعل عاصفًا منقطع الصلة تمامًا بالموضوع الذى تعالجه. وعند تقديم الرسالة ذكر واشنطن أنه حجب تقريرًا واحدًا قال إنه يحتوى محادثة دبلوماسية سرية، وأبلغ الكونغرس، أيضًا، بضرورة التكتم حول المبالغ التى يعتزم دفعها للسلام وللفدية. كان يعتبر أن من المهم أن يعرف الشعب الأمريكى أن الحكومة تفعل شيئا ما، لكنه لم يكن يشعر بضرورة أن يعرف الشعب كل التفصيلات، واعتبر أن بعض التفصيلات، مثل المحادثات الدبلوماسية والمبالغ التى تستعد الحكومة لدفعها، يجب أن تبقى سرا[٤٢].

وذكَّر جيمس ماديسون عضو الكونغرس عن فيرجينيا وزعيم المعارضة الجمهورية المجلس بأن "السرية في حكومة جمهورية تجرح جلال السيادة الشعبية، وبأن هذه الحكومة هي في أيدي الناس، وأن من حقهم أن يعرفوا كل ما يتعلق بالصفقات المرتبطة بشؤونهم". وتحرك ماديسون باتجاه الجدل المكشوف وحذر من أن السرية لن تحمي المركز الدولي للحكومة لكنها ستضعف هذه الحكومة بتدمير ثقة الشعب الأمريكي فيها. وقال إن حكومة جمهورية لا يتعين أن تدار أمورها في سرية. فكيف للشعب أن يحكم نفسه إن لم يعرف كل ما تفعله الحكومة؟

وخالفه الاتحاديون الرأي: فحتى الحكومة الجمهورية يمكن أن تكون لها أسرار. ورغم أن للشعب حقا في أن يحكم نفسه "فمن حقه أيضاً أن يحكم جيداً". وإضافة إلى أن للشعب حقوقاً، فإنه له مصالح، كما قال الاتحاديون. والحكومة مسؤولة عن حماية مصالح الشعب، كما هي مسؤولة عن حماية حقوقه، وأحياناً تصبح سرية الدبلوماسية ضرورية لتحقيق الحماية. وكسب الاتحاديون هذه الجولة، رغم أن تأكيدهم على الحاجة إلى السرية أعطت معارضيهم مبرراً للزعم بأن الاتحاديين ليسوا حماة حرية الشعب[٤٣].

وتكرر نشوب هذا الجدل حول حكم الشعب لنفسه كنقيض للحكم الرشيد كلما اقترحت حكومة الاتحاديين سياسة ما. وعندما اقترح واشنطن أن تبني الولايات المتحدة ست فرقاطات لتنزل إلى البحر في مواجهة الجزائريين، اعتبرها الجمهوريون محاولة لتوسعة سلطة الحكومة على حساب الحرية. وقال عضو الكونغرس عن فيرجينيا وليم برانش جايلز إن الأساطيل "أشياء غبية للغاية" وإن الملكية الفرنسية انهارت تحت ثقل الإنفاق على البحرية وإن إنكلترا "تئن تحت قدر هائل من عبء نفقاتها الضريبية الضخمة، للسبب ذاته[٤٤] ورأى ماديسون أنه بدلا من أن تبني الولايات المتحدة البحرية الخاصة بها فبوسعها أن تدفع للبرتغال للتصدي بحريا للجزائريين. وخشي عضو الكونغرس من نيوجيرسي إبراهام كلارك من أن تكون الفرقاطات الست مجرد بداية لتوسع عسكري، لا سبيل للسيطرة عليه. وحذر من أن "بناء ست فرقاطات هذا العام"

سوف يتبعه بالضرورة أن نحتاج إلى بناء ست أخرى، وهكذا" وهذه البحرية التى تتعاظم سوف تحتاج البشر الذين يديرونها - وزيراً للبحرية، وموظفين، ومساعدين و"قطعانا من الأشخاص الآخرين فى الوظائف، وبكلفة هائلة"(٤٥). وقد كان جيفرسون يؤمن، فى زمن مضى، بأن البحرية يمكن أن تكون أداة عسكرية آمنة فى نظام جمهورى، أما وقد أنشأت الإدارة الاتحادية بنكا وطنيا، وكونت جيشا لقمع "تمرد الويسكى" فلم يعد لدى الجمهوريين هذا الإيمان.

اسمحوا للاتحاديين بأن ينشئوا بحرية لمحاربة الجزائر، ولن يبقى هناك ضمان بأن لا يحولوها ضد الشعب الأمريكى.

ورغم أن الجمهوريين عارضوا بناء الفرقاطات فإن الاتحاديين كانوا يسيطرون على الكونغرس. وبدأت الولايات المتحدة تبنى بحريتها وأرسلت إدارة واشنطن وكلاء جددا للتفاوض مع الجزائر. فأرسل جوزيف دونالد سون رجل الأعمال الذى كان قنصلاً فى فرنسا وجويل بارلو الشاعر والمثقف الذى يعيش فى فرنسا إلى الجزائر فى ١٧٩٥ وفاوضوا الداى على معاهدة. ووعدت الولايات المتحدة بأن تدفع ٨٠٠,٠٠٠ دولار للجزائر وبأن ترسل إلى الداى ما قيمته ٢٠,٠٠٠ دولار من الإمدادات البحرية، كل عام. ومكث بارلو فى الجزائر لصياغة تفصيلات المعاهدة وليسترضى (APPEASE هذا هو الفعل الذى استخدم عندما حاولت أوروبا القرن العشرين استرضاء هتلر، وقد استخدم هذا الفعل للإشارة إلى كل محاولة للتفاهم مع صدام حسين فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى - المترجم) الداى عندما لم تصل الجزية. وقد أرسل ريتشارد أوبرايان، وهو أحد الرهائن، إلى أوروبا ليقترض المال الذى وعدت الولايات المتحدة بدفعه. وفى أثناء السفر أسرت طرابلس الغرب سفينة أوبرايان لكنه استغل الوقت الذى قضاه هناك فى التفاوض حول معاهدة مع الباشا يوسف قرامانلى ثم نزل إلى تونس ليبدأ المفاوضات مع تلك المملكة.

وبحلول العام ١٧٩٦ كانت الولايات المتحدة فى حالة سلم مع دول البربر. ورغم ذلك لم يطلق سراح أى من الأسرى، ورغم أن الفرقاطات لم يكن قد تم إنشاؤها

فقد ضغط واشنطن لاستكمال بنائها. ووافق الكونغرس على إنفاق ٦٨٨,٨٨٨,٨٢ دولار على الفرقاطات، فى ١٧٩٤. وبحلول ١٧٩٦ كانت الكلفة قد بلغت ١,١٥٢,١٦٠ دولار ولم ينته العمل فى الفرقاطات. ورفض بنك الولايات المتحدة، الذى أسسه هاميلتون ليكون أداة تمكن الحكومة من اقتراض الأموال، فى الأساس، أن يقرض الحكومة مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ دولار المطلوبة وفقا للمعاهدة مع الجزائر. وبدلا من ذلك، أصدر البنك سندات، يمكن للحكومة بيعها فى أوروبا.

وبدلاً من أن تحقق السندات قيمتها الاسمية فقد كانت مبيعاتها بائسة، وبقيت الحكومة بعد بيعها تعانى من عجز قيمته ١٠٠,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ كان يتعين جمعه من خلال الاقتراض أو فرض الضرائب. وقد انتهى هذا العجز بتحميل الولايات المتحدة ٣٠٠,٠٠٠ دولار إضافية وتأجيل إطلاق سراح الأسرى حتى ١٧٩٧. واتهم الجمهوريون الحكومة بانعدام الكفاءات وبإساءة التصرف ماليا، وبالإنفاق الزائد على القدرات العسكرية [٤٦].

وأصدر وزير الخارجية تيموثى بيكرنغ تحذيراً جديداً إلى التجار الأمريكيين من أن تعويق المعاهدة مع الجزائر يجعل تجارة أمريكا فى المتوسط غير آمنة. وهاج الجمهوريون. هل وصل شيء من الأموال إلى الجزائريين ؟ من الذى أخذ الأموال ؟ لم يكن لدى الصحافة الجمهورية "أى شك فى أن الأموال كانت أو ستكون فى أيد أمينة" ولكن فيما يفقد دافعو الضرائب أموالهم "فإن البعض سوف تتحسن أحوالهم". وأظهرت الحكاية كلها "الغباء والحماقة" فى "الإدارة المجيدة فى ست سنوات" من عهد واشنطن[٤٧].

وأصبح جون آدامز رئيساً فى ١٧٩٧ ليجد أن فرنسا، وليست الجزائر، هى الخطر الأكبر على الأمن الأمريكى. وواصل آدامز بناء الفرقاطات التى بوشر ببنائها فى عهد واشنطن، وخاضت البحرية التى أنشئت زمن إدارته حرباً غير معلنة ضد فرنسا. وإضافة إلى ذلك، بنت الولايات المتحدة فرقاطة لصالح داى الجزائر، اسمها كريزنت (CRESCENT الهلال، الرمز العثمانى الذى صار رمزاً لكل مسلم، منذ فتح

القسطنطينية - المترجم) كاعتذار عن تأخر أمريكا فى دفع الجزية. كانت الجزائر متحالفة مع إنكلترا ضد فرنسا، وأراد آدامز أن يبقى على الجزائر إلى جانب الأمريكيين. وخطط آدامز، بإيجاز، لإرسال سفير إلى تركيا، التى كانت فى حرب ضد فرنسا، هى الأخرى.

وأرسل آدامز القناصل، بالفعل، إلى الجزائر وتونس وطرابس الغرب (فذهب ريتشارد أوبرايان إلى الجزائر، ووليم إيتون إلى تونس، وجيمس ليندر كاثكارت إلى طرابلس الغرب). لكن إدارته كانت مشغولة بالحرب مع فرنسا وبمشكلاتها السياسية، ولهذا فقد تأخرت فى تنفيذ الجدول الزمنى لإرسال الجزيات الموعودة لهذه الملكيات (regencies يكرر المؤلف استخدام هذا اللفظ غير الدقيق عند الإشارة إلى كيانات سياسية تابعة، هى فى الحقيقة ولايات يقيم ملكها فى إسطنبول، لكنه يوحى من طرف خفى، باستخدام هذا اللفظ، إلى أن بلاده كانت تخشى الخضوع لقوى الرجعية فى زمن احتشدت فيه الجمهوريات ضد الملكيات التى كانت تعتبر أن زمنها انتهى - المترجم). وقد صادف القناصل، كما سوف نرى فى فصل لاحق، درجات متفاوتة من النجاح فى استرضاء حكام البربر. وأثبت قنصل أمريكا فى طرابلس جيمس ليندر كاثاركت أنه الأقل قدرة على تهدئته. ومع نهاية ١٨٠٠ كان يوسف قرامانلى يهدد بالحرب ضد الولايات المتحدة. ولم يكن بوسعه أن يتنبأ بأن توماس جيفرسون، أكبر داعية للقوة العسكرية فى المتوسط، كان بسبيله إلى أن يصبح رئيسًا للولايات المتحدة.

وقليلون هم الرجال الذين تبؤوا منصب الرئاسة بأجندة واضحة كما فعل توماس جيفرسون. كانت أجندته تتجاوز مجرد كونها برنامجا سياسيا: لقد اعتبر جيفرسون أن انتخابه فى ١٨٠٠ هو ثورة، عودة إلى مثل ١٧٧٦، على النحو الذى فهم به جيفرسون هذه المثل. فالجمهورية الأمريكية فى اعتقاد جيفرسون "وقد فصلتها الطبيعة والمحيط الواسع، بكل حنان، عن الدمار القاتل فى واحد من أقسام المعمورة" تهيأت لها فسحة تتيح لأجيال من المواطنين أن يعيشوا فى سلام وازدهار. ورغم أن الأمريكيين مسالمون فإنهم "أعلى همة من احتمال التحقير من جانب الآخرين". وعندما وصلت إلى

وزير الخارجية جيمس ماديسون مكاتبات تقول بأن باشا طرابلس الغرب يوسف قرامانلى يهدد بالحرب مع الولايات المتحدة، تصرف جيفرسون على وجه السرعة. ففى رسالته السنوية الأولى فى ١٨٠١ أبلغ الكونغرس بأن طرابلس الغرب "تقدمت بطلبات لا أساس لها من حق أو من اتفاق، وهى لهذا السبب لا تحتمل إلا ردا واحداً".

والرد كان ذلك الذى ظل جيفرسون يقترحه منذ ١٧٨٥، أرسل البحرية إلى المتوسط. اعترف جيفرسون بأن الإدارة السابقة تركت البلاد تتأخر عن دفع مبالغ الجزية. لكنه سارع إلى دفع ما هو مستحق على الأمريكيين، وبهذا "نثبت لأنفسنا الحق فى تدبر النتيجة التى تترتب على خروجهم على ما هو منصوص عليه، من جهة أخرى". فالولايات المتحدة لا تريد أن تتهم بأنها لم تلتزم بتعهداتها. كان اقتراح جيفرسون هو الدفع والحرب[٤٨].

فالتجربة الدبلوماسية التى عاشها فى ثمانينيات القرن الثامن عشر اقنعته بأن القوة العسكرية هى الطريقة الوحيدة للتعامل مع دول البربر. لكن تجربته فى تسعينيات ذلك القرن عززت خوفه من السلطة الحكومية وجعلته حذرا عند استخدام تلك القوة. وهكذا فإن جيفرسون وهو يقفز مجددا إلى قلب الشؤون المتصلة بالبربر كان بسبيله إلى أن يفعل عدداً من الأشياء. كان على تصميمه الدائم على أن لا يخضع لمطالب سلطات البربر، وحريصاً على أن يثبت لأهل شمال إفريقيا وللأوروبيين أن الأمريكيين ليسوا بسبيلهم إلى أن يلعبوا لعبة القوة التى انخرطت فيها الأمم الأخرى.

لكن جيفرسون كان مصمماً، أيضاً، على أن لا يخلق آلة عسكرية فى الولايات المتحدة، وكانت إدارته ملتزمة بخفض الدين الفيدرالى. وأراد بعض غلاة الجمهوريين، مثل وليم برانش جايلز، إلغاء البحرية تماماً. ولم يكن جيفرسون دوغماتيا على هذا النحو، رغم إصراره على تخفيضات كبيرة فى ميزانية البحرية. وقد أصر، أيضاً، على أن تكون - كأى فرع عسكرى - خاضعة بشكل صارم للسلطة المدنية، وأن لا تصبح العسكرية مصلحة مستقلة، بل أن تظل تحت سيطرة المسؤولين المنتخبين، على الدوام.

وجدد جيفرسون أيضًا فكرة التحالف الدولي. فقد هددت طرابلس الغرب السويد كما هددت الولايات المتحدة. ولم يكن جيفرسون يعلم أن آدامز رفض مفاتحات سويدية في ١٨٠٠. وقد أمر جيفرسن البحرية الأمريكية بالتعاون مع السويد أو مع أي دولة أخرى في حالة حرب مع طرابلس الغرب، وأمر الأسطول الأمريكي بأن يفرض الحصار على طرابلس الغرب إن أعلن يوسف قرامانلي الحرب على الولايات المتحدة[٤٩].

وقد كانت سياسة جيفرسون التي تبدو، في ظاهرها، متناقضة - بتخفيض النفقات الحكومية مع إرسال البحرية إلى النصف الآخر من الكوكب - موجهة، في الحقيقة، إلى الهدف ذاته. لقد شارك في ثورة ضد حكومة ضخمة وعدوانية. وهذه الثورة، كما رآها جيفرسون، انطلقت بهدف تحرير طاقات الناس. وعندما أغلقت دول البربر المتوسط أمام روح المشروع التجاري الشعبي فإنها فرضت حاجزًا لا يقل تأثيره عن تأثير قوانين الملاحة البريطانية. وقد وضعت دول البربر نفسها، بممارستها للقرصنة، خارج الحدود المقبولة للقانون الدولي.

وليس عذرًا للجزائريين أن يقال إن بريطانيا استخدمتهم للهجوم على الأمريكيين، كما أنه لم يكن عذرًا للهنود أن البريطانين حرضوهم على ارتكاب الفظائع في المناطق الحدودية. وبرفضه أن يلعب لعبة الرشوة الأوروبية، وبتصديه لسلطات البربر وإخراجهم من ترسانة الأسلحة الأوروبية المستخدمة ضد العالم الجديد، تمكن جيفرسون من إقناع أوروبا بأن دولته تنتمي لصنف جديد من الأمم، دولة لن تتبع الممارسات الفاسدة للعالم القديم.

ولم يحل ديسمبر ١٨٠١ إلا وكان بوسع جيفرسون أن يعلن النجاح، في تقرير رسمي. وقد اشتبك الملازم آندرو ستيريت وسفينته ذات الصاريين بسفينة ليبية في معركة بحرية استمرت يومًا كاملاً، قُتل فيها عشرون وجرح ثلاثون آخرون من رجال طرابلس الغرب، دون خسارة أمريكي واحد. وقد أراد جيفرسون، في مسودة مبكرة من رسالته، أن يشير إلى هذا أول مثال على الشجاعة الأمريكية، لكن أشير عليه بأن آخرين قدموا أمثلة على الشجاعة خلال حرب إدارة آدامز مع فرنسا. وقد أخبر

جيفرسون الكونغرس، بالفعل، بأن انتصار ستيريت من شأنه أن يقنع أوروبا بأن الأمريكيين مستعدون للقتال. وقد أراد جيفرسون أن يكون انتصار ستيريت درسًا لأوروبا، كما هو درس لطرابلس الغرب. ورغم أنه قال إن الأمريكيين جاهزون للقتال، فهم سيفعلون ذلك من أجل السلام مفضلين "توجيه طاقات أمتنا لتكاثر النوع البشرى، وليس لتدميره"(٥٠).

وكان جيفرسون يرمي إلى إثبات أن الأمريكيين سوف يتصرفون على نحو مخالف للأوروبيين، وأنهم لن يجعلوا الحرب والسلام خاضعين لاعتبارات التجارة، وأن بوسعهم أن يخوضوا الحرب دون خلق آلة عسكرية، وبدون التضحية بالمبادئ الجمهورية. وأبلغ جيفرسون الكونغرس بأنه أرسل السفينة إنتربرايز إلى المتوسط لأسباب دفاعية خالصة. وقرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها سيبقى متروكًا للكونغرس.

وفى الأسبوع التالى ناقش الكونغرس القضية، لينظر فيما إذا كان سوف يسمح لجيفرسون بأن "يحمى بقدر أكبر وبدرجة أشمل وفعالية أشد" التجارة الأمريكية. واعترض العضو الجمهورى عن ماريلند جوزيف نيكولسون الذى طلب حذف كلمات مثل أكبر وأشد لأن جيفرسون، ببساطة، لم يطلب سلطة أوسع. وأشار نيكولسون إلى أن إدارة جيفرسون، فى الحقيقة، تقوم بتخفضيات هائلة فى الجيش والبحرية. فلماذا يريد تقليص الجهاز العسكرى، من جهة، ويسعى إلى مزيد من القوة العسكرية، من جهة أخرى؟

هذا "يعنى أن تقول الشيء وعكسه فى نفس واحد". وقد كان الاتحاديون يعلمون ذلك ويريدون أن يسجلوا على الجمهوريين أنهم يقولون شيئا - يعدون بخفض الإنفاق الحكومى - ويفعلون شيئًا آخر - بالزيادة الفعلية للإنفاق. أراد الاتحاديون إثبات لا منطقية السياسات الجمهورية والتناقضات فى إدارة جيفرسون للدولة. وقد اعتبر الاتحاديون أن جيفرسون من أساتذة السياسة، رجل واثق يمارس الخداع على الشعب الأمريكى، الذى يجهل تناقضاته بما يمنحه للشعب من "ابتسامة أو إيماءة أو ضغطة على اليد"(٥١).

ورغم أن الكونغرس زود جيفرسون بمزيد من السلطات ليحمي التجارة، فقد كان يبدو في ١٨٠٢ أنه قد لا يحتاج ذلك. فقد كان الحصار السويدي- الأمريكي والشتاء القاسي في شمال إفريقيا يهددان طرابلس الغرب بالمجاعة. ولم تهب لا الجزائر ولا تونس لمساعدة طرابلس الغرب. وفي ديسمبر ١٨٠٢، أعاد جيفرسون، الملتزم بحماية التجارة الأمريكية من غير تعزيز للقدرات العسكرية، تأكيد حصاره لطرابلس الغرب، كطريقة لتأمين التجارة الأمريكية "بأقل قوة ذات كفاءة" كافية لأداء المهمة[٥٢].

وكان بوسع جيفرسون، أيضاً، أن يضمن تقريره أن مراكش لن تحارب أمريكا، بفضل "النهج المعتدل والصحيح" الذي اتبعه القنصل جيمس سيمبسون وبفضل "علو الهمة والنشاط لدى الكومودور إدوارد بريبل. وامتدحت "ناشيونال إنتلجنسر" فرض السلام مع ماركش من جانب جيفرسون "بشروطه هو" وبغير دماء أو جزية. ما رأى الاتحاديين، الذين صاحوا قائلين منذ زمن غير بعيد "الملايين من أجل الدفاع، ولا سنتاً واحداً للجزية" في هذا؟ وذكَّرت إنتلجنسر قراءها بأن الرئيس واشنطن "وهو يحذو حذو أوروبا" اشترى السلام من الجزائريين بمخازن بحرية وفرقاطة. لقد فعل جيفرسون أكثر وبثمن أقل و"دون دولار واحد كجزية" ! وفي اليوم ذاته، نشرت إنتلجنسر مقتطفاً من يوميات جون رودجر يحتوي على تفصيلات عن انتصاره في يونيه على فرقاطة من طرابلس الغرب، الذي انتهى إلى أن فجر القبطان الطرابلسي فرقاطته مفضلاً ذلك على الاستسلام. رأت طرابلس الغرب أن ميزان القوة هو لغير صالحها، وبشكل يائس، وكان مبعث سرور لجيفرسون أن يروي للكونغرس "الحقائق المشرفة" في "المشروع الشجاع" الذي نفذه رودجز.

بلغت ثقة الإدارة بسياساتها حدا جعلتها تتجاهل اقتراحات وليم إيتون، القنصل في تونس، الذي أشار بزيادة القوة العسكرية في المتوسط "متوقعة بداية قريبة لألف سنة من السياسة باعتبارها نتيجة لا راد لها، لطيبة القلب والتكامل العقلي ولاستقامة الطبيعة التي يتميز بها السيد جيفرسون" وتلقى إيتون تأكيدات بأن "كل الأمم، حتى القراصنة والمتوحشين، يحركهم تأثيره (تأثير جيفرسون) بما لديه من فضيلة مقنعة ومهارة فائقة في الدبلوماسية[٥٤].

وانتهت كل رسالة بوعد أن تأتى الرسالة التالية بخبر النصر والسلام. وفى أكتوبر ١٨٠٣ شحطت السفينة الأمريكية فيلادلفيا، ثانى أكبر سفينة فى البحرية، أمام سواحل طرابلس الغرب وأسرت بمن عليها من بحارة عددهم ٣٠٠. أودع الرجال السجن، وأعيد تجهيز السفينة للاستخدام ضد الولايات المتحدة. وعندما نزلت على الناس هذه الأخبار فى مارس ١٨٠٤، أصبح لدى الاتحاديين فى النهاية مثال مجسد على عجز جيفرسون، يمكنهم أن يستخدموه ضده، لقد حاولوا طويلا لفت الأنظار إلى التناقض بين سعى جيفرسون إلى خفض الإنفاق العسكرى ووعوده بالحفاظ على قوة كافية، ولكن طالما كان جيفرسون والبحرية ناجحين، فقد بقيت هذه تهمة فارغة، لكن أصبح بوسع الاتحاديين أن يقولوا الآن إنه لو أن جيفرسون أرسل بالمزيد من السفن إلى المتوسط لما وقعت فيلادلفيا فى الأسر. ولو كانت هناك فرقاطة أخرى أو حتى سفينة أصغر، فى صحبتها، لما تعين على الكابتن وليم برينيبريدج أن ينزل الراية ويسلم للطرابلسيين. وبعد أن كلفت اقتصاديات جيفرسون هذه الأمة فرقاطة فقد أصبحت هجمات الاتحاديات تبدو ثابتة الصحة.

ودعا جيفرسون، على الفور، إلى زيادة القوة فى المتوسط. ودفع هذا الأمر صحيفة إيفننغ بوست فى نيويورك إلى الاستشهاد بسويفت:

هاكم الدليل على البداهة الأيرلندية،

حيث يظهر الذكاء الأيرلندى.

بعد أن لم يبق شىء يستحق أن نحميه،

بادرنا إلى بناء مخزن(٥٥).

ورغم أن جيفرسون دعا، فى تلك اللحظة، إلى زيادة القوة، فقد بقى على إصراره الدائم على الحؤول دون أن تنمو القوة العسكرية حتى ينفلت عقالها. لم يقبل بالاستدانة لزيادة حجم البحرية، ولا بأن تأخذ إدارته ما لا تدفع به الدين الوطنى. وبدلا من ذلك أحيا جيفرسون ووزير خزانته ألبرت غالاتين الفكرة التى روج لها جيفرسون فى

ثمانينيات القرن الثامن عشر، والتى تدعو إلى ضريبة خاصة على أصحاب التجارة فى المتوسط. وكان مقررا أن تبقى ضريبة الواردة هذه، والبالغة ٥ر٢ بالمئة طالما بقيت الحرب مع طرابلس الغرب، فقط. كانت الإدارة تخشى احتمال "الضرائب المتزايدة، والحكومة المتغولة، وغوايات الحرب الهجومية وما إلى ذلك" أكثر مما كانت تخشى طرابلس الغرب. وكان جيفرسون وغالاتين متفقين على أن الاستعداد لحرب طارئة يشجع على الحرب. وأصرت الإدارة على خوض الحرب بأموال جمعت لغرض الحرب دون سواه، وعلى أن لا تكون البلاد فى تأهب دائم للحرب[٥٦].

ولم يفكر الاتحاديون كثيرا، لا باقتصاديات جيفرسون ولا بخطته الرامية إلى الحؤول دون ظهور مؤسسة عسكرية دائمة تسندها ضرائب دائمة. واعتبروا صندوق المتوسط حيلة أخرى يقصد بها جيفرسون أن يزيد شعبيته. وأصرت تشارلستون (ساوث كارولينا) كوريير على أنه قلص حجم البحرية ليضمن إعادة انتخابه، وبعد أن أفضت وعوده بضبط النفقات إلى حصاد من "حصافة القش والسخام"؛ فإن "ملهاة الحرص الشديد على المال التى خدع بها الجمهور، تختفى من على المسرح". واعتبرت نيويورك بوست، وهى صحيفة أليكساندر هاميلتون أن "خسارة فيلادلفيا" درس عملى فى اقتصاد جيفرسون" كما اعتبرت الأموال من أجل المتوسط "المحاولة الأكثر جرأة" بين كل ما رأيناه "لفرض عبء ثقيل على الولايات التجارية" وفضحت الصحيفة ما وراء هذه المحاولات" الاستنزافية والقمعية وغير النزيهة" التى يقوم بها "حواة سياسيون" مشيرة إلى أن الولايات المتحدة مدينة بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ دولار، فوائد سنوية على الأموال التى اقترضتها لشراء لويزيانا: فهل كانت مجرد مصادفة أن أموال صندوق المتوسط تحصل بواقع ٧٩٢,٠٠٠ دولار، كل سنة؟

لقد كان جيفرسون يفرض الضرائب على تجار نيوانغلند ليشترى المزيد من الأراض للمزارعين الجنوبيين، محاولاً "زيادة العائدات دون أن يفقد الشعبية". كان التجار بحاجة إلى البحرية لحماية تجارتهم، وقد خرب جيفرسون البحرية ثم فرض الضرائب على التجار بدعوى حمايتهم، واستخدم العوائد لشراء لويزيانا. لم تكن الإدارة

راغبة فى فرض الضرائب على المزارعين أو العمال، لأنها تحتاج أصواتهم. ولم يكن غالاتين يرى أنه من المناسب جمع الأموال بفرض الضرائب على (ويسكى الجنوب) بعد أن ارتاح منها (فم العامل) بكل سرور(٥٧).

وتعرضت خطة جيفرسون لخفض نفقات البحرية ببناء زوارق مدفعية صغيرة للدفاع عن المرافئ والأنهار، دون أن تكون لديها القدرة على عبور المحيط والتصدى لطرابلس الغرب أو لشن حرب هجومية، هى الأخرى لسخرية الاتحاديين. وعندما أطاحت عاصفة بأحد الزوارق، وأخرجته من نهر سافاناه وألقت به فى حقل حنطة، أشارت نيويورك بوست إلى أن الزوارق "قلدت الرئيس الأعلى الشجاع للبحرية" فى الدفاع عن المصالح الزراعية. وقال شخص مجهول فى بوسطن "إذا كانت زوارقنا المسلحة غير ذات جدوى فى الماء، فقد تكون أفضل حالاً على البر"(٥٨).

وقد ساند الاتحاديون، دائمًا، البحرية واعتبروا الجمهوريين أعداءها. واقترح أحد الاتحاديين نخبا يقول "عسى أن تحمى قوتها تجارتنا" مضيفًا "ويشتت مجدها أعداءها فى واشنطن وفى طرابلس الغرب" وقد اتهم الاتحاديون جيفرسون وإدارته الجمهورية بأنهم أكثر اهتمامًا بشراء المستنقعات والملاحات فى لويزيانا منهم بحماية التجارة والبحارة الأمريكيين فى المتوسط(٥٩). ولو أن الإدارة أرسلت ما يفوق "أصغر قوة ذات كفاءة" إلى المتوسط، لما كانت فيلادلفيا وقعت فى الأسر.

لكن جيفرسون رأى أنه بما أن فرقاطة واحدة تتكلف أقل من اثنتين فالاقتصاد يقتضى أن تكون قبالة سواحل طرابلس الغرب فرقاطة واحدة. وكلف هذا الاقتصاد الساذج البلاد فرقاطة، والآن يرى جيفرسون ضرورة بناء المزيد من الفرقاطات. وأقر السناتور من نيوهامبشاير وليم بلامر بأن إدارتى آدامز وواشنطن أنفقا على البحرية أكثر مما يجب، أكثر من مليونى دولار مقارنة بـ ٦٠٠,٠٠٠ أنفقها جيفرسون ميزانية سنوية للبحرية. لكن بلامر اعتبر أن ميزانية جيفرسون صغيرة إلى حد أنها "سياسة رديئة وشر سافل" أن نرسل الرجال إلى المعركة دون قوة كافية. وكتب بلامر يقول إن البحرية بالحجم المطلوب مكلفة وربما كانت ستتسبب بإيذاء "شعبية جيفرسون كاقتصادى وتقلل من حب الدهماء له" لكنها كانت كفيلة بإنقاذ الأرواح(٦٠).

وكان يمكن للاتحاديين أن يكسبوا فى هذا الجدل، لكن ضابطا من الجيل الثانى فى البحرية هو ستيفن ديكاتور وضع حدا للمجادلات حول الحرب بالتسلل إلى مرفأ طرابلس الغرب ومعه طاقم مختار بعناية وأشعلوا النار فى فيلادلفيا. ولا يمكن تصور التأثير الذى أحدثته هذه الأخبار عندما وصلت إلى أمريكا. ففى ساليم آوى وليم بنتلى إلى فراشه مكتئبًا، فى ١٥ مايو ١٨٠٤. كان اجتماع متصل لمجلس المدينة ذلك اليوم قد اختار رجالاً قليلى القيمة للمناصب المحلية: رفض أفضل رجال ساليم الخدمة. وكان بنتلى قلقًا على مستقبل ساليم. لكن روحه المعنوية ارتفعت فى اليوم التالى وكتب "نتلقى أخبار إحراق فيلادلفيا فى مرفأ طرابلس الغرب فى الوقت المناسب لنرتاح من أحداث الأمس". وفى كل أنحاء البلاد كانت إغارة ديكاتور تحرك العواطف الوطنية، وتحول هزيمة مدمرة إلى نصر مجيد[٦١].

وعلى شجاعة العمل الذى قام به ديكاتور، فهو لم يغير الموقف فى طرابلس الغرب. وفى أغسطس وسبتمبر ١٨٠٤ شددت البحرية حصارها لتلك المدينة ثم قصفتها. لم تنجح العمليات وتم وقفها حتى ربيع ١٨٠٥. وعندما استؤنفت بدأ وليم إيتون زحفه الشخصى من مصر، عبر الصحراء الليبية، إلى مدينة درنة. كانت البحرية تحاصر طرابلس الغرب، وإيتون يحاصر درنة، وتوبياس لير يتفاوض على معاهدة سلام. وفى يونيه ١٨٠٥ وافقت الولايات المتحدة على أن تدفع فدية مقدارها ٦٠,٠٠٠ دولار لإطلاق مائة أسير. وانتهت الحرب.

وطلبت نيويورك بوست من "وزرائنا المختالين الصاخبين المعتوهين الذين يحدثوننا عن خوارق السير جيفرسون الذى وصل بالحرب مع طرابلس الغرب إلى نهاية مجيدة" أن يقرأوا عن العملية الفرنسية ضد الجزائر التى أسفرت عن إطلاق الأسرى الفرنسيين خلال أربع وعشرين ساعة. وهكذا" فمجرد إظهار قوة محترمة ولهجة مناسبة" أنجز فى يوم ما احتاج من جيفرسون أربع سنوات. ورأت نيويورك بوست أن الجمهوريين يتعين عليهم التزام الهدوء فيما يخص "الأسلوب الغبى الذى خضنا به الحرب أربع سنوات"[٦٢].

وردت "أوردرا" فى ولاية فيلادلفيا بقولها إن الاتحاديين كان يجدر بهم ترك الضباط وأفراد طاقم الفرقاطة فيلادلفيا "رهين الأغلال إلى الأبد بدلاً من رؤية جيفرسون وهو يحوز "شرف تحريرهم وإذلال برابرة طرابلس". وعندما انتهت الحرب وعاد السجناء والأسطول الأمريكى المنتصر إلى الوطن، كتبت "أوردرا" أن "الأحداث تتكلم عن نفسها" وأن "حكمة وحصافة" الإدارة كسبت الحرب رغم الهذر الاتحادى.

وفى عشاء فى ريتشموند كان النخب تحية للإدارة "نجاح تدابيرها أفضل برهان على نشاطها"(٦٣). وزعم الجمهوريين أن كل التدابير كانت ناجحة. حتى صندوق المتوسط، والتى رأى الاتحاديون أنها كانت احتيالاً لجعل تجار نيوانغلند يدفعون ثمن لويزيانا، راح الجمهوريون يزعمون أنها كانت سلاحا مهما. ويقال إن يوسف قراناملى قرأ الصحف الأميركية و"أدهشه، على نحو خاص... تقرير وزير الخزانة " حول جمع ما يزيد على نصف مليون دولار لصالح صندوق المتوسط، سنويا. وغمر وزير الخزانة غالاتين الباشا بـ "الدهشة والقلق" وجاء فى تقرير وزير الخزانة أن يوسف رأى أن روح الأمة الأمريكية لم تنكسر بعد "وعلم أنه عاجز أمام أمة" يمكن إذن أن تقدم (الملايين من أجل الدفاع ولا سنتًا واحدًا من أجل الجزية)(٦٤).

وفى الحقيقة، وعلى رغم أن معظم الأمريكيين المعاصرين اعتبروا الاتحاديين ساخطين لأسباب حزبية، فإن المؤرخين الذين جاؤوا بعد ذلك، ساروا على نهجهم من حيث إدانة معالجة جيفرسون للحرب مع طرابلس الغرب، باعتبارها معالجة تكشف عن قلة كفاءة أو عن تناقض، وأن الحظ وشجاعة ديكاتور فقط، أنقذ الموقف. لكن الاتحاديين والمؤرخين التالين جانبوا الصواب. لقد دعا جيفرسون إلى استخدام القوة ضد سلطات البربر منذ ١٧٨٥، لكنه لم يعتبر الحرب إلا أداة محدودة يتعين أن تبقى تحت السيطرة الكاملة للسلطات المدنية. وكان جيفرسون، ربما أكثر من أى من معاصريه، يخشى عواقب القوة المفرطة. تعين عليه أن يحارب طرابلس الغرب دون أن يطلق قوى الحرب من عقالها، وهو أمر اعتبر أن من شأنه أن يفضى إلى حكومة موسعة وأن ينطوى على استبداد الجهاز التنفيذى. وزار وليم بلامر وهو اتحادى من نيوهامبشاير جيفرسون عندما كان مجلس الشيوخ ينظر فى معاهدة طرابلس الغرب. وأخبر بلامر جيفرسون

بأن حكومة الولايات المتحدة تبدو أنسب للشؤون الداخلية منها للشؤون الدولية. وقال له جيفرسون: "ملاحظتك كاملة الصحة، فدستورنا مؤسسة سلمية - وهو لم يصمم بهدف الحرب. والحرب يمكن أن تعرض وجوده للخطر"(٦٥). وفي الحرب ضد طرابلس الغرب أبقى جيفرسون على خضوع العسكريين للسلطة المدنية بشكل صارم واستخدم صندوق المتوسط ليضمن أن أولئك الذين يستفيدون من الحرب يدفعون كلفتها. لكن جيفرسون كان يعلم أيضًا أن فوائد هذه الحرب تمتد إلى ما وراء تأمين تجارة المتوسط.

وعندما أثبت الأمريكيون قدرتهم على استخدام القوة دون انتهاك، ودون أن تهيمن عليهم القوة، فقد أثبتوا، كما كتب جون بول جونز قبل عشرين عامًا، أنهم شعب يستحق الحرية.

قبل ذلك بعشرين عامًا أثار زوار من شمال إفريقيا الخوف والشك. والآن، في ١٨٠٥، لم يكن مثل هؤلاء الزوار إلا موضع فضول غير مؤذ. وعادت السفينة جون آدامز إلى نيويورك بسبعة من أسرى الحرب الطرابلسيين، في مارس ١٨٠٥. وكان وصولهم مصدر جذل للمسارح المحلية التي تسابقت على الفوز بحضور الطرابلسيين. ورغم أن جمهور نيويورك كثيرا ما شاهد "تشخيص الأتراك والباشا ذى الثلاثة أذيال (هنا تورية أصلها أن رتبة الباشا يرمز إليها عند العثمانيين بذيول أحصنة ثلاثة، لكن المقصود هنا أن الباشا نفسه هو كائن له أذيال ثلاثة - المترجم)": فقد كانت هذه أول مرة يظهر فيها "التركى المستورد الأصلى الحقيقى" على أى مسرح أمريكي. واجتذب الطرابلسيون السبعة جمهوراً حاشداً حتى أن أحد المسارح قدم ليلة خاصة بهم فى نهاية مارس وأعلن عن أنه فى ٥ أبريل "سوف يزور الأتراك المسرح للمرة الأخيرة حقا " وبالمقابل، فقبل ثلاثة أعوام طُرد ثلاثة يهود من فيرجينيا خوفًا من أن يكونوا جواسيس للجزائر والآن فإن سبعة بحارة طرابلسيين أُسروا عقب معركة مع سفينة أمريكية يسرون عن الجمهور ويرفع عدد جمهور المسرح(٦٦).

وكان التناقض أشد فى ريتشموند بفيرجينيا. فقد ترأس الدكتور وليم فوشى الذى سبق له استجواب المراكشيين الغرباء فى ١٧٨٥ عشاء أقيم على شرف وليم برينبريدج وغيره من الأسرى العائدين فى ١٨٠٥. وربما تذكر فوشى الأيام الشتوية المظلمة فى ١٧٨٥ عندما استدعاه باتريك هنرى لاستجواب الأشخاص الغامضين القادمين من شمال إفريقيا والذين اهتزت الولاية لقدومهم، بدرجة كبيرة. كم تبدو أيام الخوف والشك تلك مختلفة عن هذه الأيام من القرن التاسع عشر!

فى ١٧٨٥ لم تكن هناك حكومة قومية يمكن الحديث عنها، كان للولايات المتحدة حق اسمي على الأرض الممتدة حتى حوض المسيسيبى، ولكن ذلك كان يقتضى خوض منازعات على كل بوصة منها مع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والأهالى المخيفين المحليين، وكان الأمريكيون أسرى فى الجزائر. أما الآن، فى ١٨٠٥ فالولايات المتحدة مسيطرة على المسيسيبى وعلى معظم منابعه. وقد تخلت فرنسا عن العالم الجديد، وكانت حكومة اتحادية محبة للخير تهدئ الهنود، وعاد الأمريكيون منتصرين من المتوسط، بعد أن أذلوا الأعداء القدماء للحضارة المسيحية، مؤكدين دورهم كأمريكيين فى الدفاع عن الحرية. وقد كان الانتصار على طرابلس الغرب الذى احتفل به فوشى فى ١٨٠٥ هو الذى جعل الأمريكيين أنداداً لأى شعب آخر، ليس بسبب القوة العسكرية، ولكن لأن تلك القوة كانت تهتدى بروح العدالة ولأن هدفها كان الحرية وليس الغزو.

وقد كان الأمريكيون، رجال دولة وبحارة، قادة وجماهير، مختلفين عن "النهابين من السادة التابعين (vassals ويطلق هذا اللقب على كل سيد يتبع سلطة أعلى، بخاصة إذا كانت إقطاعية، ويشير به النص إلى باشوات الشرق التابعين للسلطان العثمانى آنذاك – المترجم) من الباشوات الطغاة" كما وصف أحد الشعراء كلا من الطرابلسيين والأمم الأوروبية التى سكتت على لصوصية الباشوات وطغيانهم. وربما تأمل فوشى التحولات التى جاءت بها السنوات العشرون وهو يترأس حفل العشاء هذا. لم يكن الأمريكيون شعباً جديراً بالاحترام فحسب، شعباً يستحق أن يحتذى. وكما أعلن أحد المحتفلين فى العشاء فى ريتشموند، فإن دول البربر لم تكن لتكلل هامات العالم المتحضر بالعار لو أن حكومات أوروبا استلهمت "الروح الأمريكية"(٦٧).

الفصل الثانى

الولايات المتحدة وطيف الإسلام

لدى الأمريكيين والأوروبيين أفكار مشوهة عن الإسلام، لكنهم يجدون أن هذه الأفكار نافعة. لقد خلق كتاب التنوير صورة للعالم المسلم قامت بدور التحذير اليقظ من أخطار الخضوع للاستبداد، ومن أخطار حظر الجدل العام، وأخطار الشرين التوأمين وهما الطغيان والفوضى. وبقيت صورة الإسلام لدى الأوروبيين والأمريكيين رغم الخلافات الدراماتيكية فى أفكارهم السياسية. وخلال الثورة الأمريكية، كان بوسع الوطنيين أن يستخدموا صورة الانكشارية لتخويف مواطنيهم من خطر الخضوع للطغيان البريطانى. وكان بوسع المحافظين استخدام الصور التى رسمها الغربيون للنبوة لتحذير مواطنيهم من أخطار قلقلة النظم المستقرة واتباع الدعاة المتحمسين للأفكار الجديدة. وخلال الجدل حول الدستور، كان بوسع الاتحاديين أن يحذروا من أخطار الفوضى وغياب الاستقرار بالإشارة إلى الإمبراطورية العثمانية التى لم تكن تملك السيطرة على الأقاليم البعيدة الخاصة بها، فى حين كرر المعادون للفيدرالية التحذيرات الثورية من السلطة المركزية بالإشارة إلى طغيان الحكم المطلق لدى السلاطين المسلمين. وقد اختلف الأمريكيون، على تنوع فلسفاتهم السياسية، حول الدروس التى يمكن أن تستفاد من تاريخ المسلمين. لكنهم اتفقوا جميعًا، محافظين ووطنيين، اتحاديين وجمهوريين، على الزعم بأن الإسلام يعزز القمع الدينى والسياسى(١).

ويمكن إدراك الصورة الأمريكية والأوروبية عن العالم المسلم، بكل وضوح، من سيرة لمحمد كتبها إنكليزى مجهول فى نهاية القرن الثامن عشر وأعيدت طباعتها فى أمريكا فى ١٨٠٢. ويحدد العنوان المطول لهذا الكتاب طبيعة خطابه: "حياة محمد، أو تاريخ الزيف الذى بدأه وواصله ثم انتهى إلى تكريسه فى بلاد العرب: وهو الذى أخضع قسمًا كبيراً من المعمورة، أكبر مما حرره دين المسيح، حتى الآن". وقد كان "القلب العطوف" للمؤلف (علامتا التنصيص تشيران إلى تحفظ المؤلف - المترجم) يتألم لمرأى عقلاء الرجال "وقد انحطوا إلى مرتبة المتوحشين" بسبب "الاحتيال والشر" النابعين من محمد. وقد نزل الخداع والعنف بالمسلمين إلى درجة من التدنى جعلت هذا المؤلف لا يرى طريقة لإنقاذهم إلا بغزوهم. فالغزو الغربى وحده هو القادر على أن يحرر المسلمين من "ذلك النسق من التجديف والظلم الذى يستبعدهم فى الحاضر". فلا يمكن لأى غزو سلمى بالمبشرين أو المعلمين أن ينور المسلمين الذين يدعم حكامهم معتقداتهم الخاصة بـ "أسلحة حقيقية" ولم يعودوا يحترمون إلا منطق القوة. فهداية الوثنيين والمتوحشين أسهل من هداية المسلمين إلى الدين الصحيح(٢).

ولم تكن الاختلافات الدينية بين الإسلام والمسيحية إلا جزءا من المشكلة. وكما تزعم هذه الترجمة لمحمد، فإن الإسلام أسس لطغيان يستبد بعقول الناس، وهو ما خلق استبدادا سياسيا شريرا. وفى نهاية المجلد، أعلن الناشر عن كتابين كان يعلم أنهما يروقان لقراء هذه الترجمة لمحمد. أحدهما كان سلسلة مقالات عن خلاص المسيح وغير ذلك من الأفكار الدينية. وكان الآخر "روح القوانين" لمونتسكيو، وهو أوسع الأعمال التى تناولت النظرية السياسية فى القرن الثامن عشر تأثيراً، حيث يشرح أفكاراً ليبرالية عن الحكم والتنظيم السياسى. وقد ضم هذا الكتاب عن "حياة ماهوميت" (MAHOMET من الصيغ التى كُتب بها اسم الرسول الكريم فى العصور السالفة ، وقد أبقينا عليها حتى عندما استخدم النص الاسم الصحيح إشارة إلى أن النقد الغربى هنا يعالج شخصا مخترعا لا علاقة له بالنبى الكريم - المترجم) مجلداً ضم أيضًا - تقريراً عن مصر انتهى بتحذير من شرور الملكية المطلقة التى ليست سوى "مسلخ للشعب" بقدر ما هى للحكام. فالسلطة المطلقة للأمير "تضع حياة الملايين فى مرتبة

أوراق اليانصيب" وتغرى الملك بشرور لا يملك أن يقاومها. وإذا تصرف الحاكم المطلق، الذى يسمح الإسلام بوجوده، بأقصى ما تسمح به سلطاته "فاحتمال موته فى فراشه ضئيل". وقد أقر المؤلف بأن المصريين القدماء عرفوا قدرا من التحضر بل ومن السعادة تحت سلطة حكامهم المطلقين لكن "لا يجب أن يعجب أحد بهذا الحكم لهذا السبب أو أن يأمل أن يحصل قدرا مساويا من السعادة بمحاولة استعادة هذه الخبرة [٣].

وقد اعترف المؤلف المجهول لكتاب "حياة ماهوميت" بأنه مدين للترجمة الإنكليزية الوحيدة الأخرى لمحمد التى كتبت فى ١٦٩٧ بقلم همفرى بريدو، الكاهن الإنكليزى. ورغم التنويه ببريدو فإن المؤلف يعتبر أنه يفتقد الأسلوب والترتيب كما يفتقد SINE QUA NON (أمراً أساسيا، وهو تعبير لاتينى - المترجم) فى التأريخ الجيد وهو أمر تشعر به بأكثر مما تقدر على وصفه". فقد عجز بريدو عن إثارة مسائل خلقية وفلسفية، ولم يكن نقديا بما يكفى عند تقديم البراهين. ورغم أن الإنكليزى المجهول لم يكن كاتبا موضوعيا، فقد كان بريدو أقل موضوعية. فقد كتب بريدو كتابه المعنون "الطبيعة الحقيقية للزيف، كما تجسد فى حياة ماهوميت، تجسيدا كاملا" باعتباره تحذيرا للشباب الذين فتر اهتمامهم بالدين وأصبحوا يتعابثون بأفكار خطيرة مثل الدين الطبيعى، وهى عقيدة تقول بأن الله ربما خلق العالم لكنه لم يتطلب من الإنسان اهتماما كاملا. وكان بريدو باحثا فى الدين وكان يخطط لكتابة عمل تاريخ كبير عن سقوط القسطنطينية بأيدى المسلمين. لكن المد المتصاعد للامبالاة بالدين أفزعه فقرر أن يكتب ترجمة ماهوميت ليحذر الشباب الذين أظهروا اهتماما بالموضة وبتفاهات الحياة يفوق الاهتمام بأرواحهم. وقد كان دعاة الدين الطبيعى والفكر الحر يزعمون أنهم يحررون عقول البشر من أغلال الجهل والخرافة، وقد رأى بريدو فى قصة الإسلام أن هذه اللامبالاة تنتهى إلى العبودية. ويقصد بذلك أنه بمجرد أن يكف الناس عن الاهتمام بالدين، اهتماما جديا، معتقدين أن كل إنسان يحق له أن يستفتى قلبه ويتبع الرب الذى يختاره، فلن يكون بوسعهم أن يكتشفوا مزيفا دينيا مثل ماهوميت، إلا بعد فوات الأوان. فبوسع النبى المزيف أن يكتسب من المتحولين إلى عقيدته عدداً كافياً

لاستبعاد الأمة. وقد كان بريدو، شأنه شأن قريبه الراديكالي والترمويل، الذى هاجمت رسالة كتبها فى تسعينيات القرن السابع عشر فكرة السلطة المطلقة لدى الملك، يحاول أن يوقف تجذر الطغيان فى إنكلترا. واعتقد بريدو أن الوقاية من الطغيان تكون بالوقاية من المرض الاجتماعى الذى يسمح به. وبرأيه أن التعصب الدينى لم يكن ليجد متنفساً لو أن الناس فى بلاد العرب استمسكوا بدينهم السابق. فقد اندفع ماهوميت بقوة الشهوة والطموح ليصبح طاغية، لكن ضعف التدين عند الناس هو الذى يسر له النجاح. وكان بريدو يأمل أن تحذر قصته هذه الشعب الإنكليزى فى تسعينيات القرن السابع عشر، كما تمنى الكاتب الذى جاء بعده تحذير الإنكليز فى تسعينيات القرن الثامن عشر، من أخطار الإلحاد والدين الطبيعي واللامبالاة بالدين[٤].

ووفقا لما قاله بريدو فإن ماهوميت جاء من أسرة نابهة، وإن كان موت والديه حرمه من الميراث القيم. ورفض بريدو الروايات الأخرى التى ترجع ماهوميت إلى اصول "متواضعة وحقيرة". وقد كان الطموح والشره عنصرين خطيرين فى الشخصية التى رسمها بريدو لماهوميت، الذى قال إنه ولد فى بيت رفيع لكنه فقد مكانته. وبحث ماهوميت عن الطرق التى يعزز بها مكانته بعقله "المراوغ والماكر". وقد كان أهل مكة يعبدون آلهة كثيرة ومختلفة ويحترمون المذاهب الدينية لجيرانهم. وكانت هذه الديانات المتنوعة تعتبر حقائق نسبية، ولم يكن أى منها يعتبر حقيقة مطلقة. واستغل هو هذا التسامح والنسبية، واعتقد أنه بقدرته على خلق دين جديد خاص به، يمكنه أن يحظر كل الديانات الأخرى ويضمن سلطانه هو[٥].

ولم يكن بريدو مجرد كاتب مسيحى أزعجه أن ماهوميت ادعى النبوة، أو أن ماهوميت أنكر ألوهية المسيح. فماهوميت عند بريدو كان مهرطقا دينيا، ولكن خطيئته الحقيقية كانت فى طموحه. وأشار بريدو إلى أن "خديعة" ماهوميت بدأت فى نفس الوقت، تقريبا، مع صعود غريغورى الأول إلى البابوية وإعلانه أن السيادة على مجمل الكنيسة المسيحية صارت له. ولأن ماهوميت وغريغورى الأول "تآمرا ليؤسسا لنفسيهما إمبراطورية بالخداع" فقد حثا أتباعهما على استخدام النار والفولاذ لتحقيقها.

وقد كان بريدو، وهو كاهن أنغليكاني، يرى فى الإسلام والكاثوليكية قدمى المسيخ الدجال وقد وطئتا العالم المسيحى فى الشرق والغرب. فكل من الكاثوليكية والإسلام يسمح بالطغيان السياسى، ولكن ما يفوق الشر المتأصل فيهما، من حيث الأهمية، هو أنهما مسموح لهما بالنمو بفضل لامبالاة الطيبين من البشر بالنتائج المترتبة عليهما(٦).

وكان بريدو يأمل أن توقظ الصورة التى رسمها لمحمد أولئك الذين أغوتهم الديانة الطبيعية أو الذين لا يبالون بها. لقد نجح ماهوميت لأن الناس أقلعوا عن أخذ دينهم الحقيقى مأخذ الجد وبدأوا يتساءلون حول ركائز معتقدهم. وقد استغل ماهوميت اللامبالاة الدينية ليخلق طغيانا دينيا انتهى إلى طغيان سياسى. واستخدم الوحى غطاء كاذبا يغطى الطموح السياسى، وهو طموح كان يمكن أن يحققه بالإقناع، عندما يكون ذلك ممكنًا، وبالسيف، عندما تدعو إلى ذلك الضرورة. وعندما طلب الناس من ماهوميت برهانًا على قدسية رسالته وأرادوا أن يروا معجزات، رد عليهم ماهوميت بأن الله مل من إظهار الدلائل وأرسل خاتم النبيين ليؤسس الدين بالسيف. ولهذا السبب، كما قال بريدو، فإن شيوخ المسلمين يخطبون والسيف إلى جانبهم.

وبعد قرن من الانشقاقات الدينية والسياسية الإنكليزية التى دفعت بريدو إلى وضع كتابه "الطبيعة الحقيقية للزيف" فإن الانشقاقات السياسية والدينية كانت وراء الطبعتين الأمريكيتين لكتابه. وتُظهر هاتان الطبعتان المنفصلتان الاستخدام السياسى المباشر الذى يمكنه الاستفادة من حياة محمد، حتى بعد الكتابة عنها بقرن كامل، فى أمريكا. وقد أصدر ستيوارت وكوتشران، وهما ناشران للكتب الدينية فى فيلادلفيا، الطبعة الأمريكية الأولى لكتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" فى ١٧٩٦. وضمن الناشران الأمريكيان هذه الطبعة مقدمة بريدو الأصلية بما فيها من هجوم على "الغلبة الهائلة للكفر فى العصر الحاضر" ومن الدعاء الموجه إلى كل كاهن مسيحى لمحاربة الدين الطبيعى والردة ونتائجها المخيفة.

وقد أفزع بريدو فى ١٧٩٦ "الشعور بالنشوة" الذى وقع فيه كثير من الناس، وبخاصة الشباب، بغير تبصر متقبلين كل ما هو "رائج وعلى الموضة". وكان يمكن لهذا أن يكتب فى ١٧٩٦ بقلم أى أمريكى أزعجه العصر الذى أفرز توماس بين والثورة الفرنسية وغير ذلك من هجمات على المسيحية وعلى النظام. وقد حذر بريدو من أن كثيرا من صناع الرأى يعبثون بفكرة الدين الطبيعى، وهو ما يؤدى "بغير المتفكرين من الناس" إلى اعتبار أن "المسيحية خدعة وزيف" دون أن يفكروا فى ماهية الزيف الحقيقية. وقد حدد كتابه "الطبيعة الحقيقية للزيف" ما يعتبره زيفًا، بوضوح. وقد يأمل أن يقنع المتشككين بالاختلاف بين المسيحية والإسلام أو غيره من المعتقدات الزائفة. فتراجع التدين لا يفضى إلى حرية دينية بل إلى طغيان.

هذه الرؤية السوداوية أيقظت أولئك الذين شهدوا فوضى الثورة فى فرنسا وقد هزت أركان النظام القائم فى أوروبا بل وهددت أمن أمريكا. وبلغ القلق بنائب الرئيس جون آدامز، بسبب أحداث فرنسا، أنه كتب فى ١٧٩٠ سلسلة عن المقالات بعنوان "رسائل عن دافيلا" يحذر فيها من أنه "لو تم تدمير كل تقليد أو نظام وطاعة" وحل محل ذلك الشك" والفوضى وانعدام الأمن بالنسبة للممتلكات" فإن الناس "سرعان ما يبحثون عن البركة، بعد أن تحولت كتبهم إلى رماد، فى الظلمة والجهل والخرافة والتعصب، ليتبعوا راية أول مستبد مجنون يسعى، بحماس ماهوميت آخر، إلى كسبهم" وبالنسبة لآدامز، كما بالنسبة لبريدو، فإن الطغيان قد يكون نتيجة حرية زائدة.

وبالنهاية، فقد أثبت نابليون أن آدامز محق. لكن فى ١٧٩٠ و ١٧٩١ كانت قضية الجمهورية الفرنسية تنعم بشعبية واسعة فى الولايات المتحدة حتى أنه حتى محررى الصحف الاتحادية رفضوا نشر مقالات آدامز. وقد عارض آدامز الثورة فى فرنسا لأنه اعتقد أنها ستنتهى إلى ديكتاتورية عسكرية. ولكن معارضته لثورة وعدت بالديمقراطية والمساواة، فإن منتقديه ظنوا أنه معاد لتلك المبادئ. وفى ١٧٩١ دافع توماس بين فى فرنسا، باعتبارها عضو الجمعية الوطنية، عن الثورة الفرنسية وعن حق الشعب الفرنسى فى إسقاط التراتبيات الاجتماعية والسياسية والدينية، فى كتابه المعنون "حقوق الإنسان".

وقد امتدح وزير الخارجية توماس جيفرسون كتاب "حقوق الإنسان" وقال إنه يؤمل فى أن يواجه كتاب بين "الهرطقات السياسية" الصاعدة فى أمريكا. ورغم أن جيفرسون لم يذكر أية أسماء ، فقلة من الأمريكيين هى التى كانت تشك فى أن "آدامز" هو المقصود. ورد نجل آدامز، كوينسى آدامز، بأن قارن بين جيفرسون وبين "النبى العربى" الذى دعا "جميع المؤمنين بإسلام الديمقراطية إلى أن يشهروا سيوفهم". وفى معرض قراءته للعقيدة الإسلامية "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" فإن آدامز الابن اعتبر ان جيفرسون وكل مؤيديه المتحمسين يصيحون "لا إلهة إلا الحرية، والحس السليم رسولها" فقد كان جيفرسون رجلاً طيب المنبت ومحترماً، مثل محمد الذى صوره بريدو، ولكن بقبوله الفكر الحر عند توماس بين وغيره، فسوف ينتهى به الأمر إلى تدمير الحرية التى تظاهر بالدفاع عنها. وعلى غرار بريدو فإن جون وجون كوينسى آدامز وجدا فى محمد درساً، ليس فقط للمستمسك بدينه، ولكن أيضًا للامبالى دينيا أو سياسيا(٧).

وبالنسبة للمدافعين عن النظام القائم فإن كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" انطوى على رسالة قوية. لكن قراءتهم لم تكن القراءة الوحيدة الممكنة. ففى ١٧٩٨ ظهرت طبعة أمريكية ثانية من كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" فى فيرهافن بفيرمونت(٨)، وأسقطت هذه الطبعة مقدمة بريدو الأصلية، التى حذر فيها من الكفر والخروج عن الملة. وفى طبعة ١٧٩٨ هذه قدر من الاهتمام بالأسباب الاجتماعية المحتملة للطغيان يقل عما فيها من اهتمام بالطغيان ذاته. وربما كان خطر الطغيان الذى تنطوى عليه مسيرة محمد (برأى بريدو – المترجم) أكثر وضوحًا لناشر هذه الطبعة مما كان لدى أى ناشر آخر.

وقد نشر جيمس ليون، من فيرهافن، وهو ناشر تدرب على حرفته على يدى بنجامين فرانكلين، كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" عندما كان أبوه عضو الكونغرس ماثيو ليون فى السجن لمخالفته قانون التمرد لعام ١٧٩٨. وقد دخل ماثيو ليون الجمهورى والناقد العنيف للاتحاديين السجن لاتهامه آدامز باستخدام

"اسم الدين المقدس" باعتباره "أداة بيد الدولة لجعل النوع البشرى يكره ويضطهد بعضه بعضًا". وقد أدين ليون، بسبب هذا وبسبب أقوال أخرى قالها فى الكونغرس وفى رسائل إلى أهل دائرته باعتباره "شخصًا متمردًا وسيئ السمعة، ذا عقل فاسق، وطبيعة شريرة وشيطانية". وفى "الطبيعة الحقيقية للزيف" فإن الدين الزائف وقوة الدولة يجتمعان لاستبعاد الشعب.

ورأى ليون أن القوى ذاتها تفعل فعلها فى ١٧٩٨. وقد أرسله إلى السجن نقده المباشر للمؤسسة السياسية، وهكذا فإن ماثيو ليون عمد إلى الهجوم غير المباشر بنشر كتاب بريدو "الطبيعة الحقيفية للزيف"[٩].

كان كتاب بريدو منحة من السماء لليون. فقد كانت رسالته حول مخاطر اللامبالاة واضحة. وقد أثبت الكتاب أيضًا التأثيرات الخطيرة لفرض التدين الصارم. ووفقًا لما قاله بريدو، فإن ماهوميت "كان يغضب ويرتبك" عندما يسأله مستمعوه أسئلة صعبة أو عندما يضحكون منه. وأخيرًا، فإن ماهوميت، كما يقول بريدو، بلغ به الانزعاج حدا جعله يحظر "كل أشكال المجادلة حول دينه" وهدد كل من يشك فيه أو يعارضه بالموت. وكتب بريدو يقول "ويقينًا فلم تكن هناك طريقة أكثر حكمة من هذه يمكن ابتكارها لتبقى سيطرة زيف بهذا السخف إلا بإسكات كل أشكال المعارضة والجدل حولهما، بالتهديد بعقوبة بهذه الشدة[١٠].

ولم يكن ماثيو ليون يستطيع أن يجد قولاً يناسبه أكثر. صحيح أن الاتحاديين لم يحكموا بالإعدام على ليون أو غيره من المعارضين السياسيين، ولكنهم وجدوا فى قانون التمرد طريقة فعالة لإسكاتهم. وبالنسبة لليون، فهذه الخطوة الأولى كانت الأكثر أهمية، وبمجرد أن يصبح مقبولاً من الحاكم، سواء كان محمدًا أو آدامز، لا يمكن مساءلته، فالنتيجة ستكون واحدة، بل ولم يكن مهمًا إن كان العقاب بالسجن أو بالسيف، فالتأثير واحد. فماهوميت لم يحتمل السخرية المبررة (برأى بريدو – المترجم) من سامعيه، ولهذا فقد لجأ إلى القوة. وقد فعل جون آدامز وإدارته الاتحادية الأمر ذاته.

وقد بين كتاب "الطبيعة الحقيقية للزيف" النتائج التى تترتب على القمع. وأثبت قانون التمرد أنه حتى الثورى السابق مثل آدامز يمكن أن يسكره سلطانه(١١).

وإضافة إلى كتاب بريدو فإن جيمس ليون بن ماثيو نشر "المجلة الجمهورية" فى ١٧٩٨. وفصلت أعدادها الأربعة وقائع محاكمة وسجن ليون الأب. وحملت الصفحة الأولى للمجلة الجمهورية سطوراً موحية من دانييل ديفو:

تركت الطبيعة هذه المسحة فى الدم،

ليصبح كل الرجال طغاة إن تمكنوا –

وإن امتنعوا عن افتراس جيرانهم

فليس لنقص فى الرغبة بل لنقص فى القدرة

(جيورى ديفينو)(١٢)

وقد كان قادة الجمهورية الأمريكية، شأن أصحاب السلطة فى أى مكان، يملكون الرغبة والقدرة، معًا، على أن يصبحوا طغاة، وهى حقيقة واضحة لكل من ماثيو وجيمس ليون.

وقد سمح كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" بتفسيرين يبدوان متناقضين. فى الأول، وهو على الأرجح التفسير المفضل لدى المؤلف نفسه، أن الإفراط فى الحرية يفضى فى النهاية إلى الطغيان، وعندما يفقد الناس إيمانهم، وعندما يضعون كل قيمة موضع التساؤل، وعندما يكفون عن احترام أحدهم للآخر، أو عن احترام ركائز المجتمع أو الدين فإنهم يفتحون الباب لداعية ديما غوغى (برأى بريدو – المترجم) ليؤسس استبدادا دينيا أو سياسيا. ورأى ماثيو ليون التفسير الثانى، أن كل الرجال يمكن أن يكونوا طغاة. وقد حذر ليون من أن رفض التسامح مع تساؤلات الجمهور حول القادة، والإصرار على أن تكون النظم الاجتماعية والسياسية القائمة جامدة لا تستسلم لقوى العقل أو الحس السليم، فإنه حتى الرجال الشرفاء، مثل جون آدامز، يمكن أن يصبحوا طغاة. ولسنا بحاجة للإشارة إلى أن أيا من التفسيرين ليست له علاقة قوية بشخصية

محمد التاريخية: فقد استخدم كل واحد من التفسير صورة ملفقة عن محمد لإثبات وجهة نظر تتعلق بأمريكا القرن الثامن عشر.

وقد استخدم فولتير أيضًا محمدًا ليوضح نقطة تتعلق بالدين. فقد أسس فولتير على حياة محمد تحذيرا بخصوص اللاتسامح فى أمور الدين، لا بمخاطر الحرية الدينية. ففى ١٧٤٢ كان فولتير قد كتب مسرحية بعنوان LE FANATISME OU MAHOMET PROHPHET (التعصب أو ماهوميت النبى- المترجم) ليتأمل تحت غطائها الشفاف شرور اللا تسامح فى الشؤون الدينية. وبالطبع فقد اختار فولتير أن يكون الشرير عنده هو ماهوميت، ولكن الوثنيين فى مكة يظهرون باعتبارهم الأبطال العلمانيين الإنسانيين فى المسرحية. وبعد أن كتب فولتير هذه المسرحية بوقت قصير ترجمها جيمس ميللر، وهو كاهن إنكليزى وكاتب مسرحى أيضًا، محافظًا على مديحها للإنسانيين العلمانيين فى مكة، وإن كان قد حولها إلى مسرحية حول شرور التعصب والإخلاص الأعمى لأصحاب السلطان. وقد وصف كاتب تراجم فى القرن التاسع عشر يصف ميللر باعتباره "كاتبا سياسيا، رفض رشوة ضخمة للتخلى عن آرائه ومجاملة وزراء الدولة".

وقد انطوت ترجمة ميللر لمسرحية "ماهوميت" علي رسالة قوية، فالجمهور فى دبلن استثاره سطر ورد على لسان إحدى الشخصيات، ظنوه ناقدًا للحكومة، فطلبوا إعادته وصفقوا تصفيقًا مهتاجًا عند الإعادة، وخشى مدير المسرح أن تغلق الحكومة مسرحه إن هو سمح بمثل هذا النوع من التعبير، فى الليلة التالية، فمنع الممثل من تكرار السطر المثير للجدل. وأصغى الجمهور، فى الليلة التالية، مترقبًا السطر والفرصة لإظهار المعارضة للحكومة. ومرة أخرى صفقوا، وضربوا الأرض بأقدامهم، وهتفوا، مطالبين بإعادة ما قيل على مسامعهم. لكن الممثل الذى تلقى أوامر من الإدارة، بقى صامتًا. وأصر الجمهور، مطالبًا بالكلمات التى يريدها، مغرقا بالصخب أى محاولة لمواصلة تقديم المسرحية. ولم يكن ممكن الاستمرار فى العرض. وعندما أدرك الجمهور أن المدير هو الذى يحظر التكرار، أحرقوا المسرح[١٣].

ومن العسير استعادة المغزى السياسى المباشر الذى أحدث هذه الاستجابة. ويمكننا التخمين فيما يتعلق بالشعبية اللاحقة للمسرحية ولاستمرار الاهتمام بها طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، فى إنكلترا وأمريكا. وفى مسرحية فولتير ومولبير نجد ماهوميت مغامرا كاريزميا، زعيم طائفة. وقد قام بغسيل مخ لشابين حساسين ومثاليين وهما زافنا وبالميرا، فانضما إليه لاسقاط آلكانور، زعيم مكة الوثنى. ويوافق بالميرا وزافنا، بكل حماس على أن يقتلا آلكانور، ومقابل ذلك يعد ماهوميت بمباركة زواجهما. لكن زافنا وبالميرا لا يعلمان أنهما أخ وأخت، وأن آلكانور هو أبوهما، أو أن ماهوميت يخطط لقتل زافنا لأن لديه خطة دافعها اشتهاؤه لبالميرا. ولأنهما غارقان فى حماسهما الدينى فإن الشابين يتبعان ماهوميت ويقتلان أباهما بأمر منه ولا يكتشفان حقيقة آلكانور إلا بعد فوات الأوان.

ويقتل زافنا وبالميرا نفسيهما مدركين أن البركات التى وعدهما بها ماهوميت هى "السيف والطاعون والمجاعة". وفيما هما يحتضران فإنهما يسألانه "كيف نجحت فى أن تنزل علينا اللعنة، على هذا النحو؟" وتستيقظ ومضة من الضمير لدى ماهوميت، الذى يدرك أنه على الرغم من فتوحاته، فإنه يبقى عبداً لانفعالاته وطموحاته. "هباء هو المجد، والتأليه، والسيطرة! بعد كل الفتوحات التى أنجزتها أبقى عبداً.. قد أستطيع أن أخدع العالم، أما نفسى فلا أملك أن أخدعها". وإذ يصلى بإخلاص، لأول مرة، فإنه يدعو أن يقوم بينه حجاب وبين الفظاعات التى ارتكبها. وتنتهى المسرحية بالتحذير:

دع المتحمس المجنون يشخص ببصره إلى هنا،

ليرى ما ينشأ عن التعصب الأعمى.

ودعه يقرأ ما هو مكتوب بأكثر الألوان سواداً

أن الاندفاع الذى يضلله الخداع قد يأتى يفعل

يدمى البراءة والفضيلة[١٤].

فماهوميت عبد لطموحاته وعواطفه، وهو يجعل الآخرين أسرى لها أيضًا. وهو لا يستطيع أن يضبط أهواء أتباعه لأن أهواءه هو خارجة عن السيطرة. فالحماس والتعصب والشهوة والطموح هى الدروس التى تستفاد من مسيرته المجنونة، وهو يقنع زافنا وباليرا بأن يتخليا عن أبيهما ويتبعا مذهبه الزائف.

ولا نعرف ما هى الأحداث أو الشخصيات السياسية التى استفزت الجمهور فى ١٧٤٤ ليدمر المسرح. لكن بوسعنا أن نتخيل رد فعل الجمهور فى هذه المسرحية عندما مثلت "ماهوميت الزائف"، لأول مرة، فى أمريكا. جاء العرض الأول للمسرحية فى نيويورك فى ١٧٨٠. وعلى غرار مكة فى المسرحية، كانت نيويورك عندئذ مدينة محاصرة. كانت القوات البريطانية تسيطر على المدينة، وعلى الأمريكيين، وعلى الأقاليم المحيطة. وكان الممثلون فى هذا الإنتاج الأمريكى الأول لمسرحية "ماهوميت الزائف" كلهم من الجنود البريطانيين. وجلس جنود بريطانيون ونيويوركيون موالون للملك بين الجمهور. كانت نيويورك منطقة يحيط بها المد المتصاعد للثورة، والجمهور والممثلون، مثل آلكانور والوثنيين المتسامحون من أهل مكة، ربما شعروا بأنهم تحت الحصار من متحمسين منفعلين يستفزون أهل المستعمرة الأبرياء لقتل أبيهم الرمزى جورج الثالث. والممثلون الجنود الذين أرسلوا إلى أمريكا للحفاظ على الإمبراطورية ربما وجدوا فى مسرحية "ماهوميت الزائف" تأكيدا لدورهم باعتبارهم حماة للنظام القائم، وهم يحاولون أن يمنعوا المتحمسين الطموحين والذين استبد بهم الانفعال الجنونى من تدمير الروابط التقليدية للأسرة والمجتمع والإمبراطورية[11].

لكن نيويورك، مثل مكة، سوف تسقط. وبعد ١٧٧٧ فإن "ماهوميت الزائف" التى ظلت تطبع كل سنة فى إنكلترا منذ ١٧٤٥ سوف تنفد نسخها. ولن تعود للظهور إلا فى ١٧٩٥ وهى السنة التى كانت أوروبا كلها تتحارب حول مبادئ الثورة الفرنسية. وفى ١٧٩٥ كانت الأخطار التى يمثلها الديماغوغيون وقتلة الملوك أكثر وضوحًا. وقد نشر أربعة من الناشرين اللندنيين "ماهوميت الزائف" أربع مرات فى ١٧٩٥، وفى ١٧٩٦ مثلت فى فيلادلفيا. وكان يمكن أن يتعجب فولتير، لولا أنه مات، من أن

مسرحيته تحولت من رفض التسامح الدينى إلى مساندة النظام القائم، تماماً كما كان يمكن لمحمد أن يتعجب من تحوله هو إلى مجاز قابل للتطبيق على أية أيديولوجيا أو أى موقف. ومحمد المجازى هذا كان يحمل رسالة قوية تتعلق بنتائج القوة غير المحدودة والإخلاص الأعمى. وقد اختلفت الصور من حيث التفاصيل، لكنها كلها كانت تقدم الدرس ذاته، درساً عن الطغيان والسلطة لم يمل الأمريكيون، قط، من سماعه.

وفى ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر، عندما بدأ الجيل الذى انتصر فى الثورة يخلق حكومة جديدة، ويحدد سلطات هذه الحكومة، فى حين كانت أخطار الاستبداد والفوضى تتكشف بوضوح فى أحداث فرنسا، أصبحت الأهمية الكاملة للصورة الإسلامية فى مركز الرؤية. اعتبر الأمريكيون أن محمداً نبى خطير وزائف وخالق دين ونظام سياسى شريرين. ولم يعتبروا هذه الأنساق خاطئة لمجرد أنها غير مسيحية أو لأنها استبدادية. لم يكن الخطر الكامل للاستبداد الدينى أو الطغيان السياسى الشر المباشر الذى ينشأ عنها، لكنه كان ضمن نتائجها النهائية.

ولم يكن هذا الجيل من الأمريكيين يتحرك من أجل نفسه فقط، بل ومن أجل الأجيال فى كل زمان. كانوا بصدد إنشاء نظام سياسى لا يخدم مصالحهم فقط بل ويخدم مصالح الأجيال المقبلة. ولم يكن الاستبداد الإسلامى بالنسبة لهم خطأ لمجرد أنه يمنع الرجال والنساء من التمتع بالحرية، ولكن أيضًا لأنه يمنع الرجال والنساء ونسلهم من التمتع بمنافع الحرية، فالإسلام برأيهم يمنع الرجال والنساء من أن يتطوروا إلى كامل إمكاناتهم. الإسلام، كما كان يراه الأمريكيون، كان ضد الحرية، ولأنه ضد الحرية فهو يعوق التقدم. والجمهوريون من أمثال ماثيو ليون وتوماس جيفرسون، ممن يرحبون بالتحررية التقدمية للثورة الفرنسية والفيدراليون من أمثال جون آدامز، الذين كانوا يخشون نتائج ديمقراطية غير منضبطة، اتفقوا على أن الحرية والتقدم الإنسانى أمران طيبان وأن الاستبداد غير المقيد فى العالم المسلم كان أمراً سيئًا لأنه يحول دونهما. ورغم أن الأمريكيين لم يتفقوا على قدر الحرية التى يحتاجها المجتمع، اتفقوا على أن الدول المسلمة لم تحتمل أى قدر من الحرية. ولهذا السبب فإن المجتمعات التى عرفت الازدهار فيما مضى فى مصر وسوريا وتركيا وشمال إفريقيا

كفت عن النمو وسمح أهلها وحكامها الكسالى والمنحرفون لأراضيهم، التى كانت خصبة فى يوم ما، بأن تصبح صحارى مجدبة. وكان هذا درسا قويا لشعب يعمل على بناء مجتمعه السياسى الخاص. كان من الممكن للأمريكيين أن يقاسوا المصير ذاته، بسهولة.

ورأى ماثيو ليون وغيره من الجمهوريين أن الخضوع للاستبداد كان الخطوة الأولى، والأكثر خطورة. واعتقد جون آدامز وغيره من الفيدراليين أن السكوت على المذاهب المهرطقة من شأنه أن يدمر المذاهب الصحيحة، حتمًا. ولم يكون الشر الذى ينشأ، بالنسبة للاثنين، مجرد دين زائف أو حتى استبداد سياسى. وبدلاً من ذلك، اعتبر كل أمريكى، أيًا كان مذهبه السياسى، أن الطغيان السياسى والدينى عرضان لأمراض اجتماعية أعمق. فالتزييف الذى نسبوه إلى محمد لم يخنق الحرية الدينية والثقافية (برأيهم - المترجم) فقط، بل قتل روح المبادرة التى بها يمكن أن تزدهر المجتمعات.

وتدفع رسائل كاطو (١٧٢٣) التى كتبها جون ترنشارد وتوماس غوردون، والتى يمكن اعتبارها الرسائل السياسية الإنكليزية الأكثر تأثيراً فى القرن الثامن عشر، والأكثر أهمية، على وجه اليقين، بالنسبة للجيل الثورى من الأمريكيين، بأن الطغاة، مثل ماهوميت يخشون من أن "يتغلب الحس السليم على العنف" وهكذا فقد حظر حرية التعبير عن الأفكار. وجعل ماهوميت من إعمال الفكر بحرية فى القرآن جريمة كبرى، ولم يتحمس الحكام المتتابعون للإمبراطورية التركية وغيرها من الدول الإسلامية للطباعة وغيرها من أشكال الاتصال الجماهيرى. وهذا جعل المسلمين متعصبين كما جعلهم عبيداً. وقد قال ترنشارد وغوردون: "لا أحد يستطيع أن يدلنى على متعصب ليس عبداً جاهلاً" وقد عرفا التعصب باعتباره "عبودية الروح" للمذاهب الدينية أو لحكايا تقوى على مواجهة التحقيق. وقد وافق كوتن ماثر، الكاهن من ماساشوسيتس والكالفينى المتشدد التحررين الإنكليزيين، موافقة تامة. وفى بحثه المعنون "الفيلسوف المسيحى" الذى كتبه بعد عام أو اثنين من صدور "رسائل كاطو" لترنشارد وغوردون، يمزج ماثر

العلم الحديث بمذهبه الدينى المتشدد ويقارن حريته العقلية بالمجال المحدود للفلاسفة المسلمين، فقد شرحت كل عجائب الطبيعة، شرحًا كاملاً، لمحمد، ولم يجرؤ "أحد من أتباعه" على وضع شروح النبى موضع التساؤل. فإذا أبلغ الوحى "النبى ذا الرأس الصلب" بأن ملاكًا يحرك جناحيه هو الذى يطلق الريح، وأن ملاكًا يخطو إلى داخل البحر يسبب المد، وملاكًا يفرقع بسوطه يسبب الرعد، فسوف لن يجرؤ عالم مسلم على أن يطلب مزيدًا من الإيضاح. وبالمقابل فحتى الكالفينيون المتشددون مسموح لهم بأن يتساءلوا عن تفاصيل ما يجرى فى الحياة الطبيعية. واستبعد ماثر أن يكون الإسلام دينًا أو أداة علمية: فلتسبق عقيدتنا العقيدة المحمدية بقدر ما تسبقها فلسفتنا !" وقد لاحظ جون فوس، وهو بحار أمريكى أسر فى الجزائر فى تسعينيات القرن الثامن عشر أن "الأتراك لديهم أشد الاحتقار للتعلم". وتحت السيطرة العثمانية لم تعد اليونان التى كانت "محل ميلاد العبقرية والفنون والعلوم" تنتج إلا أتراكًا وجهلة من "المطارنة والقسس والرهبان المسيحيين". وفى الغرب سمحت الكتب والرسائل بمناقشة كل القضايا بحرية، وكل اتجاهات الرأى يمكن التعبير عنها فى المطبوعات. أما فى تركيا فلم يُطبع إلا كتاب واحد فى القرن الثامن عشر، فى ١٧٣٠. ولم يشتر أحد نسخة، فلم يُطبع شىء بعد ذلك[١٦].

الإسلام (حسب الرأى السائد فى الغرب آنذاك – المترجم) لا يشجع على التساؤل والتدبر، لكنه يعتمد على ما يلقى به إلى المرء من مذاهب فيها إجابات على تساؤلاته. وهذا ضد روح التقدم التى ينشرها الأوروبيون والأمريكيون. وقد ارتحل الأب كوتستانتين فرانسوا دى شاسبوف فولنى، الفيلسوف الفرنسى، فى مختلف أنحاء العالم المسلم فى ثمانينيات القرن الثامن عشر. وفى كتابه "أسفار فى مصر وسوريا" أوضح كيف أن ميناء الإسكندرية المصرى وقع فى حمأة اليأس لأن "الناس فى تركيا يدمرون كل شىء ولا يصلحون شيئا.. وروح الحكم التركى هى، تخريب ما أبدعته الأجيال السابقة، وتدمير أمل الأجيال التالية، لأن وحشية الاستبداد الجاهل لا تهتم بالغد، أبدًا. ورأى فولنى فى إيمان المسلمين بالقضاء والقدر، فى استعدادهم لقبول كل شىء وأى شىء يحدث، باعتباره مشيئة الله، ميلاً إلى الخنوع. فليس لدى الترك (يقصد المسلمين – المترجم) دافع إلى التغيير لأن الاستبداد عندهم، منذ وجد، كان بتفويض من الخالق.

وهذه القدرية تفضى إلى الفتور. فالرجال والنساء يتسلون بالاستحمام، وبشرب القهوة، وتدخين أراجيلهم. "لن يدهشنا، بعد الآن، أن تكتسب شخصياتهم الملل الذى نجده فى حياتهم الخاصة، وفى حال المجتمع الذى يعيشون فيه". وفى حين دمرت روح الاستبداد الشريرة كل آثار الماضى المجيد. فإن روح المسلمين الكسالى تدفع إلى مقاومة سلبية لأى محاولة لتحسين المستقبل(١٧).

فالناس الذين يستسلمون بسلبية للطغيان ليسوا جديرين بالحرية. ورأى فولنى الدليل على ذلك فى المسيحيين اليونانيين، الذين اعتادوا على أن يكون عبيداً لدى المسلمين حتى أنهم اكتسبوا "الشخصية المنسوبة إليهم منذ الأزل" فأصبحوا عبيداً فى مسلكهم. ولأنهم أضعف من أن يتحدوا سادتهم صراحة، فقد أصبحوا ماكرين، متفرقين، متملقين، وخونة.

وكتب فولنى أن العبيد فى العالم المسلم، بعكس العبيد فى أمريكا، يمكن أن يرتقوا مدارج القوة بالاحتيال أو بالخدمة المخلصة. لكنهم، ومهما علا شأنهم، تبقى لديهم طبيعة العبيد. واعتقد فولنى أن أولئك المسيحيين الذين صعدوا إلى مراكز السلطة كانوا أسوأ أنواع الحكام. فبمجرد أن يصلوا إلى السلطة، يتملكهم الخوف من فقدانها والسقوط مجدداً فى هوة العبودية. وهذا الهم الدائم يجعلهم ملهوفين "على تحقيق كل ما يستطيعون من مكاسب" بينما هم فى السلطة. وأيديهم التى لطالما "تدربت على تجهيز القطن" ماهرة فى تلقى الرشاوى، ولكن ليس فى الحكم.

وعلى النقيض من هؤلاء المسيحيين الذين انحطت طباعهم وتدهورت، رأى فولنى أن حكام المسلمين وإن كانوا "متعالين بل ووقحين" كانوا طيبى القلوب،إنسانيين، وعادلين". لقد اعتادوا السلطة وصاروا يعرفون كيف يستخدمونها بحكمة. أما المسيحيون الذين لم يكونوا أحراراً قط، فقد كانوا يخشون فقدان الميزات القليلة التى كانت لديهم. فقد كانوا دائمى السعى إلى ثروات جديدة يحققونها ويتعذبون عندما يعجزون عن بلوغها. وهكذا فإن الإلهام الذى حرك التقدم الأوروبى، روح المبادرة فيه، شوهها الخضوع للطغيان.

والغريب حقا أن إيمان المسلم بالقضاء، الذى يحول دون الرقى الاجتماعى، هو أيضًا ما جعل الحكام المسلمين أقل نهمًا إلى المال وأقل ألما إزاء احتمال ضياع سلطانهم. فالرب قضى، من آماد بعيدة، بكل ما يجرى، فلا مبرر للأسف على الماضى وللاستعداد للمستقبل. وتعجب فولنى وهو يسمع المسلمين يقولون "إنه المكتوب" ويستسلمون دون شكوى" للانتقال غير المتوقع إطلاقًا من الثروة إلى الفقر". وليس لدى الأتراك أى سبب يدعوهم لتغيير حكومتهم أو مجتمعهم، لأن الإسلام حثهم على الاعتقاد بأن كل شىء بإرادة الله. فالمسلمون يقبلون الاستبداد بهدوء: ما دام موجوداً، فلا بد أن الله شاء له أن يوجد. روح التسليم هذه جعلتهم غير قادرين على تغيير الحكومة التى لديهم أو على خلق حكومة جديدة يمكن أن تحول دون وقوع كارثة محدقة بهذا الشعب الفاتر الهمة(١٨).

والأخبار المتناقضة فى "أورورا" بفيلادلفيا فى ديسمبر ١٨٠٦ تبين بجلاء التناقض بين التواكل المسلم والمبادرة الأمريكية. الفقرة الأولى، ويصعب تصنيفها مع الأخبار، تشير إلى أنه فى مراكش أدت "روح الاستبداد" إلى أنه، طوالى ٣٠٠ عام "لم تبن قرية واحدة، ولا تم توسيع مدينة، ولا إنشاء جسر، ولا إقامة ميناء فى المملكة كلها". ولم يكن الكاتب بحاجة إلى أن يشرح لماذا كان الأمر كذلك. فتحت هذه الفقرة عن مراكش، مباشرة، عنوان رئيسى يقول "العبقرية الأمريكية" وقصة عودة المخترع روبرت فولتن إلى أمريكا. وقد كان فولتن، على وجه التحديد، ذلك النوع من العباقرة الذى ينتجه المجتمع الأمريكى الدينامى. كان أبواه من الحرفيين، وتلقى فولتن تدريبا كصانع أقفال وكصانع بنادق وكرسام ومصمم. كان شغيلا ماهرا لديه موهبة تحسين أفكار الآخرين، سمكريا أمريكيا يستطيع أن يحول المبادئ العلمية المجردة إلى آلات نافعة. لم يكن فولتون قد شيد قاربه البخارى، بعد، لكنه اشتهر بغواصته، بقارب يتحرك تحت الماء كان فولتن وفولنى وآخرون يظنون أنه سيجعل من الأساطيل موضة قديمة ويجعل الحروب مستحيلة. وقد منع الاستبداد المراكشى الحرفيين العاديين من أمثال فولتن من الازدهار، وبهذه الكيفية فقد ثبط هم المبدعين النافعين الذين كان المجتمع الأمريكى يشجعهم(١٩).

هذا التفاوت بين مجتمع مزدهر وآخر راكد ألهم فولنى بكتابه "الخرائب، عرض للثورات الإمبراطورية". فلم ير فولنى فى مصر وسوريا، وهما مهدا الحضارات التى عرفها العالم، إلا الخراب والفقر. ماذا جرى؟ هذا كان سؤاله. أما إجابته فكانت : غياب التسامح الدينى خنق البحث الحر وحال دون خروج الناس من البؤس. لقد تعلم الناس أن يؤمنوا بأن الأحداث، أيا كانت، لا بد من التسليم بصحتها، ولا أمل فى التطلع إلى ما يتجاوز الفقر الذى عاش فيه الآباء. وقد ترجم كتاب "الخرائب" إلى الإنكليزية، لأول مرة، فى ١٧٩٢، ومع نهاية العقد ظهرت ترجمتان إنكليزيتان أخريان وطبعتان أمريكيتان. وعندما كان توماس جيفرسون رئيسًا قرر أن "الخرائب" تحتاج ترجمة أكثر دقة. وقام الرئيس نفسه، بالتعاون مع جويل بارلو، بترجمتها، وظهرت طبعتهما فى باريس فى ١٨٠٢. وقد كان كتاب الخرائب أكثر من تأملات حول الإسلام: فقد رأى فولنى، شأنه شأن بريدو وفولتير، فى العالم المسلم درسًا لأوروبا. وقد كان انحطاط الحضارات المصرية والسورية تحذيرًا للأوروبيين والأمريكيين من قابليتهما للانحطاط. فلو قبل الناس بالاستبداد الدينى أو السياسى لأصبح من المحتم أن ينحطوا إلى الوحشية. وفى أمريكا، يمكن للناس أن يتكلموا بحرية، ويمكن للعباقرة المحليين، أمثال فولتون، أن يعلو شأنهم بفضل مواهبهم، وبفضل هذه المواهب يدفعون المجتمع إلى الأمام. ومن ناحية أخرى، فلو أن أمريكا سمحت بالتعصب الدينى، وهذا ما حذر منه فولنى فى "الخرائب" فسوف تنزلق إلى الكسل، وتصبح أمريكا صحراء مثل مراكش[٢٠].

وكان أبلغ من عبر عن هذه النقطة المؤرخ والاقتصادى الفرنسى جان شارل ليونارد سيمون دى سيموندى فى مقالة عن الأدب العربى ظهرت فى أميركان ريجستر فى ١٨١٧. وقد استعرض سيموندى الأعمال الأدبية والشعرية فى العصر الذهبى للمسلمين، فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، عندما كانت أوروبا "غارقة فى البربرية، وقد قل سكانها وثروتها" لكن حكامًا مسلمين من أمثال المنصور (الخليفة فى بغداد، ٧٥٤-٧٥٥) وهارون الرشيد (الخليفة فى بغداد، ٧٨٦-٨٠٩) رعوا فترة من التنوير والإنسانية والتقدم. وانتهى عرض سيموندى بتحذير مخيف. كل هذه البلدان

التى كانت الموطن المزدهر للفنون والتقدم هى الآن صحارى ثقافية، أجدبت من كل علم أو فن أو تعليم. وكتب سيموندى "السهول الغنية فى فاس ومراكش" التى كانت ذات يوم وطنًا للأكاديميات والمكتبات والجامعات" ليست الآن سوى صحراء حارقة الرمال، يتصارع فوقها الطغاة والسباع". وما كان يوما الساحل "السعيد والخصب" فى موريتانيا لم يعد اليوم إلا موطنا للقراصنة" الذين ينشرون الرعب فى البحار، ويستريحون من عنائهم بممارسات أنواع حقيرة من الفسق، حتى يأتى الطاعون.. ويتصيد ضحاياه". أما مصر فضاعت فى الرمال التى كانت تزرعها، يومًا ما، ويملأ البدو الرحل الأرض الخالية فى سوريا وفلسطين بالوحشة. ما من عدو أخضع هذه الأراضى: ما من غريب نهبها أو دمر موروث شعبها. "السجن موجود بداخلهم، طور نفسه، ودمر كل شىء"(٢١).

وخلص سيموندى إلى القول "من يدرى إذا كانت أوروبا هذه، بعد قرون من الآن، وبعد أن انتقلت إليها مملكة الآداب والعلوم، التى تومض بكل هذا البريق الهائل، والتى تحكم بكل جدارة على الأزمنة الغابرة، وتقارن ببراعة بين التأثيرات التى أحدثتها الآداب والأخلاق القديمة، قد تصبح أو لا تصبح مهجورة، وموحشة مثل تلال موريتانيا، ورمال مصر، ووديان الأناضول؟ " وعندما تصبح أوروبا صحراء، فلربما ظهرت حضارة جديدة "فى بلد جديد تمامًا، ربما فى المرتفعات التى يتدفق منها نهرا أورنكور وأمازون" وبأخلاق ولغات وأفكار جديدة يعيد هؤلاء الناس الجدد خلق الجنس البشرى، وقد يستعيد علماؤهم ذكرى" كل نيوتن وكل راسين وكل تاسو، كأمثلة على النضال الإنسانى العقيم لتحقيق الخلود بمجد ينكره عليهم القدر". لم تكن الحضارة تتحرك غربيًا، لكن سيموندى حذر من أن أى مجتمع من شأنه أن يتدهـور إن لم يحم أهله، بكل قوة، حريتهم وعلومهم.

فالسم الذى دمر العالم الإسلامى كان بداخله. سمح أهله بحلول الخراب. ويقرر الكاتب الإنكليزى إدوارد ستانلى فى كتابه ملاحظات عن مدينة تونس والريف المجاور لها (١٧٨٦) أن الساحل الإفريقى بكامله، من أرخبيل جبل طارق حتى طرابلس

الغرب هو "من أجمل وأخصب البلدان فى العالم" ويمكنه أن يكون "سلة غذاء أوروبا" لو أنه كان " فى أيدى زراع حقيقيين". وقد وصف ماثيو كارى فى "تقرير موجز عن الجزائر" (١٧٩٣) أنهار الجزائر السبعة، اتى لم تكن عليها لا جسور ولا عبارات، كشاهد على "الجهل المطبق لدى الأهلين بكل ما يتعلق بتحسين الأحوال المحلية". وقد ينضم مسافر يجتاز مسافة طويلة وهو يبحث عن مخاضة، فى أرض لا تعرف العبارات، إلى المؤلف متمنياً لو أن الجزائريين كانت لديهم "شخصية أكثر ذكاء أو ابتكاراً". ويساءل المرء عما إذا كان الرئيس جيفرسون قد قرأ هذا التقرير فى أثناء سفره من مونتيتشيللو إلى واشنطن، مضطراً إلى عبور الأنهار الثمانية، التى كان خمسة منها بلا قوارب ولا جسور. ورغم أنه كان بوسع الأمريكيين أن يشيروا، بكل فخر، إلى روبرت فولتون وغيره من المخترعين، فقد ظلت بلادهم برية وكان درس الجزائر وغيرها من الدول المسلمة تحذيراً لهم من عواقب الكسل. ما الذى يمنع أمريكا، ولديها كل هذه الفرص للتفوق، من أن تبقى برية أو أن تتحول إلى صحراء[٢٢]؟

وقد كتبت بنيلوبى أوبن، وهى معاصرة لترنشارد وغوردون رواية بعنوان "العبد النبيل" حول أسر بعض النبلاء الإسبان فى الجزائر. وقد امتدحت أوبن" دستورنا الممتاز" القادر على الحفاظ على "ثراء وحرية" الشعب يعكس "السياسات التركية" التى جعلت الأمير عظيماً والشعب تعيساً. لكن اللوم لا ينصب على السياسات وحدها باعتبارها سبباً لتعاسة الشعب: "لا بد أنها غلطتنا"، قالت أوبن: "إذا استعبدنا أو افتقرنا". فروح الشعب هى الفيصل[٢٣]. لقد أصر ماهوميت على التسليم الأعمى لعقيدته الدينية، ومن اعتنقوا الإسلام خضعوا للدين، وخضعوا أيضاً، على ما يبدو، لكل بشاعة اختار حكامهم أن يرتكبوها. واستشهد ترنشارد وغوردون بالرحالة الفرنسى جان ثيفنو الذى تحدث عن "الاستسلام الأعمى" لدى الشعب التركى لإرادة السلطان، وهو استسلام يحض عليه الإسلام. "إرادته، أى شهوته، نزواته، أو غضبه، هى قانونه الوحيد، وهى لا سواها حدود سلطة خليفة الله هذا" ومثل ماثيو ليون، فإن ترنشارد وغوردون اعتبر أن القول بأن الرعايا ليس لهم أن يحكموا على تصرفات حكامهم وعبث. عبث حقا، لكنه "بشع وشرير، اخترعه" بعض التعساء الحالمين من الشيوخ المسلمين والمسيحيين"

الذين سحروا العالم بأكاذيبهم المقدسة. فما من قوة حكومية تقدر على قمع شعب لولا أن القسس والملالى جعلوا من "الطاعة السلبية" مبدأ دينيا. "نعم، العبودية التركية مؤكدة، والطغيان التركى يدافع عنه الدين"(٢٤).

وقد سمح الطغيان الدينى بالاستبداد الشديد بل وشجع عليه. وركز ترنشارد وغوردون، تركيزًا كبيرا، على إمبراطور مراكش فى القرن السابع عشر مولاى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) قائلين إنه، شخصيا، قتل ٤٠٠٠٠ من رعاياه. والأكثر إثارة للألم أن شعبه تهافتوا لينالوا شرف الموت على يديه، معتقدين أن هذا يبعث بهم إلى الجنة. واستعار جون فوسى، البحار الأمريكى الذى أسر فى الجزائر، فى تسعينيات القرن الثامن عشر، صورة مولاى إسماعيل وهو يقتل رعاياه ونسبها إلى داى الجزائر. "يندهش الجميع لما فى هؤلاء الناس من استسلام وصبر فى ظل طغيان قاسى ومتماد، لهذه الدرجة "، ولكن ليس فى الأمر سر. لأن الناس " لقنوا الاعتقاد بأنهم إن قتلوا بيد ملكهم" الذى ظنوا أنه "خليفة محمد" فسوف يصعدون إلى الجنة، فورًا(٢٥).

وقد توصل كتاب أوروبيون وأمريكيون إلى الخلاصة ذاتها حول السبب فى بقاء العالم المسلم متخلفًا. فالتدين الشرير يشجع على الحكم السيئ، والحكم السيئ يعوق التقدم الاجتماعى. وبدلا من تشجيع الصناعة والمبادرة، فهذه الحكومات تنشر الجهل الذى يشيع التراخى. وقد لاحظ وليم إيتون، القنصل الأمريكى فى تونس (١٧٩٩-١٨٠٣) ما فى الجزائر من خراب. فالسفن الجزائرية التى كانت، فى يوم ما، تصل إلى القنال الإنكليزى تقتصر الآن على المتوسط. وكتب إيتون عن الجزائر يقول "إن روح المبادرة لديها قد فترت" والأسطول الجزائرى يفتخر بفعل سوء الإدارة. " وأهلوها ليس لديهم حب للطموح ولا دافع إليه - ونظامها الدينى يحبذ الكسل بالتشجيع على التواكل" على المدد المقدس، تمامًا كما أغلق عقولهم "دون نعمة التفكر".

واستعد إيتون لبعثته إلى تونس بقراءة فولنى الذى اعتبر أن وصفه للأتراك "ينطبق عليهم هنا، بالضبط". إلا أن "تكاسل" حكام البربر يزيد بزيادة اعتمادهم على

الإمبراطورية العثمانية. "هؤلاء الجهلاء الذين ارتقوا إلى مكانة تتيح لهم الحصول على الجزية من كل عبد أدنى منهم، من البدوى المرتحل إلى عاهل إسبانيا المخدر، لا يشعرون بضوابط العدالة الرجولية" التى كان يمكن أن يشعروا بها لو أن القوى الأوروبية لم تدفع الجزية، وفضلت على ذلك استخدام القوة لمعاقبة أولئك الحكام.

ولو أن البلاد "التى هى بطبيعتها مترفة وجميلة بما يفوق الوصف" كانت فى أيدى "شعب مستنير ومبادر" لنافست الساحل المقابل للمتوسط "فى كل شىء نافع وثمين وأنيق". لكن التونسيين، العبيد التعساء "لحكومتهم المستبدة" ليس مسموحًا لهم بحق الملكية وهكذا فليس لديهم" أى طموح لزراعة "الأرض الغنية. وإضافة إلى تسلط الطغيان السياسى عليهم، فهم أيضًا ضحايا" أسوأ أنواع الطغيان، استبداد الكهانة" فعاشوا فى "خوف من غضب المتعصب" نبيهم" الذى مات قبل أكثر من ألف سنة".

والحقيقة أن التونسيين يخشون نبيهم الميت أكثر مما يخشون الباشا الحى. وكتب إيتون إلى زوجته "البلد جميل حقا، لكن الناس تعساء للغاية، وقد أذلهم القمع المزدوج من الطغيان المدنى والدينى، وليس لديهم إلا القليل من روح المبادرة، وهم شديدو الجهل"(٢٦).

وبعد ذلك بعشر سنوات رأى قنصل آخر وهو موردخاى مانويل نوا تونس بطريقة مماثلة لهذه الرؤية إلى درجة مدهشة. وإن كان نوا قد أذهله ما رأى فى إسبانيا: التناقض بين المعمارى المغربى الباقى والأمثلة الأحدث من المسيحيين الذين حلوا محل المسلمين. وكتب أن "حكم المغاربة فى إسبانيا كان أعظم مجدا وأشد ازدهاراً واستنارة من الحكم الراهن، المسك الآن بالصولجان". وكتب نوا إن المغاربة جاؤوا إلى إسبانيا بعصر ذهبى لكنهم عجزوا عن الحفاظ عليه، عجزوا عن التغلب على مشاكل العاطفة الدينية المتطرفة أو الإنفاق الحكومى أو الجنود غير المنضبطين. " لو أن مسلمى إسبانيا أقاموا حكومة قانون، وجردوا أنفسهم من شطر من حميتهم الدينية، وضبطوا جنودهم، ورشدوا إنفاقهم، لكانت الديانة المحمدية الآن قد انتشرت فى كل أوروبا، كما انتشرت فى آسيا". هذا ما كتبه نوا. فحكام إسبانيا المسلمون، مثل خلفاء

بغداد عند سمبوندى، نعموا بعصر ذهبى، لكن حميتهم الدينية وعواطفهم غير المحكومة دمرتهم"[٢٧].

فالعجز عن ضبط العواطف، سواء عند الشعب أو عند حكامه، من شأنه أن يؤدى إلى كارثة. ورغم أن الجزائر، كما جاء فى "تقرير موجز عن الجزائر" الذى كتبه كارى كانت تدعى مملكة (وهى كلمة يجب أن يسقطها كل إنسان من معجمه، دون أسف)، فقد كانت فى الحقيقة "جمهورية عسكرية"، رغم أنها، بالتأكيد، لا تشرف هذا النوع من الحكم، إطلاقًا". فقد كان الانكشاريون المقيمون هم الذين يختارون الداى، وكان هو "نادراً ما يحوز المنصب إلا بالصدام وسفك الدماء". وعادة ما كان يفقده بالطريقة ذاتها. وجاء فى "تاريخ موجز للجزايرلية" الذى نشرته ماساشويتس مارغازين فى ١٧٨٩ أنه على الرغم من أن الجزائر إقليم تابع للسيد الأعلى، فإن الداى، الخاضع اسميا، كان فى أغلب الأحيان "يتمتع بسلطة استبدادية ويقمع الشعب". ولم يكن الدايات يعولون كثيراً على سيدهم فى القسطنطينية.

وبمجرد أن يستولوا على السلطة لا يعودون يخشون سوى الجند التركى، الذى يساندهم ويبقى خوفهم منه مسيطراً على عقولهم" بالانقلابات العسكرية المتكررة. وهذه الانكشارية كانت تمثل القوة العسكرية التى لا تضبطها حكومة مدنية، والتى تأتى بالمرتزقة العاملين فيها من أحط فئات المجتمع. ويمكن لأى جندى نفر أن يقتل الداى ويستأثر بمنصبه لنفسه. "عندما تشعر حثالة الأهلين بأهميتها، فلا حاجة لنا إلى أن نوضح مدى قسوتهم وعدوانيتهم وطغيانهم!" هذا الدرس كان يتعلمه الفرنسيون فى تسعينيات القرن الثامن عشر، كما لاحظ جون آدامز وغيره من المحافظين الأمريكيين. "كم هم تعساء أولئك الرجال الذين لا يملكون إلا أن يكونوا لعبة لأهوائهم!" فلم يكن حكام الجزائر ومراكش وتركيا، بما لديهم من سلطان مطلق، سوى عبيد لجنودهم، ولم يكن الجنود سوى عبيد لعواطفهم المنحطة. "ألم يكن حريا بهم أن يزحفوا مع الديدان بدلا من أن يجلسوا على المقاعد العالية ويخيفهم أن ينظروا من حيث يجلسون خشية أن يروا سيفًا معلقًا فوق رؤوسهم"[٢٨]!

وكان هذا صحيحًا فى مركز الإمبراطورية بقدر ما كان صحيحًا فى الأقاليم. فالسيد الأعلى، أو سلطان تركيا، كان لسوء حظه يجلس على قمة نظام لا يملك السيطرة عليه. وقد كتب ترنشارد وغوردون فى ١٧٢٣ أن "السلطة هناك لا تنساب.. نازلة على قناة مستوية وسلسة، نزولا لطيفا ومنتظما، بل تسقط من جرف، بالدوى والسرعة والعنف المخيف، على الوديان الفقيرة السلبية تحتها"، لتدمر وتخرب كل ما يصادفها. وهذا الافتقار إلى قوة نظامية منسقة يعنى غياب الضوابط من أسفل أو من أعلى. وقد كتب إدوارد غيبون عن الجزائر باعتبارها حكومة عسكرية " تطفو بين الطرفين الأقصيين للملكية المطلقة وللديمقراطية الهمجية ". وقد انطبعت هذه الصورة بعمق فى الوعى الأمريكى حتى أنه عندما لم تكن الأحداث فى الجزائر أو تركيا تتوافق مع الصورة، كانوا يصورونها كما لو أنها متوافقة معها. وفى ١٧٩٨، على سبيل المثال، مات حاكم الجزائر الداى حسن، بعد مرض طويل، وخلفه مصطفى بوبا. ورغم الانتقال السلمى والمنظم للسلطة، نقلت الصحافة الغربى أن "حسن" وكل أعضاء بلاطه، بل وحتى القنصل الفرنسى، أطيح برؤوسهم. لم يكن بوسع السلطان التركى أن يسيطر على المسؤولين الخاضعين له، أو أن يفرض الأمن فى ممتلكاته أو فى الأقاليم البعيدة. وهكذا تربع السلطان التركى على قمة عالم يخشاه، وبنفس الدرجة، أى زعيم غربى، توماس جيفرسون أو جورج الثالث، أليكساندر هاميلتون أو توماس بين[٢٩].

وقد عكست المسرحيات الشعبية موضوع الفوضى السياسية هذا، وعكسته الروايات وتقارير الرحالة. فمسرحية "السلطان أو استرقاق النظر إلى السراى" التى كتبها إيزاك بيترستاف صورت السلطان سليمان الثانى المهيمن بكل قوة على تركيا بصورة المتردد فى إصلاح النظام خوفًا من تمرد الانكشارية. ووصف تقرير رحالة نشر فى نيويورك ماغازين فى ١٧٩٥ السلطان التركى بأنه "دون شك، الحاكم المطلق أكثر من أى حاكم فى أوروبا" لكنه قال إن السلطان يتعرض لبشاعات حكومة عسكرية بل وللتحقير والموت على أيدى الانكشارية الذين كانوا "مرتزقة ومشاغبين وأقوياء" من العصابات البريتورية (وحدات الحرس القيصرى فى العام السابع والعشرين قبل الميلاد التى كانت تتحكم بالقياصرة - المترجم) فى روما، وإن كانوا أقل استنارة، ولم يكن

السلطان يجرؤ على فرض الانضباط على سلطة الانكشارية. وكتبت الليدى مارى وورتلى مونتاغيو التى عاشت فى القسطنطينية فى ١٧١٧ و ١٧١٨ أن السلطان "بكل ما لديه من سلطة مطلقة، عبد كأى واحد من رعاياه، ويرتجف إذا قطب فى وجهه انكشارى". وقد كتبت الليدى مارى ساخرة من افتقار تركيا إلى بعض منغصات المجتمع الحر: فلم يكن هناك جماهير صاخبة، ورسائل تفتقد الحس السليم، ومشاجرات فى الحانة حول الأمور السياسية" ولا سباب ولا تشهير علنيين. والوزير الذى يغضب الانكشارية، كما قالت الليدى مارى، يطاح برأسه، والسلطان "الذى يدين له الجميع بعبادة لا حدود لها" يرتجف أمام غضب السفلة، ولا يجرؤ على الدفاع أو الانتقام لمساعده". هذه هى الأوضاع المباركة للعاهل ذى السلطة المطلقة أكثر من أى عاهل آخر، على وجه الأرض، والذى "لا قانون عنده سوى إرادته". وقد تمنت الليدى مارى لو أن ملء سفينة من "رجالكم السلبيين المطيعين" الذين يؤيدون الحكومة البريطانية فى كل أخطائها، يمكن شحنهم إلى تركيا حيث "يمكن لهم أن يروا الحكومة المتعسفة فى أصفى وأقوى ضوء" ويحكموا من هو الأتعس فى ظلها: الشعب أم الوزراء أم السلطان[٣٠].

وعندما انخرط الشعب الأمريكى فى مناقشة الدستور فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ استخدم خصوم الاتحاديين، كما هو متوقع، صورة الاستبداد التركى لمهاجمة الحكومة المقترحة. فالحكومة التى خلقها الدستور، وقد أعطت سلطة فرض الضرائب وتجييش الجيوش للحكومة المركزية، لم تؤمن الحماية الكافية للحرية الفردية، والرجال المختارون بحكم الدستور سرعان ما سوف يصبحون طغاة. لم يكن هناك نص يحظر الجيش النظامى ولا ضمانة للحرية الدينية. وقد تساءل خصوم الفيدرالية: ما الذى يمنع الحكومة الجديدة من المجيء بقطعان من الانكشارية لشد أزرها. أو ما الذى يمنعها من إعلان الإسلام ديناً للدولة، وإحلال القرآن محل التوراة؟ ربما كانت هذه المخاوف مبالغاً فيها بشكل هائل، لكنها كانت، رغم ذلك، جزءا من الجدل الدائر، وحذر باتريك دولارد، وهو مهاجر أيرلندى وصاحب حانة وزعيم سياسى فى ساوث كارولينا، المؤتمر المخول بالتصديق على الدستور من أنهم إن لم يقبلوا بالدستور فإن "جيشكم النظامى سوف

يجبركم، كما يفعل الانكشارية الأتراك وهم يفرضون قوانين الاستبداد، على ابتلاعه بقوة سيوفه".

وقد رفض نوا ويبستر الذى كتب باسم "مواطن أمريكى" هذه الفكرة كلها، باعتبارها حيلة بلاغية مضحكة، وقال إن روح الشعب الأمريكى هى ذات طبيعة تجعل من غير الضرورى حظر إنشاء جيش نظامى أو إدخال "الديانة المحمدية". وقال ويبستر إنه فى أمريكا "لن يتعرض أحد لتقليص حريته أو تهديدها". لكن هذه الضمانة لم تكن كافية بالنسبة لخصوم الاتحاديين. وسأل باتريك هنرى مؤتمر التصديق فى فيرجينيا: "من الذى استعبد فرنسا وإسبانيا وألمانيا وتركيا؟ لقد استعبدهم أناس منهم". وكان هنرى يخشى أن لا يكون الأمريكيون مختلفين، فى شىء[٢١].

وقد توافق ويبستر وهنرى وبولارد على شرور الاستبداد التركى. ولم يكن لدى ويبستر دفاع قوى ضد الاتهام بأن الدستور قد يؤسس استبداداً كهذا بالضبط فى أمريكا. وقد اعتمد، فقط، على شخصية الشعب الأمريكى للحؤول دون ذلك. لكن أليكساندر هاميلتون وجد طريقة لاستخدام الاستبداد التركى لمساندة قضية حكومة مركزية أقوى فى أمريكا. فمن ناحية كان السلطان، الذى يسانده الانكشارية التابعون له والحكم الإسلامى المطلق، كلى القوة. ومن ناحية أخرى لم يتمكن من السيطرة على نهم شعبه للعنف أو منع أى من انكشاريته من قتله. والأهم، فى حدود أغراض هاميلتون، فإن السلطان الذى كان بوسعه التخلص من حياة وممتلكات رعاياه بإيماءة من رأسه "ليس بمقدوره فرض ضريبة جديدة".

وفى العدد الثلاثين من صحيفته "فيديراليست" قارن هاميلتون بين السلطان وحكومة الولايات المتحدة فى ظل الكونفدرالية. لم يكن بوسع السلطان جباية ضرائب من رعاياه، لكنه سمح للحكام أو الباشوات المحليين "بنهب الشعب من دون رحمة" ليعتصروا منهم العوائد الضرورية للإنفاق على الدولة.

وفى الولايات المتحدة لم تتمكن الحكومة المركزية من فرض الضرائب على الناس بقوة قوانين الكونفدرالية. ولكن بدلا من تحريرهم من عبء الضرائب، سمحت قوانين

الكونفدرالية للولايات، كل على حدة، بأن ترهق الناس بالضرائب المرتفعة، دون أن توفر للناس الحماية من الفوضى الاقتصادية. وقد ضعفت الحكومة المركزية وأصبحت الولايات كلية القوة. وكتب هاميلتون "من يمكنه أن يشك في أن سعادة الشعب في كلا البلدين كان يمكن أن تتعزز بوجود سلطة كافية في أيدى أشخاص مناسبين ليؤمنوا العائدات التى قد تتطلبها احتياجات الجمهور؟[٣٢]. وهكذا فلو أن لدى الحكومة المركزية مزيداً من السلطة لأمكنها حماية الشعب من الحكام المحليين الظالمين. هذا الرأى تحدى أولئك الذين اعتقدوا أن تزويد الحكومة المركزية بمزيد من السلطة يجعلها استبدادية. وبدلا من ذلك، فقد اعتبر ميلتون الاستبداد نتيجة طبيعية لضعف السلطان، بمثل ما رأى بريدو أن الاستبداد نبت تفرع من حرية مكة الدينية غير المحدودة، بشكل طبيعي.

وليست صحة هذه الصورة تاريخيا هى القضية. فالأمريكيون الذين استخدموا العالم المسلم نقطة مرجعية لمجتمعهم هم لم يكونوا معنيين بالصحة التاريخية أو بالوصف الصحيح للإسلام ولكن بإمكانية استخدام هذا الوصف لأغراض سياسية. وقد كان العالم المسلم أداة بلاغية مناسبة بشكل عظيم، أمكن أن يلجأ إليها تحرريون أمثال ماثيو ليون وتوماس بين ومحافظون أمثال جون آدامز وأليكساندر هاميلتون. وبعد أن تكرست صورة شعبية عن محمد والعالم المسلم فى العقل العام، كان يكفى لذكر أحدهما حتى تبدأ مناظرة سياسية. ووفقا لهذا التعريف فقد خضع المسلمون للاستبداد الدينى وتم تعليمهم القبول بالاستبداد السياسى. وربما استسلموا فى البداية لأنهم كانوا مستعدين تمامًا لرفض قادتهم االدينيين الحقيقيين أو لأن أولئك القادة كانوا مستعدين لاستغلال الأبرياء من الناس. وفى أى من الحالتين فقد استسلموا، وعانت الأجيال التالية، جراء ذلك. فهم لم يفقدوا الحرية فقط، بل فقدوا كل ما تتيحه الحرية.

الفصل الثالث

نظرة إلى السراى: الأمريكيون والجنس والعالم المسلم

رأى الغربيون العالم المسلم فى القرن الثامن عشر كخليط شرير من الطغيان السياسى والجنسى الجامح. فلم تكن القوانين الاجتماعية أو الأخلاقية تكبح الرغبات الشهوانية لدى الحكام المسلمين إلى التسلط السياسى أو الجنسى. وبالحقيقة، فقد أصبح الطغيان الجنسى أقصى أشكال الطغيان السياسى المسلم، وفقًا للتقارير التى نقلتها فى الغرب المجلات والصحف والمسرحيات والروايات عن الغزوات الجنسية الجامحة للحكام المسلمين، الذين كان يفترض أن لديهم بيوت الحريم أو السرايات الكبيرة المملوءة بالنساء الجميلات، وكلهن جاريات استعبدتهن شهوة الطاغية الذى لم تكن له وظيفة إلا إشباع شهوته الجنسية. وكتب أحد الروائيين: فى العالم المسلم "يطلق العاهل العنان لعواطفه الجامحة، ولا يرى جريمة فى الاحتفاظ بالعدد الذى تقرره له رغباته الشهوانية من النساء تحت الطلب".

ومن المؤكد أن صور النشاط الجنسى المنفلت أشبعت الشهوات المتحرقة لدى القراء الغربيين وربما كان القصد منها استثارة الجمهور الغربى بوصف السلوك الجنسى للمسلمين. لكن صورة الجنس الجامح فى العالم المسلم تنطوى على رسالة تتصل بالعلاقات الجنسية اللائقة. وأكثر من ذلك فإن العالم المسلم الخيالى، عالم القوة الجنسية المنفلتة، كان موضوع تقارير رصينة، أيضًا فى صحف ومجلات وتقارير من الرحالة فى الغرب. وعلى سبيل المثال، ففى ١٧٩٨ أعادت صحيفة فى فيلادلفيا نشر خبر من صحيفة "كوريير" من بومباى زعمت أنها نقلت الخبر من صحيفة "غازيت"

البغدادية التى قالت إن الروس أخضعوا، فى النهاية، شعب داغستان "المتوحش، الفوضوى، والبدائى" وقد كان مصدر الدخل الأساسى لديهم يتحصل من خطف العذارى الجركسيات لبيعهن لسلطان تركيا. وقد أنهى الروس كلا من "الاستقلال المتعالى" الداغستانى و"اغتصاب العذارى الجورجيات والجركسيات اللاتى كن إمدادات لبيوت الحريم التركية وسرايا السيد الكبير".

لقد أدى الروس خدمة كبيرة للإنسانية بإنهاء هذه "التجارة المشينة فى العذارى الجركسيات "رغم أن المحرر الفيرجينى أغفل "التعزية الساخرة" التى وجهها المقال الأصلى للسلطان بعد خسارته "التى يحب أن يتحملها لتجارة مترفة كهذه"(١). وبجعل النساء موضوعًا للشهوة، فقد نزل سلطان تركيا بالتجارة الدولية إلى مستوى حلقات الدعارة، ومد نطاق الشرور المترتبة على جموحه العاطفى إلى ما يتجاوز أسوار حريمه بل وأسوار إمبراطوريته.

وقد كان السلطان ينظر إليه باعتباره عبدًا لجموحه العاطفى بقدر ما كان عبدًا للانكشارية. وفى مسرحية سوزانا روسون "عبيد فى الجزائر، أو نضال من أجل الحرية" التى صدرت فى ١٧٩٤ تنهى أسيرة أمريكية داى الجزائر عن أن يدعو أسراه عبيدًا، لأنه أكبر العبيد، على الإطلاق؛ هو عبد "جموحه العاطفى الوقح" وخيلائه وطمعه و"حبه غير المشروع". ولأنه غير قادر على كبح جماح شهوته الجنسية، فالسلطان عاجز عن الاستمتاع بمسرات العلاقات الجنسية التوافقية(٢).

وتقوم العلاقات الجنسية فى العالم المسلم، طبقًا للمعلقين الغربيين، على العنف ولا تمليها إلا القوة، وهذه العلاقات تصوغ المجتمع كله. واستقر رأى الإنكليزى جورج هنرى روك الذى زار اليمن فى ثمانينيات القرن الثامن عشر على أن الإنكليزى لا يمكنه أن يهنأ بالعيش فى بلاد العرب لأن حقوق الملكية كثيرًا ما تنتهك ولأن "الاتصال "بالنوع الجميل" يقوم على الطغيان والجبر، بدلا من تلك الرقة والتوافق الشعورى الذى هو أساس هذه الصلات، بالنسبة لنا" فالمجتمع المسلم يفتقد الأساسين اللذين تقوم عليهما الحرية الإنكليزية: حقوق الملكية والاستقلال الجنسى للأنثى. وقد أشارت

ENCYCLOPEDIE DES VOYAGES (موسوعة الرحلات – المترجم) التى نشرها جاك غراس دوسان سوفير فى ١٧٩٦ إلى أن "الأتراك والجزائريين، وإن لم يتطلعوا إلى تأسيس أسر كبيرة، فإنهم يتصرفون كقراصنة حقيقيين في الفراش. فهم يدمرون حقول المباهج الحسية من دون جهد حقيقى لجعلها تثمر". فالرجال لا يسعون إلا إلى إشباع شهواتهم، وليس إلى عمار الأرض، وهم بذلك يقلبون دعوة فرانكلين إلى "استخدام الجنس" لمجرد "الصحة والنسل" رأسًا على عقب. وفى العالم المسلم فعل المسلمون، بالضبط، ما أشار فرانكين والناصحون الأمريكيون الآخرون بتجنبه. وفى غياب كل احترام للمرأة، كان الرجال يسرعون إلى مغادرة شريكتهم بمجرد أن يملوها، باحثين عن غزوات جديدة. وأصبح الجمال مقياسًا لقيمة المرأة فى هذا المجتمع الذى قلب كل مفاهيم الجدارة الغربية[٤].

واعتقد الغربيون أن الإسلام سمح بهذا الطغيان الجنسى بزعم أنه علم أتباعه أن المرأة كائن بلا روح. "إنهم يعتقدون أن النساء ليست لهن أرواح" هكذا كتب الأمريكى الأسير جون فوس" وأنهن لسن مهيئات إلا للإنجاب، ولهذا فلا يؤذن لهن بدخول مساجدهم، لأنهم يحسبونهن غير مؤهلات لدخول الملكوت: لكن النساء يؤدين صلواتهن سرا فى بيوتهن". فالنساء لسن أندادا، من الناحية الروحية، للرجال، بل هن مجرد أدوات لشهوة الذكور. وهذا يجعل من المستحيل على الرجال والنساء أن يجمع بينهم أمر سوى الجماع. وكتب الأب فولنى أن الرجال المسلمين "ليست عندهم فكرة كيف يمكن لهم أن يروهن، ويتحدثون إليهن، ويلمسونهن من دون عاطفة، أو أن يختلوا بهن دون الوصول إلى أقصى مدى"[٥] وبعد أن جردوا النساء من كل صفة إلا الصفة الجنسية، لم يعد الرجال المسلمون يرون فى النساء شيئًا سوى أنهن موضوعات للرغبة.

ولمنع الفوضى الجنسية تعين على المجتمع المسلم أن يحبس نساءه حماية لهن. وكان مونتسكيو يعتبر أن الدافع الجنسى يبلغ أقصى شدته فى المناخات الدافئة، حيث تكون الأهواء الجامحة لدى الناس أقوى. ولأن الإسلام لم يرسخ فى قلوب أتباعه من الرجال ضوابط أخلاقية (كما زعم هؤلاء – المترجم) تعين أن تكون هناك حواجز أخرى. ففى هذه المناخات الدافئة "حيث تكون للدوافع الطبيعية قوة ليست للأخلاق، بالمرة"

هكذا كتب مونتسكيو "إذا ترك رجل مع امرأة فإن الغواية والسقوط سوف يكونان أمراً واحداً، والهجوم مؤكداً، والمقاومة منعدمة". وبما أن الفضيلة الاجتماعية والاستقرار يقومان على فضيلة الأنثى، في كل المجتمعات أياً كان مناخها، ففي هذه الأماكن التي يعظم فيها الخطر إلى أقصى درجة، لا بد من حبس النساء لحمايتهن ولمصلحة المجتمع. وفي البلدان الاستبدادية، بشكل خاص، كتب مونتسكيو، حيث لا يسع الحكام أن يخاطروا بثورة تنشأ عن سخط عام، وحيث يسفر أقل تحد للسلطة عن سفك دماء وفوضى" حيث لا بد من السلام لضمان الخضوع، يكون إسكات النساء ضرورة مطلقة، فمؤامراتهن يمكن أن تكون قاتلة بالنسبة لأزواجهن". ولو قدر للنساء أن يخربن السلطة الجنسية لأزواجهن، فسوف يخربن السلطة السياسية. وكتب مونتسكيو "إن عبودية النساء أمر "مريح بشكل تام لروح الحكم الاستبدادي، الذي يستمتع بمعاملة الجميع بالشدة"(٦).

وتحت هذه الشدة أساس من عدم الثقة. فلو أن الوازع الأخلاقي أضعف من أن يسيطر على أهواء الرجال والنساء، فالقوة يجب أن تسيطر. لكن معظم المراقبين زعموا أنه بدلا من حل المشكلة، فإن الفصل بين الجنسين جعل المشكلة أسوأ. وكتب فولني أنه حيثما يكون الرجال والنساء جاهلين بالحب، كما فهمه الغربيون، فإن "متعتهم تصبح خالية من الرقة" وتصبح الزوجات "مجرد محظيات، لا يفكرن في شيء إلا في تجريد العاشق من كل ما يملك قبل أن يرحل" ويتعين على الأزواج "أن يكتسبوا هيئة المستبد، ومن تلك اللحظة لا يجد الزوج إلا مشاعر الجاريات، مظهر المرأة المحبة، وحقيقة الكراهية". فالرجال والنساء الأتراك يحتقر بعضهم بعضا، ولا يملكون السيطرة على أهوائهم في هذا الجو من الفجور"(٧).

وحبس النساء، برأي الغربيين، لم يؤد إلا إلى مزيد من الفجور. فبعد استبعاد كل فرصة للقاء، راح الرجال والنساء يسعون إلى اللقاء لأغراض بدنية خالصة. "يرقبون أول فرصة، في يقظة دائمة، لأنها نادرا ما تحدث وسرعان ما تضيع" والنساء المتزوجات بشكل خاص "يستسلمن للذة بحرية أكبر" ليعوضن عن التضييق الصارم الذي يعانينه. ولمنع غير المتزوجات من السلوك غير الخلقي، أباح المجتمع المسلم تعدد

الزوجات وشجع على الزواج بمجرد البلوغ أو قبله. لكن هذه الحلول التى كرست عجز النساء عن السيطرة على أنفسهن جعلت المشاكل المتعلقة بالفجور أسوأ، بل وخلقت مشاكل خلقية جديدة للمجتمعات التى حاولت فرض الفضيلة بالقوة. ولام فولنى تعدد الزوجات والزواج المبكر زاعماً أنهما من أسباب وصول الرجال الأتراك إلى العجز الجنسى فى سن الثلاثين، رغم أنه، مثل المراقبين الأكثر معرفة، كان يعلم أن تعدد الزوجات نادر– فما من رجل يتزوج أكثر من أربع نساء، وقليل من له أكثر من زوجة واحدة. لكن حقيقة أن تعدد الزوجات وارد أعطى المراقبين الغربيين ما يكثرون الحديث حوله، وانعقد الإجماع عندهم على أن تعدد الزوجات جعل الرجال يصابون بالعجز.

ورأوا أن حبس النساء فى بيوتهن أدى إلى تفشى الشذوذ الجنسى بين الرجال، أو، كما قال مونتسكيو "إلى تلك النزعة التى ترفضها الطبيعة" وأشار القنصل الأمريكى فى الجزائر ريتشارد أوبرايان إلى داى الجزائر – ساخراً منه – بأنه "كامل القدرة " وكتب فى رسالة خاصة يقول "القادر يطأه صبى فى ساعات الراحة.. ذلك الذى اعتاد أن يأتى الآخرين يجد الآن من يأتيه". وفى تونس صدم وليم إيتون عندما علم أن الباى حمودة باشا، رغم أنه متزوج من امرأة رائعة بدرجة تفوق كل امرأة أخرى فى المملكة، كان عشيقه" تركيا قويا فى الثالثة والثلاثين". وقد كان هذا "التركى القوى" سيدى يوسف كوجى أقرب مستشاريه السياسيين. ورغم الخصال الطيبة التى تمتع بها حمودة باشا، فإن هذه الوصمة تجعل "أكثر أبناء الطبيعة فسوقًا يحمر خجلاً". فالفجور والعجز والشذوذ، جاءت كلها، كما اعتقد الغربيون، نتيجة للفصل الصارم فى العالم المسلم بين الرجال والنساء. وسلطة الحاكم الجنسية على النساء، كسلطته السياسية على رعاياه، كانت تظاهراً فارغاً(٨).

وقد عاشت الليدى مارى وورتلى مونتاغيو زوجة السفير الإنكليزى فى القسطنطينية فى ١٧١٧ و ١٧١٨ وتحدت هذه التصورات الغربية عن القيود والانحلال الجنسى لدى المسلمين. وهاجمت، بشكل خاص، الرحالة الغربيين الذين يأتون إلى الشرق بتصورات مسبقة. لقد كانت "لذة خاصة لدى هنا أن أقرأ عن الرحلات إلى المشرق، التى هى بعيدة كل البعد عن الحقيقة، ومليئة بالسخافات، لدرجة تجعلها تسلية بالغة لى".

وكتبت تقول إن الرحالة "لا يكفون عن الحديث عن النساء، اللاتى لم يروهن، على وجه التأكيد، قط، ولا عن الحـديث عن عبقرية الرجال، بكل حكمة، رغم أنهم لم يسمح لهم قط بصحبتهم، وغالبًا ما يصفون المساجد التى لا يجرؤون حتى على أن يسترقوا النظر إلى داخلها". والليدى مارى التى اتخذت الملبس التركى وزارت النساء فى بيوتهن، فى الحريم، وحتى فى الحمامات، وصلت إلى تحيز أيديولوجى معين يخصها. فهى ابنة سياسى محافظ بارز وزوجة سياسى محافظ بارز وصديقة حميمة لأدباء كبار من أمثال اليكساندر بوب وجوزيف أديسون، وكانت تحاول أن تبنى لنفسها حياة مستقلة كأديبة. وقد استخدمت المسلمات اللاتى قابلتهن فى بلغراد والقسطنطينية باعتبارهن نقائض لوضع المرأة فى المجتمع الإنكليزى(٩).

وكانت تعتقد أنه "من دواعى السرور أن تلاحظ رقة الرحالة الذكور وهم يأسون للتضييق الذى تعانيه النساء التركيات، اللاتى قد يكن أكثر النساء حرية فى العالم" وإضافة إلى كونهن أكثر نساء الدنيا حرية، فقد كن وحدهن المتمتعات بالحرية فى تركيا. فالحجاب، الذى هو رمز القمع لدى غيرها من المراقبين الغربيين، سمح لهن بأن يذهبن إلى حيث شئن دون أن يلاحظن. وعندما كانت امرأة تركية تخون زوجها فإن أحدا لم يكن يعرف. وقد كانت لدى التركيات متعة فريدة تتمثل فى قضاء كل وقتهن "فى الزيارات، والتحمم، أو فى التسلية الممتعة المتمثلة فى إنفاق النقود"(١٠).

وفى زيارة لها إلى حمام عام للنساء فى آدريانوبل (هى الآن مدينة أدرنة التركية) أذهلها نبلهن ولطفهن وما بينهن من مساواة. جلست السيدات والجاريات عاريات، جنبًا إلى جنب، "دون أن تفصل بينهن المراتب التى يعبر عنها الملبس" وما فيهن من جمال وعيوب مكشوف لناظر الجميع، ولكن من دون أدنى "ابتسامة ساخرة أو إشارة غير مهذبة" أو "بسمة متعالية" أو "همسات مستهزئة" مما هو شائع فى تجمعات الإنكليزيات وهن بكامل ملابسهن. وهذا الحمام العمومى، كما كتبت الليدى مارى، كان "مقهى النساء، حيث تروى كل أخبار المدينة، وتخترع الفضائح، وهكذا". وكم تمنت لو أن الرسام الإنكليزى تشارلز جيرفاس، الذى اشتهر ببورتريهاته النسائية، كان بوسعه أن

يزور هذا الحمام، حيث إن هذا كان حريا بأن يحسن فنه" حين يرى هذه الكثرة من النساء الرائعات عرايا، فى أوضاع مختلفة. بعضهن يتحادثن، وبعضهن يعملن، وغيرهن يشربن القهوة أو الشربات" وأخريات تركن شعرهن تضفره لهن الجاريات. وحثت النساء الليدى مارى على أن تنضم إليهن، لكنها أظهرت لهن مشابك المشد على بطنها. ورغم أنها لم ترد إلا أن تبين لهن صعوبة خلع ملابسها، فقد ظنت التركيات أن زوجها أحاطها بحزام العفة "بتلك الآلة، التى ليس بمقدورى أن أفتحها". لقد أسأن فهم الغرض من المشد، لكن هذا الحادث أبرز لليدى مارى التضييق الواقع عليها، والتقييد الذى تفرضه عليها الموضة. وفى هذه الزيارة لحمام عام، لاحظت أن النساء العاريات، لم يكن مدركات للفروق فى الرتبة والمكانة، كما هو الحال فى تجمعات النساء الإنكليزيات. فملابسهن الفضفاضة، التى تزينت بها وهى فى القسطنطينية، كانت أقل تقييداً للمرأة من الموضات الإنكليزية، أما الحجاب فكان يحفظ لهن خصوصيتهن ويضمن، فى الوقت ذاته، أن تبدو كل النساء متساويات فى المظهر العام. وهذا جعل التركيات أكثر حرية من نظيراتهن الإنكليزيات اللاتى كن مقيدات بـ"آلات" تدعى مشدات ودائمات الوعى، أيضًا، بمركزهن الاجتماعى النسبى. فوراء حجابهن، كانت لدى التركيات وفرة من الخصوصية والحرية(١١).

وكتبت الليدى مارى التى كانت أكثر معرفة، بشكل عام، من الرجال الذين زاروا تركيا، عن امرأة مسيحية واحدة باعتبارها "سيدة اللطف والتعقل" إذ قبلت بالحياة قرينة لمسلم. وهى إسبانية أسرها أمير بحر تركى وهى فى رحلة بحرية. "حدثت لها نفس الواقعة التى حدثت للوكريتيا الجميلة" هكذا كتبت الليدى مارى. ولكن بعكس تلك الضحية الأدبية للغواية، كانت هذه المرأة مسيحية لدرجة تجعلها تحجم عن قتل نفسها. أرسلت أسرتها ٤٠٠٠ إسترلينى فدية لها، لكنها قالت لآسرها التركى إن حريتها لم تكن تهمها بقدر ما يهمها شرفها الذى لا يصونه سوى الزواج. وإذا اغتصبت أو أغويت فلن يكون بوسعها أن تتزوج إن عادت إلى إسبانيا. كانت أسرتها سترسل بها إلى دير للراهبات. ولكى ينقذها من ذلك المصير، تزوجها آسرها، ووعد بأن لا يتخذ معها زوجة ثانية، أبداً، وأعاد مبلغ الفدية إلى أسرتها. وقد نجحت فى استعادة شرفها

بالزواج فى تركيا. وقد أقنعت آسرها بأن يحبها، واستخدمت هذا الحب للوصول إلى علاقة بشروطها هى، أو قريبة إلى شروطها، بالدرجة الممكنة لامرأة فى القرن الثامن عشر. والبديل المتاح لها كان يمكن أن يكون الحجز فى دير إسبانى. فهل قايضت حريتها الروحية بالحياة الغنية لزوجة أمير بحر تركى؟ لم تر الليدى مارى أن هذه المرأة خسرت كثيراً. فباعتبارها سيدة لها مكانتها فى إسطنبول (ها هو يستخدم الاسم الإسلامى للمدينة، لأول مرة - المترجم) فقد عاشت فى راحة ودعة، والمقدار الذى يمكن أن تنفقه ليس له "حد سوى رغبتها هى". فزوجها لا يناقش نفقاتها. "مهمته أن يكسب النقود، ومهمتها أن تنفقها"(١٢).

ورأى الليدى مارى هو رأى الأقلية. فلم يكن بوسع الأمريكيين أن يقبلوا هذه الفكرة عن الحرية. فالمساواة بين الجميع فى حمام عام، والخصوصية البالغة، والحرية المحجبة ليست كافية.

وفى مسرحية سوزانا روسون "عبيد فى الجزائر" لعام ١٧٩٤ يسأل بن حسن الأسيرة الأمريكية ربيكا أن تكون زوجته. وتهتف "تجعلنى زوجتك؟!" ثم تسأله "ألست متزوجًا بالفعل؟!" ويرد عليها قائلاً: بالطبع لكنى باعتبارى مسلمًا أستطيع أن أمتلك "عدداً وفيراً من النساء - شريعتنا تعطينا حرية فى الحب، أنت أمريكية ولا بد أنك تحبين الحرية". وإذ أزعجها هذا التلاعب بالألفاظ فإنها تقول له "لا تلوث الكلمة المقدسة باستخدامها فى معنى الانحلال، إن أبناء الحرية وبناتها يستلهمون مبادئ العدل والحق والرحمة عندما ينضوون تحت ألوية مجيدة"(١٣). فالأمريكيون لم يرفضوا القيود المفروضة على المسلمات باعتبارها قيوداً، ولكن لأنها مصطنعة. وقد اعتقد الأمريكيون أن الرادع الأخلاقى أساسى، واعتبروا أن فرض هذه الضوابط منع الرجال والنساء من تنمية شخصيات فاضلة خاصة بهم. وقد صدم سوزانا روسون احتمال الخلط بين الحرية و"التحلل" أو الفجور، وأدانت تدعير الكلمة المقدسة على هذا النحو.

وفى حين أدان المراقبون الغربيون الطغيان الجنسى الذى تقتنع به الفجور الجنسى فى العالم المسلم فلم يكونوا جميعًا مرتاحين إلى ما اعتبروه، على النقيض من ذلك،

الحرية الجنسية المفرطة فى أمريكا. وقد كتب واشنطن إيرفينغ سلسلة من الرسائل من شخص خيالى من طرابلس الغرب فى نيويورك فى ١٨٠٥ يعلق على المجتمع الأمريكى. وفى الرسالة الأولى التى بعث بها مصطفى روبادوب خلى خان من العالم الجديد، علق الطرابلسى على "مفاتن هؤلاء الكافرات" اللائى يراهن "يجبن الشوارع عاريات الأذرع والنحور" وكأنهن "مهرجات". وجمالهن الذى يعرض هكذا، على المكشوف، يجعله يتساءل عن جمال "أولئك المحجوبات فى السرايات، واللاتى لا يسمح لهن، أبداً، بالخروج. لا يحتفى إيرفينغ بحرية النساء الأمريكيات، بل يزعجه مسلكهن المتغنج. ورغم أن الطرابلسى اجتذبه جمال الأمريكيات فإنه يلاحظ أن فيهن عيبا رئيسيا. "هل تصدق يا عاصم.. أن خمسهن على الأقل عصبيات! وإحدى النساء اللاتى رآهن كانت عصبية بدرجة كافية لأن "تلطم زوجها على صدغيه" علناً. ولم يكن إيرفينغ سعيداً، بشكل كامل، بالحرية التامة التى تمتعت بها هؤلاء السيدات الأمريكيات المتسلطات المتبرجات(١٤).

التضييق على النساء، أيضاً، يمكن أن يؤدى إلى انحطاط السلوك، لكنه يمكن أن يساهم فى السلام والهدوء العائليين، أيضاً. وقد أعجب وليم إيتون بالتونسيين لبساطتهم واعتدالهم وأمانتهم. "ليست عندهم حفلات صاخبة فى نصف الليل، ولا هجمات ولا مدفعية، وقليل للغاية من الاغتيالات "بعكس مجتمع نيوإنغلند الذى خلفه إيتون وراءه. "التعاسة المؤسفة التى ترتبط دائماً بالغواية، والتى كثيراً ما تجرح نظر العقلاء فى كل قرية فى العالم المسيحى، غير معروفة هنا: لأنهم يسجنون بناتهم". أى أنه دون فرص للغواية فإن نساء العالم المسلم محميات من أن يحملن من غير زوج. ووفقاً لإيتون فإن مونتسكيو، إذن، كان على حق فى أن حبس النساء يحمى السلام والهدوء العائليين. وقد تجنب التونسيون المآسى الحقيقية التى تتأتى من الغواية والسفاح بحبس نسائهم(١٥).

وقد حاول مونتسكيو أن يخمن ما يمكن أن يحدث لو أن النساء الفرنسيات بما فيهن من "خفة عقل" وأهواء ونزق و"نار مشتعلة" و "حرية كاملة" أخذن إلى تركيا.

وتساءل: "هل كنا سنجد رب أسرة ينعم بلحظة راحة؟ "كان الرجال سينقلبون أعداء يشك أحدهم في الآخر بسبب الانحرافات الجنسية، حتى إن "الدولة تنقلب، والمملكة تغرق في أنهار من الدم". وفي مسرحية إيزاك بيكرستاف "السلطان" تظهر امرأة إنكليزية ملتهبة النشاط في تركيا وتقلب الدولة، وإن دون أنهار الدم التي توقعها مونتسكيو. وبدلاً من ذلك فإن روكسالانا تعلم النساء احترام الذات، وبمجرد أن تفوز بقلب السلطان فإنها تصر على أن تكون ندا له. ويندهش أوسمين الخانع، القيم على سراى السلطان كيف "أن أنفًا صغيراً مترفعًا" استطاع أن يقلب "تقاليد إمبراطورية جبارة!"[١٦].

كانت روكسالانا بطلة بريطانية، لكن المسرحية سرعان ما تم تعديلها لتناسب المسرح الأمريكي. وتغير عنوانها من "السلطان" إلى "الأسيرة الأمريكية" وأصبحت روكسالانا، وليس سليمان، الشخصية الرئيسية. ولم تبق نسخ من هذه الطبعة الأمريكية التي استمر عرضها منتظماً من العرض الأول في ١٧٩٤ وحتى ١٨٤٠، ولهذا فلا يمكن أن نعرف ما هي الأشياء الأخرى التي جاءت مختلفة في نصها المعدل. لكن العنوان الجديد يبرز الهوية الوطنية لروكسالانا والتعارض بين أن تكون أمريكية وأن تكون أسيرة، ومركزية أدوار الجنوسة بالنسبة للسلطة السياسية.

وتبدأ روكسالانا تخريب النظام العثماني في السراى بأن تعلم النساء احترام الذات والوقار وأدوارهن الجنسية والسياسية الملائمة. ويسلى العبد الفارسي أوسمين، الذي يمتع السلطان بغنائه، سيده سليمان في الفصل الأول بأن يغنى له باعتباره "البطل المبارك الذي ينتصر في الحرب والسلام على السواء ويثير فينا الدهشة". ولكن بعد أن تبدأ روكسالانا تهز كل شيء، فإن أوسمين يغنى أغنية جديدة: "دعهم يقولون ما يريدون قوله/المرأة، المرأة لا تزال تحكمهم" وتتمكن روكسالانا من تحويل هؤلاء النسوة لأنهن لم يعدن قانعات بأدوارهن كمحظيات، ولأنها قادرة على كسب السلطان لصفها لأنه يجد استقلاليتها مبهرة ولأنه، أيضاً، يشعر بأنه فارغ من الداخل. لقد أصابه الملل من "آلات التدليل" في السراى، النساء اللاتى ينبع حبهن من الخوف أو المصلحة.

وهو يطلب من أوسمين، الرجل المسؤول عن النساء، أن "ينهى هذا النمط من العبودية، لقد مللته" ويدعو هذا الخادم صديقه. لكن أوسمين يعجز عن التسامى على عاداته الخانعة، لا يستطيع أن يصبح صديق السلطان وإن كانت روكسالانا تستطيع ذلك؛ وتصبح صديقة السلطان سليمان وتخبره بأنها "ليست سوى جارية بائسة وصديقة لك". والصديقة تستطيع أن تنبئ سليمان بأمور لا يقدر على البوح بها الخدم أو الجوارى. وعندما يطلب سليمان من روكسالانا أن تصبح السيدة الأولى فى السراى، قائلا لها: "هأنذا أكرس نفسى لك، وسوف تقدم الإمبراطورية كلها لك الاحترام " فإنها ترفض. وتذكره بأنها "امرأة ولدت حرة، ويفوق اعتزازها بذلك كل قيمة للأبهة والفخامة التى يمكن أن يسبغها عليها ملوك الشرق" فهى من بلد "كل مواطن فيه هو ملك بذاته" و "الملك نفسه مواطن" وباعتبارها امرأة حرة فإن روكسالانا لا يمكن أبداً أن "تصعد إلى فراشه ليلاً، لتركع عند قدميه صباحًا. سوف تصبح زوجة سليمان إذا شاركته السلطة السياسية، فقط. فلو أن الرجل الذى أحبته عنده كوخ فسوف تقاسمه إياه. وبما أن الرجل الذى تحبه لديه عرش، فلا بد أن تصر على مشاركته فيه"(١٧).

وعندما يعترض سليمان قائلا إن "المفتى والوزراء والأغوات" لن يسمحوا بذلك، تخبره روكسالانا بأنهم عبيده، وبأنه يجب أن يكون مستبداً، فى بعض الأحيان، لصالح "الفضيلة والعقل" وتطلب منه أن "يجعل الشعب سعيداً، ولن يمنعوك من السعادة" وبالسعى وراء السعادة كمبدأ حاكم جديد للإمبراطورية تنتهى المسرحية إذ تصبح روكسالانا "الشريك الذى لا ينافس" لسليمان، قوة مسلمًا بها ومعترفًا بها على العرش. وسوف يكون دورها أن تساعد التعساء، وأن تسعف المكروبين وأن "تنشر السعادة فى القصر" وتؤدى دورها كشريك أسرى وسياسى للسلطان. وتصبح الصداقة والندية فى الزواج أساس النظام السياسى الجديد. ولكى يبدأ سليمان الاستمتاع بالحياة، فلا بد أن يعترف بأن لروكسالانا سلطة مساوية فى العلاقة. ترفض روكسالانا أن يكون دورها "مجرد آلة تدليل"، لا بد أن يحترم استقلالها الشخصى. ليست صانعة مسرات السلطان بل هى شريكته(١٨).

وإذ تؤسس روكسالانا دورها باعتبارها شريكة للسلطان فإنها تقلب الاستبداد السياسى التركى. فمن الممكن لامرأة أمريكية أو إنكليزية مستقلة وصريحة ومخلصة أن تقلب الاستبداد بمجرد الإخلاص. تكتسب روكسالانا سلطة بجعل السلطان يقع فى غرامها، وهو ما لا تحققه بالرياء أو المكيدة، ولكن بأن تكون نفسها. روكسالانا الأجنبية تقلب عادات مجتمع لا تفهمه. وفى أغلب الحالات، فى القصص عن العالم المسلم، فإن النساء اللاتى نشأن فى المجتمع تؤول إليهن مهمة إصلاح مؤسساته أو تخريب سلطته الاستبدادية.

وتوحى مسرحية "السلطان" بأن الاستبداد السياسى فى تركيا مركزه القصر. وعندما تحول روكسالانا سليمان إلى "رجل خير"، من خلال علاقة زوجية تقوم على الحب، وليس على السلطة، فإنها تقلب أساس السلطة السياسية فى تركيا، بالكامل. وقد كانت فكرة أن السياسة القومية انعكاس للعلاقات العائلية من البديهيات بالنسبة للقرن الثامن عشر. وقد خصص فولنى هامشًا طويلاً فى الخرائب "لموضوع الطغيان العائلى". "الطغيان الأبوى أرسى الأساس للطغيان السياسى" هكذا كتب، وقال إنه يستطيع بسهولة أن "يكتب فصلاً طويلاً ومهمًا" عن هذه الفكرة وحدها.

وكتب فولنى إنه "فى دولة بسيطة وبربرية يكون الأب طاغية، وتكون الأم جاريته والأطفال خدمه. وتظل السلطة الأبوية فى أقوى حالاتها فى البلدان الاستبدادية مثل تركيا، والصين، والهند. ففى هذه المجتمعات يمارس الحاكم المستبد السلطة من خلال كل الآباء فى البلد. يفترض المرء أن الطاغية يزود نفسه بالمتواطئين وبمستبدين تابعين من ذوى المصالح ليحافظ على سلطته". وعلى غرار الطغاة المحليين من الباشوات والبكوات الذين يمارسون استبداداً اسوأ من استبداد السلطان، فإن رأس كل أسرة هو طاغية بلا رادع(١٩).

لم يكن قد مضى وقت طويل على تحرير الأمريكيين لأنفسهم مما تصوروه الطغيان الأبوى الإنكليزى. وكان لموضوع الطغيان الأبوى، باعتباره شكلاً من أشكال الاستبداد، وباعتباره مادة تغذى عليها الأدب الاستشراقى وكذلك الرواية الإنكليزية الطالعة،

فى معظم الأدب الأمريكى فى الفترة الثورية والوطنية المبكرة، رنين خاص. وقد حفلت المجلات الأمريكية والبريطانية بحكايات استشراقية (ORIENTAL التى استخدمها المؤلف تعنى، حرفيا، مشرقية لكن الحكايات كانت أمريكية وبريطانية استلهمها كاتبوها من تصوراتهم عن المشرق، ولهذا اعتبرناها استشراقية لا مشرقية – المترجم) عن محبين فى عمر الشباب يتّحدون رغم اعتراضات الآباء أو يفضلون الهرب على أن تفرق بينهم إرادة الآباء. فقصة "سليمان وألمينا" على سبيل المثال، هى سلسلة من التنويعات على هذا الموضوع، حيث غرام الشباب يقاوم الطغيان بثلاث طرق مختلفة فى صفحاتها السبع القصار(٢٠)، يترك سليمان بيته فى فارس، ويترك والده العطوف، ليدرس المزيد من أحوال الدنيا. وينجح فى هذا الأمر، خلال أسفاره من فارس إلى الهند، حيث قابل فى الطريق عاشقين شابين يوشكان أن يفترقا بسبب الأب الجشع للفتاة، ثم يقابل الحبيبين زارا وعباس اللذين أجبرهما والد زارا وهو ضابط بالجيش على أن يفترقا، وبعد ذلك الأسير فى جزيرة هرمز، وأخيراً ألمينا التى يتعين على سليمان أن ينقذها من حاكم دلهى المستبد.

فأول عاشقين يلتقيهما عباس يوشكان أن يفترقا بسبب جشع والد الفتاة الذى باعها لخان بخارى. ويحتمى العاشقان بوالد سليمان ويحسنان استخدام حريتهما. وعندما يموت والد الفتاة فإنها ترث ثروته. وتقوم هى وزوجها بتعويض من ظلمهم أبوها، وهم كثر. وبهذه الطريقة فهما يحرران الآخرين من تسلطه الاقتصادى، تماماً كما حررهما سليمان من طغيانه الشخصى. وبتحرير هذه المرأة من الزواج بالإجبار من طاغية سياسى، فقد سمح سليمان لها ولزوجها المختار بأن يعملا أعمالاً صالحة. وهذا التصرف الكريم من جانبه، عندما أرسل الاثنين ليعيشا مع والده الحكيم، كان أكثر من مجرد عمل من أعمال الخير الشخصى. فهذا العمل سمح لهما بأن يصبحا حرين، وهما يستخدمان هذه الحرية من أجل أمور تتجاوز سعادتهما الشخصية، بكثير. فعندما عوضا أولئك الذين قمعهم والد الفتاة أصبح العاشقان، أخيرا، سعيدين هما أيضا.

ويتوازى المثال الثانى من أمثلة العشاق الذين يسعون لتحرير أنفسهم من الطغيان الأبوى، فى قصة زارا وعباس، مع حبكة واحدة من أكثر المسرحيات شعبية فى ذلك الوقت، "الجبليون". زارا ابنة أحد ضباط الجيش، وعباس جندى تحت إمرته. ويقع الاثنان فى الحب، على عكس ما يتمنى الوالد، الذى يستبد به "جنون الغيرة". وتتنكر زارا فى هيئة فلاحة وتقود عباس عبر المنطقة الجبلية، حيث يهاجمهما اللصوص ويختطفون زارا. ويعود عباس إلى المعسكر ويتوسل إلى والد زارا أن يصحبه للبحث عنها "لكن ذلك التعيس غير الطبيعى.. يتفوه بأسوأ أنواع السباب لطفلته" ويرفض. ويصبح عباس ناسكًا متصوفًا بعد أن يملأه الغضب والمرارة من أفعال البشر. ويكون سليمان أول زائر لكهفه الجبلى منذ سنوات. ويثور سليمان على حقارة البشر، بعد أن سمع حكاية عباس وملأه "هياج الغضب النزيه". ويقول له رفيق أسفاره: "أنت تستقى صورة جزئية عن حياة الإنسان من المشكلات المعقدة لشخص واحد". أما والد زارا الذى لم يقبل بالاختيار الذى استقرت عليه، فهو يتركها أسيرة لدى اللصوص الجبليين. ويتساءل سليمان متعجبًا: "هل هناك ما يمكن أن يدفع أبًا إلى أن يجعل طفلته تعيسة؟" وقصة زارا وعباس تقدم الدليل على إمكان حدوث هذا الأمر الذى لا يصدق.

لا يستطيع سليمان أن يساعد عباس فى العثور على زارا. كما أنه لا يستطيع أن يساعد الأسير الذى يلقاه على جزيرة هرمز، والذى تطارده قصته، وهو يمضى فى الطريق إلى دلهى. وهناك يقابل ألمينا ويقع فى غرامها، لكنه يبقى عاجزًا عن نسيان أسير هرمز. وتظهر ألمينا فضائلها بأن تقول لسليمان: "اذهب إلى حيث توجهك الفضيلة". فيعود إلى هرمز وينقذ الأسير، ليجد لدى عودته إلى دلهى أن الحاكم الشهوانى وضع ألمينا فى السجن، لأنه ينوى الإيقاع بها. ويلقى الحاكم بسليمان، أيضًا، فى السجن. لكن سليمان يهرب، وينقذ ألمينا من "رعب" الوقوع فى أحضان الحاكم، ويعود العاشقان إلى فارس، إلى "الوادى السعيد" المرتبط بشباب سليمان، حيث يقدم الأب العجوز "وقلبه ملىء بالحنان، بركاته الأبوية للاثنين".

وهذه القصة الرومانسية نموذج تمثيلى للأدب الاستشراقى الذى راج فى القرن الثامن عشر. وعندما قابلت الليدى مونتاغيو أحمد بك، الأستاذ فى الآداب العربية

والفارسية، في بلغراد، كان بوسعها أن تروى له كما كبيرا من القصص الفارسية حتى إنه لم يصدق أنها تجهل تلك اللغة. وقد ترجمت هذه القصص إلى الإنكليزية والفرنسية بنهاية القرن السابع عشر، وكانت الطبعة الأمريكية الأولى من ألف ليلة وليلة في تسعينيات القرن الثامن عشر. والعنصر الذى يربط بين أجزاء قصة سليمان وألمينا هو المقابلات المثيرة التى تجمع سليمان إلى من يسيئون استخدام سلطاتهم وإلى ضحاياهم، أما القصص الأكثر إحكاماً في "ألف ليلة وليلة" فالرابط بينها هى المراوغة التى تقوم بها كل ليلة شهرزاد، في مواجهة الإرادة المستبدة من جانب السلطان. فبعد أن خلقت له عالما خياليا ألهب خياله لدرجة تجعل من الصعب عليه أن يدمره، أصبح بإمكانها الحفاظ على حياتها وحياة ألف غيرها كان يمكن له أن يختارهن للزواج[٢١].

وتعرض مسرحية "عبيد في الجزائر" التى قدمتها سوزانا روسون في ١٧٩٤ لأشكال عديدة من الطغيان الأبوى. فوالد فتنة يبيعها للداى. وتتحدى زوريانا، ابنة الداى، والدها لتساعد الأسرى الأمريكيين على الهرب. والرواية كلها تتتابع بقوة الدفع التى تنشأ عن حادثة لا نعرف بها إلا في المشهد الأخير. فإحدى الأسيرات الأمريكيات وتدعى ريبيكا تحكى قصتها للأسرى الآخرين: لابنها أوغسطس وللأسير البريطانى كونستانت ولابنته أوليفيا. ثم يتبين أن كونستانت وريبيكا كانا زوجين وأن هنرى وأوليفيا هما طفلاهما، وأن الأسرة تمزق شملها منذ خمسة عشر عاماً. وقد تبرأ والد ريبيكا الأمريكية منها عندما تزوجت من كونستانت، الضابط البريطانى. وعندما مرض والد ريبيكا، ندم وتوسل إلى ابنته أن تعود وتغفر له. وقد ذهبت إليه مع ابنها أوغسطس، في حين بقى كونستانت وأليفيا مع الكتيبة البريطانية. وعندما كانت ريبيكا بعيدة مع والدها، تُرك كونستانت في ميدان المعركة، بعد أن حسب رفاقه أنه مات، وتبعثرت الأسرة. بقيت ريبيكا وأوغسطس في أمريكا، تلعن الثروة التى ورثتها عن أبيها، وتتساءل ما جدوى المال بعد أن فقدت أسرتها؟ إنها تظن أن كونستانت مات، وسمع كونستانت أنها ماتت حزناً عليه. وينتهى المطاف بكونستانت وأوليفيا في الهند، في حين تبقى ريبيكا مع أوغسطس في أمريكا. ثم يلتئم شمل الأسرة في الجزائر،

حيث الكل أسرى، وحيث توافق أوليفيا على الزواج من الداى ثمنًا لحرية أبيها، ولكن بمجرد أن يلتئم شمل الأسرة، فإنهم يتحدون الداى برفض الزواج، تمامًا كما تحدت ريبيكا وكونستانس والد ريبيكا وتزوجا. وتقسم ريبيكا وكونستانس وأوغسطس على الموت للحؤول دون زواج أوليفيا. ويستسلم الداى أمام هذا العرض للقوى الأسرية ويوافق على أن يكون حاكمًا وأبا أفضل، فى المستقبل، واعدا بأن "يرفض كل أشكال السلطة ما عدا تلك التى قد يرى أصدقائى الطيبون أنى لن أكون قادراً على إساءة استخدامها"(٢٢).

ولا تتضح معالم القصة المعقدة التى تخص ريبيكا وكونستانت إلا عند النهاية. وتركيز المسرحية الحقيقى هو على فتنة "الخيار المفضل" لدى الداى، والتى تفتتح المسرحية وهى تشكو سجنها فى القصر الفخيم والحدائق والملابس التى يتيحها لها مركزها. وتقول عن الثراء المحيط بها: "أنا أحب كل هذا، لكنى لا أحب أن أكون حبيسة". وقد كانت الليدى مارى مونتاغيو تحسب أن هذا السجن تختفى وراءه حرية لا تعرفه النساء الإنكليزيات، أما بالنسبة لسوزانا روسون فإن هذا النوع من الحرية، هذه العزلة المترفة التى تسمح بالتسيب الجنسى، لم تكن كافية. وتعبر فتنة بكلماتها هى عما قاله الروائى الإنكليزى لورانس ستيرن، عندما تسأل: "هل العصفور البائس المحبوس فى قفص (لأنه المفضل لدى من استعبده) يجد العزاء عن حريته المفقودة؟ كلا. وإن كان سجنه من أسلاك الذهب، وإن كان طعامه شهياً، وإن كان التدليل يغمره، فإن قلبه يظل يتألم تطلعاً إلى الحرية. إنه يسعى بكل سرور إلى حقول الهواء، وحتى إن علق فوق غصن عار، فسوف يطلق أغنيته، بكل سعادة، ولا يندم مرة واحدة على بيت العبودية". قد أحب والد فتنة، بن حسن، وزوجته التى خضعت لخطته، "الذهب أكثر مما أحبا طفلتهم" وباعاها للداى.

والشرير الحقيقى فى المسرحية هو بن حسن الذى خون كل ثقة سعياً وراء الثروة فقد ولد فى إنكلترا وانتقل إلى الجزائر، وتحول من اليهودية إلى الإسلام، وبذلك فهو لم يخن ابنته وحدها، بل وخان أمته ودينه. وبالنهاية، فهو يخون نوعه عندما يتخفى فى ملابس زوجته(٢٣) ليهرب من وجه طغمة ثائرة من العبيد الذين اقتحموا مسكنه.

سوف يفعل بن حسن أى شيء من أجل المال، وسوف تفعل ابنته فتنة أى شيء من أجل الحرية. وتغذى ريبيكا الميل الطبيعى لديها إلى الحرية، وتعلمها أن "المرأة لم تخلق، قط ، لتكون الجارية البائسة للرجل". فريبيكا جاءت "من تلك الأرض التى ترى الفضيلة فى الرجل أو المرأة العلامة الوحيدة على التفوق- إنها أمريكية". وهكذا فإن تعاليم ريبيكا "تنقش" على قلب فتنة: "أشعر أنى ولدت حرة، وما دمت فى حياة، فسوف أناضل لأبقى كذلك". وتغنى فتنة أغنية عن وردة برية "تتفتح وتزهر" لتنشر الجمال والعطر حولها، حتى تقتطف، فتشحب سريعًا، قبل أن تذوى وتموت. والمرأة أيضًا "عندما تكتسى بأثواب الطبيعة" من دون زينة مصطنعة، يمكنها " أن تجعل الروح تسمو إلى الفضيلة " وأن تدفع بالرجال الشجعان إلى المجد، لكنها "تسقط فى الحزن، وتموت مكتئبة، إذا تحولت إلى جارية". وعلى النقيض من أبيها، الذى يحاول الهرب فى ثياب امرأة، تهرب فتنة من قصر الداى، فى ملابس الرجال. وهذا قلب واضح للأدوار النوعية. وتعكس روسون أيضًا دورى أوليفيا المراهقة وأوغسطس المراهق. تضع أوليفيا خطة لتحرير أبيها، فيما يظل أوغسطس ينتحب طوال الرواية لأنه عاجز عن تحرير أمه[٢٤].

وتواصل فتنة تخريب الأدوار النوعية، رافضة عرضًا بالزواج من عاشقها الأمريكى، وعرضًا من ريبيكا، بإحضارها إلى أمريكا. سوف تبقى فى الجزائر لمساندة أبيها. لقد خانها، لكنها لا تستطيع أن تخونه. سوف تبقى فى الجزائر لتلقنه درسًا عن الإيمان بالأسرة. فالزوجة والأطفال ليسوا بضاعة، تباع أو تشترى. والنساء لسن أشياء بل هن بشر، ولهن دور مهم يتعين أن يلعبنه فى أى مجتمع أو أسرة.

والأمريكيون يعلمون الجزائريين والمسلمين واليهود هذه الدروس، ويغادرون الجزائر بعد أن يعلموا الداى " أن يتخلى عن كلمة رعية ليستخدم بدلها لفظًا ينم عن إعزاز وهو المواطن"، وهو صدى لإعلان روكسالانا، أن فى بلادها كل مواطن ملك، والملك نفسه مواطن. ويطلب الأمريكيون أن يثبت بسلوكه "مدى اهتمامه برفاه إخوانه فى الإنسانية " فيما يعودون إلى الأرض" التى أقامت فيها الحرية بلاطها" وهم يأملون أن يأتى يوم " تنتشر فيه الحرية تأثيرها الطيب" بين كل الأمم[٢٥].

وقد وقع سليمان الثانى فى مسرحية "السلطان" فى هوى روكسالانا التى كبحت جماح سلطته المستبدة. وفى مسرحية روسون "عبيد فى الجزائر" تكبح جماح سلطة الداى الأسر التى وحدها الحب، وليس الاستبداد. ودمرت شهرزاد الإرادة المستبدة لدى السلطان بخلق عالم وهمى يبهره لدرجة تجعل من المستحيل عليه أن يدمره. هذه النسوة استخدمن العقل والخيال ليفعلن ما لم يستطع الجمال الجسدى أن يفعله.

وقد سخرت روكسالانا من محاولات ألميرا استخدام منديل معطر لكى تستعيد سليمان، رافضة بذلك الأشكال الجسدية الخالصة للمحبة، تماماً كما رفضت شهرزاد أن تكسب السلطان باستخدام السحر الجسدى أو الرومانسى.

إنهن يقاومن الطغيان الراسخ بالذكاء، بالثقافة، وبالخيال، وعندما ينتصرن فإنهن يؤسسن مملكة الفضيلة والإحسان. وتنهى سوزانا روسون مسرحيتها بنشيد ختامى تتصور فيه السيدات بين الجمهور وهن يقلن:

"هى تقول إن من حقنا السلطة الأعلى،

وفى الحقيقة فنحن نجمع على موافقتها.

ولدت النساء من أجل السلطة الشاملة،

وولد الرجال ليعشقوا ويصمتوا ويطيعوا".

وليس هذا بالضبط هو نوع السلطة الذى أرادته مسز روسون للنساء. فالمرأة تحكم بقلبها، بمواساتها للحزين والمعذب:

لنرفع من سقط – لنشفق ونعفو،

هذه هى أفضل وأنبل امتيازاتنا.

وبهذه الامتيازات، وباتباع الخطة الرقيقة للطبيعة،

فإننا نوقع فى أغلال من حرير – الرجل السيد الطاغية[٢٦].

أحد الأعمال التى طورت هذا الموضوع وحققت رواجًا كبيرًا، استمد نواته من التاريخ وأصبح رواية متقنة، قبلت بعد ذلك باعتبارها تاريخًا. تلك كانت قصة خير الدين المعروف شعبيا باسم بارباروسا، وهو قبطان بحرى تركى ساعد الجزائريين على طرد الإسبان فى مطالع القرن السادس عشر ثم بقى فى الجزائر ليحولها من جمهورية مستقلة إلى تابع عسكرى قوى يدور فى فلك الإمبراطورية العثمانية. وأدى نجاح بارباروسا ضد إسبانيا إلى ما يقارب القرنين من السيطرة العثمانية على الجزائر. ووفقًا للتواريخ الموجزة التى طبعت فى المجلات الأمريكية فإن الجزائريين لاقوا من القمع العثمانى أكثر مما لاقوه من الإسبان. وتحت هذا الدرس السياسى درس شخصى. مركز الأحداث التى تحولت من تاريخ إلى رواية، كان نضال زافيرا ملكة الجزائر، أرملة الملك سليم، للحفاظ على استقلالها وعفتها، أمام محاولات بارباروسا الشهوانى.

وفى "التاريخ الموجز للجزايرلية" المطبوع فى مجلة ماساشوسيتس ماغازين فى ١٧٨٩، والذى أعيد طبعه بعد خمس سنواتٍ فى "أمبريال هارولد" فى نيوبريبورت، فإن الملك سليم دعا بارباروسا لمساعدته فى قتاله ضد الإسبان. وسرعان ما قتل "القرصان التركى" كما كان يدعى بارباروسا، الملك سليم واستولى على المملكة، وحاول أيضًا أن يأخذ أرملة سليم "زافيرا الجميلة". فقد عجز، "بكل ما لديه من عواطف وحشية، عن أن يقاوم سحرها". لكن زافيرا "لم تهتم بالمجد ولا بالعظمة ولا بالثراء أكثر من السمعة". ورفضت عرضه لها بأن تكون ملكة حتى لا تكون "موضع احتقار لدى كل المؤمنين". وقتلت زافيرا نفسها مفضلة الحفاظ على شرفها على الرضوخ لرغبات بارباروسا الشهوانية(٢٧).

وتكشف رسائل زافيرا إلى بارباروسا التى جاءت فى "التاريخ الموجز" عن امرأة لا يغريها بهاء السلطة. إنها ترفض عروض بارباروسا بقولها "قد تكون فى غيرى من النساء من تهتم بالمجد والعظمة والثراء، أكثر مم تهتم بالسمعة التى فيها المجد الحقيقى والعظمة الأسمى والثراء الأعظم، فتلقى بنفسها عليك لتستمع بتلك الثروة المتوهجة التى تعرضها على بكل سخاء". وهى تعترف بأن "القليلين هم الذين يرفضون مملكة تكون متاحة لهم" لكنها سترفض. وتتهم بارباروسا بالتواطؤ فى مصرع زوجها.

ويرد باربار وسا متصنعًا الصدمة، فيأمر باعتقال بعض "المشتبه بهم" وبعد إجبارهم بالتعذيب على الإدلاء باعترافات، يأمر بخنقهم. لكن ذلك لا يرضى زافيرا . فترفض عرضه، رغم توسلاته وتهديداته، وعندما يسأله عما يمكن أن يفعله، فوق هذا، من أجلها ترد عليه بكلام لا بد أنه ضرب على وتر ما عند الجمهور الأمريكي: "ما أطلبه منك هو الموت أو الحرية". وتعلم زافيرا أن الحرية ليست الاختيار الوارد. وعندما يرتمى عليها باربار وسا، محاولاً أن يأخذ عنوة ما لا تريد أن تعطيه إياه بحريتها، فإنها تحاول أن تطعنه بسكين. ويتفادى السكين، لكنها تجرح ذراعه. وفيما كانوا يضمدون له جرحه، انتحرت زافيرا بالسم. واعتبر باربار وسا انتحارها إهانة، ولكى ينتقم لنفسه، أمر بخنق كل النساء القائمات على خدمتها ودفنهن معها(٢٨).

وقد حول الكاتب المسرحى الإنكليزى جون براون هذه القصة فى ١٧٥٥ إلى مسرحية "باربار وسا، طاغية الجزائر" وفى المعالجة المسرحية تنجو زافيرا من الموت ومن العار بفضل عودة ابنها سليم، فى الوقت المناسب. ويقتل سليم باربار وسا ويعيد إلى الجزائر السلطة الملكية الشرعية والأخيرة. وللمسرحية حبكة ثانوية: أسر الإسبان إيرين، ابنة باربار وسا، فى وهران. ولم ينقذها إلا الأمير سليم الذى يتوسل إليها أن "تذهب إلى الجزائر" لتحمى أمه، ولكى "تكون بالنسبة له ما كانه سليم لك". ويتعين على إيرين أن تختار بين أبيها والرجل الذى تحبه. وعلى عكس فتنة، فإنهـا تبقى عاجزة عن الاختيار. وعندما يعلم باربار وسا أن إيرين مدينة بحريتها لسليم، فإنه يدعوها "ابنة زائفة، غير مخلصة"، "فتاة خائنة" لأنها "وصلت إلى الحرية عن طريق عدو الوالد!(٢٩).

ورغم تنكر أبيها لها وتسميته إياها "هادمة كل ملذاتى" فإنها تبقى مخلصة له بل وتحذره من تمرد عليه يعدله سليم. لكنها تحاول أن تنقذ سليم عندما يرسل به إلى المخلعة (آلة تعذيب يمط عليها جسد الإنسان حتى يتمزق ويموت - المترجم) ثم تحاول أن تنقذ أباها عندما يهرب سليم ويقود التمرد. لكى تكون مخلصة لأبيها لا بد أن تقبل بموت محبوبها، ولكى تكون مخلصة لمحبوبها لا بد أن تقبل بموت أبيها. وأخيراً يخلى

أبوها الطريق، فحين يلقى الموت على يد سليم فإنه يستودعه إيرين. أما زافير "التى لم تتزعزع فضيلتها" فإنها تطلب من سليم أن يتزوج إيرين ويجعلها ملكة حتى "تمحو فضيلتها جرائم أبيها".

وبفضل عفة هاتين المرأتين يستعيد سليم السلطة، التى سيمارسها بحكمة. وقد أثبت فضيلته بإنقاذ إيرين من آسريها الإسبان. وتقوم المسرحية على التوتر داخل المرأتين. فإيرين ممزقة بين أبيها وحبيبها، وزافيرا بين مقاومتها لباربا روسا، الأمر الذى سيفضى لا محالة إلى موتها، وبين الزواج منه، وهو ما قد يسمح لها بتحسين أوضاع الشعب الجزائرى التعيس. وتختار زافيرا؛ أما إيرين العاجزة عن أن تكون مخلصة لأبيها ولحبيبها معا، فهناك من يختار لها. زافيرا هى بطلة المسرحية، أما إيرين فمركزها المأساوى.

وقد ظل المسرح الأمريكى يعتمد على هذه المسرحية، باعتبارها نصا أساسيا، حتى حرب ١٨١٢. ولكن الأدب الأمريكى، فى الوقت ذاته، خلق زافيرا الخاصة به فى مسز ماريا مارتن. ومن المستحيل القول بأن هذه قصة حقيقية، وهذا يساوى فى صعوبته القول بأنها ليست قصة حقيقية. ورغم أن كتاب ماريا مارتن طبعت منه اثنتا عشر طبعة بين ١٨٠٧ و ١٨١٨، وأعيد طبعه فى بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ونيوهافين وترنتون وفيرمونت وأوهايو، فلا أحد يعلم شيئًا عن المؤلف. والراوية امرأة إنكليزية، وتزعم الطبعة الأمريكية الأولى أنها إعادة طبع لنسخة إنكليزية، ولكن لا يوجد أى وثيقة تدل على أن الكتاب نشر فى إنكلترا، على وجه الإطلاق. ولأن مسز مارتن كانت أسيرة فى الجزائر لست سنوات بدأت فى ١٨٠٠، يبدو من المستحيل أن تكون هناك طبعة من الكتاب قبل ١٨٠٧، عندما نشرت أول نسخة من النسخ الموجودة من الكتاب، فى بوسطن[٣١].

ومن السهل أن نفهم لماذا كان هذا الكتاب بهذه الشعبية. فقد احتوى على كل عناصر سردية الأسر البيوريتانية، إضافة إلى التركى الشهوانى والوصف المرعب للتعذيب والمعاناة[٣٢].

ورغم أن مسز مارتن زعمت أنها إنكليزية، فمن السهل أيضاً أن تلمس التماهى بينها وبين القارئات فى أمريكا. ولدت ماريا مارتن فى ١٧٧٩ ابنة لوالدين "ثريين ومحترمين". وفى نهاية التسعينيات من القرن تتزوج الكابتن هنرى مارتن من شركة الهند الشرقية. ولدى مسز مارتن دافع قوى للذهاب إلى البحر، وأخيراً يأخذها زوجها فى رحلة إلى مينوركا فى يونيه ١٨٠٠ وتحمل سفينتهما "يونيكورن" ١٢ راكباً وطاقماً من مائة بحار، تقريباً. وتشحط بها السفينة بسبب عاصفة، لكنهم ينجحون فى تخليص السفينة من الصخور بالتخلص من مدافعها ويثبت أن هذا اختيار غير موفق عندما تطارد فرقاطة فرنسية القارب غير المسلح، الذى ينجح فى الهرب، رغم ذلك. لكن "يونيكورن" تشحط مجدداً، على الساحل الإفريقى، هذه المرة. ويقفز بحاران أسودان إلى الماء ويربطان السفينة بحبل إلى الشاطئ، ويهبط منها كابتن مارتن وزوجته وقائد السفينة. وقبل أن ينقذوا أحداً آخر من الطاقم أو من الركاب ينقطع الحبل. وتعجز المجموعة على الشاطئ من الحصول على نجدة، لكنهم يسمعون الصيحات اليائسة من بقية أفراد الطاقم والمسافرين، وكثير منهم أطفال وقد تحولت بهم السفينة الضائعة إلى فخ عائم. وتحطم الأمواج السفينة "يونيكورن".

ويقضى الناجون الثلاثة ماريا مارتن وزوجها والضابط ليلة معذبة على الشاطئ. لم يجد الرجلان مخرجاً من ذلك الموقف: فإلى الجنوب غابة لا يمكن اجتيازها وإلى الشمال مستنقع. وفى غياب أى مخرج يواجه الثلاثة موقفاً يائساً فى الصباح. وتقترح مسز مارتن أن يبدأوا اليوم الأول لشقاوتهم بالصلاة. وحدها من بين الثلاثة، تتذكر عجزهم أمام سلطان الرب القادر على كل شىء[٢٣].

وفى الغابة يقابلون رجالاً يحملون الرماح فيوجهونهم إلى تينيس، حيث يأملون أن يرسلوا برقية موجزة إلى القنصل البريطانى فى الجزائر. وبدلاً من ذلك، فإنهم يباعون كعبيد. ويشترى الحاكم التركى الشهوانى مسز مارتن ويجعلها خادمة فى المطبخ. وتأمل مسز مارتن أن توضع تحت سلطة امرأة، وعند رؤية النساء الأخريات يعملن فى المطبخ تأمل أن لا تتعرض للمهانة وأن تتمكن من الحديث إلى النساء الأخريات.

ولكن سرعان ما يخيب أملها. فالمرأة المراكشية التى تدير المطبخ أكثر استبداداً من داى الجزائر، وشريكاتها فى العبودية، وإن قاسمنها حالتها وجنوستها، فهن برتغاليات، وليس بينهن من تتحدث الإنكليزية[٣٤].

حتى هذه النقطة كانت مسز مارتن قد فقدت كل أمل. لم يستطع زوجها الكابتن مارتن أن يحميها من العبودية. ووجود امرأة فى مركز المشرف عليها كان أسوأ من وجود رجل، ولا واحدة من النساء الأخريات، اللاتى توقعت أن يشاركنها مشاعرها، تتحدث لغتها. لكنها تنجح فى إقامة صلة بينها وبين عبد آخر، مالكولم، الذى أحسن إليها، والذى تربطه بها رابطة أقوى من الجنوسة أو الزواج. إنه إنكليزى عاش فى الجزائر مدة تكفى لأن ينطق بلغتها.

ويعجب المسؤول التركى الذى يملك مسز مارتن بها وينقل لها إعجابه من خلال مالكوم، الذى أصبح فى وضع يمكنه من مساعدة مسز مارتن باعتباره مترجمًا وباعتباره شارحًا للعرض الذى يقدمه التركى. لو وافقت على أن تصبح محظيته فسوف يكافئها التركى بأن يعطيها كل الحرية التى تتمتع بها كل زوجاته ومحظياته الأخريات. لكن مالكوم يقول لها إنها ليست مرغمة على الموافقة، وإن القانون المحلى سوف يحميها من أن يرغمها أحد على أن تكون محظية ما لم تختر ذلك. وقال لها إن التركى يمكن أن يعدم إذا استخدم معها القوة. إنها حرة فى الاختيار بين المذلة فى المطبخ وبين ذلك النوع من الحرية المحجبة التى قالت الليدى مارى مونتاغيو إن التركيات يتمتعن بها. وكان اختيار ماريا مارتن واضحًا. فهى ترفض التركى الذى يهتاج ويأمر بتكبيلها والإلقاء بها فى سرداب. لكنها، رغم ذلك، لا تلين. وليزيدها ضعفًا يأمر بحبسها منعزلة فى قلعة قديمة، حيث تبقى ثلاث سنوات تعيشها على الخبز العفن والماء القذر.

وبعد فترة من دخولها السجن فإن "الصلابة بدأت تعود "إليها و"توهجت بالرغبة فى أن تقنع العالم بأنها قادرة على أن تتحمل ما لم يتحمله إنسان قبلها". إنها تدرك أنها أسعد ببراءتها مما كان يمكن أن تكون عليه لو أنها قبلت بشروط التركى، وقاست وضاعة البشر، وعذابات الموت و "رعب الإحساس الداخلى بالذنب". وحتى فى الأسر، فإنها تشعر بحرية الضمير النقى[٣٥].

ومع بقاء أمله فى تدمير روحها، قطع التركى عنها الزاد الشحيح. وبعد أحد عشر شهراً من التجويع، لم تكن قد انهارت. ولكن عندما أعطيت خبزا جيدا وماء نظيفا وجدت أن جسدها لم يحتملهما. وتملأ بطنها، ولكن "للأسف، لم تدم متعتها طويلا". وجدت أن "الإفراط يتبعه الألم والندم". يتورم جسدها وتشعر بأنها تنتفخ ويتقلص الجسد ويتورم، وتجد أن هذا التعذيب الجديد غير محتمل، شأنه شأن الشعور بالجوع. "بدأت تصب اللعنات على أولئك الذين يستمتعون بالتعذيب، والذين بعد أن جوعوها، طوال هذه الفترة، راحوا يدعونها إلى النهم[٣٦].

لكن إيمانها بقدرة الله لا تهتز، رغم كل هذا. ويأتيها الإلهام ذات ليلة عندما "يسطع القمر صافيًا، ألقت بنظرة ضائعة مشتتة على السماء، ونزلت على ركبتيها، وبكل ما فى روحها من عذاب، بحثت عن العزاء فلم تجده، لم يكن فى الدين أو فى الفلسفة ما يعزيها". بدت ضائعة وعاجزة تمامًا. لكنها " لم تجدف، ولم تكن تخاف العدم، ولم تطلب من الرب الانتقام، الرب الخالق هو المتصرف بمصيرها". وهى تعلم أن الله لن يحملها ما لا طاقة لها به. فى هذه اللحظة، تحقق خلاصها.

هذا أحد المشاهد الكلاسيكية للعودة إلى الله، عندما تدرك ماريا مارتن خطيئة الشره، وأن إشباع جسدها الجائع الظمآن ليس كافيًا. إنها تترك نفسها لرحمة الله فتتحرر من فورها. وتبدأ الفقرة التالية لمشهد التوبة هذا، على النحو التالى "فى بواكير صباح أحد الأيام سمعت باب السرداب يفتح - بعد أن كانت سمعت الباب يوصد - ودخل سيد فى ملابس المسيحيين فى صحبة الحارس" لا يمثل الرجل ذو الملابس المسيحية ملك السموات بل كان يمثل ملك إنكلترا. إنه القنصل البريطانى، أرسل لتحرير مسز مارتن من عبوديتها القاسية والظالمة. لقد هرب زميلها فى العبودية مالكولم إلى الجزائر وأبلغ القنصل بما لقيته من معاملة قاسية وأصدر القنصل تعليماته للداى بالإفراج عنها[٣٧].

وتخبر مسز مارتن القنصل بقصة أسرها ومعاناتها، وترغب فى البقاء فى الجزائر لتبحث عن زوجها. وينصحها القنصل بالعودة إلى إنكلترا وترك مسألة البحث له هو.

وتعود إلى إنكلترا على سفينة بريطانية، ويستأجر القبطان البريطانى عربة تأخذها إلى بيت أبويها. لقد عجز زوجها الكابتن مارتن عن حمايتها فى تينيس، وهى الآن تعتمد على إرادة الله وعلى حنان الغرباء. ويغمى على والدها عندما تصل. لم يكن يعرف بأسرها لكنه ظنها غرقت فى البحر، بعد أن لم يسمع شيئًا عنها منذ أبحرت إلى مينوركا قبل ست سنوات.

عادت ماريا مارتن إلى أبيها، وبعد ستة أشهر يعود زوجها إليها. لكنها امرأة مختلفة عن تلك التى كانت تحن للبحر فى ١٨٠٠. لقد تعلمت درسًا قاسيًا عن قدرة الله وتعلمت أيضًا عن قوتها هى الأخرى. لم يستطع زوجها أن يحميها، ولم تنقذها ثروة أبويها. وبدلاً من ذلك، فقد تركت نفسها لرحمة الله، وبقوته المقدسة وبتدخل من القنصل البريطانى، أطلق سراحها. وبعد أن أصبحت حرة أقنعت القنصل البريطانى بأن يبحث عن زوجها، وقد تحرر هنرى مارتن بفضل جهود زوجته.

لم تقبل زافيرا وروكسالانا وريبيكا وأوليفيا وماريا مارتن إلا بالاختيار بين الحرية أو الموت، ولم تقبل إحداهن عبودية السجن أو العلاقات غير الطبيعية. فضلن الموت على هذا النوع من العار. وأوضحت قصص أخرى أن أولئك اللاتى اخترن العبودية، اللاتى إخترن أن يعشن كقطعة أثاث، بدلاً من الموت كامرأة حرة، لم تتحقق لهن النجاة. سليمان وألمينا، والسلطان، وعبيد فى الجزائر، وألف ليلة وليلة، ورواية ماريا مارتن "تاريخ الأسر والعذاب" تظهر كلها أن الإحسان والفضيلة والذكاء يمكن أن تتغلب على السلطة الظالمة. وهذه القصص نقلت أفكارًا عن الاستبداد والسلطة لجمهور من القراء لم يكن من المحتمل أن يقرأ فولنى أو مونتسكيو أو ترنشارد وغوردون. فالنساء فى هذه القصص غالبًا ما لا يكون لديهن سوى عفافهن يدافعن به عن أنفسهن ضد القوة غير المحدودة لأزواجهن أو لآبائهن أو الدولة.

والدرس المستخلص من هذه الرواية عن العالم المسلم هو أن النساء اللاتى استسلمن للسلطة المستبدة، بأمل الحفاظ على حياتهن بالتضحية بحريتهن، لم يكن ليعشن طويلاً للاستمتاع بالترف الخانع. فالاستسلام للإرادة المستبدة للآخر، سوف

تعنى فى معظم الأحيان، التضحية، ليس بالحرية وحدها، بل وبالحياة ذاتها. هذه النقطة مركزية بالنسبة إلى"قصة إيرين" التى ظهرت فى "رورال ماغازين" فى مايو ١٧٩٦. والقصة تقع أحداثها فى ١٤٥٣ بعد أن استولى الحاكم العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية، التى اختار آخر أباطرتها البيزنطيين أن يموت دفاعًا عن تاجه وعقيدته دون أن يستسلم للمسلمين. وقد أمر المنتصر "بعد أن بهره سحر القوة المطلقة" بإعدام كل الأسرى "باستثناء من يملك الشباب والجمال من الجنسين، الذين أبقى عليهم من أجل الأشياء الكريهة فى قصره". وقد نجحت أسيرة واحدة، وهى إيرين، الفتاة اليونانية ذات السبعة عشر عامًا، فى تنويب "قلبه القاسى"، وأهمل محمد جيشه ليقضى كل وقته معها. وهذا يتوازى مع الأحداث فى مسرحية بيكرستاف "السلطان" لكن قصة "إيرين" أكثر تمثيلاً لهذا النوع وليست ملهاة. إيرين لا تستطيع السيطرة على محمد، لكنها تصبح، فقط، هدفًا لشهوته.

وفى الوقت ذاته فالجيش المتعطل لم يعد لديه الانضباط الحديدى الذى فرضه محمد ولا منفذ لعدوانيته. ويتهامس الجنود المتذمرون بأن "العاطفة المسيطرة" على سلطانهم لم تعد الحرب، ويلمِّحون إلى التمرد. ويحذر مصطفى المساعد المخلص لمحمد قائده. وبعد قضاء "ليلة رقيقة" مع إيرين فإن محمد يصدر التعليمات لخادماتها بأن يلبسنها ويزينها بأجمل ما يستطعن وبأن يضفن "إذا كان هذا ممكنًا، وهجًا جديدًا لجمالها". وتصبح شيئًا جميلاً، لا شريكة فى السلطة، بل شيئًا مرغوبًا. وعندما تكون مستعدة يمشى بها محمد أمام الجيش الذى جمعه، فى عرض علنى غير معتاد، ويرفع خمارها حتى يعجب بها الجميع. ويسأل إن كان أى منهم سبق له أن رأى "مثل هذا الجمال البالغ". ويهنئه المتملقون الذين اجتمعوا حوله "على حظه الطيب" مستمتعين بهذه النظرة المشاع والخاطفة لامرأة مرغوبة.

وبينما كان الجميع لا يزالون يبدون إعجابهم بها، يأخذ محمد شعر إيرين بإحدى يديه، ويرفع السيف بالأخرى ويقطع به رأسها. ويهتف فى الجمع المرتعد "هذا السيف يستطيع أن يمزق، وقتما أشاء، أواصر الحب"[٣٨].

ولا يصعب على أعضاء البلاط فهم الدرس المخيف. فكل واحد منهم "اعتقد أنه رأى هذا "سلاح القاتل يهتز فوق رأسه هو" وهذا الخوف مبرر فمحمد "ارتضت قسوته" أن يقتل معظمهم، بداية بمصطفى الذى تم خنقه فى السراى. وتبين سلطة محمد المطلقة على رعاياه، وقدرته ليس فقط على قطع أواصر الحب بل وعنق المحبوبة، نتائج الخضوع لهذا النوع من الطغيان. لقد فعلت إيرين ما لم تكن لتفعله زافيرا وروكسالانا وماريا مارتن وشهرزاد: فمقابل الملابس الضخمة والتدله من قبل الجمهور، قبلت بتسلط محمد غير المحدود عليها. تخلت عن فضيلتها مقابل مملكة. فالنساء الأمريكيات اللاتى جئن حسب عبارة سوزانا روسون من أرض تكون فيها "الفضيلة العلامة الوحيدة على التفوق" نساء مثل ماريا مارتن وروكسالانا وريبيكا ونظيراتهن زافيرا وفتنة وشهرزاد يعرفن أنه ما من مملكة على الأرض تستحق كل هذا.

الفصل الرابع

الرق الأمريكى والعالم المسلم

أثار العالم المسلم بما فيه من طغيان سياسى ودينى وجنسى اهتماماً عميقاً لدى الأمريكيين، الذين استبد بهم خوف بالغ من أن تتجذر المؤسسات القمعية فى عالمهم الجديد. فالاستبداد يحدث، لأن الناس يسمحون له بأن يحدث، هذا ما عرفه الأمريكيون. وقد كان الأمريكيون مصممين على أن لا يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه غيرهم وقد كان بوسعهم أن يهنئوا أنفسهم لأنهم حالوا دون نشوء الاستبداد السياسى، وكانوا مصممين على كبح التعصب الدينى، وعلى الحد من الاستعباد الجنسى. وبتجنب هذه المصائد، بدا أن الأمريكيين تجنبوا المصير الذى عاناه كثيرون ممن استسلموا، بلا مبالاة، لواحد أو لغيره من أشكال الطغيان. لكن الاحتفال لم يكن ليدوم. فعلى الرغم من أن الأمريكيين تجنبوا نوعاً من أنوا ع الطغيان، فقد اعتنقوا غيره، بوضوح. وعندما أسرت الجزائر السفن فى ١٧٨٥ و١٧٩٣ واحتفظت بنحو ١٢٠ بحاراً باعتبارهم "عبيداً"، أغضب الأمريكيين هذا النوع من القرصنة والخروج على القانون الدولى. لكن هذه الغضبة للأخلاق، مثل الاحتفال بالقيم المدنية، لم تكن لتبقى بعد نظرة فاحصة إلى المجتمع الأمريكى. كيف يمكن للأمريكيين أن يدينوا الجزائريين الذى استعبدوا الأمريكيين فيما كان الأمريكيون أنفسهم يشتغلون باستعباد الأفارقة ؟ إذا كانت عبودية الأمريكيين البيض خطأ، فهل كانت صواباً بالنسبة للأفارقة السود؟ هل هرب الأمريكيون، حقا، من الطغيان؟ هل تجنبوا الأخطاء التى ارتكبتها شعوب أخرى، إذا كانوا حظروا أشكال القمع باستثناء هذا الشكل الذى يبدو للكثير أنه الأكثر قسوة ؟

وقف توماس جيفرسون موقفًا صلبًا من دول البربر، بشكل متسق. لكن أفكاره عن العبودية يصعب تحديدها، ربما لأنه هو ذاته وجد مشاكل كثيرة في معالجة القضية. لقد قضى وقتًا طويلاً، في فرنسا، في الإشراف على نشر كتابه الوحيد "ملاحظات على ولاية فيرجينيا". كان مترددًا في نشره خوفًا من أن يغضب الأمريكيون، في أرض الوطن، وبخاصة من أهل الولايات الجنوبية، من وجهة نظره الصريحة حول العبودية "كل المعاملات بين السيد والعبد هي ممارسة أزلية للأهواء العاصفة، بأقصى درجة، عبودية لا ترحم، من ناحية، واستسلام مهين من الناحية الأخرى". هذا وصف للعلاقة بين العبد والسيد في الولايات المتحدة، وأيضًا، للعلاقة التي تقوم في ظل النظم الاستبدادية، بين الحاكم والمحكوم. وكان جيفرسون يرى أن العبودية جاءت إلى أمريكا بالطغيان الذي قاد الثورة ضده، وأن العبودية تهدد بتدمير المجتمع الحر الذي ساعد على خلقه. فالنظام العبودي شوه شخصيتي السيد والعبد، إلى درجة أن الإنسان الذي ينجو دون أن يناله أثر منه يكون أعجوبة، كما كتب جيفرسون.

وكان يتساءل: "أي نوع من رجال الدولة ذلك الذي يمكن أن يسمح" لنصف المواطنين بأن يدوسوا بأقدامهم، على هذا النحو، حقوق النصف الآخر" وأي نوع من الجمهورية ذلك الذي يجعل نصف الشعب طواغيت، والنصف الآخر أعداء لهم؟ إنه، حقا، نظام مشوه وخطير، نظام كان جيفرسون في ١٧٨٢ يعتقد أنه لا يمكن له أن يبقى. "أرتعد خوفًا على بلادي، بالفعل، عندما أفكر في عدالة الرب: في أن عدالته لن تنام إلى الأبد" هكذا كتب جيفرسون.

واعتقد جون آدامز، الذي أعطاه جيفرسون واحدة من أول مائتي نسخة من الكتاب، أن الفقرات حول العبودية كانت "في قيمة اللآلئ". لكن جيفرسون ظل قلقًا، بسبب ما يمكن أن يحدث عندما يمل نصف النوع البشري من دوسهم بأقدام النصف الآخر، كما كان قلقًا بسبب ما يمكن أن يظنه به أصدقاؤه في أمريكا لنشره هذه الحقائق غير السارة، رغم أنها واضحة بذاتها.

وحاول تشارلز طومسون، أمين الكونغرس، أن يشجع جيفرسون. فلربما كانت آراء جيفرسون الصحيحة عن العبودية مزعجة بالنسبة لأهل وطنه، ولكن كان هذا هو ما يحتاجون سماعه، بالضبط. لقد قدم خدمة لبلاده عندما أفصح عما يدور بعقله. وإن لم يستطع الدين أو المنطق أو الفلسفة إقناع الأمريكيين بضرورة إلغاء العبودية فالعنف، برأى طومسون، يستطيع ذلك. وإن لم يستطع الأمريكيون أن يتصرفوا، لصالحهم هم، وأن يلغوا العبودية بطريقة سليمة، فسوف يتصرف العبيد بأنفسهم، بعد حين، بعنف دفاعًا عن مصالحهم. ولم يكن جيفرسون أو طومسون القريبان من مراكز السلطة الأمريكية، يظنان أن الزعماء الأمريكيين الذين يعرفانهم معرفة جيدة يمكن أن يقدموا على هذا العمل البعيد النظر. وكتب طومسون: "أعترف بأنى أشد خوفًا من هذا الأمر أكثر من خوفى من القرصنة الجزائرية.. التى نسمع عنها كثيرًا هذه الأيام"[1].

وكانت ابنة جيفرسون المراهقة مارتا التى تقيم فى دير باريس تعلم مدى قلق أبيها حول هاتين القضيتين، الهجمات الجزائرية على التجارة الأمريكية وعبودية الإفريقيين فى أمريكا. وفى أثناء أسفارها فى جنوب فرنسا فى ربيع ١٧٨٧ كانت تكتب له بانتظام، محاولة أن تبقيه على علم بالأحداث العامة، لعلمها بمدى اهتمامه بهذه الأمور، ولكن دون أن تعلم أن شبكة المراسلين لديه تقدم له معرفة بأحداث العالم أفضل مما يمكن أن تفعله فتاة فى السادسة عشرة تعيش فى دير. أخبرته بأن ألمانيا وروسيا والبندقية شنت الحرب على تركيا وأن إسبانيا تعانى من الطاعون. وهذه الأحداث البعيدة، كما تعلم هى، تعنى الكثير له، لكنها كانت قليلة المغزى لديها، ولهذا فلم تعالجها إلا على نحو موجز. ولكنها عندما كانت تجد موضوعًا يؤثر فيها، كانت تتوقف عنده. وقد أثارت اهتمام مارتا قصة معركة بحرية، لم تحدث قط فى حدود ما يمكن البرهنة عليه. "التقت سفينة من فيرجينيا قادمة إلى إسبانيا مع قرصان (جزائرى) بنفس القوة "هكذا كتبت" تقاتلا، واستمرت المعركة ساعة وربع الساعة. وانتصر الأمريكيون واعتلوا سفينة القرصان حيث وجدوا الأغلال التى جهزت من أجلهم، فأخذوها واستخدموها مع الجزائريين أنفسهم". وأدركت مارتا السخرية فى تطور الأحداث هذه. ولكن بدلاً من أن تغتبط لانتصار الأمريكيين، رأت فى الأمر مأساة مركبة.

"عادوا إلى فيرجينيا على أن يذهبوا منها إلى الجزائر لاستبدال المسجونين، فإذا رفض الجزائريون فإن هذه المخلوقات التعيسة ستباع كرقيق". فالجزائريون، وهم الأعداء المصممون على استعباد الأمريكيين، هم الآن المخلوقات التعيسة، التى تستحق الشفقة التى كان يمكن أن تستهدف الأمريكيين. لكن مارتا مضت بهذا الاهتمام إلى ما هو أبعد بخطوة. كان يمكن أن يستعبد الفيرجينيون الجزائريين، لكنها تتساءل: "يا إلهى الرحيم، أليس عندنا ما يكفى؟ أتمنى من كل قلبى لو أن الزنوج البؤساء يتحررون جميعًا. إنه لما يحزن قلبى أن أفكر فى أن إخواننا فى الإنسانية هؤلاء يجب أن يعاملوا على هذا النحو الفظيع الذى يعاملهم به كثير من أهل بلادنا". لقد أفزعت قصة المعركة البحرية هذه مارتا جيفرسون، وهى المعركة التى لم يرد لها ذكر فى أى موضع آخر. لكن خطر العبودية لم يجعلها غاضبة من اللاإنسانية فى الجزائر أو فى بيوت الحريم فى العالم المسلم، لكنها ذكرتها بفظائع العبودية فى أمريكا، بدلاً من ذلك. ولا نستطيع أن نعرف كيف فكر أبوها، لأنه لم يذكر هذه الحكاية، قط، ولا تعليق مارتا عليها، عندما كتب يرد عليها. كما أنه لم يذكرها لأحد آخر.

ظل شبح العبودية الأمريكية معلقًا فوق اللقاء بين الأمريكيين والجزائر. وقد روت قصيدة فى ١٧٩٧ بعنوان "الأمريكى فى الجزائر، أو وطنى ٧٦ فى الأسر" قصتين. فالأنشودة الأولى هى قصة أمريكى أبيض ممن حاربوا فى بنكرهيل، وقد أجبرته الظروف (سرق "بعض الأشرار المتهورين الذين خلت أرواحهم من الشعور" إرثه، وكما جرى لغيره من المحاربين القدماء من الجيش الثورى، فالصكوك التى حصل عليها كراتب صارت الآن تساوى "بالكاد عشر" قيمتها) على أن يتجه إلى العمل البحرى. وقد حرمت المشاكل الاقتصادية فى ثمانينيات القرن الثامن عشر هذا الرجل وغيره من الأمن الذى حارب من أجل تحقيقه. لكن متاعبه لا تزال فى بدايتها. يخطف قرصان جزائرى سفينته، وينتظر هذا المحارب الأمريكى القديم فى أحد سجون الجزائر أن تخلصه بلاده. وتستنهض قصته الجمهور الأمريكى الذى ينعم بالحرية ناسيًا أولئك الذين حاربوا وقاسوا لتحقيقها.

وينتقل النشيد الثانى باهتمام القارئ بعيداً "عن ساحل القرصنة هذا الذى تحكمه العبودية / حيث يحمل أبطال الحرية أغلال الاستبداد"، وبدلاً من النظر إلى بشاعات "ساحل القرصنة" فإن الشاعر يريد من جمهوره أن "يستدير إلى كولومبيا - اعبر الأمواج الغربية، وانظر إمبراطوريتها الواسعة الانتشار تحفل بالعبيد"، فوصف بشاعات العبودية فى الجزائر مثل ذلك الذى تجده فى النشيد الأول، كان أمراً شائعًا. لكن هذا النشيد يحكى حكاية مخيفة بدرجة أشد، عن محارب قديم من بنكرهيل سلبت حريته واستعبده أناس يزعمون أن الناس خلقوا جميعًا متساوين. وهذا المتحدث هو أمريكى أسود حارب من أجل الاستقلال، وهو الآن عبد للناس الذين حارب من أجل حريتهم. فالجزائريون لم يعلنوا، قط، أن الناس خلقوا جميعًا متساوين: لكن الأمريكيين فعلوا. ويقول المتحدث: "وفقًا لإعلانكم أنتم فنحن أحرار" وطلب من الأمريكيين أن يكفوا عن التباهى بحريتهم وأن "ينظروا إلى مطابخهم ليدركوا عارهم / وليكفوا عن إيذاء أسماعنا باسم الحرية.." هذا "الشاعر الأسود" أفزعه أنه حتى أبطال الحرية، أمثال جورج واشنطن، يملكون العبيد، وهو ما يعد تسفيها لادعاءات الأمريكيين حول الحرية والأخلاق[٣]. يلوم النشيد الأول الأمريكيين لإهمالهم الرجال الذين كسبوا معركة الحرية لصالحهم، والثانى يدين الأمريكيين لإهمال الحرية ذاتها، تلك التى حارب هؤلاء الرجال لتحقيقها.

وقد نشرت رورال ماغازين أو فيرمونت ريبوزترى نسخة من الحياة الواقعية من "وطنى ٧٦" خلال المناظرة حول الأسرى الأمريكيين فى مارس ١٧٩٥. وكانت الصحف، آنذاك، مليئة بقصص أسرى أمريكيين فى الجزائر، قصة حقيقية تشبه، إلى حد بعيد تلك التى رواها "وطنى ٧٦" الأول. وأعادت رورال ماغازين نشر واحدة منها، تحت عنوان "لعنات العبودية". وكان جون بيرنهام الذى كانت هذه هى قصته، قد عاد قبل وقت قصير إلى وطنه من الأسر فى الجزائر. ولكن إلى جوار قصة بيرنهام أعاد المحررون نشر قصة أسر أخرى، قصة كاطو مونغو، الأمير الإفريقى الذى عاد قبل وقت قصير إلى ويدا، وهو ميناء فى غرب إفريقيا، بعد طول استعباد فى أمريكا. وجعلت قصة المعاناة التى مر بها كاطو مونغو فى أمريكا قصة بيرنهام تبدو قليلة الخطر، لأنه قدم

"رواية طويلة ومحزنة للمعاملة التى يلقاها الإفريقيون التعساء فى أرض القسوة تلك".
وفيما كان الأمريكيون يناقشون كيفية التخفيف من آلام الأمريكيين "المستبعدين" فى الجزائر، اقترح كاطو مونغو على الإفريقيين أن يتخذوا "تدابير ما" لتخليص "من يمكن تخليصهم من إخواننا الذين تساعدنا قوتنا على إعادتهم إلى أسرهم والمرتبطين بهم".
وكرر وهو يمتلئ بالفزع أن "عديدين من الأسرة المالكة فى هذه المملكة" هم الآن "يقومون بأعمال مهنية فى مطابخ الولايات المتحدة!!!"(٤).

وأعادت رورال ماغازين، أيضاً، نشر قصة مويو، الرجل الأسود الحر الذى يعيش فى كونيكتيكت الذى ساعد كاطو مونغو على الهرب إلى ماساشوسيس، حيث كانت العبودية قد ألغيت. ورغم أن العبيد فى كونيكتيكت كانوا يعاملون أفضل مما يعاملون فى الولايات الأخرى فقد كانت معاملتهم سيئة، كما قال مويو. وكان المجلس التشريعى فى كونيكتيكت قد سمح مؤخراً "للأنانية" بكبح ميوله للخير، فرفض مشروع قرار بإلغاء العبودية. فالمجلس "لم يعتبر أن من حقه نزع ملكية الأفراد"، وهكذا فقد رفض منح الحرية لأفراد آخرين. ورغم أن المجلس تنازل عندئذ عن أرض هى ملكية عامة قيمتها مليون دولار. "فأرواحهم لم تكن كريمة بما يكفى" لتحرير العبيد الأفارقة. لكن مويو عاد بموضوع العبودية إلى الجزائر، معتبراً أن الأسر فى الجزائر والعبودية فى أمريكا عرضان للامبالاة الأخلاقية فى أمريكا. فالعبيد فى أمريكا لا يحق لهم أن يشكوا، كما قال مويو، ما دام هناك أمريكيون "مستعبدين الآن فى المملكة الجزائرية ولا يجد أبناء وطنهم فى أنفسهم ما يكفى من الكرم" لأن يخلصوهم. لقد كان الأسر فى الجزائر عقاباً للأمريكيين على قبولهم بالعبودية فى أمريكا.

وقد أصدر ماثيو كارى، وهو أحد أبرز الناشرين فى الجمهورية الجديدة "تقريراً موجزاً عن الجزائر" فى ١٧٩٤، مستفيداً من الاهتمام بالمملكة الشمال إفريقية، عندما كانت الولايات المتحدة تدرس الرد على الهجمات الجزائرية على السفن الأمريكية. وقد أدان كارى الجزائريين على أخذهم رهائن أمريكيين وبيعهم كعبيد، لكنه أشار إلى "أننا فى مسألة بيع وشرء العبيد لا يحق لنا أن نتهم الجزائريين بأنهم ينفردون بالبربرية،

على أى نحو كان" وقد أزعج وليم إيتون الذى وصل فى ١٧٩٧ إلى تونس قنصلاً أمريكيا أن يرى الأوروبيين وقد استعبدهم التونسيون.

وكتب فى يومياته مستعيراً عبارة لورانس سيترن فى "الرحلة العاطفية": "أيتها العبودية، أنت ابنة المرارة. ولو توفرت لإيتون القوة "لصب انتقامه فى لحظة مظلمة على المدافعين (عن العبودية) بأسخن من الغضب الأزرق للعنة المشيخية – ولكن إنتظر! يا للحسرة، كم من أبناء وطنى من سيشملهم هذا الدمار الهائل" لم يكن بوسعه أن يدين تونس دون أن يدين أمريكا. "بلاد البربر هى الجحيم – وهكذا هى أمريكا، للأسف، بالكامل جنوبى بنسلفانيا، فهناك القمع والعبودية والتعاسة". لم يكن بوسع إيتون، الممثل الرسمى للولايات المتحدة، أن يتجاهل لا أخلاقية بلاده. وقد كتب إلى زوجته "نحن نتباهى بحريتنا وبعدلنا الوطنى. كم مرة رأيت، فى الولايات الجنوبية من بلادى، أمهات باكيات يقدن أطفالهن الأبرياء إلى حيث يباعون، بعذاب عميق كما لو أنهن يقدنهم إلى الذبح، ورغم ذلك كان صدرى هادئًا إزاء هذه الاعتداءات على الإنسانية العزلاء" وقد انزعج إيتون لمحدودية إنسانيته هو، ولعن إزدواجية معاييره التى جعلته يلعن التونسيين لاستعبادهم الأوروبيين رغم أن "العبيد المسيحيين لدى برارة إفريقيا يعاملون بإنسانية تفوق ما يلقاه العبيد الأفارقة من معتنقى المسيحية فى أمريكا المتحضرة، فالمشاعر تتأذى لدرجة النزف إزاء تعاسات أولئك الذين قضت عليهم الأقدار بالعبودية هنا". وقد أزعج إيتون عجزه عن التأثر لاستعباد الأفارقة فى أمريكا بقدر ما تأثر لاستعباد البيض فى إفريقيا(٥).

وقد ألف رويول تيلر، وهو كاتب ومحام من نيو إنغلند كان على وشك الزواج من ابنة جون وأبيغيل آدامز، الرواية الأكثر عمقًا عن التجربة الأمريكية فى الجزائر "أسير الجزايرلية أو حياة ومغامرات الدكتور آبدايك آندرهيل، الذى قضى ست سنوات أسير الجزايرلية (١٧٩٧). وتبدأ الرواية بالسخرية من مجتمع نيو إنغلند، الذى يعجز الطبيب ذو التعليم الكلاسيكى أبدايك أندرهيل، عن أن يجد لنفسه مكانًا آمنا فيه. فيتجه إلى البحر ثم ينتهى به الأمر طبيبًا على سفينة بريطانية تعمل بالرقيق. ويختار الدكتور

أندرهيل البحث عن الثروة لا مراعاة الأخلاق. وتقتل ظروف البحر السيئة والأمراض حمولة السفينة من البشر، وأخيراً يقنع آندرهيل قبطان السفينة بالرسو على الساحل الإفريقي حتى يتمكن من إقامة مستشفى للأسرى المهددين بالموت. وعلى الشاطئ ظل يطيب الأسرى السود حتى استعادوا صحتهم. ويبقى على الشاطئ مع خمس من السود الذين يتعافون عندما تسوق سفينة قراصنة جزائرية سفينة العبيد، بعيداً. ويهرب أربعة من الأسرى، باحثين عن طريق للعودة إلى وطنهم. ويأسر الجزائريون آندرهيل والأسير الباقي، فيتخذ الجزائريون من الأسود بحاراً ويحبسون آندرهيل فى بطن السفينة. ولا يجد أندرهيل ما يأكله إلا ما يستطيع أسيره السابق أن يسرقه له من فتات. ويؤثر هذا الإحسان على ضمير أندرهيل. وينتهى المجلد الأول وآندرهيل يعد بإنه إذا أتيح له أن يعود إلى أمريكا فسوف "يطير إلى الإخوة المواطنين فى الولايات الجنوبية" ليركع أمامهم "راجيًا إياهم، باسم الإنسانية" أن يوقفوا تجارة العبيد. وإن لم يتأثروا باسم الإنسانية "فسوف أناشدهم من أجل الاتساق مع الذات، أن يتوقفوا عن حرمان إخوانهم فى الإنسانية من تلك الحرية التى أعلن كتَّابهم وخطباؤهم وممثلوهم وشيوخهم بل ودساتيرهم أنها حق بالميلاد، غير قابل للتصرف، للإنسان" ومن الواضح أن آندرهيل ينسى هذا الإعلان الصريح بمجرد أن يفرج عنه الجزائريون فى ١٧٩٥. وينتهى المجلد الثانى من الكتاب بعودة آندرهيل إلى أمريكا ليحض إخوته المواطنين على حماية وحدتهم، وعلى أن يتذكروا أننا "بالوحدة ننهض، وبالفرقة نسقط"(٦).

ومثل معظم الأمريكيين يختار أندرهيل الوحدة على حساب الحرية. وتبقى فكرة الاختيار مركزية فى رواية تيلر. وقد صب ناقد معاصر جام غضبه على الكتاب بسبب فصل واحد يتجادل فيه آندرهيل مع أحد الملالى حول الدين. فالملا وهو يونانى اعتنق الإسلام يقول لآندرهيل إن مسيحيته هى نتيجة للمولد والعادة، وليس للاختيار. ولو أن آندرهيل ولد فى الهند، لكان هندوسيا، ولكن لأنه ولد فى نيو إنغلند فهو مسيحى. واعتقد الناقد، وهو بدوره مسيحى من نيو إنغلند أن هذا الفصل يستحق "اللوم الأكثر حدة" وأن تايلر "تعمد على هذا النحو أن يعطى الملا أقوى الحجج، حتى يبدو تمسك أبدايك بالمسيحية نتيجة للعناء أكثر منه نتيجة للاقتناع"(٧).

والحجة الأكثر إقناعًا عند الملا هى أن المسلمين "لم يجبروا أحداً، حتى الآن، على اعتناق دينهم" لكنهم قبلوا كل من فعل ذلك، باعتباره أخًا لهم. وقال الملا لآندرهيل إن الإسلام حرر كل عبد تحول إليه لأن "أرواح كل المؤمنين يلفها ثوب واحد عطر هو الحب الأبدى. نحن نترك لمسيحى الهند الغربية، وللمسيحيين فى مزارعكم الجنوبية، مهمة تعميد التعساء من الأفارقة ليدخلوا دينكم، وبعدها تستخدمون إخوانكم فى المسيحية استخدامكم للبهائم". يضع تيلر هذه الحجة على لسان شيخ مسلم، سامحًا بذلك للمدافع عن دين كان أمريكيون كثيرون يعتقدون أنه دين زائف، دين خال من القداسة ومن الإنسانية معًا، أن يحاضر الأمريكيين حول واجبهم الأخلاقى. ولم يستطع آندرهيل إلا أن يقر بأن الشيخ كان على صواب(٨).

ولا يستطيع الأمريكيون أن ينظروا إلى العالم المسلم نظرة تدقيق دون أن يروا انعكاسًا يثير الاضطراب. وقد قالت رواية أخرى تولدت عن لقاء الأمريكيين بالإسلام إننا "مع غياب الوعى عندنا بجرائمنا، أو مع عدم استعدادنا لأن يعرفها العالم، فكثيراً ما ندين الآخرين بتهمة ارتكاب الممارسات التى نمتدح أنفسنا عند ارتكابها، والتى نتمنى أن تقبل باعتبارها نماذج للاستقامة، أو نصدر حكم الإدانة، وقد أعمانا التحيز، على مسلك الآخرين الأقل جرما منا" هذه الرواية التى صدرت فى ١٨٠١ بعنوان "الإنسانية فى الجزائر أو قصة عازم" تروى على لسان أسير أمريكى فى الجزائر تحرر بفضل الوصية الخيرة التى تركها عازم، التاجر الذى تكرم بأن أوصى بتحرير رقبة كل عام. وقد أثبت هذا الإحسان من جانب عازم وجود إنسانية فى الجزائر، كما يقول العنوان الذى يبدو أنه متناقض مع نفسه. وقد كان عازم رجلاً أسود من السنغال، وقد أصبح عبداً فى الجزائر، لكن سيده العارف بفضله أعتقه فأسس مشروعا تجاريا. ولم يكن ليحصل على هذه الفرصة فى أمريكا لو أن الصدفة جعلته يستعبد هناك وليس فى الجزائر.

"الإنسانية فى الجزائر" هى رواية مناهضة للعبودية، لا تستهدف وحشية دول البربر بل تستهدف لا إنسانية الولايات المتحدة. فالجزائريون الذين حولوا ١٢٠ بحارا

أمريكيا إلى رهائن، كانوا، فى الحقيقة، يردون علينا "مقابل وحشية مماثلة". لقد كان من الضرورى أن ينظر الأمريكيون إلى أنفسهم بأمانة وأن يعترفوا بخطيئة العبودية فى أرض مسيحية جمهورية. وقد أعلن المؤلف أننا "وقد تعلمنا منذ الطفولة أن نفكر هكذا، أصبح من الصعب علينا أن نتصور أن محمديا يمكن أن يكون له قلب يشعر، أو أن يكون قادراً على الإحسان. لكن قصة عازم "التى يمكن الوثوق بصدقيتها" أثبتت وجود "إنسانية فى الجزائر". وهذا يعنى ضمناً عدم وجود إنسانية فى أمريكا، فالأمريكى المسيحى الأبيض مدين بحريته للإفريقى المسلم الأسود(٩).

وإلى جانب إدانة العبودية فقد قدمت "الإنسانية فى الجزائر" للأمريكيين خياراً لإنقاذ أرواحهم وأمتهم. لقد اختار عمرى، سيد عازم، عمل الخير عندما أعتق عازم بعد أن منع الإفريقى المخلص عربيا شهوانيا من اغتصاب ابنته نارينا. لكن فلاكوس الذى يملك آلزنيا شقيقة عازم "ممتلئ بالشعور بالأهمية الذى غالبًا ما يصيب محدثى النعمة" وهو يرفض التخلى عن "ما يبدو أن أهواءه تمليه عليه أو أن إرادته تقرره" إذ إنه يشتهى آلزنيا الجميلة لنفسه. ويجعله "الاستقلال الذى صنعته الثروة" يصم أذنيه عن نداء الشفقة ونداء العقل، معًا. ولا يتبين لفلاكوس إثمه إلا عندما يصيبه الطاعون فيخشى أن يحرمه طمعه من دخول الجنة. والأمريكيون أيضًا فى موقف الاختيار. فإما أن يقلدوا عمرى، الذى دفعه العرفان وحب الخير إلى أن يعتق خادمه المخلص ويثبته فى التجارة، ليس من باب الإحسان ولكن على أساس اقتصادى متين، لأن عازم حاذق وناجح. ويواصل نجل عمرى عمل الخير الذى بدأه عازم بعد وفاة الأخير بالطاعون. ويختار هذا الابن الناجح لأحد التجار العمل الخيرى، فيفتدى الأسرى، مفضلاً ذلك على جمع المال. ويعمل على إلغاء الرق. أو أن يقلد الأمريكيون فلاكوس، الذى تحركه الرغبة فى الثروة والنفوذ ويموت بالطاعون. هذا تحذير وجهه الكاتب للقراء الأمريكيين. فالقبول بالعبودية يعد بالثروة الدنيوية، لكن العمل على تحرير العبيد هو وحده الذى يعد بالخلاص.

وكما فى كتاب تيلر "أسير الجزايرلية" فالإسلام، وليست المسيحية، هو الطريق إلى الخلاص. وبالنسبة للأمريكيين المسيحيين الواثقين من تفوقهم الخلقى، كان هذا درسًا صادمًا تعلموه. ولكن ما دام بعض الأمريكيين المسيحيين يملكون العبيد والآخرين تقبلوا منهم هذا الإثم فلا يحق لأى أمريكى أن يعظ الآخرين من موقع رضا النفس عن فضائلها. وبالأحرى فقد ترك أحد المسلمين الجزائريين فى نهاية "الإنسانية فى الجزائر" ليعظ الأمريكيين وبقية العالم. ويدعو عمرى أن يشرق نور الإسلام عبر العالم كله، وأن يتذكر كل ملاك العبيد، فى كل مكان ذلك المفهوم القرآنى المهم" أيها السادة عاملوا خدمكم برفق". وأهم من ذلك الكلمات المقدسة "من دم واحد خلقت كل الأمم التى تدب على سطح الأرض"(١٠).

هذه الرواية التى كانت تباع فى شمال ولاية نيويورك وفى غرب فيرمونت (المنطقتان محافظتان ويقل فيهما غير البيض وغير المسيحيين، بخاصة فى ذلك الوقت - المترجم) تعد تذكرة، لا تخلو من حدة، للأمريكيين بأن لديهم القدرة على خلق العالم من جديد، ولكن يتعين عليهم ألا يتسرعوا فى تهنئة أنفسهم، قبل الآوان، على نجاحهم فى ذلك. فالرواية عمل تأملى فى فكرة الاختيار، وهى نقطة يبرزها ما يمكن أن يكون خطأ فى البداية. فالمؤلف الذى يزعم أنه كان أحد ركاب سفينة ريتشارد أوبرايان، يقول إنه أقلع مع أوبرايان فى ١٠ مايو ١٧٨٦. فى ذلك التاريخ كان أوبرايان قد مضى عليه عشرة أشهر أسيرًا لدى الجزائريين. وقد استخدم المؤلف اسم أوبرايان ليعطى روايته نكهة الحقيقة.

ولكن على الرغم من أن هذا التاريخ يثبت أن العمل روائى، فإنه يشير إلى أنه أكثر من مجرد حكاية عاطفية. وفى ١٠ مايو ١٧٧٥ اجتمع الكونغرس العمومى الثانى، وكان يجتمع لأول مرة والبلاد فى حالة حرب. لكنهم لم يكونوا قد قرروا بعد الهدف من الحرب. كان معظم الوفود يأملون حل الخلافات فى إطار الإمبراطورية البريطانية. وبعد سنة واحدة، فى ١٠ مايو ١٧٧٦ واجه الموفدون موقفًا متغيرًا، وكان معظمهم قد أصبح مستعدًا لقبول الاستقلال. فى ذلك التاريخ، دعوا المستعمرات إلى إنشاء حكومات جديدة.

لم يكن ذلك إعلانـاً للاستقلال، لكنه كان الخطوة الأكثر أهمية باتجاه الاستقلال، أو كما قال أحد أعضاء الوفود، كانت هذه آلة لتصنيع الاستقلال.

كان ١٠مـايو تاريخـا مـهمـا، وإن كان قد ترك الاختيار معلقًا فى الهواء، بتعبير جيفرسون، الاختيار بين "التسليم والسيف". وقد سمح ١٠ مايو لأهل المستعمرات بأن يكون لهم ٤ يوليو (يوم الاستقلال - المترجم) إذا اختاروا أن يكون لهم. ورحلة الراوى فى "الإنسـانيـة فى الجـزائر" هى رحلة رمـزية إلى منتصف الطريق، بقـدر مـا كـانت تصرفات أهل المستعمرات فى ١٠ مايو رحلة إلى منتصف الطريق. وبحلول ١٨٠١ كان الاستقلال الأمريكى آمنا. لكن المؤلف أراد للأمريكيين أن يمضوا قدما، وأن يستقر اختيارهم، بالكامل، على الحرية، ليس لأنفسهم فقط بل للإنسانية كلها. وعلى غرار تيلر، فقد أراد هذا المؤلف أن يلاطف قراءه بأن يجعل مسلمـاً يحاضرهم عن الأخوة، مثبتًا للأمريكيين أن الناس الذين يعتبرونهم منحطين أخلاقيا كانوا أفضل منهم خلقًا، فى الحقيقة. فهؤلاء المسلمون الخياليون أثبتوا للأمريكيين المسيحيين أن العبودية خطيئة فى أرض الحرية[11].

ويمكننا تجاهل هذه الرواية باعتبارها عملاً غير مهم وغامض من مؤلف متعصب. لكن المرء يدهش من عدد الأمريكيين الذين استخلصوا بأنفسهم هذا الدرس المر فى الجـزائر. فنتـائج الخـضوع للطغيـان، أو السـمـاح لأى شـكل من أشكال الطـغيـان بأن يضرب جذوره، هى نتائج خطيرة. لقد اعتاد الأمريكيون على أن يروا فى العالم المسلم دروسًا لمن قبلوا بالطغيان، وكانت السلطة المستبدة بيد السلطان التركى، والسلطة الفوضـوية فى الجـزائر، وخراب المدن التى عرفت الازدهار يومـا، فى مـوريتـانيـا، فى شمال إفريقا، فى مصر، فى سوريا وفى العراق نذيرًا للأمريكيين بما يمكن أن يحدث لهم. وتنتهى قصة عازم بواحد من أكثر التصريحات إيجابية حول الإسلام فى الأدب الأمريكى المبكر. فقد أشارت "الإنسانية فى الجـزائر" إلى أن الإسلام، لا المسيحية، هو الدين الذى منح كل البشر الحرية. وقد كان هنـاك شـىء خاطئ، إما فى المسيحية أو فى أتباعها، سمح للإسلام بأن يتميز على هذا النحو.

هل يحق للأمريكيين حقا أن يزعموا أنهم مختلفون عن الفاشلين من أهل العالم القديم، إن قبلوا بالعبودية ؟ بوسعهم أن يختاروا أى نوع من الشعوب يريدون أن يكونوا. وقد صور عمل بعنوان "نسخة من رسالة سواق العبيد الإنكليزى فى الجزائر لصديقه فى إنكلترا" المنشور فى نيويورك وساليم فى تسعينيات القرن الثامن عشر رجلا أتيح له أن يختار بين أن يكون عبداً أو سواقًا للعبيد فى الجزائر. وطن نفسه على مركز القوة الذى آل إليه، لأن واقع العبيد فى الجزائر لم يكن أسوأ كثيراً من واقع البحارة الإنكليز (قال وينستون تشيرشل، وكان الأدميرال الأول للبحرية فى مطلع القرن العشرين، إن حياة البحار الإنكليزى تدور حول ثلاثة محاور: الكحول واللواط والضرب بالعصا - المترجم) أو حتى واقع الغالبية من الشعب الإنكليزى (فى القرن الثامن عشر- المترجم). وكانت هذه فكرة مرعبة، ربما بقدر الرعب من فكرة أن العبودية فى أمريكا قد تكون أسوأ من العبودية فى الجزائر وأكثر تورطًا فى الخطيئة، حيث إن الجزائريين لم يخلطوا عبوديتهم بالنفاق الذى يفسد الخلطة.

وقد كان سواق العبيد الإنكليزى هذا يقود عشرين عبداً "بعضهم إسبان، وبعضهم إنكليز، وبعضهم أمريكيون" وفى البداية كان يصعب عليه ضرب مواطنيه بالسياط. "لكن العادة، كما يقال، طبيعة ثانية" والآن لم يعد يرى فى ضرب إنكليزى بالسوط أكثر مما يرى فى ضرب الحصان. كان يأمل أن لا يدينه صديقه فى إنكلترا، لأنه قبل وظيفة سواق العبيد عند الجزائريين. لكنه، فى معرض الدفاع عن نفسه، قال إن "الكفار" فى الجزائر ليسوا بأسوأ من المزارعين فى جامايكا، الذين كان عندهم من العبيد السود عشرة أضعاف ما عند الجزائريين من البيض. وأكثر من ذلك فالبحارة الإنكليز الأسرى فى الجزائر "أحسن حالاً هنا عما كانوا عليه فى بلادنا" حيث لم يكونوا إلا عبيداً. وذكر أصدقاءه بأنهم انبهروا بالخدمة فى سفينة حربية فانضموا إليها. وتذكر سقوط أحد الرفاق من فوق القلع على الكلب المدلل لعشيقة القبطان. وجلد الرجل الجريح لأنه سقط فى مكان غير مناسب. وبالمقارنة إلى الطريقة التى يعامل بها الإنكليز العبيد السود والبحارة العاديين، فإن الأسرى فى الجزائر يعاملون معاملة رحيمة.

لقد كان الأسرى فى الجزائر يجبرون على العمل، أما فى بلادنا فبوسعهم أن يعملوا أو يموتوا جوعًا. ويعلق هذا الخطاب، بحدة، على المجتمع الإنكليزى ويطلب من القارئ أن ينظر فى أحوال مجتمعه قبل أن يدين غيره. هل يمكن لبحار أمريكى أن يختار أن يصبح سواق عبيد فى الجزائر، وأن يجلد بالسوط البحارة الأمريكيين كما يجلد حصانًا؟ ما دام الأمريكيون يحتفظون فى بلادهم بالعبيد أو يعامل أحدهم الآخر باعتباره أقل آدمية، فقد كانت هذه إمكانية حقيقية(١٢).

ومع ظهور نظام حزبى أمريكى فى مطالع التسعينيات من القرن الثامن عشر. ومع قيام أهل فيرجينيا بأدوار نشيطة فى مساندة الأفكار التى روجت لها الثورة الفرنسية عن المساواة بين كل البشر والديمقراطية، وفى شجب الاتحاديين الذين كان كثيرون منهم من نيوإنغلند لأنهم اعتنقوا مبادئ التراتبية والاستقرار الاجتماعى، فقد رد بعض أهل نيو إنغلند، باستخدام المجاز الجزائرى لتقريع أهل فرجينيا الذين يقتنون العبيد لأنهم يدعون لأفكار لا يمارسونها وأعادت بعض الصحف فى نيو إنغلند نشر "الهجائية الأجدر بالإعجاب عن العقائد الديمقراطية والممارسات الاستبدادية للديماغوغيين الجنوبيين المتبجحين فى ظهرانينا" الذين يبشرون "بالمساواة بين البشر" فى الكونغرس فيما هم يمارسون "بربرية القراصنة" فى مزارعهم، وكان النشر تحت عنوان "العقيدة ضد الممارسة". وقد كانت هذه الهجائية تدور حول إعلان عن عبد آبق، مع وعد بمكافأة لمن يعيد "العبد الأمريكى"، وهو "شريد جاحد" و"كافر لا صلاح له" لم يتيسر دفعه بالإقناع أو بالعقاب أو بالتهذيب إلى التخلى عن "أخطائه المسيحية" وبدلاً من ذلك فقد هرب مستخدمًا وثيقة "مستعارة" بأنه عتيق. فالعبد الذى تحرر كان بوسعه، بعد أن يحصل على مثل هذه الوثيقة، أن يقرضها لعبد آخر، وباستخدام هذا "النوع المخترع حديثًا من السرقة" أمكن تحرير نصف العبيد فى الجزائر.

والمحررون الذين غشوا ملاكهم القانونيين بهذه الطريقة يمكن أن يعتبروا اقتسام الوثائق فيما بينهم، على هذا النحو "عملاً خيرًا". فأى فكرة غريبة وسخيفة هى فكرة المسيحيين عن عمل الخير(١٣). وهكذا فإن الفيرجينيين الذين يدينون بالحرية وما زالوا

يمكلون العبيد، كانوا أشد نفاقًا من أهل نيو إنغلند، الذين لا يصدرون تصريحات عن المساواة لكنهم لا يملكون عبيداً. وقد كان بوسع مويو الرجل الذى ينتمى لولاية كونيكتيكت والذى ظهرت قصته مع قصة كاطو مونغو فى روران ماغازين أن يوضح أن كل الأمريكيين متورطون فى النظام العبودى، وأن الموقع الجغرافى لا يضمن لأحد الاستقامة الخلقية.

وقد استخدمت مسرحية فى ١٨١٢ أجواء دول البربر لشجب العبودية ولتمييز نيو إنغلند عن بقية الولايات التى تقبل بالرق. ففى مسرحية جيمس إليسون "الأسير الأمريكى أو محاصرة طرابلس الغرب" يقول البحار الأسير جاك بيناكل للمشرف حسن إن أمريكا "مكان ساحر، يا سيادة المشرف، ليست فيها عبودية! كلهم يولدون أحراراً" ويرد حسن "ليست فيها عبودية إذن؟ اذهب إلى حيث ينحنى الطريق إلى السنغال واسأل الأمهات البائسات عن أزواجهن وأبنائهن! فكيف سيكون ردهن؟ كتبت عليهم العبودية، وفى بلدك الذى تتبجح به أيضًا! وفى هذه اللحظة يدخل الشخص الأسود الوحيد فى المسرحية، وهو جوبا طباخ السفينة ويؤكد لحسن أنه فى ماساشوسيتس "نحن السادة السود كلنا أحرار!"[١٤]. وقد حاولت "الأسير الأمريكى" ما حاولته "العقيدة ضد الممارسة" بتمييز نيو إنغلند عن الولايات التى تطبق نظام العبودية. ولكن، وكما أشار المللانى "أسير الجزايرلية" التى كتبها تيلر، فكل المؤمنين يربط بينهم ثوب واحد. وكما أصر المؤلف المجهول لكتاب "الإنسانية فى الجزائر" فالأمريكيون فى أحد أقسام البلاد ليس بوسعهم أن يبرئوا أنفسهم من خطايا الباقين، فالشر فى أحد أرجاء البلاد يمس الأمريكيين جميعًا. وقد كان واجب جميع الأمريكيين أن يختاروا الجانب الذى ينحازون إليه.

وقد راجت "الإنسانية فى الجزائر" فى منطقة صغيرة فى فيرمونت وشمال ولاية نيويورك. وطبعت "أسير الجزايرلية" التى كتبتها تيلر ثلاث طبعات فى العقد الذى تلا كتابتها، ثم اختفت. وربما كان للأعمال الأخرى التى أشرنا إليها جمهور أصغر وتأثير أصغر. فما هو مدى أهمية موضوع البربر هذا بكامله؟ هل أدرك المعاصرون، بالفعل، الرسالة التى حاولت أن تبثها هذه الأعمال بخصوص العبودية والخطيئة؟ حقيقة أنه

تعين أن تتكرر الرسالة على هذا النحو من التواتر تشير إلى أنهم لم يفعلوا. لكن براهين أخرى تشير إلى أن بعض الأمريكيين، على الأقل، وصلتهم الرسالة، وأن أولئك الذين وصلتهم الرسالة كانوا فى مركز يسمح لهم بأن يتصرفوا بناء على ما يكتسبون من معارف. وأحد الكتب الأشد تأثيراً فى المراحل المبكرة من عمر الجمهورية "الخطيب الكولومبى" الذى وضعه كاليب بنغام، كان مجموعة من المقالات والقصائد والخطاب مصممة كدليل عملى للشباب الطامحين إلى أن يكونوا رجال دولة أو محامين أو قيادات فى المجتمع.

ومن المختارات مسرحية ذات فصلين بعنوان "عبيد فى بلاد البربر" تقوم على ذات المحاور، عن الحرية والعبودية والنفاق الوطنى، وهى المحاور التى وجدها مؤلفون آخرون جذابة للغاية. والشخوص الرئيسية فى البلاد هى ثلاثة إخوة من البندقية أسر اثنان منهما فى تونس. لكن فى المسرحية، أيضاً، أسير أمريكى اسمه كدناب (KIDNAP تعنى يختطف - المترجم) اختطف هو وعبده شارب. ويعلم باشا تونس حامد من شارب أن كدناب كان سيداً قاسياً وسكيراً. فيأمر حامد ببيع الأمريكى لمن يدفع أعلى ثمن على أن يكون شارب فوقه مشرفاً ليعطى كدناب "ميزة درس بالسوط من عبده السابق الذى عامله بكل هذا الرفق". ويأمل الباشا أن يتعلم كدناب فى العبودية درساً "لا يمكن أن يتعلمه فى يساره، درس الإنسانية"[١٥].

وظل "الخطيب الكولومبى" مرجعاً مؤثراً لسنوات طويلة. وفى أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وبعد أن اختفت الأعمال الأخرى التى عرضنا لها فى هذا الفصل، تماماً، علم عبد شاب فى بلتيمور نفسه القراءة، سرا، واشترى نسخة من "الخطيب الكولومبى". لم يكن فريدريك بيلى بحاجة إلى أن يقرأ كتاباً ليعرف أن العبودية خطأ. لكنه تعلم من هذا الكتاب أنه، حتى بعض البيض يقرون بأن العبودية تناقض ما يؤمنون به من عقائد الإنسانية والحرية. واستوعب عقل بيلى الراجح أن الأمريكيين البيض، إن قالوا بالحرية لأنفسهم، تولد لديهم شعور غير مريح إذا اعتبرت محظورة على الآخرين. واستمتع بالطريقة التى أخذت بها هذه المسرحية القصيرة فكرة يقبلها

كل الأمريكيين البيض - وهى أن استعباد البيض المسيحيين خطأ - واستخدمتها لتقيم حجة لا يملكون رفضها - أن العبودية خطأ بالنسبة للجميع.

وبعد ذلك بعدة سنوات هرب بيلى، وغير اسمه إلى فريدريك دوغلاس، وقضى بقية حياته يذكر الأمريكيين بحقائق سبق لهم أن أعلنوا أنها واضحة من تلقاء نفسها[١٦].

ومثل مارتا جيفرسون والسيد مويو والمؤلف المجهول لكتاب "إنسانية فى الجزائر" كان فريدريك دوغلاس يعلم أن كل الأمريكيين سواء كانوا من ملاك العبيد أو لم يكونوا، متورطون فى جريمة العبودية. كانوا يعلمون بأن الانتماء إلى الأمة ذاتها، يجعل جميع الأمريكيين مسؤولين عن أخلاق هذه الأمة وكذلك عن استقامتها السياسية. والرضا عن الذات فى مواجهة الشر هو خطيئة تساوى الشر ذاته. والملا فى رواية تيلر "أسير الجزايرلية" قال إن كل المسلمين يلفهم ثوب عاطر واحد وخالد، والأمريكيون الذين كانوا عاقدى العزم على أن يعيدوا خلق عالمهم الخاص، وعلى أن يرفعوه أمام العالم كمثال يحتذى به الجميع، أيضًا، لم يكن من الواجب أن ينسوا أن كل فعل يفعلونه يحكم عليه الرب وبقية البشر فى كل أنحاء العالم. وهكذا، ورغم أن بوسع الأمريكيين أن يهنئوا أنفسهم على تجنبهم الاستبداد المأساوى الذى أفقر تركيا ومصر وموريتانيا، والانحراف الجنسى الذى سبب المهانة لنساء المسلمين وأفسد العلاقات الأكثر حميمية، فلا يمكن لهم أن ينظروا إلى العبودية فى العالم المسلم دون أن يواجهوا جهامة الحقيقة التى تقول بأنهم ليسوا، فى الواقع، مختلفين عن أى شعب آخر فى العالم. فهم لم يستأصلوا من الطبيعة البشرية تلك الجرثومة التى تجعل الرجال يطغون، لم يخلقوا مجتمعًا يحول دون قهر للقلة للباقين، ولم يضمنوا أن ترفض الكثرة الطغيان.

كمنت معضلة العبودية تحت السطح مباشرة فى الجدل السياسى والدستورى فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر. وكان أحكم المؤسسين، أمثال جيمس ماديسون، يؤمنون بأن هذه المشكلة من شأنها أن تحبط كل الحلول الوسط التى صاغوها بكل عناية. لكن حتى أكثرهم حكمة لم يكن قادرًا على أن يجد طريقًا للخروج من هذه المشكلة.

وكما لاحظ رجل كونيكتيكت السيد مويو فقد فضل المشترعون الأمريكيون، حتى فى نيو إنغلند، حقوق الملكية لدى ملاك العبيد على حقوق الإنسان المستعبد. وفى أمة تأسست بغرض حماية حقوق الملكية، فقد كان ذلك نذير شؤم. ففى ١٧٩٠ اشتعل التوتر بين الحقوق الشخصية وحقوق الملكية، فى الكونغرس الأمريكى. تقدمت مجموعة من الكويكر (QUAKERS الصباحيون أو المجتمعون كل عام، وهم جماعة بروتستانتية ترفض الحرب وتدافع عن حقوق الأقليات، وكان لهم دور كبير فى مناهضة الرق، وفى تأسيس جماعات معاصرة مثل "منظمة العفو الدولية" و "غرين بيس" أو السلام الأخضر- المترجم) من بنسلفانيا بالتماس إلى الكونغرس لإلغاء تجارة الرقيق. وكان الدستور يعطى للكونغرس السلطة لأن يفعل ذلك، ولكن ليس قبل ١٨٠٨. ولم ير الكويكر أى خير فى الانتظار ثمانية عشر شهراً لاستئصال خطيئة. لكن النواب من ساوث كارولينا وجيورجيا، الذين كان الناخبون البيض فى دوائرهم محتاجين لاستيراد العبيد لزراعة محاصيل الأرز الخاصة بهم، اعترضوا. قالوا إنهم ما زالوا بحاجة إلى عبيدهم، والدستور يسمح لهم باستيراد العبيد حتى ١٨٠٨. ولو لم يكن الدستور يسمح بذلك فربما لم يكونوا ليقبلوه.

ويمكن تجاهل جماعة الكويكر، شأنهم شأن مؤلف "الإنسانية فى الجزائر" باعتبارهم متشددين دينيين يريدون أن يلزموا الآخرين بمعاييرهم الخلقية. وكان معظم أعضاء الكونجرس مستعدين لتجاهل جماعة الكويكر ليركزوا على إنشاء بنك وطنى، وحق الدولة فى الاستدانة، والضرائب المحلية، ومقر العاصمة الوطنية، وهى أمور كانت تفاقم انقسام الحكومة الجديدة إلى شيع سياسية. وكان يكفى لصرف النظر عن جماعة الكويكر مجرد القول بأن الكونغرس لا يحق له التدخل فى مؤسسات الولايات، ولا يمكنه إلغاء الرق قبل ١٨٠٨. لكن الكونغرس تسلم، بعد يومين من وصول الالتماس من جماعة الكويكر، التماساً آخر من جماعة علمانية هى "جمعية بنسلفانيا لإلغاء الرق". وبدلاً من استخدام الحجج الدينية استخدمت الجمعية البنسلفانية حججاً سياسية وأيديولوجية نبعت من صميم النضال الثورى الأمريكى. "من الاقتناع بأن الحرية المتكافئة هى فى الأصل مقدور كل إنسان، وهى للآن حقه بالميلاد" فإن جمعية بنسلفانيا تدفعها

"أقوى الروابط بين البشر" إلى أن "تلجأ لكل مسعى يمكن تبريره لفك أغلال الرق". ودعت الجمعية الكونغرس إلى أن يفعل الشىء ذاته، وحثته على أن "يخطوا إلى حافة" سلطته لكف "جميع أنواع الاتجار فى أشخاص هم إخوتنا فى الإنسانية"(١٧). ووقع على هذا الالتماس رئيس جمعية بنسلفانيا بنجامين فرانكلين.

ورغم أنه كان من السهل تجاهل جماعة الكويكر فلم يكن الأمر كذلك مع بنجامين فرانكلين. وتعين على حماة العبودية أن يطرحوا حججًا مختلفة ليستخدموها ضد حركة سياسية مناهضة للرق أسست موقفها على تصورات سياسية يشاركونها الإيمان بها. واكتفى أحد أعضاء الكونغرس عن ساوث كارولينا بأن فرانكلين "كان يتعين عليه أن يعرف الكونغرس بشكل أفضل" وكرر القول بأن الكونغرس لم يكن يملك أى سلطة للتدخل فى مؤسسة محلية أو فى حقوق التملك أو على سلطة الولايات لن يكون كافيًا، وأن الحماس الأخلاقى الذى امتزج بمثل الثورة كان كفيلاً بتدمير الجوانب القانونية فى المنطق المستند إلى حقوق التملك وإلى حقوق الولايات. كان رجل الكونغرس عن جيورجيا جيمس جاكسون يعلم ذلك كما كان يعلم أن المدافعين عن الرق لم يكن أن يقبلوا بالفرضية التى انطلق منها مهاجموهم: أن العبودية شر. ولو فعلوا ذلك لانتهت المعركة. وإن كانوا يريدون للعبودية أن تبقى رغم هجمات فرانكلين وجماعة الكويكر، فيتعين عليهم أن يثبتوا أن العبودية شىء طيب.

وقد فعل ذلك باتهام فرانكلين وجماعة الكويكر بأنهم عابثون اشتطوا فى حماسهم وحاولوا تدمير نظام اجتماعى قيم. وقال جاكسون إن أولئك الذين هاجموا الرق كانوا جهلاء. فالدين والاقتصاد والسياسة والتاريخ، كلها تبرر العبودية، وفرانكلين وجماعة الكويكر يجهلون كل هذه الأمور. فالأفارقة الذين يستعبدون يجرى تعلمهم الفضائل المسيحية، وقد أسدى الجيورجيون لهؤلاء العبيد معروفًا كبيرًا بانتشالهم من البربرية. فالعبيد استفادوا، إذن، من الرعاية الخيرة التى قدمها سادة مسيحيون بحق مثل جاكسون. وتساءل جاكسون: لو أننا أعتقنا العبيد فماذا سيفعلون؟ سيدمرون اقتصاد جيورجيا. فالعبيد لا يعملون إلا إذا أجبروا على ذلك. ولو انتقل العبيد المعتوقون إلى المناطق

الحدودية فسوف يقتلهم الهنود. وهكذا فالخيار الإنسانى الوحيد هو أن تبقى على عبودية هؤلاء الناس، وأن تعلمهم المسيحية وتسمح لهم بزراعة الأرز فى جيورجيا.

كان جاكسون سياسيا شابا وطموحا، وكان فرانكلين عجوزًا. ومن المحتمل جدا أن فرانكين كان يتوقع أن يكون الالتماس بخصوص الرق آخر عمل عام يقوم به: كان فى الرابعة والثمانين من عمره ولم يكن بينه وبين القبر إلا عدة أسابيع. لكنه عندما قرأ خطاب، عضو الكونغرس جاكسون عن الرق فى صحيفة فيديرال غازيت فى مارس ١٧٩٠ أطلق قذيفة أخرى. كان من الخطر ترك جاكسون دون أن يتصدى له أحد، والسماح للجمهورية الأمريكية التى ساهم فرانكلين فى خلقها بأن تمضى باتجاه مستقبل فاسد أخلاقيا. وكان فرانكين يعلم، أيضًا، أن الانفعال الأخلاقى والهجوم المباشر يسهل تجاهلهما. وقد تعلم من أكثر من سبعين عامًا فى الحياة العامة أن يستخدم أسلحة أكثر فتكًا. كان يعرف كيف يكتب الهجائيات، وكان يعلم أن أكثر أدوات الخطابة فاعلية التظاهر بموافقة الخصم، ثم الخروج بحجة تقوم على فرضية مضحكة والوصول بها إلى غايتها السخيفة.

وهكذا فقد كتب تحت اسم "هيستوريكوس" مادحًا خطاب جاكسون ومشيراً إلى أنه يذكره بخطاب مماثل قرأه قبل سنوات فى كتاب "تقرير مارتن عن عمله القنصلى" وهو كتاب اخترعه فرانكلين. والخطاب الذى يعد خطاب جاكسون صدى له، لدرجة التشابه، ألقاه سيدى مهمت إبراهيم داى الجزائر فى ١٦٨٧[١٨]. فقد التمست مجموعة من المتهوسين الدينيين وهم "الإريكا" أو "المتطهرون" من الداى أن يلغى استعباد المسيحيين وممارسة القرصنة ضدهم. وزعم الإريكا أن العبودية والقرصنة ظلم ومنافيان لأحكام القرآن. وبعد أن حدد المناسبة، أخذ فرانكلين خطاب جاكسون المدافع عن استعباد الإفريقيين فى أمريكا وجعله دفاعًا عن استعباد المسيحيين فى شمال إفريقيا.

وقد وافق سيدى مهمت على أن العبودية والقرصنة يمكن أن يكونا ظالمين، لكنه تساءل "إذا تخلينا عن استعباد "المسيحيين" فمن الذى سيزرع أرضنا فى هذا المناخ الحار؟"

وكان جاكسون قد أثار هذه النقطة ذاتها. وتساءل سيدى مهمت "لو أن الجزائريين لا يملكون عبيداً مسيحيين ألم نكن نحن سنصبح عبيداً هناك؟ وما الذى يمكن أن يحدث للعبيد أنفسهم لو أن سادتهم المسلمين أعتقوهم؟ "هل نتركهم يشحذون فى شوارعنا، أم نتركهم ينهبون ممتلكاتنا؟" لن يكون المسيحيون الطلقاء، أبداً، أنداداً للمسلمين، وهم لن "يعتنقوا ديانتنا المقدسة، لن يكتسبوا سلوكياتنا، ولن يلوث شعبنا نفسهم بالتزاوج معهم". ولأنهم اعتادوا العبودية، فلن يعملوا إلا إذا أجبروا على أن يفعلوا ذلك، وإن ذهبوا إلى المناطق الحدودية، فهم أجهل من أن يقيموا "حكماً رشيداً" وسوف يذبحهم الأعراب المتوحشون. وليس هذا الضعف الجاهل نتيجة خطأ منهم: ففى بلادهم يعامل كل هؤلاء المسيحيين - الإسبان والبرتغاليين والفرنسيين والإيطاليين - معاملة العبيد. وقد أحسن الجزائريون إليهم عندما جاؤوا بهم للعمل "حيث تبعث شمس الإسلام بنورها". وإذا أعدناهم إلى أوروبا فسوف نعيدهم "إلى الظلمة". وأخيراً، فإن تخلت الجزائر عن الاستعباد والقرصنة والنهب، فإن هذا سيدمر اقتصادنا لمجرد إرضاء "أوهام طائفة مخبولة".

وقد وجد الجزائريون صعوبة فى القول بأن القرصنة والنهب خطأ. وبعد أن استمعوا إلى سيدى مهمت قرروا أن منطق الأخلاق هو "فى أفضل حالاته مثير للمشاكل". فإنهاء الرق من شأنه أن ينتج من المشاكل أكثر مما يحل، وإن كان البعض يظن أن العبودية خطأ أخلاقى، فمن مصلحة الأغلبية تركها لحالها. وقد توصل الكونغرس الأمريكى إلى الخلاصة ذاتها: سواء كان النهب أو العبودية خطأ أم صوابا فهما من مصالح الولايات.

وقد اخترع فرانكلين الإريكا وسيدى مهمت و "تقرير مارتن عن خدمته القنصلية". ولكن لسوء الحظ، فهو لم يخترع جيمس جاكسون. وأثبتت أوجه الشبه التى قال فرانكلين إنه وجدها بين خطابى جاكسون وسيدى مهمت أن "مصالح الرجال وعقولهم تعمل ويجرى العمل وفقاً لها على نحو متشابه لدرجة مذهلة فى كل البلدان والمناخات،

ما داموا يعيشون ظروفًا متشابهة". ورغم أن الأمريكيين تبجحوا بإخلاصهم هم لحقوق الإنسان، فقد أثبتوا أنهم لا يختلفون عن الأتراك أو الجزائريين عندما تتضارب هذه الحقوق مع حرصهم على مصالحهم. وقد تم تجاهل تحذير جيفرسون الصريح من العبودية - من أنها قد تدمر الجمهورية الأمريكية بتشويه شخصيات الأمريكيين - والنداء الذى أطلقته رواية "الإنسانية فى الجزائر" داعية الأمريكيين إلى أن ينتبهوا إلى مسؤولياتهم الأخلاقية. وراح الأمريكيون يبحثون عن مصالحهم المباشرة، تاركين لغيرهم مواجهة نتائج أخطائهم. وقد توصل فرانكلين، فى آخر مقال نشره فى حياته، إلى الخلاصة القاتمة بأن الأمريكيين ليسوا أقرب من الجزائريين إلى الانتباه إلى مسؤولياتهم الأخلاقية.

الفصل الخامس

الأسرى الأمريكيون فى العالم المسلم

فى ١٨٠٠ كان قرابة المليون من البشر من أصول إفريقية مستعبدين فى الولايات المتحدة. وبعكس سبعمائة أمريكى أسرى فى الدول المسلمة بين ١٧٨٥ و ١٨١٥ فإن المليون إفريقى – أمريكى هؤلاء لم يكونوا يتوقعون أن تخلصهم بلدانهم أو عائلاتهم من العبودية، ولا كان بوسعهم أن يتطلعوا إلى أعادتهم إلى الحرية. وبالمقارنة إلى عذابات العبيد فى أمريكا، فإن شكاوى سبعمائة أمريكى دعوا أنفسهم عبيداً فى دول البربر تبدو مبالغًا فيها وموسومة بالنفاق.

العبودية فى أمريكا كانت أمراً يبقى ما بقى المرء حيا، وكانت وراثية وقاسية. وكانت تتحدد، أيضاً، بالعرق. ولم يكن هذا هو الحال فى الدول المسلمة، التى كان فيها عبيد، ولكن لا يمكن اعتبارها مجتمعات عبودية. وقد اقتنى المسلمون العبيد لأسباب سياسية، لا لأسباب اقتصادية. وأبناء العبيد كانوا يولدون أحراراً، كما أن العبد نفسه يتحرر بمجرد تحوله إلى الإسلام. وكان بوسع العبيد فى العالم المسلم أن يحوزوا الممتلكات، وأن تؤخذ بشهاداتهم فى المحاكم، بل وأن يعملوا وزراء للدولة. وقد كان جيمس ليندر كانكارت أسيرا أمريكيا، امتلك الحانات والسفن، وعمل فى وظيفة السكرتير المسيحى للداى.

ما هذه العبودية؟ لماذا اختلفت العبودية فى الجزائر، إلى هذا الحد، عنها فى أمريكا؟ لقد تغير تعريف الرق فى الغرب منذ القرن الخامس، عندما تم تكبيل الكاتب

الإسباني ميغويل دى سيرفانتيس سافيدرا وغيره إلى المجاديف فى الغليونات الجزائرية.
لم تكن العبودية فى القرن الخامس عشر تعنى فقدان الحرية. فقلة من الناس فى القرن الخامس عشر هم الذين كانت عندهم حرية يمكن أن يفقدوها. وبدلاً من ذلك كانت العبودية طريقة لإدماج الغرباء الذين لا نسب لهم بالمجتمع. ربما أسر هؤلاء الغرباء فى حرب، أو شردتهم الحرب فى وطنهم، وربما خالفوا قانون المدونة القانونية لمجتمعهم وفقدوا بذلك حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى هذا المجتمع. وقد كان إجبار المجرمين أو الكفار أو الأسرى من الأعداء على العمل أكثر إنسانية (وقد كانت إسبانيا والعالم المسلم فى حالة حرب عندما استعبدوا سير فانتيس) من قتلهم. وقد أعطت العبودية، باعتبارها وضعًا مؤقتًا هؤلاء الغرباء، الذين لا نسب لهم، مكانًا فى المجتمع فى حين كان قدرهم الدائم يتحدد إما بما تفعله عائلاتهم وحكوماتهم أو باختيارهم الإسلام[1].

وقد استمسكت الجزائر وغيرها من الدول المسلمة بهذه الفكرة عن العبودية، فى حين اتخذت العبودية فى العالم الجديد معنى مختلفًا، بشكل جذرى. لقد أقام العرب والإيطاليون والإسبان مزارع السكر فى المتوسط، مستخدمين العمل الإجبارى الذى أداه الأسرى السياسيون. المراكشيون واليونانيون والجركس والقوقازيون. ووجدت دول شمال إفريقيا مصدراً آخر للأسرى فى معاملاتها مع الدول المسلمة فى سونغاى ومالى، التى كانت تستعبد الكفار مع مجتمعات الغابة جنوبى الصحراء. وأصبحت تيمبكتو بالنسبة لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب سوقًا للذهب وللعبيد معًا، بحلول القرن الرابع عشر. وفى ١٤٣٣ حاصر البرتغاليون رأس بوجادور وسقطت تيمبكتو فى أيدى الطوارق. وفى اللحظة التى انقطعت فيها تجارة القوافل فى إفريقيا المسلمة، كان الأوروبيين المسيحيون فى وضع يسمح لهم بافتتاح مراكزهم التجارية على الساحل الإفريقى. ووجدت البرتغال طريقًا للالتفاف على احتكار المسلمين لتجارة العبيد الأفارقة، كما وجدت طريقًا إلى الجزر الأطلسية - ماديرا والرأس الأخضر، التى كانت مناسبة لإنتاج السكر. وبعد عشرين عاماً من عبور البرتغاليين لرأس بوجادور، انتزع العثمانيون القسطنطينية من المسيحيين، قاطعين طريق الوصول إلى تجارة العبيد فى البحر الأسود.

كل هذه المناورات المعقدة والأحداث التى تبدو وكأن لا رابط بينها، فى القرن الذى سبق إبحار كولومبس باتجاه الغرب، غيرت طبيعة الرحلة التى كان سيقوم بها والأرض التى سيعثر عليها. وحتى١٤٩٠ كانت جزائر ماديرا وساوباولو البرتغالية جزر سكر، تمامًا كما كانت صقلية ومايوركا، كما سوف تصبح كوبا وباربادوسا، بالضبط. ولكن اقتصادات المزارع هذه كانت لديها مصادر عمالة مختلفة: كلهم استخدموا العبيد، لكن العبيد فى المتوسط كان معظمهم غنائم الحرب والفتوحات الذين فرض عليهم المنتصرون العمل، فى حين أن عبيد الأطلسى والكاريبى كانوا ممن أسروا ثم باعهم آسروهم للأوروبيين.

ونقل البرتغاليون هذا النظام العبودى إلى مستعمرتهم فى البرازيل، وعندما أفزع الإسبان الموت والخراب الذى جلبوه على أهل العالم الجديد، اتجهوا هم أيضًا إلى إفريقيا، باعتبارها مصدرًا للعبيد. وقد كان على الإنكليز والهولنديين الذين تبعوا البرتغاليين إلى ساحل إفريقيا وتبعوا الإسبان إلى الأمريكتين أن يصلوا بنظام التجارة فى العبيد فى إفريقيا وبيع العبيد للمزارعين الأمريكيين إلى درجة الكمال.

وبحلول العام ١٨٠٠ كانت العبودية لا تزال تعنى الأسر فى العالم المسلم، وكانت لا تزال وسيلة لإدماج الذين لا نسب لهم فى المجتمع. وكان بوسع هؤلاء الأسرى المسيحيين أن يصبحوا أحرارًا عندما يقبلون بالإسلام دينًا: كانت عبوديتهم محطة على الطريق بين الوثنية والإيمان. ولكن بحلول العام ١٨٠٠ كانت العبودية فى الأمريكتين تعنى عبودية تبقى طوال العمر وتورث. أما العبد فبدلاً من أن يبقى تحوله إلى الإسلام وعضويته فى المجتمع أمرًا واردًا، فقد كان فى أمريكا قطعة أثاث، شيئًا مملوكًا ليست له، بتعبير كبير القضاة الأمريكى، "أية حقوق تلزم الرجل الأبيض باحترامها". وقد كان الأسرى الأمريكيون يعلمون ما كان عليه العبيد فى أمريكا ويعلمون أنهم يرفضون العبودية.

وعندما كتب هؤلاء الأسرى إلى بنى وطنهم عن عبوديتهم، فقد فهم الأمريكيون مقصدهم على نحو يختلف عن فهم الجزائريين أو المراكشيين الذين استعبدوهم لهذا المقصد.

فقد اتبع الأسرى الأمريكيون الذين كتبوا ما جرى لهم فى الأسر نموذجًا كان مستقرًا، بالفعل، فى الأدب الأمريكى، وهو نموذج أسسه التطهريون الذى أسرهم الهنود فى القرن السابع عشر. ولم يكن المقصود بتلك القصص، التى كتب معظمها فى أعقاب حرب الملك فيليب فى سبعينيات القرن السابع عشر، أن تخبر "القراء" بما كان عليه الألغونكوين أو الإيروكوا، بل أن تخبر "القراء الأمريكيين" (علامات التنصيص من عندى لتوضيح المغزى - المترجم) بما كانوا عليه. فهؤلاء الأسرى التطهريون نجوا من أمرين، من عذاب الأسر عند الهنود و - فى حالات كثيرة - من الغواية الأسوأ كثيرًا بأن يخلصوا أنفسهم بالانضمام إلى الفرنسيين الكاثوليك وهم الحلفاء المتعالون للهنود. فالأسرى الذين تم تخليصهم تحدوا الموت والكاثوليكية ليعودوا إلى نيو إنغلند، وكان المقصود بهذه السرديات عن الأسر أن تقوى إيمان أبناء وطنهم. وكانت للسرديات التى أنتجها الأمريكيون الأسرى فى العالم المسلم وظيفة مماثلة. فقد ذكرت الأمريكيين بالحاجة إلى القوة والشجاعة وبالجزاء الحسن لمن يأبى التسليم. وهكذا أوصى أحد القراء فى ١٧٩٥ بأن يقرأ الآخرون تقرير دانييل سوندرز عن غرق سفينته قبالة الساحل العربى. "كم أن المعاناة مريرة والشجاعة الكريمة والمبادرة الخلاقة نبيلان. وكم هو سريع احتواء الفزع بالتعاطف "هكذا قال القارئ". هذا المركب الصعب يمضى بنا إلى مسراتنا السامية"(٢).

وقد أظهرت كل سرديات الأسر، سواء تناولت المعاناة على أيدى العرب أو الجزائريين أو الألغونكوين، المركب الصعب وانتهت بلمحة إلى المسرات السامية. وختم القارئ الذى استعرض ذلك العمل بقوله "نحن نشاهد العذاب. لكننا نتعلم كيف تكون الراحة (منه). نشفق على المعذب، لكننا نصمم على (محاكاة) المحسن"(٣). وكان القصد من هذه القصص تعليم الأمريكيين على أرض الوطن التصرف على نحو معين، بالمقابلة بين غلظة الجزائريين والعرب وإحسان الأفراد الذين بادروا لإنهاء معاناة الأسرى الأمريكيين. وأثبت الأسرى أنفسهم ما يتحلون به من فضائل فى أشد الظروف قسوة. والمركب الصعب الذى اتخذه الأمريكيون قادهم وقاد أبناء بلدهم الباقين على أرض الوطن إلى المسرات السامية فى الحياة.

لكن الأسرى لم يكونوا أدوات بلاغية أو موضوعات أدبية. كانوا بشراً حقيقيين وكانت خبراتهم، بغض النظر عن نوعية الاستخدامات التى آلت إليها لدى جمهور القراء والكتاب، خبرات حقيقية. لقد أُسرت خمس وثلاثون سفينة أمريكية، على وجه التقريب، وفوقها ما يزيد على ٧٠٠ بحار، فى الفترة من ١٧٨٥ و١٨١٥ بأيدى دول البربر. وقد أُسرت السفن وبحارتها فى البحر وعوملوا باعتبارهم رهائن سياسيين. وكان خاطفوهم يأملون أن يعيدوا الرجال والسفن، مقابل المال، إلى إصدقائهم أو إلى حكوماتهم. وقد أسرت الجزائر اثنتين وعشرين سفينة، وأسرت طرابلس الغرب ستًا، ومراكش خمسًا، وتونس اثنتين[٤]. أسرت دول البربر السفن لأسباب سياسية أو دبلوماسية. فى ١٧٧٨ اعترف الإمبراطور مولاى محمد باستقلال أمريكا، جاعلاً مراكش الدولة الثانية بعد فرنسا فى القبول بالولايات المتحدة دولة مستقلة. وأعرب مولاى محمد عن اهتمامه بعقد معاهدة مع الدولة الجديدة، ووعد بأنه لن يحمى السفن الأمريكية من هجمات طراداته فحسب، بل وسيرحب بها فى الموانئ المراكشية. وتباطأ الأمريكيون فى التجاوب مع بوادر حسن النية هذه، وبحلول ١٧٨٥ كان مولاى محمد قد مل الانتظار. وأمر طرادا مراكشيا بأسر سفينة أمريكية والإبقاء عليها رهينة حتى تبعث إليه الولايات المتحدة بسفير. وأصبحت السفينة التجارية بيتسى رهينة لضمان التفاوض حول معاهدة، وقد أطلق مولاى محمد سراح السفينة وطاقمها عندما وعدت الولايات المتحدة بإرسال من يفاوضه. وأبلغ الطاقم المسؤولين بأن خاطفيهم أحسنوا معاملتهم. ويمكن القول إن الإمبراطور هو الذى استخرج السفينة الغارقة الفيرجينية جيمس ميرسييه التى كان البدو قد أسروها[٥].

وقد كان أسر ميرسييه مختلفًا عن التجربة التى مر بها المسجونون السياسيون فى الجزائر أو تونس أو مراكش. كان هو أتعس حظا. فقد غرقت سفينته قبالة سواحل الصحراوى جنوبى مراكش. وقد غرقت سفن أمريكية أخرى قبالة سواحل جزيرة العرب أو موريتانيا، ومن نجا من الدمار والأمواج كان موته، فى الغالب، محتومًا بسبب العطش. وإذا نجوا، كما جرى للقلة ومنهم ميرسييه، فإن ذلك كان يرجع إلى عثور القبائل الصحراوية عليهم، فتسلبهم ملابسهم وأشياءهم الثمينة، وكان الأرجح أن

تحتفظ بهم عبيداً أو أن تبيعهم. فى تلك الحالات لم يكن الرجال أسرى سياسيين بل عبيداً بالفعل للناس الذين وجدوهم، وإن كانوا شاركوا سادتهم حياة المساواة البدوية الفظة المختلفة، تمام الاختلاف، عن حياة العبد الأمريكى. وبعضهم، كمرسييه مثلاً، قد يجد طريقه إلى أرض يحكمها عاهل محسن مثل مولاى محمد، الذى يطلق سراحه لأغراض سياسية تخصه. وقلة من الآخرين، مثل جيمس رايلى، الذى غرقت سفينته كوميرس قبالة ساحل مراكش فى١٨١٥، تمكن من إقناع آسريه بأخذه إلى مدينة ساحلية بوعد أن يفتديه قنصل أوروبى بمبلغ كبير(٦).

كانت هذه، إذن، خبرات الأسرى. كان بعضهم أسرى حرب وبعضهم رهائن سياسيين. لكنهم جميعًا وصفوا تجربتهم باعتبارها عبودية. فقد كتب جون فوس لأمه من الجزائر قائلاً "أنا عبد لدى المحمديين". وأبلغ كابتن جيمس تايلور الذى كان هو الآخر أسيراً فى الجزائر ملاك سفينته بأنها فقدت لكن "ما أنا واثق بأنه الأسوأ بالنسبة لمشاعركم" أنه هو والطاقم كانوا محبوسين فى "عبودية قاسية". وقد نشر مجهول من نيو إنغلند التماسًا باسم الأمريكيين فى الجزائر، يدعو فيه الأمريكيين فى أرض الوطن إلى إنقاذ "إخوتهم المواطنين المقيدين بالأغلال فى سفن ماهوميت الزائف" وقد كانت صورتا عبيد السفن ومحمد باعتباره "زائفًا" عنصرين أساسيين فى تصور الأمريكيين للعالم المسلم، ولم تكن للواقع علاقة بهذا التصور. وفى قصيدة من عام ١٧٩٥ بعنوان "أسير أمريكى فى الجزائر" يكدح الأسير الأمريكى ويموت وهو مقيد إلى مجداف سفينة(٧).

وقد تجاوز استخدام الصور غير المتسقة مع حاضرها التاريخى واستخدام كلمة "عبودية" مجرد كونه غلوا أو محاولة لجعل الحال تبدو أسوأ. فقد أسمى الأسرى أنفسهم عبيداً حتى عندما كانوا يقرون بأن معاملتهم لم تكن سيئة. فالعبودية لم تعن، بالضرورة، المعاملة الفظة. وقد كتب وليم نايت الذى أسر فى طرابلس الغرب فى ١٨٠٣ إلى ذويه فى أرض الوطن أنه عومل "بأحسن كثيراً مما توقع"، لكنه وقع رسالته باعتباره "عبد باشا طرابلس الغرب". ويبدو أن وليم راى من مشاة البحرية، الذى أسر فى

طرابلس الغرب، قضى معظم وقته فى الأسر يكتب الشعر، لكنه وضع عنوانًا لمذكراته عن هذه التجربة هو "فظائع العبودية"[٨].

ربما كان هؤلاء الرجال مدركين أو غير مدركين لاختلاف معنى العبودية فى أمريكا عنها فى إفريقيا. ما عرفوه كان أن العبودية، فى أى شكل كانت، ليست لهم. لم يكن سيئًا أن تكون عبداً لأنك تعامل بفظاظة. بل بالنسبة لهؤلاء الأمريكيين كانت العبودية خطأ لأنها تحرمهم من حريتهم. وبالنسبة للأمريكيين أصبحت الحرية، وليس الانتماء، نقيض العبودية. وقد زودت رواية لورانس ستيرن "رحلة عاطفية عبر فرنسا وإيطاليا" التى نشرت لأول مرة ١٧٦٨ هذا الجيل من الأمريكيين بالتعريف الأقوى للعبودية. "اتخذت ما شئت من الأقنعة، ما زلت أنت العبودية! قلت أنا – ما زلت شرابًا مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". وتبرز هذه العبارة، المرة تلو المرة، فى الأدب الذى تولد عن الأسر الجزائرى، فقد اقتبسها دافيد همريز ووليم إيتون ورجل الإحسان المجهول الذى سنناقش موضوعه فى الفصل التالى.

فقد وضع بطل ستيرن لنفسه خطة متفائلة للهرب من متاعبه بأن يسجن بسبب الدين فى الباستيل، الذى يقول لنفسه إنه مجرد برج، أى مجرد منزل لا تستطيع أن تغادره. ومع قلم وأوراق وقدرة على الصبر يكون بوسع المرء أن يقضى شهراً أو ستة أسابيع فى منزل كهذا. لكنه سرعان ما يغير رأيه عندما يسمع طائر زرزور فى قفص يصرخ "لا أستطيع الخروج – لا أستطيع الخروج" وهو يحاول أن يندفع عبر الأسلاك ليخرج منها. هذا الزرزور، برغبته العارمة فى الحرية، يلقن الآخرين درسًا فى معنى الأسر وقيمة الحرية. ويحاول المؤلف، بعد أن علمه الطائر، أن يكتب عن "ملايين من إخوتى فى الإنسانية الذين ولدوا وليس لهم ميراث سوى العبودية" لكن هذه الأرقام بذاتها تحبطه فيكتب تقريراً محزنًا عن أسير واحد، يذوى جسده ويدمى قلبه من "الأمل المرجأ". العبودية ليست خطأ لأنها قاسية، ولكن لأنها حالة غير طبيعية تنكر على

الإنسان حريته. ومهما كان القناع الذى تتخفى وراءه، وسواء كانت تعنى تكبيل العمالة بالقيود فى مزرعة بالهند الغربية أو الحياة فى قفص من ذهب، فالعبيد شراب مر للرجال الأحرار[٩].

وقد اعتنق الأمريكيون الذين أسروا فى الجزائر فى ١٧٨٥ هذا المفهوم للعبودية. فأولئك الذين أجبروا على العمل فى حديقة الداى، عبيداً للداى، بالفعل، كانوا يشكون من أن أربعة عشر رجلاً كانوا مكلفين بعمل يكفى لإنجازه أربعة رجال، قائلين "لم يكن لدينا عمل كثير" وكانوا يقاسون من الملل أكثر من أى شىء آخر. والقباطنة الأمريكيون الثلاثة الذين وقعوا فى الأسر – ريتشارد أوبرايا، وأيزاك ستيفنز، وزاكاريا كوفن – كانوا تحت حماية القنصل البريطانى. وقد اكتشفوا أن القنصل يتظاهر بالصداقة معهم، وأنه أخذهم تحت حمايته لمجرد إذلالهم. وكان وضع الرجال الذين كلفوا بالعمل فى حديقة الداى أسعد حظا من هؤلاء الر جال، الذين كان القنصل البريطانى يكوم فوق رؤوسهم "كل مهانة يمكن أن تتفتق عنها الطبيعة البشرية ليجعل وضعهم مذلاً، إلى أقصى درجة". وقد صدم أحد الأسرى لدى الداى عندما وجد قادته يمارسون الأعمال الشاقة فى حديقة القنصل، أحدهم يزرع شجرة، والآخر يسقى الخنازير، والثالث يسوق بغلاً يحمل سمادا عضويا. وكان الأكثر إيذاء لكرامة هؤلاء الرجال أن القنصل أقام حفل عشاء لقباطنه وضباط سفن بريطانية وكلف الأمريكيين بخدمة الموائد.

ورغم أن القنصل البريطانى أذل القباطنة الثلاثة، ورغم أن الأسير الذى كان فى قصر الداى والذى صدم لحالتهم رأى أنهم عانوا أكثر مما عانى، فقد كانوا، فى الحقيقة أفضل حالاً من البحارة العاديين، وكانوا يدركون ذلك. وبالنهاية، فإن السفير الإسبانى الذى كانت تحدوه الرغبة لمجاملة الأمريكيين أجر منزلاً من أجل القباطنة الثلاثة. وقد كان على البحارة العاديين أن ينهضوا بقدر أكبر من العمل البدنى كما كانت أمامهم مغريات أكثر ليقطعوا صلتهم ببلادهم البعيدة ويعيشوا حياة أفضل فى الجزائر.

لقد لفت جيمس ليندر كاثكارت، أحد البحارة الذين عملوا فى حديقة الداى، انتباه حسن وزير البحرية. وأتاح ذلك لكاثكارت فرصًا تمكن من استغلالها. فبرعاية حسن اشترى كاثكارت حانات روت ظمأ العبيد المسيحيين، ثم وصل به الأمر أنه امتلك عدة سفن تجارية صغيرة. وتحسن مركزه، بشكل كبير، فى١٧٩٣ عندما أصبح حسن الداى وأصبح حسن كبير الأمناء المسيحيين لكل مراسلات الجزائر مع الأمم المسيحية. ورغم أن كاثكارت لم يتخل عن مسيحيته، قط، ليعتنق الإسلام، فإن سنوات خدمته لداى الجزائر لونت شخصيته. وبعد سنوات، عندما أصبح كاثكارت القنصل الأمريكى فى طرابلس الغرب وأوبرايان القنصل الأمريكى العام فى الجزائر، قارن وليم إيتون بين شخصيتهما. قال إيتون إن أوبرايان كان أسيراً، لكنه لم يكن عبداً، قط". ولسوء حظ كاثكارت فإن خدمته للداى، وفقًا لما كتبه إيتون، جعلته يخاف كل ذى سلطان، بخاصة الطغاة ذوى السلطان المطلق فى دول البربر، حتى إنه كان يرتعد "عندما يقطبون كما تقلص تحت ضربات سياطهم". إن كاثكارت "لم يكن تهزه طلقات المدافع المرعدة من سفينة حربية"، لكنه كان "يرتجف لإيماءة من رأس معممة – ذلك هو تأثير العادة، وبوسعى أن أقول التعليم"[(١١)].

ورغم أن كاثكارت لم يتخل عن صفته باعتباره أمريكيا، فقد عمل مع الداى، ما جعله أقل أمريكية – وبعبارة إيتون، أكثر عبودية. وكان إيتون يتفهم أسباب ذلك عند كاثكارت: لم يكن عمره تجاوز السابعة عشرة عندما وقع فى الأسر فى ١٧٨٥، وكان خاضعًا لإمرة الآخرين، معظم حياته. فبعد سنوات الطفولة القليلة فى أيرلندا عمل خادم كابينة وملاح عادى على سفن تجارية، ثم انضم إلى البحرية الأمريكية. وقضى عامين أسير حرب لدى البريطانيين. لم يعتد أن يتصرف أو يفكر بشكل مستقل. ورغم ذلك فقد اتخذ القرار الخطأ، برأى إيتون عندما اختار خدمة الداى. وفى عام ١٨٠٣ عندما أسرت طرابلس الغرب ٣٠٠ بحار أمريكى، كتب إليهم إدوارد بريبل القائد الأمريكى لأسطول المتوسط يذكرهم بأن "رغم أن ظروف الحرب جعلتكم أسرى لدى باشا طرابلس الغرب، فهى لم تجعلكم عبيداً له – والأمر متروك لكم أن تكونوا عبيداً أو لا تكونوا". وهكذا فقد كان بمقدورهم أن يرفضوا أن يكونوا عبيداً، رغم أن الموقف بدا وكأنه حرمهم من كل،

اختيار. وحذر بريبل البحارة من أن أى واحد يختار بإرادته أن يعمل لدى الباشا سوف يعامل معاملة الخونة من جانب الأمريكيين. لقد كان رجال بريبل، كما كان أوبرايان، أسرى لكنهم رفضوا أن يكونوا عبيداً. وقد وافق بريبل وإيتون على أنه ما من أمريكى يمكن له أن يسمح لنفسه بالخضوع للإرادة المستبدة لشخص آخر[١٢].

ورغم أن إيتون وبريبل كانا يدركان أن الأمريكيين قد يرغمون على خدمة آسريهم فإن ذلك اختلف عن الخضوع للإرادة المستبدة لآسريهم. فالعبودية والحرية مفهومان ذهنيان أكثر مما هما حالتان ماديتان. ولم يكن الأسر يتحول إلى عبودية إلا عندما يستسلم له الأسير. فالعبودية لم تكن حياة التعب، ولا كانت الحرية حياة الراحة، بل على الأحرى فقد تحددت العبودية والحرية وفقاً لموقف الإنسان من العمل والراحة.

فلم يكن الأمريكيون النزاعون إلى الاستقلال ليوطنوا أنفسهم على الأسر بأكثر مما كان عصفور لورانس ستيرن يستطيع أن يوطن نفسه على القبول بالقفص. وعندما جُنَّ جيمس هارنيت وهو فى الجزائر وصف أوبرايان ذلك بأنه "تناقض حاد نشأ عن النزعة الأمريكية إلى الاستقلال" مشيراً إلى أن هارنيت فقد عقله تحت ضغط نشأ عن كونه أمريكى وأسير، فى آن معاً، وهو ما يعنى أنه حر وخاضع لإرادة غيره، فى آن معاً[١٣].

وقد عومل البحارة العاديون معاملة مختلفة عما عومل به الضابط سواء من قبل الملكيات التى أسرتهم أو حكومتهم الوطنية. فقد أجبر البحارة على العمل، ولم يحدث هذا مع الضباط. وقد تلقى الأسرى الأمريكيون فى الجزائر راتبا شهريا من حكومتهم الوطنية، مع هدايا بين الحين والحين من القناصل الإسبان والسويدين والهولنديين. وكان القبطان يحصل على ثمانية دولارات شهريا، والضابط على ٦ دولارات، والبحار على ثلاثة دورات ونصف دولار. وعندما عاد القباطنة إلى أرض الوطن وجدوا أن التبرعات اتخذت هى الأخرى هذه البنية التراتبية. وقد تم الاحتفاظ بمبلغ ٢٨ر٨٨٧ دولار جمعها مسرح بوسطن للأسرى فى ١٧٩٥ أمانة لصالحهم فى يونيون بانك. وعندما عاد ٢٤ أسيراً عادوا إلى نيو إنغلند فى ١٧٩٧، وزعت عليهم الأموال بواقع ثلاثين دولاراً للبحار

و٣٥ دولاراً للضابط و٥٠ دولاراً للقبطان، باستثناء أيزاك ستيفنز، الأرفع مكانة بينهم، والذى تلقى ٦٥ دولاراً[١٤].

وفى طرابلس الغرب أبقى الباشا يوسف على الضباط فى قصره، فيما وضع البحارة فى عديد من الأبنية الخالية فى المدينة، وكان أحدها مخبزاً. لكن الكابتن وليم بينبريدج من السفينة فيلادلفيا كان يرى البحارة مرتاحين أكثر من الضباط، وتمنى ضابط واحد، على الأقل، لو أنه كان مع الجنود يشتغل، مثلهم، بالعمل الشاق. ورغم أن الضباط عوملوا معاملة أفضل "أكثر مما هو متوقع، منطقيا، من أحد أمراء البربر"، فقد كان الأفضل لهم لو أنهم مع البحارة "فى العمل الشاق" لأن ذلك كان يتيح "الإحساس بالهواء المنعش، الذى هو من أساسيات الطبيعة البشرية".

وقد كتب القنصل البريطانى فى طرابلس الغرب يقول إن البحارة كان لهم رأى آخر. وقال إن البحارة الأمريكيين الذين لقيهم فى الشارع "اشتكوا مر الشكوى من مصاعب العيش ومشقة العمل"، وأخيراً حصل الضباط على امتياز الهواء المنعش من دون مشقة العمل عندما سمح لهم الباشا بالتنزه فى الريف "مرتين أو ثلاثًا، فى الأسبوع". ورغم ذلك فقد شكا ضابط أمريكى من أن حديقة الزهور التى تخص الباشا "ليست منسقة بشكل ينم عن أى ذوق، والأزهار فيها هى من الأصناف الأكثر شيوعاً" رغم أنه اعتبر حديقة البرتغال الخاصة بالباشا "مبهجة لدرجة تفوق الخيال" وكتب لأصدقائه فى أرض الوطن يقول "نسترخى ساعتين أو ثلاثًا فى ظل شجرات البرتغال، مستمتعين بالهواء المفرح العليل وآكلين ألذ الفواكة". ولا شك أن هذا أسر من نوع خاص[١٥].

وقد نعم جوناثان كودرى الضابط الطبيب على السفينة فيلادلفيا بدرجة مدهشة من الحرية فى طرابلس الغرب، وأصبحت له علاقة حميمة مع عائلة الباشا، يلعب الشطرنج مع ولى العهد، ويزور ضيعة أمير البحر مراد الريس، فى الريف، ويتعشى مع الأسرة المالكة. وذات يوم من أيام يناير كان كودرى يرتاح بين الأزهار وشجرات الموالح فى الضيعة الريفية للباشا، مع الأمير ورئيس الوزراء. وعاد إلى المدينة بعد هبوط الظلام، ليكتب فى يومياته، بعد تقرير عن اليوم الذى قضاه فى الريف "جون هيليارد

مات فى المساء". كان هيليارد بحارا عاديا، ذهب كودرى إليه ليعالجه، ولكن كان فات أوان إنقاذ حياته. وكتب جندى مشاة البحرية وليم راى مرثية لرفيقة هيليارد حين مات. وبعد سنوات، انفجر راى غاضباً عندما قرأ التعليق "المقتضب" الذى كتبه الطبيب بعد أن نشر يومياته: لو أن الدكتور كودرى أظهر من الاهتمام "بالبحار الذى كان يذوى فى زنزانة موحشة" بما يماثل اهتمامه بحديقة الزهور الخاصة بالأمير، لكان جون هيليارد حيا الآن. وعندما نشر راى ديوان أشعاره، وضع تعليق كودرى الموجز - "جون هيليارد مات فى المساء" - فوق مرثيته لهيليارد(١٦).

عاش الجنود والضباط حيوات جد مختلفة فى الأسر. ففى مايو ١٨٠٤ نشرت الصحف الأمريكية رسالة من ضابط أسير فى طرابلس الغرب. وتصف الرسالة كيف بعث يوسف قرامانلى إليه بالضباط بعد أن سمع أن أسرى الحرب الطرابلسيين فى أمريكا يعاملون معاملة سيئة. وليقابل الإساءة بالإساءة طرد قرامانلى الضباط من قصره. وسيق الضباط عبر الشوارع المكتظة بجماهير غلبها الفضول وحرصت على أن تلقى نظرة على الأمريكيين الغرائبيين (EXOTIC هذه هى الصفة الأساسية فى الإنسان الشرقى كما يراه أهل الغرب ووصف الأمريكيين بهذه الصفة يعنى أن الكاتب يراهم هنا بعين الليبيين، موحياً للقارئ بأن الغرائبية ليست صفة أصيلة فى أحد - المترجم)، وأخذوا إلى سرداب "أسود موحش أجدر به أن يكون مقر العفاريت من أن يكون مسكن البشر الفانين". لقد قصد الضابط التأثير فى قارئ رسالته. وربما كان يردد، عن قصد، أصداء قصة من قصص الرعب وهو يصف أن "الشمس ذهبت نوافذ سجننا" عندما كان الرجال ينهضون من فوق أسرتهم الحجرية "وكيف أنهم سيقوا وسط دهماء" فاغرة أفواهها أخرجها "الفضول أو الأمل فى النهب" ليروا الضباط الأمريكيين. ووصفه للسجن ذاته يبدو مأخوذاً من رواية رعب، مباشرة: جدرانه كانت "كاملة السوداء وتقطر منها رطوبة ممرضة، والسقف المقوس تتدلى منه العناكب"، كانت الأرضية غير مستوية وتزحف فيها الديدان، والضوء الوحيد يأتى من كوة صغيرة فى السقف "وقد ساعد هذا البصيص الواهن على جعل العتمة مرئية". وعندما اعتادت عينا الضابط العتمة المرئية أخذ يفكر بالنهر ستايكس، النهر الجرافى الذى يفصل بين الأحياء والموتى.

وتبث المقطوعة بكاملها شعوراً بالرعب وباليأس. ولكن البطل، وفقًا لأفضل الأعراف الروائية، ينجو من مقر العفاريت: يلين الباشا يوسف فى النهاية، ربما بعد أن لقن الأسرى درسًا، ويعيدهم جميعًا إلى قصره. ويرتاح القارئ بقدر ما ارتاح الضباط بإفلاتهم من السجن. لكن التأثير الكلى يتغير، عن غير قصد، عندما يذكر الضابط أن بحارة فيلادلفيا سبقوا إلى السرداب، مقر العفاريت، وبقوا فيه بعد أن سيق الضباط عائدين إلى القصر مرة أخرى(١٧).

ورغم اختلاف مراكز ومساكن الجنود والضباط، واستحالة اعتيادهم على الأسر، فإن قلة من الضباط تخلت عن وطنها وعن رفاقها لتعتنق الإسلام. فلو أنهم اعتنقوا الإسلام أو قرروا خدمة الباشا يوسف أو الداى فلربما كان أتيح لهم أن يعيشوا حياة رغدة.

وكان الكابتن برينبريدج يعتقد أنه "لم يوجد، قط، بين البشر الفانين من هو أسوأ أخلاقًا من جماعة البحارة" وصدمه أن بعض الأسرى من البحارة سرقوا ملابس لرفاقهم لشراء شراب. لكن انحطاطهم لم يبلغ درجة التبرؤ من بلدهم. ولم يتحول إلا خمسة من ٣٠٠ من بحارة فيلادلفيا فـ "أصبحوا أتراكا" (TURKS يقصد مسلمين – المترجم)، وكان وليم راى ممتنًا لأن "أول من دنس علمنا فى طرابلس الغرب بهذا الفعل لم يكن أمريكيا حقيقيا بل ألمانيًا "تعيس زنيم" خان رفاقه بالتجسس عليهم حتى قبل أن يتزيى "بزى تركى"(١٨).

وتيسر للمارقين أو المرتدين أن يعلو شأنهم فى دول البربر. وكان أهم مسؤولين فى طرابلس الغرب بعد الباشا مهاجرين، أو مارقين، تحولا إلى الإسلام. فرئيس الوزراء محمد داغيس كان روسيًا عمل سفيراً لطرابلس الغرب لدى إنكلترا وفرنسا وإسبانيا ونابولى قبل أن يصبح رئيس وزراء. أما أمير البحر مراد ريس فكان إسكتلنديا اسمه بيترل ليزل وصل، فى الحقيقة، إلى طرابلس الغرب بحاراً على السفينة بيتسى التى أسرتها طرابلس الغرب ١٧٩٦. وبقى ليزل هناك ليصبح أمير البحر الرئيسى عندهم وليتزوج واحدة من بنات يوسف قرامانلى(١٩).

ورغم أن هذا الطريق كان مفتوحاً للأمريكيين أيضاً فقلة هم الذين سلكوه. وكتب ريتشارد أوبرايان فى تقرير له أن الأسرى الذين أخذوا إلى قصر الداى فى ١٧٨٥ "كانوا يلقون التشجيع على أن يتحولوا إلى أتباع لماهوميت" لكنهم رفضوا مفضلين دفع الفدية. وأحد من تعرضوا للضغط لكى يتحولوا كان كاثكارت الأيرلندى الذى كتب عن أيرلندى آخر يدعى كول وصل إلى الجزائر فى١٧٩٣ فى الوقت الذى جيء فيه بمائة من الأسرى الأمريكيين إلى المدينة. وقد تسمى كول إبراهيم وقضى معظم وقته فى الجزائر فى ماخور يملكه أيرلندى آخر يدعى ديغنز. وربما مست قصة هذين الأيرلنديين وتراً عند كاثكارت، الذى ولد هو الآخر فى أيرلندا، وكان هو الآخر يملك الحانات فى الجزائر. وقد اعتبر كول وديغنز "أكثر الأشرار وعورة فى المملكة"، وقال إنهما موضع كراهية "من الأتراك والمغاربة واليهود والمسيحيين". فهل كان كاثكارت، وهو السكرتير المسيحى للداى ومنافس ديغنز، متورطاً فى الغارة الرسمية على الماخور وفى اعتقال هذين الأيرلنديين المارقين؟ لا شك أنه كان بين المسيحيين الذين أسعدهم أن يروا الرجلين وقد طردا من الجزائر مع تحذيرهما من العودة إلى الجزائر إذا كانا حريصين على حياتهما(٢٠).

وروى أسير أمريكى آخر قصة البحار الفرنسى الذى قفز من سفينته فى فبراير ١٧٩٥ وتحول إلى الإسلام "بحماس مضلل". ورغم أنه كوفئ بسخاء على تخليه عن دينه، فإن ضميره أرقه. ونم "الوجه المربد والهيئة المضطربة والطابع الحزين" لهذا المارق عن شعور "بالندم.. يأكل فؤاده". وقد كان قراره مصدر عذابه، فقضى ليالى أرق كثيرة يحاول فيها أن يجد مخرجاً. وعندما جاءت سفينة بريطانية إلى الميناء حاول هذا المواطن السابق فى الجمهورية الفرنسية أن يهرب بها، بأمل أن يجد تحت الراية البريطانية الأمن الذى لم يجده تحت الهلال. وقد ضبط وقطع رأسه فى ٢ يوليو ١٧٩٥، وهى نهاية اعتبرها الأسير الأمريكى مناسبة لـ"تعيس" استبدل "الدين الحقيقى بديانة ماهوميت". فما هى الأهمية التى تنطوى عليها هذه القصة التى طبعت فى فترة شهدت ما يشبه الحرب بين الولايات المتحدة وفرنسا؟ وما مغزى أن المارق الذى لا يقر له قرار على دين أو على بلد ينتمى له تقرر مصيره من قبل آخرين يوم ٢يوليو، ذكرى اليوم

الذى اختار فيه الأمريكيون الاستقلال؟ تظهر هذه القصة الموجزة فى الطبعة الثانية لسردية فوس - ولا ذكر لها فى الطبعة الأولى. وقد تكون القصة عنصر تجميل تحريرى لهذه السردية عن الأسرى الأمريكيين، بالإشارة إلى الفارق بين الأسرى الأمريكيين الذين يبقون على ولائهم لبلادهم وبين الفرنسيين الذين لا عقيدة لهم. وسواء كان هذا الفرنسى خياليا أو حقيقيا فإنه كان ينتمى إلى أمة تحارب سلطة مسيحية. لقد هرب ليحتمى بالهلال، فى البداية، ثم بحث عن الحماية تحت الراية البريطانية. ولم يجد الحماية فى أحدهما من ضميره الشخصى(٢١).

وربما تكون هذه الشحنة الأيديولوجية والسياسية بكاملها أكثر مما تحتمل هذه القصة البسيطة. وقد تكون الحقيقة الوحيدة المهمة هى أن البحار كان فرنسيا وليس أمريكيا. فالأمريكيون لا يتنكرون لوطنهم أو لدينهم، وإذا فعلوا، أو إذا كتب أمريكيون آخرون عن "تحولهم إلى أتراك" فإن الظروف تكون استثنائية، وغالبًا ما يكون اللوم على أمة أخرى. وقد علم موردكاى مانيول نوا القنصل الأمريكى فى تونس فى١٨١٣ بأن بحارا أمريكيا يدعى ووكر اضطر للعمل فى البحرية البريطانية فى١٨١٠. وكانت لووكر زوجة وأطفال فى بالتيمور لكن "القسوة المنظمة" التى تعرض لها من قبل الضباط البريطانيين جعلته ينسى وطنه وأسرته فى أمريكا. وعندما توقفت به السفينة فى الجزائر هرب منها ووكر متخليًا "عن وطنه وأسرته ودينه" طالبًا اللجوء "وسط قطيع من البرابرة". أجبرت القسوة البريطانية هذا الرجل أن يتبرأ من أمريكا ويعيش فى الجزائر(٢٢).

وقد كانت لخيانة الضمير تبعات شديدة. ورغم أنه كان من السهل اعتناق الإسلام فقد كان من الصعب أن يغير الإنسان أفكاره. وقد تذكر وليم راى نهاية الحرب الطرابلسية، بعد أن اتفق يوسف قرامانلى والأمريكيون على معاهدة سلام. فقد استدعى إلى القصر خمسة أسرى أمريكيين ممن خانوا العلم الوطنى. وسألهم الباشا إن كانوا يريدون أن يبقوا فى طرابلس الغرب أو أن يعودوا إلى أمريكا مع رفاقهم السابقين. وقرر واحد فقط، وهو جون ويلسون الألمانى الذى كان أول من "تحول إلى التركية" أن يبقى. وكان الباقون قد ملوا طرابلس الغرب ويريدون العودة لوطنهم. لكنهم لم يرجعوا.

ويتذكر راى ملامح الرعب على وجوه الرجال الأربعة عندما ساقوهم تحت الحراسة إلى خارج المدينة، ولم يشاهد أى منهم بعد ذلك، قط[٢٣].

كانت التبعات شديدة، لكن الأمريكيون الذين عانوها كانوا قلة. وقد بقى البحارة الأمريكيون مخلصين لبلادهم، تحت وطأة الظروف الأشد قسوة، حتى عندما بدا أن الأمة تتخلى عنهم. كتب كاثكارت "يا أمريكا هل بوسعك أن ترين الحال التعيسة لمواطنيك فى الأسر، أولئك الذين بذلوا الدم ليضمنوا لك الحرية التى تتمتعين بها الآن؟ وقد اعتبر كاثكارت أسره مأساة حقيقية، فهو والأسرى الآخرون ساعدوا أمريكا فى نيل استقلالها، وهذا الاستقلال جعل السفن الأمريكية مكشوفة أمام الهجمات الجزائرية. وفيما كان الأمريكيون، على أرض الوطن، يتمتعون بمنافع الاستقلال، فإن كاثكارت والرجال الآخرون الذين ساعدوا على تحقيق الاستقلال "بقوا" ضحايا للسلطة المتعسفة والاستبداد البربرى".

وأحزن كاثكارت، على نحو خاص، أنه فيما كان هو وأمريكيون آخرون "منفيين تعساء من البلد الذى حاربنا من أجله" ففى الولايات المتحدة "أصبح حتى للزنوج نصيب فى المشاورات التى تدور بينكم وحصدوا ثمار قوانينكم ونظمكم الحكيمة والمستقيمة، فيما نحن الرجال الذين ساعدوا فى كل مبادراتكم الحميدة، مستبعدون[٢٤]. لقد حارب الأمريكيون السود، هم أيضًا، من أجل الاستقلال وساعدوا فى المبادرات الحميدة الأخرى. وهذا اتجاه من المزعج أن تجده فى سردية عن الأسر. لم يشعر كاثكارت بأن أسره كان خطأ لأنه رجل يستحق الحرية، ولكن بالأحرى لأنه رجل أبيض. ورغم أن الأسرى الآخرين لم يضعوا اعتباراً للون بوضوح، كما فعل كاثكارت، فإن موضوع اللون يتخلل سرديات الأسر الأمريكية. فقد أسر الأمريكيون السود فى الجزائر وطرابلس الغرب وشبه جزيرة العرب وموريتانيا، لكن لسوء الحظ فإن أحداً منهم لم يكتب عن تجربته. إنهم يظهرون فى سرديات الآخرين وفى الروايات الخيالية عن الأسر. ورغم أن الأسرى من كل الجنسيات ممن أبحروا على سفن أمريكية – من ألمان وأيرلنديين وإنكليز وأمريكيين – وجدوا عنصراً مشتركًا بينهم باعتبارهم أسرى فى الجزائر فإن

هذه المشاركة لم تجتز حاجز اللون. فالخلافات بين الأسرى فى الرتبة أو فى المكان الذى وقع فيه الأسر أو فى أسباب الأسر هى غير ذات مغزى بالمقارنة إلى الاختلافات العرقية. فقد كان على الأسرى السود أن يحتملوا عبئا إضافيا تمثل فى استبعادهم من التضامن الذى نشأ بين الأسرى الآخرين، وبالتمييز فى المعاملة الذى يلقونه من زملائهم بأكثر مما يلقونه من آسريهم. وربما كان كاثكارت انفرد بالمقابلة بين معاناته هو فى الجزائر وبين الحياة الطيبة التى ينعم بها السود فى أمريكا. لكنه لم ينفرد برؤية الحاجز الذى يستحيل اجتيازه بين البيض والسود، بأكثر مما كان والد هكلبرى فن فريدا فى النظر إلى الظلم الذى يجعل الأسود أستاذاً فى الجامعة ويعطيه حق التصويت.

لم يسقط الأسر حاجز اللون حتى عندما كان يعمق لدى الأسرى الأمريكيين شعورهم بهويتهم باعتبارهم أمريكيين. وعندما غرقت السفينة كوميرس قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية فى١٧٩٢ فإن واحداً فقط من بحارتها الأربعة والثلاثين بيع كرقيق. كان ذلك جوبا هيل من بوسطن، الرجل الأسود الوحيد على متن السفينة. وقد تم فصل هيل، على الفور، عن البحارة البيض ووضع مع ١٣ بحاراً من الهند الشرقية كانوا ضمن طاقم كوميرس. وعندما استغاث هيل، "فى أسوأ لحظات التأزم"، برفاقه البيض ومواطنيه الأمريكيين لينقذوه، صدم العرب أنه يتكلم الإنكليزية وشدوا وثاقه. وظل هيل يتوسل إلى البيض أن يؤازروه، لكن البحارة البيض الذين كانوا أنفسهم يتوقعون أن يشد وثاقهم فى أى لحظة، "أو نعدم على الفور إذا أظهرنا أى مقاومة" أصموا آذانهم عن سماع استغاثات هيل طالباً للنجدة. وفيما سمعوه يتوسل ويصرخ، قرر البيض فيما بينهم "إذا قرر العرب أن يمسكوا بواحد ما فسوف ننقذه أو نموت دونه"[٢٥].

وتبين أن العرب لا يبالون بأحد من البحارة البيض. كان العرب يمارسون تجارة رقيق واسعة فى شرق إفريقيا ولم يكن العبيد البيض مجدين لتجارتهم. وبعد أن جردوا البحارة البيض من أشيائهم الثمينة، التى كان منها، برأيهم "جوبا هيل" عبدهم "تركوا البيض لمصيرهم فى الصحراء". وبعدها باع العرب هيل لعصبة من البدو لقاء

ستين قطعة من الفضة، ووفقًا لرواية واحد من البيض الناجين فقد بقى "هذا الأسود من بوسطن مع العرب، ربما كواحد من العبيد". وربما نجا، كعبد، مع آسريه البدويين، فلم ينج من البيض سوى ثمانية من العشرين(٢٦).

وفى ١٨٠٧ أوقفت سفينة تونسية سفينة تجارية أمريكية فى المتوسط وأمر القبطان التونسى جميع البحارة الأمريكيين بأن يصطفوا على ظهر السفينة. وثبت ناظريه على بحارين أمريكيين من المخلطين وطلب أن يعرف البلد الذى جاءا منه. وقال قبطانهما إنهما أمريكيان. لكن لم يكن لديه دليل سوى أنهما جاءا مع بقية الطاقم من الولايات المتحدة. وكان القبطان التونسى "يسمع أن الأمريكيين مخادعون" وقال إن الرجلين يشبهان المسلمين رغم أنهما كانا حليقى الذقن والشارب، لونهما لون المسلمين ويتظاهران، برأى القبطان التونسى، بأنهما لا يفهمان العربية. كانت الحرب دائرة بين الجزائر وتونس وكان باى تونس بحاجة إلى كل أبنائه لمحاربة الجزائريين وأخذ التونسى الأمريكيين معه. ولم يملك البحارة الأمريكيون الآخرون من الحؤول دون ذلك. وكان ذهاب الاثنين من شأنه أن يسبب نقصاً فى الطاقة البشرية اللازمة للسفينة تعين تعويضه فى آليكانتى. وخطط القبطان الأمريكى لرفع الأمر إلى عناية حكومته. ومرة أخرى، وكما حدث مع جوبا هيل فى بلاد العرب، فقد اعترض الأمريكيون العرب لكنهم لم يكونوا ليدافعوا عن أمريكى أسود(٢٧).

وكان سيبيو جاكسون رجلاً أسود من نيويورك أسره الجزائريون فى ١٧٩٣. وشأن البحارة الأمريكيون الآخرين فقد أرسلوه للعمل فى الحوض الجاف للسفن. وكتب جون فوس عن مصرع سيبيو جاكسون كمثال على قسوة الجزايرلية. مرض جاكسون، وبعد عدة أيام فى المستشفى الإسبانى، أجبره أحد المشرفين الجزايرلية على العودة إلى العمل فى حوض السفن. وعمل جاكسون بأقصى طاقته نصف ساعة لكن ذلك لم يكن مرضياً للمشرف الذى راح يضربه ليجعله يجتهد أكثر. وانهار جاكسون ومات فى أصيل ذلك اليوم(٢٩).

وقد سجل جيمس ويلسون ستيفنز يومًا أكثر سعادة، من أيام جاكسون، فى روايته "تقرير تاريخى وجغرافى عن الجزائر" وجاءت هذه الحكاية طرفة تخفف من الصورة المرسومة لقسوة الجزايرلية، ولتبين كيف يسلى الأسرى أنفسهم ويدبرون المقالب ليجعلوا حياتهم الصعبة أسهل. ذات يوم، وبعد أن انتهى "المغاربة والعبيد" من عملهم فى حوض السفن، تجمعوا حول قدر كبير من الكسكس. تدافع الرجال ليكونوا فى مقدمة الزحام حيث "أخذ أحد الأمريكيين سيبيو من كعبه وألقى به إلى القدر ليغوص فيه برأسه" وظل سيبيو يقاوم الغرق فى المرق حتى سحبه أحد المغاربة إلى خارج القدر. كان هيل "مدهونًا بالأبيض" لكن لم ينله أذى، وضحك الرجال وأخذ بعض من الكسكس إلى قصر الداى[٣٠]. مدبر هذا المقلب كان يمكن أن يلقى فى القدر بأى رجل واقف أمامه – وربما لم يكن لهذا المقلب أى مغزى عنصرى. وربما لعب الأسرى مثل هذه الألاعيب، بعضهم ضد بعض، بشكل متكرر تخفيضًا للملل والتأزم فى حياتهم. والمقالب المسجلة فى أدبيات الأسر قليلة، وهذه الحادثة التى يحتل فيها سيبيو مركز الضحية تتناقض مع التضامن الذى يحرص عليه الأسرى البيض فى مواجهة العالم المسلم المعادى، تناقضًا واضحًا. فسيبيو يدعى "أمريكيا أسود" وليس أسيرا أمريكيا. ويلقى به إلى القدر أمريكى أبيض، ويخرجه منه مغربى. وكل الأسرى الآخرين يضحكون، ولم تقل الوثائق إن كان سيبيو شاركهم الضحك.

وكان بوسع الأسرى السود استخدام الفكاهة للتخفيف من عذابهم. هذا ما تعلمه جيمس رايلى على يدى عبد أسود اسمه بوبريك، عندما غرقت سفينة رايلى "كوميرس" قبالة موريتانيا فى ١٨١٥. فكل ليلة، بين صلاة العشاء، وحلب النياق فى منتصف الليل، وعندما كان رايلى والأمريكيون يحاولون الحصول على قسط من الراحة، كان بوبريك يسلى النساء العربيات وأسرى المعسكر باستعراض فكاهى. وقد اجتذب بوبريك "دائمًا كثيرًا من المشاهدين المعجبين بفطنته والذين تضحكهم ألاعيبه وبهلوانيته" التى كان يوجه معظمها للنيل من الأسرى الأمريكيين. وقد أظهر بوبريك للجمهور كم أن

الأمريكيين مخلوقات تثير الشفقة، بالإشارة بعصا إلى جلودهم التى احرقتها الشمس قائلاً "لا يستطيعون حتى احتمال أشعة الشمس (صورة الرب، كما يسمونها) وهى تشرق عليهم". وكان بويريك يخاطب رايلى، بخبث باعتباره "الريس" أو القبطان، ساخراً من اللقب السلطوى الذى كان يحمله هذا الذى يقف عارياً وعاجزاً كأنه ظل رجل. واستمتعت النساء العربيات اللاتى كن، فى هذا المجتمع، يماثلن بويريك أو الأسرى الأمريكيين، من حيث أنهن بلا سلطة، بـ"تهريج" الأسود، على نحو خاص وبقين "فى ضحك صاخب حتى منتصف الليل" حيث يأتى موعد حلب النياق.

وقد تفهم رايلى ما كان يفعله بويريك، لكن الأسرى الأمريكيين الآخرين لم يفهموه. وشكا جيمس كلارك إلى رايلى من أنه يكفى "أن ننحط لمرتبة العبيد عن العرب المتوحشين" وأن "نعرى وننوى ونهان" أما أن نحتمل "سخرية ومهانة من عبد أسود لـ.. ن" فهذا ما كان يفوق احتماله. وشأن كاتكارت لم يحتمل كلارك فكرة أن رجلاً أسود استوعب الظرف بأفضل منه. وطلب رايلى من كلارك أن "يترك الزنجى يضحك، إذا وجد مسرة فى ذلك، أنا مستعد لجعله يفعل ذلك، ولو على حسابى: إنه هو ذاته عبد بائس، عار ومعدم، وبعيد الأهل والأصدقاء، وهو يحاول – فقط – أن يحوز رضا سادته وسيداته، بالسخرية منا، إذ يعتبرنا أدنى مكانة بالنسبة إليه كما أنه أدنى مكانة بالنسبة لهم"(٣١).

حاول بويريك، برأى رايلى، أن يتجاوز الأزمة بجعل الحياة محتملة. وبالسخرية من الأمريكيين أسس تفوقه عليهم. وكان رايلى مستعداً، هو الآخر، للجوء لأى وسيلة تساعده على اجتياز المحنة. وقد جعله عذابه أقدر على فهم العبودية والسلطة بشكل أعمق. وسوف نفحص عذابات رايلى، على نحو أكثر اكتمالاً فى فصل تال، لقد تعلم فى أسره درساً فات كاتكارت وكلارك. فما دام الأمريكيون امتلكوا العبيد، فلم يكن بوسعهم أن يكونوا، هم أنفسهم، أحراراً.

لم يكن الأمريكيون الذين أسروا فى العالم المسلم عبيداً بالمعنى المفهوم لدى اللأمريكيين. فآسروهم المسلمون فهموا العبودية على نحو غير ذلك الذى فهمه الأمريكيون. بالنسبة للأمريكيين كانت العبودية قيدا تعسفيا دائما على الحرية. أما بالنسبة للمراكشيين أو الجزائريين أو أهل الجزيرة العربية ممن أسروا البحارة الأمريكيين، فقد كانت العبودية حالة مؤقتة يمكن للغرباء أن يخرجوا منها بفدية تعيدهم إلى أوطانهم أو بقبولهم فى المجتمع المسلم. وبالنسبة للأمريكيين مثلت العبودية العار وإنكارالآدمية: كان هذا التعريف ينطبق على الأوضاع فى أمريكا. ولم يكن بوسع البحارة الأمريكيين أن يقبلوا العبودية وأن يبقوا أمريكيين. وهكذا كان أسرهم فى العالم المسلم اختباراً لشخصية الأمريكيين الذين احتملوه.

ومن ناحية أخرى، فالدول المسلمة قبلت بالعبيد السابقين فى مراكز السلطة والنفوذ. فكل من قبل بالإسلام أصبح أخًا فى العقيدة، وبالمقابل، فإن الأمريكيين وضعوا خطا فاصلا بين من يسمح لهم بأن ينضموا لمجتمعهم السياسى ومن لا يسمح لهم بذلك. وقد بقيت وشائج الهوية الأمريكية، لأن الرجال لم يتبرؤوا من بلادهم. ولكن الأمريكيين وقد كونوا مجموعة واحدة من الوشائج السياسية فإنهم لم يفكوا الوشائج الأخرى الأكثر قوة، وشائج العرق والطبقة. بل إن الأسر قوى هذه الوشائج. فحافظ الضباط الأمريكيون على انضباط الجنود الأمريكيين ووقف البحارة الأمريكيون ينظرون فيما كان رفاقهم السود يحملون إلى أسواق الرقيق أو يضحكون عليهم حين يقذف بهم فى أوعية الكسكس.

لقد اختبر الأسر فى بلاد المسلمين شخصيات الرجال الذين احتملوه، لكنه اختبر، أيضاً، شخصية وطنهم. واجه الأسرى، باعتبارهم أفراداً، مشكلة مدى الاحتمال ومدى مسؤولياتهم تجاه إخوانهم. هل يسرقون ملابسهم ليشتروا المشروبات، كما فعل بعض بحارة فيلادلفيا، أم سينفقون كل ما لديهم من طاقة ليخلص بعضهم بعضاً من العبودية والموت؟ وعلى أرض الوطن، تعين على الأمة الأمريكية أن تسأل أى نوع من الأمم هى إذا سمحت لأبنائها بالبقاء فى الأسر، وأى نوع من الحكم أقاموا إن لم يخلص مواطنيه من الأسر فى بلاد البربر.

١ - المقابلات الأولى(*)

بدأ كابتن جون سميث، الذى أسس جيمستاون فى فيرجينيا، بعد ذلك حياته المهنية مرتزقًا يحارب الأتراك فى أوروبا الشرقية. وقد أسره العدو المسلم، ويرى هنا وهو يساق أسيراً إلى باشا نالبرتس. لكن سميث لم يقبل بأسره، فقتل آسره، وسرق حصانه وهرب. وقد تذكر سميث هذه المقابلة، فيما بعد، عندما وصل إلى فيرجينيا ووقع معاهدة مع بوهاتين.

- كابتن سميث يساق أسيراً إلى باشا نالبرتس فى بلاد التتار. الفصل ١٢ من الأسفار الحقيقية والمغامرات والملاحظات للكابتن جون سميث، فى أوروبا وآسيا والإفريق وأمريكا.. (لندن ١٦٢٩ / ريتشموند ١٨١٩) بتصريح من الجمعية الأثرية الأمريكية.



(*) الصور بين صفحتى ١٢٦ و ١٢٧ فى النسخة الإنكليزية.

- كابتن سميث يقتل باشا نالبرتس ويهرب على حصانه. الأسفار الحقيقة والمغامرات والملاحظات للكابتن جون سميث فى أوروبا وآسيا والإفريق وأمريكا.. (لندن ١٦٢٩ / ريتشموند١٨١٩) بتصريح من الجمعية الأثرية الأمريكية.



٢ - من صور السلطة



- مال الغربيون إلى رؤية العالم المسلم باعتباره مكانًا بلا قانون، حيث لا يمكن السيطرة على الطبيعة المتوحشة للإنسان إلا بحكم مطلق. ويظهر هذا الرسم بالألوان المائية من القرن التاسع عشر حاكم طربلس الغرب مسلحًا بثلاث سكاكين وبسيف يبدو، ويا للغرابة، كالثعبان. ويمكن لقدرة على التحكم بشعبه، في النهاية، أن تدمره. "سيدى حسن، باى طرابلس" (فنان مجهول، بعد١٨١٣). بتصريح من مكتبة بوسطن العامة، قسم النسخ، مجموعة هولت.

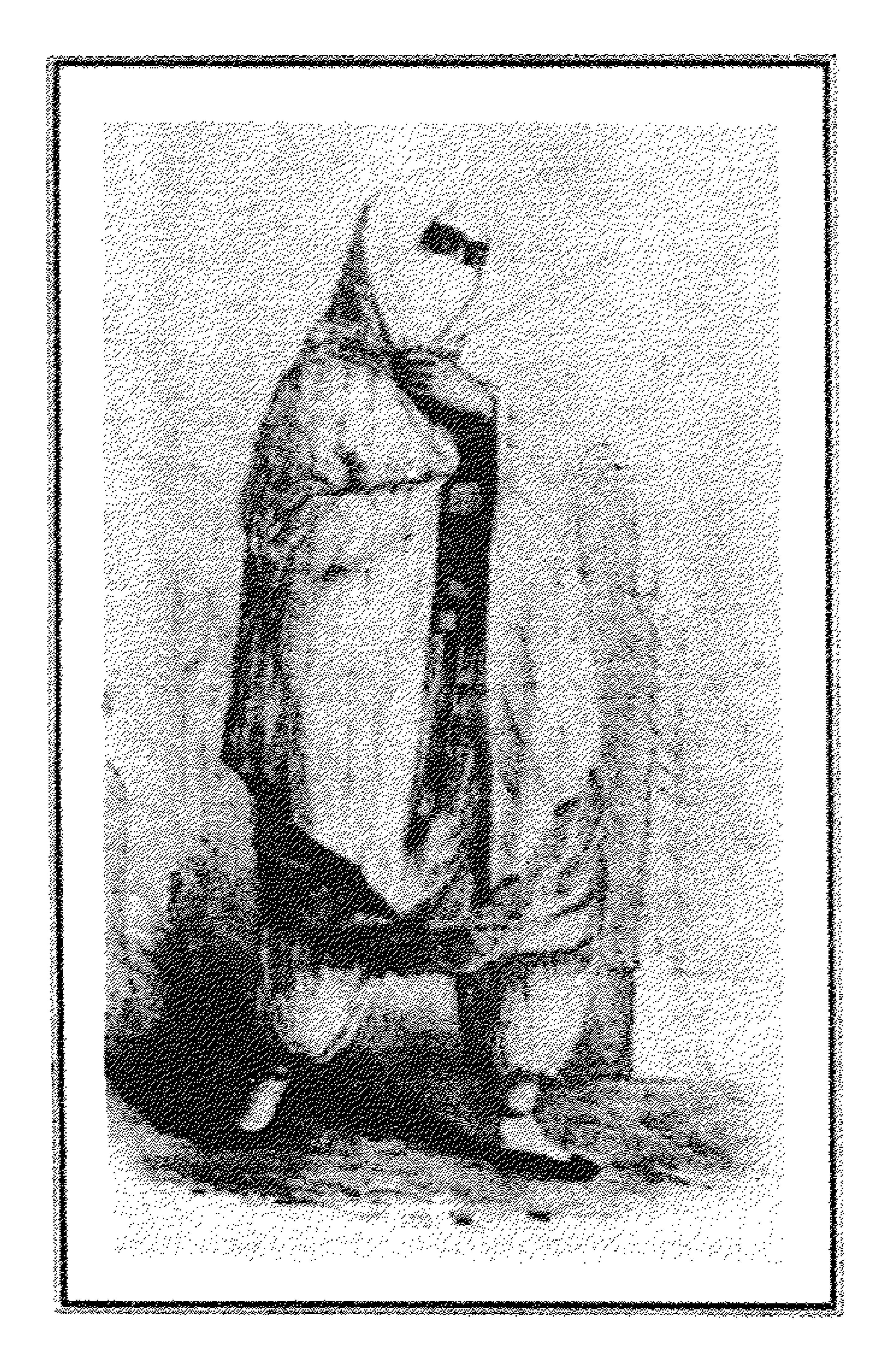


- هذا البورتريه الهولندى أو الألمانى من القرن السابع عشر لملك مغربى. يمكن بسهولة، أن يكون بورتريه حاكم هندى أمريكى. وغالبًا ما وجد الأمريكيون تشابهًا بين سكان الصحراء - البربر والطوارق - وبين الأمريكيين الأصليين، إذ رأوا أن كليهما يعيش حياة بسيطة، مع إمكانية البساطة النبيلة أو البربرية المتوحشة "EIN KONIG DER MOH-REUIN ORIENT" (كاسبار لويكين) بتصريح من مكتبة بوسطن العامة، قسم النسخ، مجموعة هولت.

٣ - الجنوسة فى العالم المسلم

- هاتان النسختان من القرن التاسع عشر تظهران الصورة المزدوجة لدى الغربيين عن المرأة المسلمة. فقد كان الغربيون يأسفون لقمع المرأة المسلمة المرموز إليها فى النسخة الأولى بتخفى هذه المرأة، بشكل كامل. وفي النسخة الثانية، حلت محل التخفى حسية غير مكبوتة، إذ تخلع الراقصة المغربية طبقات الثياب التى تغطيها. وربما كان التضييق على النساء، من وجهة نظر الغربيين الذين ساءهم، على الأقل، ضروريا لمنع هذا النوع من الكشف الشهوانى.





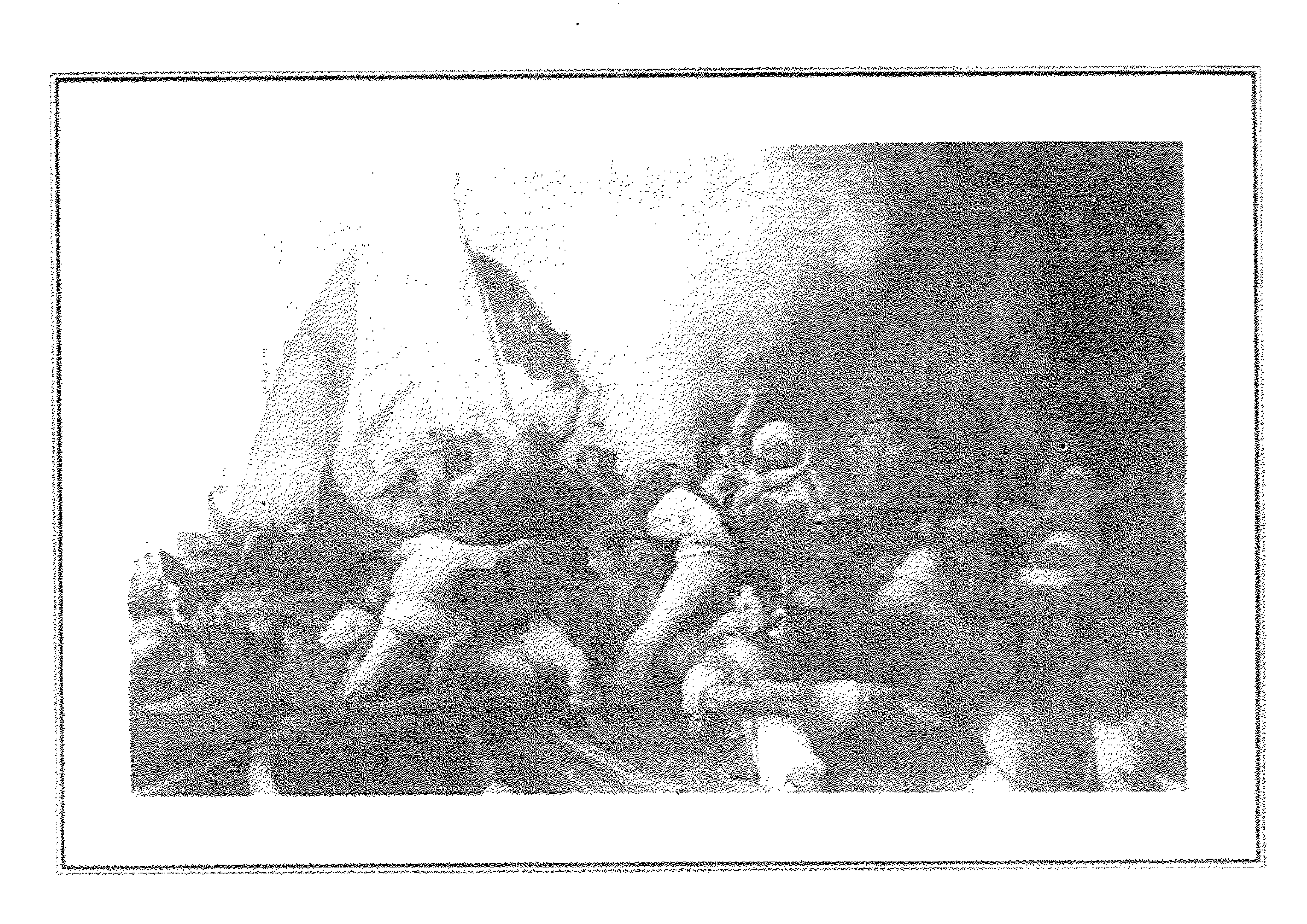
- يتفضل السلطان على السلطانة والنساء الآخريات في السراى بمنحة المشى فى الحدائق أربع أو خمس مرات فى السنة، وفقًا لهذا الرسم بالحفر. ويستوثق الحضيان البيض من أنه لا وجود لأحد فى حدود ١٠٠ خطوة من أسوار الحديقة، ويصحب الحضيان السود السيدات في نزهتهن. اللوحة ٢٠، أوبرى دولا موتراى. رحلات عبر أوروبا وآسيا وإلى قسم من إفريقيا (لندن١٧٢٣) المجلد بتصريح من مكتبة بوسطن العامة.



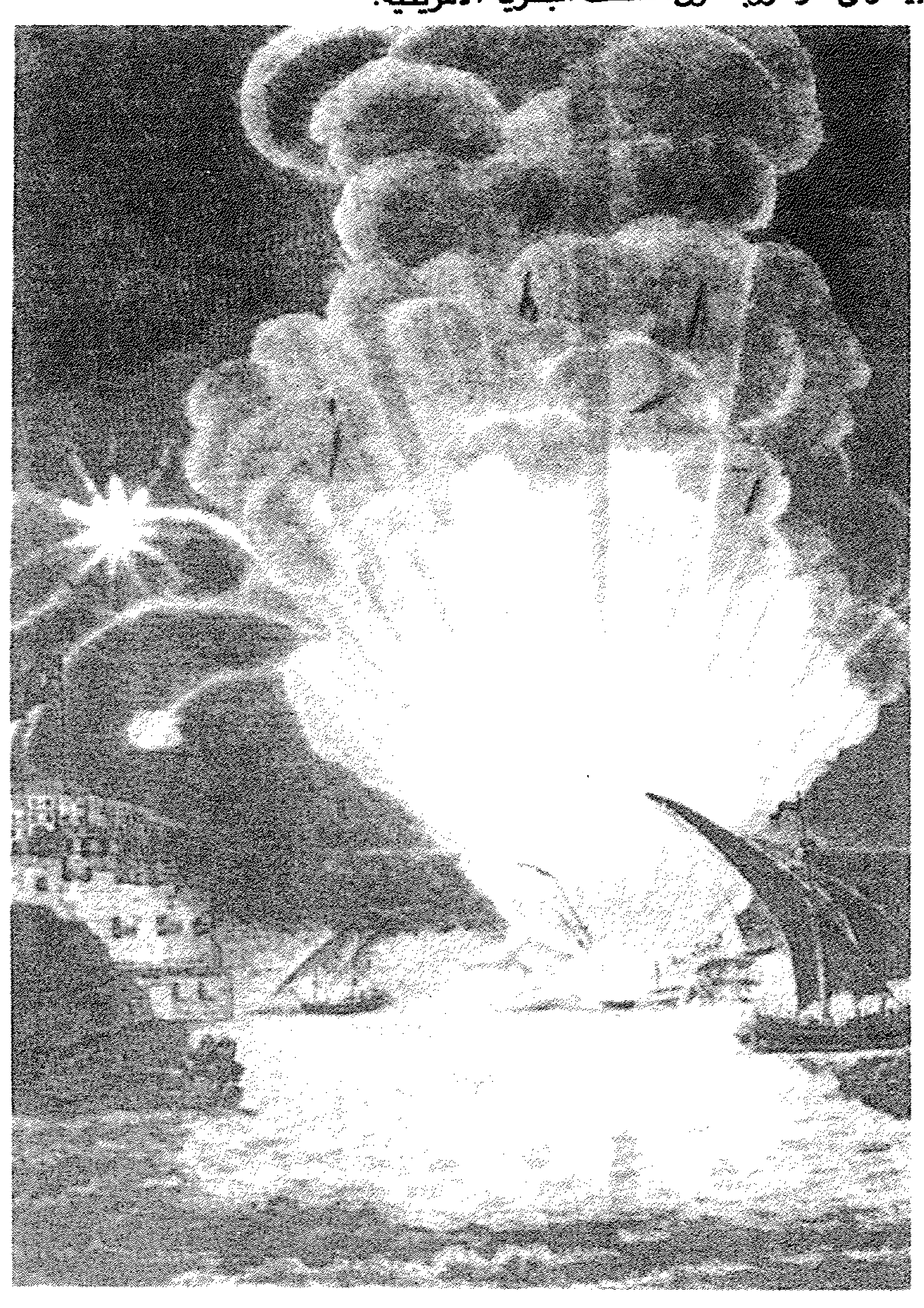
- يظهر هذا المشهد رجلا مسيحيا (الشكل g) يحاول أن يبيع ابنتيه (الشكلين F و E) إلى تاجر فارسى (الشكل H). خمسة موسكوفيين واقفين". جزء من خريطة بحر قزوين، من أسفار عبر أوروبا وآسيا وقسم من إفريقيا لأوبرى دولا موتراى (لندن١٧٢٣) المجلد بتصريح من مكتبة بوسطن العامة.

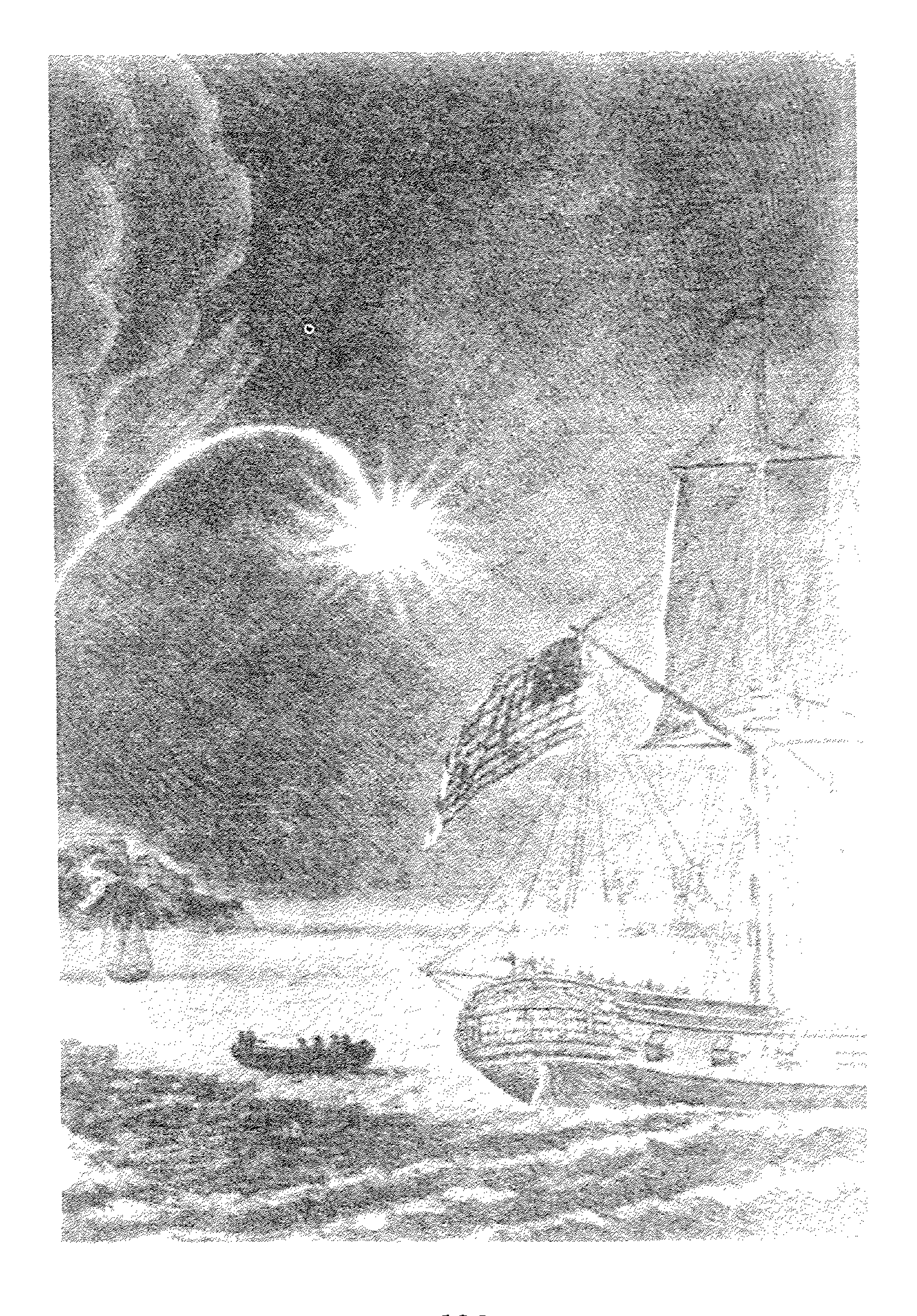


- يشاهد ستيفن ديكاتور أسفل الوسط على اليمين، يخوض صراعًا قاتلاً مع القبطان الطرابلسي. وقعت المعركة في أثناء قصف طرابلس الغرب يوم ٣ أغسطس ١٨٠٤. "ديكاتور يصعد إلى زورق مسلح طرابلسي" لوحة جينيس مالوني كارتر. بتصريح من مؤسسة التاريخ البحري.



– تحولت إنتربيد إلى قنبلة عائمة حاول كابتن ريتشارد سومرز واثنا عشر رجلاً الدخول بها إلى ميناء طرابلس الغرب، سرا ولأنهم اكتشفوا قبل أن يصلوا أسوار قلعة الباشا فقد فضلوا "الموت وتدمير العدو على الأسر وعذاب العبودية" ففجروا السفينة وهم فيها. وقد خلد تراث البحرية سومرز ورجاله الاثنا عشر. وبعد ذلك بثلاث سنوات تزوجت شقيقة الملازم هنري وادزورث من ستيفن لونغفيلو، وخلدت اسم أخيها البطل بأن أسمت ابنها البكر هنري وادزورث لونغفيلو. تفجير "أنتربيد" سفينة النار. بتصريح من مجموعة بيفرلي. آر. روبسنون، متحف البحرية الأمريكية.





- على عكس النساء التركيات أو الجركسيات أو المغربيات أو الإفريقيات السود اللاتى يمكن أن يقبلن حياة الحريم فإن ماريا مارتن الأمريكية / الإنكليزية قاومت محاولات الحاكم التركى فى الجزائر للتودد إليها ووضعت فى حبس انفرادى.





الفصل السادس

العالم المسلم والإحسان الأمريكي

ظل قرابة أربعين من الأسرى الأمريكيين معذبين فى الجزائر، لمدة ثمانى سنوات بعد ١٧٨٥، يتساءلون متى سوف تخلصهم بلادهم. وفى١٧٩٣، عندما أسرت الجزائر مائة أمريكى آخرين، لم يعد بمقدور بلادهم أن تواصل تجاهل مصيبة الأسرى. وفى مختلف أنحاء الولايات المتحدة، كان المواطنون الأفراد يتناقشون حول أفضل الطرق لإعادة الأسرى، وضغط بعضهم على الحكومة لتتصرف بقدر أكبر من القوة والسرعة. وكانت حكومتهم تصر على أنها تفعل كل ما بوسعها، وعندما وعد المواطنون الأفراد بأن يتصرفوا بطريقتهم، رفضت الحكومة عروضهم الخيرة. واكتسب الجدل معنى يتجاوز استعادة الأسرى بأفضل الطرق الممكنة. واعتبرت إدارة جورج واشنطن، التى ترى أنها انتخبت لتتولى شؤون السياسة الدولية، أن المواطنين العاديين الذين يريدون دفع الجزية لاستعادة الأسرى يتدخلون فى عمل الحكومة. وتساءل بعض المواطنين العاديين الذين اعتبروا تخفيف آلام المعذبين أهم من الامتيازات الرئاسية عن نوع أولئك الناس الذين يتركون إخوانهم يرسفون فى الأغلال. وقبل أنصار الإنسانية، بشكل استثنائى، زعم الحكومة أنها تفعل ما بوسعها، على أساس ثقتهم فى الطبيعة الخيرة للرئيس جورج واشنطن.

لكن أنصار الإنسانية لم يكن بوسعهم أن يعدوا بأن يقنعوا بالانتظار وهم يخوضون نقاشاً مطولاً ومؤلماً فى ١٧٩٤ و١٧٩٥ وتساؤلات عن مصير شعب يتجاهل صرخات المستبعدين. وفى هذا النقاش تتضح لنا بداية الصراع بين الاستمراء، أو مساندة

الأمر القائم، وبين النزعة الخيرية عند أنصار الإنسانية الذين يفوق حرصهم على فعل الخير الحرص على السلام أو النظام. وقد تتساءل الروح الخيرة: أى جدوى فى السلام أو النظام للكثيرين إذا كان ثمنه العبودية للبعض؟ وفى الجدل حول الجزائر، علم أنصار الإنسانية أن واشنطن، مهما كان حرصه على الامتيازات الرئاسية، كان يتحرك باتجاه الهدف ذاته، ولكن عبر طريق مختلف. أما فى الجدل الذى تلى ذلك، والذى دار حول العبودية فى أمريكا، كان بوسع أنصار الإنسانية أن يروا زعماء الأمة يتحركون، ليس فقط على طريق مختلف، بل وفى اتجاه هدف مختلف. وكان على أنصار الإنسانية أن يعلموا، فيما بعد، القدر الذى كان ينتظر الأمة التى تتجاهل صرخات المستبعدين. لم يكونوا ليواجهوا اللامبالاة الأخلاقية والاستمراء اللذين واجها حركة ١٧٩٥، بل وأيضاً عداء وخصومة معلنة من رجال فى السلطة.

ففى أوائل ١٧٩٤ عندما وصلت أنباء أسرى الجزائر إلى الولايات المتحدة، حاول بعض الأمريكيين مساعدة مواطنيهم. وشكل بعض المهتمين من المواطنين فى ساليم "جمعية صغيرة" لجمع المال "لإغاثة المعلومين من الأسرى فى قبضة الجزايرلية".

وفى فيلادلفيا شكل رجل الأعمال الجمهورى ستيفن جيرارد وآخرون لجنة تجمع المال لإغاثة الأسرى. وجمعت هذه الجهود، وأمثالها، مبالغ صغيرة، كان المتبرعون يأملون أن يخففوا بها آلام الأسرى أو أن يشتروا بها حريتهم. ورغم أن تركيز المتبرعين وجامعى التبرعات كان على التبرعات الفردية، فقد ضغط بعضهم، إضافة إلى ذلك، من أجل عمل حكومى أكثر سرعة.

وفى أبريل ١٧٩٤ كتب مواطن مجهول أسمى نفسه "إحسان" إلى وزير الخارجية إدموند راندولف يقول إنه فى نيو إنغلند "فإن معاناة مواطنينا فى الجزائر" كانت موضوعاً مشتركاً بين كل المناقشات، وإن المزارعين فى كافة أرجاء نيو إنغلند كانوا مستعدين للمساهمة: لم يتعهد أحد بأقل من دولار، وتعهد "إحسان" بعشرة جنيهات. ولم يكن "إحسان" راغباً فى أن يملى سياسة ما على الرئيس لكنه اعتبر أن بوسع واشنطن تشجيع المساهمة العامة. وكان هذا يعنى مجرد تنظيم الأمريكيين ليضعوا

ما كانوا، بالفعل، راغبين به. ولو أن واشنطن أصدر إعلانًا يحض الناس على التبرع، وقرئ الإعلان في الكنائس، في مختلف أنحاء العالم، فمن المؤكد، برأى "إحسان" أن المبلغ الذى سيجمع سيكون "مبلغًا هائلاً" وسوف ينعم واشنطن بالشعور بالرضا لأنه يقود الشعب الأمريكي، في الاتجاه الصحيح(١).

ولم يكن "إحسان" يعلم أن الرئيس سبق له رفض هذه الفكرة. وفي ١٧٨٩، بعد خمس سنوات اقترح عملاق الملاحة ماثيو إيروين، وهو مالك السفينة الأسيرة "دوفين" مسألة التبرع العام، على نحو مماثل، على الرئيس واشنطن. وكان لدى إيروين اهتمام إنساني بالأسرى إضافة إلى مصلحة مالية في تخليصهم، لكنه حذر واشنطن، أيضًا، من الوصمة التي قد توصم بها الحكومة العاجزة عن حماية مواطنيها في الخارج. واقترح إيروين أن يشجع الرئيس التجار وغيرهم على التبرع لتخليص الأسرى. لكن واشنطن لم تعجبه فكرة استخدام منصبه العام لتحقيق ما بدا له مصلحة خاصة. بل وكان أقل ارتياحًا لفكرة تدخل المواطنين العاديين ليؤدوا وظيفة الحكومة. وافق واشنطن على أن حماية المواطنين الأمريكيين هي مسؤولية الحكومة. وإن بدا أفراد من المواطنين الأمريكيين تخليص الأسرى، فقد يضر ذلك بالمفاوضات الصعبة بين الولايات المتحدة والجزائر. "ولم يقتنع بأنه من الملائم" بالنسبة له أن يقترح أو يصادق على "تبرع من التجار وغيرهم.. لجمع مبلغ لإنقاذ هؤلاء التعساء" من العبودية. ورغم أن الرئيس واشنطن وعد "أن يقدم كل عون، بكل سرور" من أجل إطلاق الأسرى، فقد اعتقد أن المساهمات الخاصة قد تعوق المفاوضات، التي كان وزير الخارجية جيفرسون يجريها، آنذاك. وقد كانت رعاية الأسرى وظيفة الحكومة الجديدة، رغم أنه لم يكن بمقدور واشنطن أن يخبر إيروين بما إذا كانت مفاوضات جيفرسون ستنجح(٢).

وقد كانت لإيروين مصلحة مالية فيما تفعله الحكومة: أراد أن تعيد الولايات المتحدة سفينته وأن تحمي سفنه التجارية الأخرى في المتوسط. وحث آخرون، مثل ستيفن جيرارد على العمل لأسباب سياسية. فقد تشكلت لجنة جيرارد الخيرية، في الحقيقة، لمناهضة السياسات الأمريكية الموالية لبريطانيا ولمساندة فرنسا الجمهورية في حربها ضد إنكلترا - أما الأسرى البؤساء فقد جاؤوا بعد ذلك. وكان جيرارد وغيره

من الجمهوريين يعلمون أن إنكلترا كانت وراء الهدنة بين الجزائر والبرتغال، وهذا الاتفاق أطلق "بربر إفريقيا لينهبوا ويستعبدوا مواطنى الولايات المتحدة" فأصبح سبباً آخر للاستياء من بريطانيا. وهذه الأنانية أو السياسية جعلت واشنطن يشك فى نوايا أشخاص مثل "إحسان" الذى يفترض أنه كان شديد الاهتمام بمعاناة الأسرى. أما مسألة الحكومة التى تسمح بأن يبقى مواطنوها فى الأسر، فقد كان واشنطن يعلم، وكذلك كان جيفرسون، أنه لو أظهرت الولايات المتحدة حرصاً زائداً على تخليص أسراها فقد كان الجزائريون - يعرفون أن الأسرى الأمريكيين صيد سمين(٣).

ولم يكن لدى واشنطن فى ١٧٩٤ أى ميل إلى جعل المواطنين العاديين يقررون السياسات العامة. كانت إدارتها قد انتهت للتو من قمع تمرد فى غرب بنسلفانيا، حيث قرر المواطنون أن فرض ضريبة على الويسكى أمر خاطئ، ورفضوا الدفع، ومنعوا جامعى الضرائب من جعل أحد منهم يدفع الضريبة. واعتقد واشنطن أن ما شجع على ذلك هو تأليف المواطنين لجمعيات ديمقراطية - جمهورية لمناقشة القضايا السياسية والضغط من أجل سياسات حكومية معينة. ورغم أن دعاة الخير ودعاة الإسراع بتخليص الأسرى زعموا أن دافعهم هو التعاطف فقد كانوا يحاولون، رغم ذلك، أن يقرروا للمسؤولين المنتخبين إلى ما يجب عمله. أما فكرتهم عن جمع الأموال وإرسالها إلى الجزائر، بعيداً عن أجهزة الحكومة، بطريقتهم الخاصة، فقد كان هذا يعنى الاستيلاء على السلطة القانونية، تماماً كما قرر أهل غرب بنسلفانيا أنهم ليسوا ملزمين بطاعة قانون فرض الضريبة.

هذا الجو السياسى المشحون حال دون حدوث التعاطف العام الذى كان "إحسان" يأمل أن يجده. وفى رسالة إلى الكونغرس انتقد واشنطن "الجمعيات التى نشأت ذاتيا" والتى حاولت أن تملى على الحكومة سياساتها. وهاجم واشنطن الجمعيات الديمقراطية - الجمهورية والمجموعات المشابهة لما حاول جيرارد إنشاءه فى فيلادلفيا، الذين اعتبروا أنفسهم حكومة بديلة، تم تنظيمها بالمعارضة للممثلين المنتخبين، على نحو صحيح. ورغم أنه كانت هناك فروق عميقة بين أنصار الإنسانية فى نيو إنغلند الذين أرادوا جمع المال لتخليص الأسرى فى الجزائر وبين الديمقراطيين - الجمهوريين

الذين لم يكونوا راغبين فى دفع ضرائب على الويسكى فقد كانا، كلاهما، من جماعات المواطنين غير الرسميين الذين لم يكونوا مسؤولين أمام أحد سوى أنفسهم، والذين نظموا أنفسهم لتوجيه سياسة الحكومة. وكان لدى واشنطن من الاتساق ما يجعله يدرك التشابه، وقد عارض الحركة الخيرية باعتبارها تدخلاً غير مقبول فى سلطات الحكومة[٤].

لكن صمت واشنطن المدوى بخصوص القضية تعرض للضغط فى يوليو. فقد كان مساعده السابق دايفيد همفريز، الذى أصبح وزيراً لدى البرتغال، قد كلف بالتفاوض حول معاهدة مع الجزائر. وقد كان همفريز سكرتيراً للمفوضين الأمريكيين فى أوروبا - جيفرسون وآدامز وفرانكلين - عندما بدأوا التعامل مع شؤون دول البربر فى ١٧٨٥. واختار جيفرسون، عندما أصبح وزيراً للخارجية، همفريز للتفاوض مع الجزائريين بعد أن مات وكيلاه الآخران جون بول جونز وتوماس باركلاى، فى ١٧٩٣. وقد تأثر همفريز، تأثراً عميقاً، بمصيبة الأسرى الأمريكيين، واعتقد أنه من المهم حشد الرأى العام الأمريكى لصالحهم. وقد وجه رسالة مطولة لتنشرها الصحف الأمريكية تدعو إلى يانصيب وطنى لجمع المال لتخليص الأسرى.

وهذا أربك القضية. فالكل كان يعلم أن همفريز هو من الدائرة الداخلية لواشنطن، وبما أنه من المفترض أن يفاوض الجزائر فإن "خطابه" بدا سياسة رسمية. كتب همفريز إن الولايات المتحدة لا يجب أن تتفاوض حول معاهدة قبل إطلاق الأسرى، وقال إن سياسة إرساء السلام أولا، وإطلاق الأسرى بعد ذلك، سياسة خاطئة.

فمن المؤكد أن الفراغ من قضية الأسرى من شأنه أن يساعد المفاوضات، وتخليص الأسرى مقابل عدة مئات من ألوف الدولارات، من شأنه أن يحل المشكلة. وفى الوقت ذاته، أكد همفريز الضرورة الإنسانية للتحرك. فالطاعون "هذه العقوبة السماوية الرهيبة" يفتك بالجزائر "مدينة التعاسة البشرية"، وما لم يخلص الأسرى على وجه السرعة، فسوف يموتون فى الجزائر. وذكر همفريز، وهو شاعر، الشعب الأمريكى بأن بعضاً من "إخوانهم المواطنين الشجعان" الذين هم الآن" محشورون بشكل جائر فى

سجون ضيقة" قد "حاربوا المعارك التى أسست استقلالنا". وربما بالغ فى هذه الصور، لكنه كان يعلم أن "الخيال بوسعه أن يضع أمام عين العقل الصورة البشعة لمثل هذه الحالة، بأفضل من الوصف".

واحد آخر من مساعدى واشنطن، وهو بنجامين لينكولن الذى أصبح جامع ضرائب فى بوسطن أريكه ما قرأه من رسالة همفريز، كان لينكولن يعلم ما هى سياسة واشنطن ويرى أن همفريز يمضى بعكس اتجاهها. وهكذا أرسل النسخة التى لديه إلى وزير الخارجية إدموند راندولف طالبًا تعليماته. وكان لينكولن يعلم أنه عندما يوجه مواطن عادى رسالة كهذه إلى الشعب الأمريكى، مطالباً بتغيير فى سياسة الحكومة فإنه، شأن الغالبية من الشعب الأمريكى، سوف يتجاهلها، بكل بساطة. لكن همفريز كان قريبًا إلى واشنطن، ومكلف بمعالجة المفاوضات مع الجزائر. هل كان يطمس المساحة الفاصلة بين مشاعره الإنسانية وواجباته الرسمية؟

اتفق وزير الخارجية راندولف مع لينكولن فى الرأى. وعندما تسلم راندولف الخطاب من لينكولن، كان قد نشر فى عدد من الصحف الأمريكية. وتأثر الناس بوصف همفريز لبلوى الأسرى وظنوا أنه يتحدث بلسان حكومتهم. وكلف راندولف بمهمة حساسة وهى تقريع همفريز، من دون استعدائه، ورفض كرم الشعب الأمريكى مع شكرهم على ذلك الكرم. وقال راندولف إن اليانصيب الذى اقترحه همفريز غير ضرورى، حيث إن الحكومة خصصت، بالفعل، ٨٠٠,٠٠٠ دولار "لاستمالة الداى إلى السلام والفدية" ورغم أنه لا يسع الحكومة قبول مساهمات خاصة لإدارة الشأن العام، فإن راندولف قال إنه سيوجه أى تبرعات خاصة إلى الأسرى فى الجزائر كإغاثة مؤقتة. وفى الوقت ذاته طلب راندولف من همفريز أن يحتفظ بمشاعره الخاصة بعيداً عن التأثير على مسلكه العام. ومضى راندولف إلى القول إن رسالته "ليست فوق النقد"، وإن بعض من قرأوها (لم يذكر راندولف لنيكولن أو غيره) شعروا بأن الإنسانية الزائدة دفعت همفريز إلى إظهار مشاعره علنًا، بطريقة "تشبه نداء الحكومة إلى الشعب". وهذا تعارض مع السياسات الحكومية، بشكل مباشر. فالناس انتخبوا الحكومة ويتعين عليهم أن يثقوا بإدارتها لأمورها. وبعد أن قال ذلك، وبعد أن قوم السفير الإنسانى النزعة، فإن راندولف

أبلغ همفريز بأنه لم يزل يثق بقدراته، ثقة كاملة، وبأن جى إف غابربيلز التاجر المتوسطى، عُين قنصلاً لدى الجزائر. لكن غابربيلز لن يتوجه إلى مقر عمله "لأن راندولف لا يعرف أين هو". ولهذا فقد كلف راندولف، كما أوضح لهمفريز، قبطانا دينماركيا يدعى هايسل لإجراء المفاوضات. لكن هايسل، هو الآخر، لن يتوجه إلى الجزائر. وكان هذا أمرًا طيبًا لأنه، وإن لم يعرف راندولف بذلك، كان جاسوسا بريطانيا. وربما تعجب همفريز، بعد ما قرأه عن المشاكل التى واجهت راندولف فى العثور على وكيل، كيف كانت إنسانيته عائقًا بوجه المفاوضات(٧).

وكما كان يخشى راندولف ولنيكولن، بالضبط، فإن رسالة همفريز أعطت الانطباع بأن الحكومة تشجع التبرعات الخاصة. ورغم أنه ما من جهة حكومية محلية أو اتحادية تبنت اقتراح همفريزى بتنظيم يانصيب، فإن المواطنين العاديين تحمسوا للمشاركة. وطوال الشهور القليلة التالية حفلت الصحف بتوسلات من إنسانيين مجهوليين، كان بعضهم من رجال الدين، على الأرجح، وقد تأثروا بمعاناة الأسرى فى الجزائر. واشتركت المقترحات التى طرحها هؤلاء الكتاب الخيريون فى ملمحين: كلهم اقترحوا طرقًا لتخليص الأسرى الأمريكيين من عبوديتهم فى الجزائر، لكنهم جميعًا خصوا الجمهور الأمريكى، الراضى بالأمر الواقع، بالنقد.

وقد أدانت هذه النداءات الإنسانية التصرفات الجزائرية والبريطانية أكثر مما أدانت الإحجام الأمريكى عن التصرف. ورغم أنهم أجمعوا على أن الجزائر أخطأت التصرف فإن الجريمة الحقيقية، بالنسبة لهم، هى أن الأفراد الأمريكيين لم يتصرفوا، إطلاقًا. أى نوع من البشر نحن، هكذا تساءل الكتاب، حتى نبقى ساكتين وإخوتنا فى الأغلال؟

وفى بوسطن سأل كاتب مجهول يدعو نفسه "هيراقليطوس" فى نوفمبر١٧٩٤: لماذا تجاهل الأمريكيون الأسرى؟ لماذا "رغبوا فى أن يحجبوا عنا معاناتهم وواجبنا والأخطاء التى نرتكبها بحقهم؟ "كيف يمكن أن يجلس الأمريكيون هادئين "تحت ظل شجرة الحرية" وهم يرقبون "إخوتنا وأصدقاءنا يئنون" تحت نير الشياطين وسياطهم؟"

ولم يكن يعرف ما يقول عن أولئك "الذين بوسعهم أن يتركوا أبناء وطنهم فى حال من العبودية هو أسوأ من الموت، دون اهتمام"(٨).

وقد صدمت هيراقليطوس الحياة اللاهية الناعمة التى ينعم بها الأمريكيون متجاهلين أولئك الأتعس حظا. فالأغنياء ينفقون، فى بعض الأحيان، على حفل عشاء واحد ما يكفى لإنقاذ أسير "وإعادة أصدقائنا إلينا". وكانت المسارح تزدحم لليالى التى تخصص لصالح ممثل أو ممثلة من المحبوبين، ولكن فى ليلة خصصت لجمع المال للأسرى "لم يكن المسرح قريبًا من اكتمال العدد". وقد كان الأمريكيون أكثر اهتمامًا بالممثلين المسرحيين منهم بالمعذبين فى الحياة الحقيقية، وقد وضعوا "مسراتهم الخاصة" قبل واجبهم، بخاصة واجبهم فى تخفيف "عذابات الآخرين". وقارن هيراقليطوس بين العذابات الحقيقية للأسرى الأمريكيين والعذاب المتخيل "أسير المريض سيترن". فقد كان لرواية لورانس ستيرن "الرحلة العاطفية" تأثير عميق على الجدل الدائر حول العبودية. "اتخذى ما شئت من الأقنعة، فما زلت أنت العبودية ! قلت أنا - ما زلت شرابا مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". وقد وجد ستيرن "أنه من المستحيل عليه أن يكتب، بشكل مؤثر، عن العبيد الكثيرين، فركز بدلاً من ذلك على "أسير واحد" يراه فى السرداب، ويرسم صورته المحزنة "عبر ضوء باهت من باب موارب". وكما أن ستيرن لم يشعر بالتعاطف القوى مع الكثرة، على النحو الذى تعاطف به معه، فقد كان هيراقليطوس يخشى من أن يعجز الأمريكيون عن التعاطف مع الأسرى الأمريكيين الحقيقيين بمثل ما تعاطفوا مع أسير سيترن الخيالى. لقد تشتت الذهن الأمريكى بفعل الروايات والمسرحيات والمباهج المصطنعة فى الحفلات والحياة اللذيذة، فنسوا الضرورة الأخلاقية الحقيقية الملزمة بمساعدة من هم أسوأ حظا بالحياة وفق القاعدة الذهبية(٩).

وحذر هيراقليطوس من أن "الموضوع لا يسمح بالاعتدال". "فالتروى فى أمر كهذا يعنى التواطؤ مع من يعذبون أبناء وطننا". كان فخوراً بتطرفه فى سبيل الحرية وحث الآخرين على الانخراط فى العمل الواجب لاسترجاع إخوانهم المواطنين "من درك العذاب الإنسانى، إلى أقصى صورة مقابلة من صور السعادة". وما من مهمة تكون

أكثر مدعاة لرضا الخالق أو المخلوق من انتشال إخوة الوطن من مكان "يهيمن عليه الطغيان بكل فظاعاته، إلى الأرض التى تمنح (أو يجب أن تمنح) بالحرية شخصية جديدة للإنسان. لكن هيراقيلطوس كان يخشى أن الحرية لم تمنح الأمريكيين شخصية جديدة، وبدلاً من ذلك، فقد جعلتهم لا مبالين بتعاسة الآخرين. ففيما تلذذ الأمريكيون بحريتهم فقد نسوا أن المشيئة الإلهية هى *التى أعطتهم إياها*. فتجاهل الأسرى كان غروراً، وهذه اللامبالاة بالبؤس تشير إلى أن الأمريكيين أصبحوا يعتقدون أن جهودهم هم، وليست إرادة الله، هى التى جعلتهم أحراراً وميسورين. ونسيان الأسرى يماثل الزعم بأن "أيدينا هى التى صنعت كل هذا". رياح حظنا السعيد ألقت إلينا بهذه الثروات، شمسنا نحن هى التى أنضجت هذه الثمار، وفهمنا الذى أمدنا بهذا الغنى موجود بذاته، وما لدينا من قوة وحكمة هو ما يخضع أهواء الرجال للحكومة. ويسمح لنا بالامتلاك الهادئ للثروة". لقد كان الأسرى مؤاخذة لشعب أمكن له أن ينسى توكله على الله القادر على أن ينعم عليه بنعمة الحرية. لقد أثارت عذابات الأمريكيين فى الجزائر حفيظة هيراقليطوس، لكن ما أثاره أكثر هو احتمال معاناة الأمريكيين فى أمريكا، لو أن هذه الاتجاهات سادت. ومثل المتحمسين فى عدائهم للحرية، ممن جاؤوا بعده، فإن هيراقليطوس كان يحض إخوته المواطنين على إنهاء العبودية لكى ينقذوا أرواحهم هم.

وقد لام هيراقليطوس الأمريكيين على هذه اللامبالاة إزاء معاناة الآخرين، لكنه خص الأمريكيات بامتداح نزوعهن السامى *إلى الخير*. وقال إن الأمريكيات أكثر اهتماماً من الأمريكيين بالأسرى، وأقرب إلى أن يدفعهن التأثر إلى الفعل تخفيفاً لآلامهم. وبالتأكيد على دور النساء فى أعمال الخير فإن هيراقليطوس أبرز فكرة أن حركة الجماهير تعتمد على الأفراد، أولاً، وعلى الحكومة، أخيراً. وبالنهاية، فلم تكن للنساء، أية أدوار رسمية فى السياسة الأمريكية. لكن كان متاحًا لهن أن يلعبن دوراً كبيراً فى هذا الجدل الوطنى العام ودورا أساسيا فى توجيه السياسة الوطنية باتجاه أهداف إنسانية. وقد كان من الضرورى أن *تتصرف النساء لتخليص الأسرى* - فإذا انتظر الأمريكيون حتى تفعل حكومتهم شيئًا، فإن ما كان يخشاه هيراقليطوس هو أن ذلك قد يعنى موت معظم الأسرى - ولصياغة شخصية الشعب الأمريكى. وبتقديم مقال

إنسانى، بالتبرع بـ "بعض ما تتزين به الملابس، فى سبيل الزينة الجذابة والجميلة للفعل الإنسانى" فإن الأمريكيات يكون بوسعهن، ليس فقط تحرير الرهائن بل وإعادة الحيوية إلى الجمهورية الأمريكية. فمن شأن المثال الذى يطرحنه أن يشجع الرجال الأمريكيين التخلى عن الحياة المترفة الراقية "التى تضعف قوة الدستور، بل وربما ترعى الطفيليين الفاسدين" وبدلاً من ذلك فإنهن سيظهرن، بفعل الخير، القوة المعنوية العفية للجمهورية.

ولم يكن هؤلاء الأمريكيون المحبون للخير ليقبلوا بفكرة أن إحسانهم قد يعوق سياسات الحكومة. فإقدام الأمريكيين على الفعل، بأنفسهم، من شأنه أن يجعل مهمة الحكومة أسهل. وقد تبع هيراقليطوس همفريز فى الدفع بأن الأسرى كانوا عقبة بوجه معاهدة السلام، وبأن إطلاقهم لا يجب أن يكون جزءاً من مفاوضات عامة. أما فكرة أن الاعتماد على المساهمات الخيرية الخاصة فيه مساس بهيبة الحكومة، فقد رأى أن "التهاون مع دولة الجزايرلية" هو الأكثر انتقاصاً من هيبة الحكومة الأمريكية. والأهم، أن الأمريكيين يرتكبون إثماً إن انتظروا حتى تتصرف الحكومة، وإن راعوا صناع السياسات العامة، إذا كانوا بذلك يمنعون أنفسهم من أداء واجباتهم الأخلاقية. من الكفر أن يظن أن سياسات الدولة يمكن أن تمنع الفرد من القيام بالتزاماته نحو ربه. أراد هيراقليطس أن يخترق "أسماع إخوانه المواطنين بأنات الأسرى، ويصدع قلوبهم بالعذاب "لكى يدفعهم" إلى أداء واجبهم الأول إزاء الرب، ومسؤوليتهم الأولى إزاء البشر، وإلى ممارسة أنبل ما اختصت به الطبيعة الإنسانية.

وفى ماربلهيد، ماساشوسيتس عرف "إسيكس" أيضا التأثير القوى الذى أحدثته رواية ستيرن العاطفية لدى القراء، لكنه لم يلمهم على ذلك. ونقل عن ستيرين "اتخذى ما شئت من الأقنعة، فما زلت أنت العبودية ! قلت أنا- ما زلت شرابا مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أُجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". ولكن، على الرغم من أن إسيكس توقع أن يكون معظم قرائه على معرفة بهذا المقتطف، وكانوا متأثرين به على نحو متماثل، فقد آلمه أن قليلين منهم شاركوه الحماس لقضية الأسرى

فى الجـزائر. وقال إن أخبار معـاناتهم "أشعلت النار فى روحى" لكنه لم يسـمع أحداً آخر يتحدث عن عذابهم، ولم ير خططًا توضع من أجل تخليصهم. "يحزننى أن يعامل موضـوع، على هذا الجانب من الأهمية، بهذا القدر من الازدراء المبطن، وأخلص إلى أنه يماثل كلامنا الكثير عن العالم الآخر، فهو كلام يمر كثيراً عبر الشفاه حتى إنه ينسى طريقه إلى القلب. وقد اغتبط لأنه أغرق وسادته بالدموع التى سفحها من أجل الأسرى، وأنه قضى ليالى الأرق مهتاجًا بسبب عذابهم، مفكراً فى أطفالهم وفى زوجاتهم اللاتى صرن أكثر من أرامل".

وهو يسأل "يا مواطنى أمريكا، يا من تجلسون تحت كرومكم وأشجار تينكم، وليس لديكم ما يجعلكم تخافون – يا من ترتاحون فى غرف النوم المزخرفة – هل يمكن لكم أن توطنوا أنفسكم على تركهم فى عبودية أبدية، أسوأ من الموت ؟ هل بوسعكم أن تنسوا القضية التى من أجلها سالت دماؤكم ودماؤهم معًا؟ لقد استمتع الأمريكيون فى أرض الوطن بما أثمره النضال الثورى، كل يوم، فى حين أن هذا النضال المشترك كان ذكرى مريرة للأسرى، لأن الاستقلال الذى بذله من أجله الدم أدى إلى أسرهم، وها هو يضيف "جلدة أخرى من سوط الجزايرلى وألما آخر من القيود". لا بد أن الأسرى "يلعنون المعارك التى كسبوها" من أجل مواطنيهم الذين لا قلوب لهم ولا ذاكرة. ويسأل "يا أمريكا، هل بوسعك.. أن تنسى أولادك، وتتركيهم يتسولون الخبز المر عبر الممالك التى أنقذوها بشجاعتهم؟" هل يريد الأمريكيون أن يقال يوم دينونتهم أن الأسرى: "كانوا فى الجزائر ولم تحسنوا إليهم"، وقد طلب إسيكس من رئيس تحرير "الغازيت" فى ساليم أن يبعث الحيوية فى هذا العدد، أن تحمل كل صفحة "نحيب أمريكا، آه يا أبنائى! يا أبنائى!؟". وشأن هيراقليطس، فقد تأثر إسيكس بعذابات الأسرى، لكنه كان أكثر انفعالاً بسبب فتور الأمريكيين. وراح يتساءل أى شعب ذلك الذى ينسى أبناءه وإخوانه(١٠).

وفى فيلادليفيا تساءل "هيومانيتوس" عما جرى للجنة جيرارد، التى تشكلت فى الربيع لتحرير الأسرى الأمريكيين. واعتبر طيبتهم "جديرة بالشخصية الأمريكية" لكن هيومانيتوس أحزنه أن كثيرين من مواطنيه غير منزعجين "اهتاجت أفئدتنا بعض الوقت،

مع قليل من الخفقان" فى حين كان الأسرى فى الجزائر "يئنون، على مدار الساعة، تحت أغلال العبودية، وسياط القسوة، ونير العبودية". وشأن إسيكس وهيراقليطس فقد كان يأمل أن يدفع أهل وطنه إلى العمل(١١).

ولم يقبل واشنطن بأن يكون له دور فى الحركة الخيرية، لكن المنظمين استخدموه رغم معارضته. وفى أول يناير ١٧٩٥، وقد امتلأ بزهو انتصاره على ثوار الويسكى وبالسعادة لأن بلاده بقيت على الحياد فى الحرب الأوروبية، أعلنت واشنطن يوم ١٩ فبراير يومًا يشكر فيه الأمريكيون الله على "النعم الوفيرة والرحمات المبشرة التى تميز بها قدرنا كأمة" وبخاصة لمباركته الحكومات "التى باتحادها رسخت الحرية والنظام"، وعلى صيانة السلام الولايات المتحدة الداخلى والخارجى، وعلى استمرار الازدهار. وشأنه شأن هيراقليطوس، فقد أراد واشنطن أن يتذكر الأمريكيون أن هذه البركات جاءت من الرب، وأن على الأمريكيين واجبًا ملزمًا بأن يتذكروا مصدرها، وأن الرب يتوقع عظائم الأمور من شعب أعطى كل هذا. وأراد واشنطن من الأمريكيين، كما أراد هيراقليطس، أن يحرروا أنفسهم من "خيلاء النعمة" وأن يجعلوا بلدهم "ملجأ آمنًا وسمحًا للتعساء من البلدان الأخرى" وأن يستعدوا لمد البركات الأمريكية إلى "كامل أسرة النوع الإنسانى(١٢).

ولم يذكر واشنطن الجزائر، وهى سقطة تم تجاهلها فى نيو إنغلند، حيث رأى هيراقليطوس وإسيكس فى مصاب الأسرى إدانة للشخصية الوطنية. وقد استغل هذان الكاتبان المحبان للخير يوم عيد الشكر ليجعلاه وقت جمع الأموال للأسرى. ورغم أن واشنطن أراد أن يكون العيد يومًا للتأمل فى الشخصية الخاصة للأمة وعلى خلاصها الأمن من المشاكل الأوروبية، فهذان النصيران للإنسانية فى نيو إنغلند اعتبرا من المستحيل استثناء الأمريكيين من متاعب العالم، أو اعتبارهم مباركين بين الأمم، طالما بقى إخوانهم فى الأغلال. وخلال أسابيع من إعلان واشنطن، كان أهل نيو إنغلند قد نظموا حملة لجعل يوم ١٩ فبراير يوم جمع التبرعات لصالح أسرى الجزائر. وكان الرئيس واشنطن قد سبق له رفض أن تؤدى التبرعات الخاصة دورًا منوطًا بالحكومة.

ولم يعط الفرصة ليلغى استيلاء الناس الذين يفعلون ما تمليه عليهم قلوبهم وإن تعارض مع سياساته، على يوم الشكر الذى هو يومه.

وأعلن كاتب فى بورتسموث، بنيوهامبشير، خطة للمساهمة الوطنية فى ١٩فبراير. وكان هذا الكاتب، شأن واشنطن وهيراقليطس، يعلم أن الأمريكيين ينتظرون قضاء الله. كان واشنطن أكثر أعضاء هذه الجماعة ثقة، رغم أنه لم يطمئن إلى خيلاء النعمة ومن نتائج الخروج على طريق الحياد. ولم يكن الكاتب من بورتسموت شديد التفاؤل. بدأ مقالته بلعنة يسوع على الأشرار "مريض وفى السجن وأنتم لا تزوروننى (متى٢٥:٤٣). وقد كان حريًا بالأمريكيين أن يهتموا بإخوانهم المهانين. إذا كان للجميع أن تزدهر أحوالهم[١٣].

ومرة أخرى، فلم يكن هناك وعى برفض واشنطن للانضمام للحركة الخيرية فتوجهت خطة بورتسموث بالنداء إلى "الرئيس العظيم للملايين الذين ولدوا أحراراً" بأن يحث "وزراء المسيح الخير" على أن يجعلوا عيد الشكر يوماً لجمع التبرعات. فبكلمة من واشنطن فإن الأمريكيين سوف "يكومون فوق مذابح الإحسان" الهبات التى تجود بها "الإرادة الحرة". وتساءل الكاتب عما إذا كان ممكنًا "استعراض الكوارث التى تحل بالأمم الأخرى" (وهذه هى كلمات الرئيس) وتجاهل أعظم الكوارث، على الإطلاق، كارثة الموت فى العبودية؟ "حاشا لله ! هذا غير ممكن" ولو كان الأمريكيون "تميل طباعهم إلى أرق مشاعر الإنسانية" وهو يعتقد أنهم كذلك، فإن "أبناء الحرية" الذين أظهروا، بالفعل، استعداداً لا مثيل له "لإغاثة التعساء" بالتأكيد سوف "ينهضون لإنقاذ الأسير المعزول".

سيجعل الأمريكيون يوم ١٩فبراير يومًا مباركًا، عندما يكرس أربعة ملايين منهم أنفسهم للخير، ليمنحوا "الحياة للموتى من جديد". فالأسرى الذين يجرى إنقاذهم سيبعثون من ميتتين، ففى الجزائر "هم موتى عند أنفسهم وعند مواطنيهم". ومضى كاتب الالتماس إلى الربط بين ما تريده أمريكا وما يريده الله. إن "الوطنيين فى عام خمسة وسبعين" كانوا "أبطال الدارين" وكانوا "مشترعين يمنحون الحرية للعالم"

وخلفاؤهم مدعوون لمواصلة عمل الخير الإلهى، موقنين أن إرادة الله هى "الحرية للعالم كله".

ورغم أن الأمريكيين هم رسل الله المختارون، فلا يليق بهم أن ينتظروا من يحضهم على حمل الرسالة. ولم ينتقد كاتب الالتماس العادات الاجتماعية لدى الأمريكيين، كما فعل هيراقليطوس، لكنه كان أشد فى نقده لعاداتهم الأخلاقية. وقد خاطب جماعات مختلفة – الآباء والأزواج والأشقاء. وشيوخ ونواب الشعب السعيد. وحكام الولايات العديدة. كهنة عمانويل. بنات كولومبيا. وقد قصر الأمريكيون المشار إليهم بكل هذه الإشارات.

فهل كان "إعفاء أمريكا من عذابات الحروب الأجنبية" الذى أشار إليه الرئيس واشنطن فى إعلانه، أمرًا يدعو للعرفان، من جانب الشعب، حقا؟ وهل كان بوسع الأسرى أن يشاركوا بلدهم الفرحة بهذا الأمر؟ المصير الذى آلوا إليه أسوأ من الحروب الأجنبية، باعتباره "أسير الأوروبيين المتحاربين، أو القوى الأمريكية المعادية، أسيرًا للأمل" ينتظر أن يبادلوه بآخر، وفقًا لمعاهدة. أما بالنسبة للأسرى "بالنسبة لنا، بالنسبة لنا وجدنا، حق العودة مستبعد. نحن أسرى فى سجن اليأس".

وتدخل الكونغرس منتقدًا: "أى شعب تحت السماء يترك بحارته فى أسر لا أمل فى الفكاك منه؟ أى قوة على سطح الكوكب لم تدفع المبالغ المطلوبة للتحرير؟ هل الخزانة فارغة؟ هل نضبت مواردها بسبب الحرب ضد "القطعان المتوحشة فى المناطق الحدودية"، أو بإخماد تمرد الويسكى؟ وطولب حكام الولايات بإصدار بياناتهم حتى تنظم "الجمهوريات كفرادى" إلى "رفاقية موحدة من التواصل الفيدرالى". وسوف "تتبع أرض آبائنا، وسوف نتبع نحن الأبناء الذين لم يخضعوا، حتى الآن، للعبودية علم ماساشوسيتس، إذا أشرق مرة أخرى فوق الجبال الغربية أو ننتشر مع النسر الأمريكى الباسط جناحيه إذا رفع التمرد رأسه الشرير". كانت حرية الأسرى غير قابلة للانفصال عن وحدة أمريكا. لم يستنفد قمع تمرد الويسكى موارد الخزانة لكنه كان خطوة ضرورية باتجاه دور أكبر للولايات المتحدة فى استعادة النظام الدولى.

فربما كانت "الطاقة الكلية القوة للذهب" قـادرة على توجيـه سياسات بقية العالم، أما الأمريكيون فيفضلون الإحسان.

ورغم أن الكاتب كان نقديا فإنه لم ييأس. فكل الأموال التي جمعت في ١٩ فبراير يجب أن تصب في الخزانة الأمريكية، حيث سوف يسجل أصغر فارثينغ (قطعة نقد بريطانية تافهة القيمة) بإخلاص، لو أن واحداً مثل هاميلتون ما زال قائماً على خدمة البلاد". يجب أن تنهض الأمة، وأن يعيش الأسرى ليروا اليوم "الذي يحلق فيه الإحسان ذو المنبت السماوي طائراً إلى قصر العجل الذهبي، ليصهر بطاقة الذهب الكلية القوة أغلال العبودية المجدولة، ويكسر قفلي البوابة المفضية إلى السرداب المخيف". وطلب كاتب هذا الالتماس من قرائه أن يتخيلوا أنفسهم مسجونين في الجزائر، ليشعروا بشعورهم، وبعد ذلك "أن ينظروا تجاه بلادهم، فيما تسيل الدموع اليائسة على خدودهم، وتمزق تنهيدة الألم الصدر المعذب، ويرفعوا إعلان الرئيس باليد اليسرى" ويمدوا اليد اليمنى باتجاه البلاد إلى "أبناء كولومبيا الذين ولدوا أحراراً" الذين يستعدون لتحريرهم.

وقد رددت أصوات حقيقية ومتخيلة في الجزائر أصداء خطة بورتسموث هذه، التي تنتقد الأمريكيين. ففي ٢٦ يناير نشرت "فيديرال أوريري في بوسطن "التماس من الأسرى الأمريكيين المستعبدين في الجزائر" مصدقة لفكرة استخدام ١٩فبراير لجمع المال لإطلاق سراحهم. ورغم أن التوقيع على الالتماس كان باسم ريتشارد أوبرايان فمن الأرجح أن من كتبه كان كاهناً من نيو إنغلند[١٤]. وهذا الالتماس المنسوب إلى أوبرايان وجد صداه في صوت حقيقي من الأسر. فقد كتب القبطان وليم بنروز إلى صديق في أمريكا في خريف١٧٩٤، وقد نشر خطابه في كل أنحاء نيو إنغلند في فبراير١٧٩٥، قبيل يوم عيد الشكر. وقد سأل القبطان بنروز "ما الذي يشغل أبناء بلدنا، بحق الله؟". وقال نـبروز: إن الداي حسـن يريد أن يقيم عـلاقة طيبة مع الولايات المتحدة، لكن الأمريكيين "يتعالون على التفـاهم معه": أما تقاعس الأمريكيين عن تخليص الأسرى أو عن إمدادهم بالطعام والملابس "فسوف يبقى وصمة على الشخصية الأمريكية".

وبعكس هولندا وإسبانيا اللتين خلصتا أسراهما فإن أمريكا "أكثر البلدان حرية على وجه الأرض" قد تركت مواطنيها "الذين حاربوا وبذلوا الدماء" من أجل حريتها، فى ذل القيود، يكدحون من الفجر إلى هبوط الظلام. لم يعد بوسع السجناء الأمريكيين أن يحتملوا أكثر من ذلك كثيراً. "فلا بد أن تنهار الطبيعة الإنسانية تحت ضغط كل هذه التعاسات المتراكمة"، هكذا حذر نبروز مشيراً إلى أن الأسرى بدأوا يكفرون بمبدأ الحرية. لم يكن يستطيع أن يصدق أن بلاده نسيتهم لكنه تساءل عما كان يفعله الأمريكيون[١٥].

وقد كانت معرفة منظمى الحركة الخيرية بالطبيعة الإنسانية قوية لدرجة جعلتهم لا يعتمدون على الإدانة الأخلاقية وحدها. وحتى عندما أدانوا اللامبالاة الأمريكية، فإنهم امتدحوا الكرم الأمريكى. وقبل يوم عيد الشكر بأسابيع، فقد هلل منظمو الحملة لنجاحها، مادحين الكرم الاستثنائى للشعب الأمريكى.

وتحت عنوان "كما توقعنا" كتب "فيديرال أوريرى" يوم ٢٩يناير أن "شرارة من مذبح الإحسان أضرمت شعلة فعل الخير فى كافة أنحاء القارة" وأن بوسطن ساهمت بأكثر مما كان متوقعاً، بكثير، إذ تم جمع ٢٠,٠٠٠ دولار تكفى لاستنقاذ قبطان واحد وثمانية بحارة. لم تزدحم الكنائس على هذا النحو، من قبل، هكذا قالت الصحيفة قبل أن تفتح الكنائس أبوابها بثلاثة أسابيع، والنساء اللاتى لا يملكن نقوداً تبرعن بالخواتم والمجوهرات.

وفى فيرجينيا كتبت صحيفة فى بوسطن أن المزارعين "حازوا الشرف عندما تبرعوا بما يتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ دولار عن كل قطعة أرض" رغم أنه لم يكن فى الجزائر سوى سفينة واحدة من فيرجينيا. وفى بوسطن قام محسن أراد أن لا يبزه آخر "بوضع ألف دولار ورقى فى صندوق التبرعات". هذه التبرعات الهائلة لم "تشهد العهود السابقة ما يفوقها. وربما لن تجد ما يماثلها، يتكرر فى ذاكرة الإنسان[١٦].

وقد استبقت إمبارشيال هيرالد فى نيوبريبورت، وهى التى لم تقبل أن يزايد عليها أحد، يوم عيد الشكر بأن أشارت، فى ٣ فبراير، إلى "السخاء الخير" من سيد فى هذه

المزرعة يقال إنه جاد بكل كرم "بأربعة آلاف دولار". وتضخمت المساهمات المتوقعة مع إعلان الجريدة عن أن أتباع كل كنيسة في نيو إنغلند يتأهبون للانضمام لحملة التبرعات. وقالت التقارير الواردة من ماربلهيد ومين إن الناس هناك خططوا للتبرع "بأكثر مما جرى التبرع به في أي مناسبة خيرية". وعند سماع هذه التوقعات من الولايات الأخرى خشي "أحد ساكني بورتسموث" أن تكون نيوهامبشير "طامحة إلى أن تميز نفسها" بانعدام الإنسانية والعدالة، ودعا أهل ولايته إلى "أن يهبوا من تكاسلهم" ويتبرعوا. ومخافة أن يتقاعس من يعجزون عن التبرع بمائة دولار أو بألف فقد وعد بأن "الميتين كانا يقبلان من الأرملة في الأزمنة القديمة، وسوف يقبلان مجدداً".[١٧] (MITE عملة ضئيلة القيمة – المترجم).

لكن غياب المساندة الرسمية أضعف القضية. لم يشر واشنطن إلى التبرعات، رغم أن المروجين لها زعموا أنه حليف. ودعت ساليم إلى اجتماع خاص للمدينة للتخطيط ليوم التبرعات، لكنها أجلت الاجتماع عندما تقرر أنه لا يجوز للمدينة، قانونًا، أن توجه الكنيسة إلى أي فعل. وانتقد كاتب من كونيكتيكت وقع باسم "إكلزيا ستيكوس" خطة بورتسموث باعتبارها "لم توجه إلينا من أي سلطة قائمة" و "لم تحمل اسم فرد يقرها". وقال إن الحكومة، لا المواطنين الأفراد، هي المسؤولة عن الأسرى. ولا يجب على المواطنين الأفراد والكنائس "استباق تدابير الحكومة" التي انتخبوها. ورغم أن إكلزيا ستيكوس تعاطف مع الأسرى، كأي واحد آخر، فقد بقي ينتظر التصرف من الكونغرس ومن الرئيس، وكان واثقًا من أنه عندما يضع هؤلاء المنتخبون سياسة ما "سوف يكون الجميع جاهزين للإسراع باتباعها". والمثال القريب عن "جمعيات نشأت ذاتيا" تحاول تعويق عمل الحكومة كان جديداً على عقل إكلزيا ستيكوس لدرجة لا تجعله يسمح للتبرعات الأهلية بأن تتدخل في السياسات العامة. وكان لدى إكلزيا ستيكوس إيمان بأن الحكومة سوف تهتم بالأسرى. ولكن حتى إن لم تفعل الحكومة شيئًا، إذا "لم يروا من المناسب أن يتخذوا إجراءاتهم" لتخليص الأسرى. فقد كان واثقًا أن لهذا التقصير أسباب مقبولة. لقد كان إكلزيا ستيكوس يثق في الناس الذين انتخبهم، حتى إذا قال كتاب مثل هيراقليطس أن هؤلاء الرجال بحاجة إلى توجيه أخلاقي. ربما كانت الحكومة

تنتظر "حتى نصبح فى ظرف يسمح بالحيلولة دون زيادة الأسرى" وتوقع أن تزيد عمليات الأسر، على وجه اليقين، إذا بدأ الأمريكيون يرسلون مبـالغ مالية كبيرة يفتدون بها الرجال الموجودين فى الأسر، بالفعل. وهذا أمر من شأن "الإحسان الحقيقى" أن يستنكره[١٨].

وقال إكلزيا ستيكوس إنه يتعاطف مع الرجال فى الجزائر مثل أى كاتب آخر، وإنه كان يشعر بقلق مماثل حول الشخصية الأخلاقية الوطنية. وعندما يسمح الأمريكيون لزعمائهم المنتخبون بالتصرف، فإنهم يثبتون أنهم لا ينصاعون وراء العواطف الشخصية لكنهم يتبعون الزعماء العقلانيين، وسوف تمثل "عقلانيتهم" نقيضاً للفرنسيين الفوضويين، الذين لا يحكمهم أى نظام، و"لقسوة أولئك الذين فتحوا البوابات، بالخبث الغادر، وأطلقوا علينا شياطين الجزائر" وهم البريطانيون. الرضا بالحال لم يكن خطيئة، طالما أن الأمريكيين انتخبوا رجالاً على خلق للمناصب العامة وتركوهم يؤدوا واجباتهم الدستورية.

ورغم أن واشنطن لم يعلق على الحركة الخيرية، فقد نجحت الإدارة، فى اللحظة الأخيرة، فى تخريبها. وفى ١٧ فبراير نشرت صحيفة فى بليتمور قصة زعمت أن مصدرها "حكومى استبعد تماماً ضرورة تنفيذ الخطة المقترحة لتخليص إخواننا الذين يرسفون فى الأغلال".

وقالت الصحف إن دافيد همفريز الذى حرك الأمريكيين بندائه من أجل الأسرى، فى الخريف الماضى، وصل إلى فيلادلفيا للاجتماع بالرئيس واشنطن. وذاعت أخبار تقول إن "هناك احتمالات طيبة للغاية حول احتمال عقد سلام مع الجزائر".

ورغم أن الصحيفة التى روجت لهذا القول تراجعت عنه، بعد ذلك، وقالت إنه لم يأت من مصدر حكومى، فى الأصل، فإن نشر هذا الكلام فى هذا الموعد جاء مناسباً لتهدئة الحماس للتبرع حتى وإن كان قد سمح لإدارة واشنطن بتأكيد دورها فى السياسات العامة[١٩].

وأيا كانت الأسباب فيوم عيد الشكر لم تجمع فيه الأموال المتوقعة. وكتب وليم بنتيلى فى ساليم يقول إن "الإقبال كان ضعيفاً. والتبرع للفقراء تجاوز عشرة جنيهات إسترلينية... لم يكن التبرع فى كل الأبرشيات وعندما كان هنـاك تبرع فقـد كان للفقـراء فقط". ولم تجمع بورتسموث، فى نيوهامبشير، حيث ولدت الفكرة أكثر من ٦٥٠ دولاراً، وفى ألبانى جمعت أبرشية للإصلاحيين الهولنديين ١٣٠ دولاراً، وجمعت كنيسة فريبـورت، فى مين، ٩٠ دولاراً، وجمعـت مدن مين الأخرى بين ٢٠ و ١٠٠ دولار، لكل منها. ووعدت برونزويك بالمساهمة حين يعود الكاهن من رحلته[٢٠].

واكتشفت مدن مين أن غيـاب المسـاندة الرسمية تسبب فى مشكلة أخرى: فبعد جمع المال، لم يكونوا يعرفون ماذا يمكنهم أن يفعلوا به. وعندما قال كهنة مين، فى البداية، إنهم ليسوا مخولين بجمع المال، رد أحد أفراد الشعب "هل نحن بحاجة إلى إذن رسمى حتى نغزى المخزون ونواسى الذين ينتخبون" ؟ لدينا الإذن، ومن يد الرب الرحمن أيضاً ! ولكن بعد أن أصبح لديهم تفويض إلهى اكتشف المتبرعون أنهم بحاجة إلى مراجع حسابات دنيوى. سألوا الصحف فى بوسطن عن الجـهة التى يبعثون إليها بالأموال التى جمعـت ومن الذى سيضمن أنها ستصل إلى الأسرى. "فى الوقت الراهـن نحن نتحرك فى الظـلام - لكننـا نتوقع أن توافينـا مطبعتكم، كل أسبوع، بإفادة حول هذا الأمر"[٢١].

ورغم فشل يوم عيد الشكر كمناسبة خيرية، فقد كان ناجحاً من نواح أخرى. فقد ذكرت "ميركورى" فى بوسطن أن "الاتحاديين ومناهضيهم، واليعاقبة والجمهوريين، على تنوع مذاهبهم " ضموا صفوفهم فى ذلك اليوم ليتقاسموا التبريكات و"فقدت روح التحزب كثيراً من قوتها" عندما عانق بعضهم بعضاً. "خفق كل قلب بالرضا الدافئ، وأضاء كل وجه بنور المسرة، ونطق كل لسان بالعرفان لما نحن فيه من رخاء لا يضاهى" ولكن، وكما كان هيراقليطس وإسيكس يتوقعان فقد طوى النسيان الأسرى فى غمرة الزهو القومى[٢٢].

وركزت عظات يوم عيد الشكر، كما كان واشنطن يريد، على فضائل الشعب الأمريكى وليس على نقائصه الأخلاقية. وعالجت العظات، كلها تقريباً، الموضوعات التى اقترحها واشنطن: أن أمريكا نجت من اضطرابات العالم القديم وأن الشعب الأمريكى له هدفه الخاص. "من الذى يشبهكم ؟" هكذا سأل أبييل هولمز المصلين فى كابريدج، ماساشوسيتى، وبعد أن نظر فى أحوال الدنيا، لم يجد لهم مثيلاً. فإفريقيا التى كانت فى يوم من الأيام أرض الدول المزدهرة ها هى "ترقد مدفونة فى جهل وبربرية عميقين". وأهل آسيا، الذين يعيشون فى إقليم شاسع ومثمر قضت عليهم حكوماتهم بالحرمان الأبدى من "نور العلم، والدين الحقيقى، والحرية". وفى كل آسيا، ليس هناك أحرار حقيقيون سوى التتار والعرب، لكن هولمز لم يكن يقدر كرامتهم وسعادتهم تقديراً عالياً، فقد قارن التتار بالهنود الأمريكيين وقال إن العرب "لصوص وقراصنة". وتحدث فى فيرجينيا المطران جيمس ماديسون رئيس جامعة وليم ومارى وابن عم الرجل الذى يحمل الاسم ذاته والذى سيصبح، فيما بعد، رئيساً للجمهورية، حول الكيفية التى تمكن بها "أسلافنا وسط الدمار الذى لحق بحقوق الإنسان والعواصف الجائحة التى أطلقها الطموح، فى أحوال كثيرة، لتغمر شعوب الشرق" من الحفاظ على "جزء صغير من ذلك الروح الأثيرى، ذلك الحب العميق للحرية، الذى يتوهج فى صدر الأمريكى"(٢٣).

وكان الأب آيزاك ستورى فى ماربلهيد استثناء من حيث أنه ركز فى عظته يوم عيد الشكر على الأسرى. وكان ستورى قد ألقى موعظة يوم الأحد الذى سبق عيد الشكر حث فيها المصلين على أن يفتحوا قلوبهم وجيوبهم يوم الخميس التالى. واتخذ من الآية ١٠: ٢ من سفر الخروج نصا ليوم الأحد: (ولما كبر الولد جاءت به إلى فرعون فصار لها ابنًا، ودعت اسمه "موسى" وقالت : "إنى انتشلته من الماء"). ومر ستورى بهذا النص على عديد من القضايا العميقة : الأسرى (الذين كان يأمل أن يسحبهم أهل أبرشيته عبر الماء عائدين بهم إلى الوطن) وعلاقة أمريكا مع إنكلترا، وشخصية جورج واشنطن، وطبيعة المجتمع الأمريكى. وذكر ستورى المصلين بأن فرعون حاول أن يقمع الإسرائيليين، الذين كانوا يريدون التمتع "بحقوق وامتيازات الأحرار". ولم تكن هذه المرة الأولى، ولا كانت الأخيرة، التى اتخذ فيها الناس قصة

موسى رمزًا لنضالهم ضد الطغيان. وقارن ستورى بين موسى وواشنطن حيث إن الاثنين كانت لهما "روح نزيهة، وإعلاء لمصلحة الأمة على أى اعتبار آخر". وقد تخلى موسى عن مركز فى بلاط فرعون ليقترن بقضية بلده، تمامًا كما فعل واشنطن. لكن ستورى مضى بهذه المقارنة إلى اتجاه جديد، بنقل التركيز من واشنطن إلى آخرين يشبهون موسى "يمثلون أعظم الشخصيات على صفحات التاريخ" أولئك الذين "انتشلوا من الماء" دون أن يتميزوا بالميلاد، وأصبحوا قادة الأمم بعد أن كبروا. لقد تعلم موسى العظمة، ولم يكتسبها بالمولد. وبتعليم مشابه فإن أى طفل يمكن أن يبلغ العظمة عندما يكبر، وقال ستورى للمصلين إن أبناء فقراء المدينة، أطفال الشحاذين "يمكن أن يحكموا المدينة مستقبلاً" إذا عملت المدينة على تعليمهم. وقال ستورى للمصلين أن عليهم واجبا أخلاقيا لتعليم الفقراء، لانتشال العبد المهان والمحتقر(٢٤).

وشأن هيراقليطوس وغيره من كتاب الالتماسات، فقد كان ستورى يخشى أن لا ينهض أهل أبرشيته بواجبهم الأخلاقى. وبعد أن طلب منهم أن يعلموا الفقراء، فقد طلب منهم أن يتخيلوا أنفسهم سجناء فى الجزائر، مشدودى الوثاق إلى المجذاف وموضع تجاهل من أهل وطنهم. لا بد أن الأسرى الذى تجاهلهم الجميع يلعنون إخوانهم فى أرض الوطن الذين لا قلوب لهم، لكن الأمريكيين فاقدى الضمير يجب أن يكون خوفهم الأكبر هو من غضب الرب. فالأسرى لم يرغبوا فى أن "يبقوا عبئًا دائمًا عليكم، حسبكم أن تخلصوهم وسوف يعتنون هم بأمورهم، بل وربما كانوا، فيما بعد، مصدر عون لكم أو لذويكم". لقد أسدت ابنة فرعون (فى التوراة وامرأة فرعون فى القرآن الكريم – المترجم) أعظم معروف للإنسانية، بعمل أعظم من "كل عظمة البلاط" وأقيم "من كل المجوهرات والزينات التى يتحلون بها". وشأن ابنة فرعون، فإن الشعب الأمريكى بوسعه أن يفعل أشياء عظيمة. بوسعه أن يفعل أكثر من تعليم الأطفال أو تحرير الأسرى. فهذه الأفعال هى وسائل لغاية تمكن الأمريكيين من أن يقرروا أى نوع من الأمم هم. هل يختارون لآلئ القلب أم لآلئ البلاط ؟ كانت رسالة ستورى فى عيد الشكر هى أن "الروح العامة فى المجال الخاص هى مشهد محمود" وأمر رائع.

هذه هى الرسالة التى كان هيراقليطس وغيره من الدعاة كانوا يريدون بثها فى ذلك اليوم، رغم أن ستورى كان الوحيد الذى تصرف بما تقتضيه المناسبة[٢٥].

ومن المحتمل أن الدعاة إلى الإحسان، مثل ستورى، ممن يريدون أن يروا الروح العامة فى المجال الخاص، قد أدهشهم أن يسمعوا مقارنة بين دوافعهم الخيرية وبين ثورة الويسكى واليعقوبية الفرنسية. وإن كان أدهشهم أن يهاجم حماسهم الإنسانى باعتباره خطوة نحو الفوضى، فلا بد أن صمويل سيبرى من نيو لندن، كونيكتيكت قد أدهشه أن يهاجم إحسانه باعتباره خطوة باتجاه النظام الملكى. لم يعلم صمويل سيبرى مطران الكنيسة الأسقفية فى كونيكتيكت ورود آيلند بخطة بورتسموث إلا متأخراً. ورغم ذلك فقد أراد أن يشارك. وفى يوم عيد الشكر فى ١٩ فبراير، نشر خطاباً فى أكبر الصحف فى مطرانيته يدعو فيها الكنـــائس الأسقفية فى كونيكتيكـت ورود آيلند للتبرع يوم الأحد الثالث فى مارس. ووقع رسالته باسم صمويل أسقف كونيكتيكت ورود آيلند"[٢٦].

وسرعان ما أدين سيبرى لاتخاذه "لقبا مهنيا" وجاء الهجوم من كاتب وقع باسم "كونيكتيكت ورود آيلند" عنف سيبرى لأنه اتخذ "أسلوبا أميريا" بإصداره "أمراً ثابت القداسة وثابت الملكية" من "قصره الأسقفى" فى نيو لندن. وأدان هذا الناقد المجهول سيبرى على "التعبير المتعاظم عن الكبرياء والإحسان الكهنوتيين" وانتقد المطران باسم "الشعب السيد" لاستخدامه لقباً لم ينله "بالإرادة الإلهية" ولا بالموافقة الشعبية. لكن لا الدولة ولا الدستور الاتحادى ولا "صوت الشعب" يكرسون المطارنة، كما أن ستيرن أظهر "تعبيراً مزعجاً عن الكبرياء الأرستقراطى وظمأ إلى السيطرة" عندما أسمى نفسه مطران كونيكتيكت ورود آيلند بدلاً من "المطران المنتظر لكونيكتيكت ورود آيلند" أو مطران ست وثلاثين كنيسة اعترفت بصفته تلك[٢٧].

وتذكر ذلك الكاتب المجهول أن صمويل سيبرى، عندما كان قسا إنجيليا فى نيويورك فى أوائل سبعينيات ذلك القرن، الحركة الساعية للاستقلال وخاض حرب الرسائل ضد أليكساندر هاميلتون الشاب، فى السنوات التى سبقت الثـورة. والآن فـإن سيبرى،

كما يتهمه هذا الناقد، هو "مواطن مختال في بلد يعارض حريته" جاهلاً أن في الأرض الجديدة "التي قامت على الفضائل الكبرى" لا توجد حاجة حقيقية "للهرج الزائف المتمثل في قبعة الأسقف أو تاجه" فإشارة سيبري البسيطة إلى الإحسان أثارت قضايا أكثر إلحاحًا من مصير ١٠٠ رجل في الجزائر. وتذكر هذا الكاتب المجهول الخوف الذي ظهر قبل الثورة من أن إنكلترا كانت تعد لفرض كنيسة إنجيلية راسخة، بكامل الأساقفة وعلامات الكاثوليكية على المستعمرات الأبرشانية، لم يكن التوتر بين الكنيسة والدولة قد تم حله. وكانت فيرجينيا قد أصدرت قانونها الذي يسمح بالحرية الدينية قبل عشر سنوات، فقط، وتبعتها قلة من الولايات الأخرى.

وفي كونيكتيكت، حيث سيطرت الكنيسة الأبرشانية على المجتمع، تم تجاهل يوم عيد الشكر، تقريبًا، لأنه حل في أثناء الصوم الكبير. واتهم كاتب أسمى نفسه "الحقيقة الخالصة" الأبرشانيين بإهانة الشعب والحكومة في الولايات المتحدة، بالتقاعس عن احترام إعلان واشنطن. ففي معرض الدفاع عن الأبرشانيين حول أحد "رجال الكنيسة" القضية إلى قضية فصل بين الكنيسة والدولة، وقضية طاعة الحكومة أم طاعة الرب. "نحن نعيش في زمن يفخر باستنارته، بخاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان" هكذا قال رجل الكنيسة "وفي بلد يفخر بانفتاحه وبحرية مشاعره – حيث حقوق الضمير متساوية وآمنة". وقال رجل الكنيسة إن واشنطن خصص يومًا للشكر، خلال موسم الصوم عند الكنيسة ولم يبق أمام الأبرشانيين إلا أن يختاروا بين إلتزاماتهم الدينية وواجباتهم العلمانية. وقد تجاهل الأبرشانيون قانونا حكوميا يعاكس ثوابتهم الدينية. وكان إكلزيا سيتكوس قد حذر قراءه من أن يتركوا حماسهم الديني يتغلب على شعورهم باللياقة السياسية. وقد دفع رجل الكنيسة، هو الآخر، بالفصل بين الالتزامات السياسية والدينية. لكن ذلك كان يعني، بالنسبة له، أن الحكومة يجب أن تترك الدين وشأنه، لا أن يتجنب المتدينون من الرجال والنساء أمور الحكم. وهذه المجادلات – حول الكنيسة والدولة، وحول مسؤولية الحكومة، وحول حقوق الناس وواجباتهم – نبعت كلها من

عذابات الأسرى الأمريكيين في الجزائر. ضاع الأسرى في صخب الجدل، بعد أن بدا أن مواطنيهم نسوا عذابهم البعيد في عاصفة الجدل حول آفاق الحاضر والمستقبل للدولة التي خلفها الأسرى وراءهم(٢٨).

وبعد عيد الشكر بثلاثة أيام حل يوم آخر للبهجة القومية مع احتفال الأمريكيين بالعيد الثالث والستين لجورج واشنطن. وفي واشنطن، حضر ١٥٠ من السيدات والسادة، بمن فيهم مسؤولو الحكومة والسلك الدبلوماسي حفلاً راقصًا وعشاء أقيما على شرف واشنطن. وأحد الأنخاب التي رفعت تحية للرئيس، حدد موقفه من الأسرى، بدقة. "إخواننا المواطنون في الجزائر- عسى أن تثمر جهود حكومتنا تحريرهم العاجل" وقد أثمرت هذه الجهود، وأثبتت الحكومة التي يقودها واشنطن أنها على مستوى المهمة. وفي وقت لاحق من ١٧٩٥، اتفقت الولايات المتحدة والجزائر على معاهدة، وبعد ذلك بسنتين، وقبل أن يكمل واشنطن الخامسة والستين في ١٧٩٧، عاد ستون من الأسرى الباقين على قيد الحياة إلى الولايات المتحدة. وأدى حضورهم في الاحتفالات المختلفة بعيد ميلاد واشنطن إلى زيادة "بهجة اليوم"، كما قالت إحدى الصحف. وفي غلوستر، بماساشوسيتس استقبل الأسير السابق صمويل كالدر أفواجًا من أهل مدينته و "عبر بكل حيوية عن عرفانه لاهتمامهم الودود" وعاد زواره إلى منازلهم "ليتفكروا في الأحداث السارة للعهد المجيد"(٢٩).

وأوصى جويل بارلو الذي تفاوض حول المعاهدة مع الجزائر، أن توجه التبرعات للأسرى العائدين، الذين أصبح بعضهم عاجزًا عن إعانة نفسه. لكن بارلو أقر أنه من "سوء الأدب" أن يوجه الحكومة إلى ما يجب عمله، وترك لحكومة الولايات المتحدة والشعب الأمريكي الحرية في أن يقرروا من الذي يتعين عليه أن يساند الأسرى. وامتدحت غازيت أوف ذا يونايتد ستيس الاتحادية النزعة بارلو الجمهوري لتواضعه وحثت غيره من الجمهوريين على أن يحذوا حذوه ويتركوا الحكومة تقرر ما تراه. وسر الغازيت أن كثيراً من الأسرى تمكنوا من العثور على وظائف وعادوا إلى العمل بسرعة(٣٠).

وقد شعرت الحكومة الأمريكية والإدارة الفيدرالية أنها فعلت ما يكفى، بالفعل، من أجل الأسرى بإنفاق ٨٠٠,٠٠٠ دولار إعادتهم لأرض الوطن. لم يتسلم الستون أسيراً الذين عادوا إلى فيلادلفيا فى فبراير ١٧٧٩ شيئاً من حكومتهم. ولم يحرك وجودهم فى العاصمة الرئيس واشنطن لكى يصادق على التبرعات العامة أو الخاصة. لكن أفراداً آخرين رقُّوا لهؤلاء المعذبين. وطول شتاء ١٧٩٦ و١٧٩٧ كان رجل أعمال يسمى سانت مارى يسلى أهل فيلادلفيا بالفيل الذى يملكه. كان يخطط للرحيل إلى بالتيمور، ولكن عندما وصل الأسرى وقرأ نداء جويل بارلو الداعى إلى التبرع، بقى سانت مارى ومعه فيله فى فيلادلفيا. وأعلن عرض خاص للفيل لصالح الأسرى، مشيراً إلى أنه سوف يهدى كل الإيرادات لهم. ودعا الرجال الذين تم تحريرهم إلى تشريف فيله بحضورهم عرضا خاصا. وجاء من بعض من افتدوا ليروا سانت مارى وفيله، وجاء غيرهم من أهل فيلادلفيا لرؤية الفيل والرجال الذين تحملوا كل هذا العذاب. ورأى الأسرى الفيل، وأعطاهم سانت مارى إيرادات ذلك اليوم، وغادر الرجال المحررون فيلادلفيا آخذين معهم كل ما أمكن لحكومتهم أن تعطيهم إياه[٣١].

وامتدح القبطان جون فوس، الذى كان يتساءل فى ١٧٩٤ عما أخَّر بلاده كل هذا التأخير قبل تخليصه، الكرم الأمريكى فى مذكراته فى ١٧٩٨:

هذا الكرم من الولايات المتحدة تجاهنا نحن مواطنيها المستعبدين كانت له قيمة لا تقدر. وهو أكثر قيمة لأنه لم يكن متوقعاً. فما من أمة فى العالم المسيحى صنعت مثل هذا لرعاياها الذين كانوا فى مثل ظروفنا. وقد أرست الحكومة الجمهورية فى الولايات المتحدة نموذجا إنسانيا لكل حكومات العالم.

هذا السخاء الوطنى علم "البرابرة الذين لا يعرفون الرحمة" أن يروا "شخصية الأمريكيين... فى أرقى ضوء" فهتف الجزائريون قائلين : "لا بد أن يكون الشعب الأمريكى أفضل شعوب العالم حتى يظهر كل هذه الإنسانية وكل هذا السخاء تجاه أبناء وطنه المستعبدين"[٣٢].

لقد أجبر الأسر في دول البربر كلا من الأمريكيين الأسرى والأمريكيين في أرض الوطن على أن يقرروا أي شعب هم. وقد كانت مهمة تقرير الهوية أسهل، بشكل ما، على الرجال المأسورين، الذين تعين عليهم، فقط، أن يبقوا على قيد الحياة لكي يبرهنوا على هويتهم. وقد بقي معظمهم حيا. كتب بعضهم عن تجاربهم، واعتبر البعض الآخر أن الأسر كان من تبعات الحياة في البحر. وبالنسبة لمواطنيهم الباقين في البلاد فقد أثار الأسر عدداً من القضايا المزعجة أي نوع من الشعوب نحن، حتى نترك إخواننا في الأغلال؟ هكذا تساءل البعض ممن كان قلقهم عميقًا بخصوص الشخصية الأخلاقية لبلادهم. وكان آخرون أكثر قلقًا حول الشخصية السياسية للبلاد. وتساءل البعض، لماذا ننتخب حكومة إذا كنا نعطي أنفسنا حق القيام بوظيفتها؟ وتساءل آخرون: أي نوع من الحكومات الجمهورية ذلك الذي لا يريد من مواطنيه أن يشاركوه ؟

ولم يبد أن أيا من الاجابات المطروحة ردا على هذه الأسئلة السياسية أو الخلقية المتعلقة بالشخصية مقنع بشكل كاف. لقد أدى تخليص وتحرير الأسرى إلى حل قضية واحدة ، لكن المشاكل الأعمق التي أخرجها وقوعهم في الأسر إلى السطح بقيت قائمة: العبودية، وسلطة الحكومة، والقدرة الأخلاقية لدى الشعب الأمريكي على معالجة القضيتين.

الفصل السابع

القناصل الأمريكيون فى العالم المسلم

مرت السنوات بين ١٧٩٦، عندما وقعت الولايات المتحدة مع الجزائر معاهدة و١٨٠١ عندما دارت الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس الغرب هادئة لم يحدث فيها كثير من الأحداث المهمة. لكن إهمال هذه السنوات هو قراءة خاطئة للتاريخ. إذا تجاهلنا سنوات السلام بين الولايات المتحدة ودول البربر، فقد نستنتج أن الحرب كانت الوضع الطبيعى بين العالمين، وقد نقع فى تصور خاطئ مفاده أن الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس الغرب كانت استمراراً للحرب الأمريكية - الجزائرية، قد نراها تطورا حتميا وبهذا فإننا نفشل فى فهم الكيفية التى تبدأ بها الحروب، وقد نفشل فى التعامل مع المشاكل المعقدة للدبلوماسية والعلاقات التجارية بين الناس، والمجتمعات والأمم.

وعندما أصبح جون آدامز رئيساً فى١٧٩٧ كانت الولايات المتحدة فى حالة سلام مع دول البربر، لكنها كانت توشك أن تدخل فى حرب مع فرنسا. وكانت الحرب مع فرنسا ستتحول إلى مدار اهتمام إدارته، مع تحول السفن التجارية الأمريكية إلى ضحايا لهجمات الطرادات الفرنسية، والاشتباك بين السفن الحربية الأمريكية والفرنسية فى الكاريبى وفى أماكن أخرى. وسجلت شركة تأمين من بوسطن فى ١٧٩٨ أن فرنسا استولت على ما يساوى ٢٠٠,٠٠٠ دولار، على وجه التقريب، من الشحنات البحرية الأمريكية، فى السنة السابقة، واستولت بريطانيا على ما يساوى ٤٠,٠٠٠ دولار. كانت دول البربر قد استولت على سفينة واحدة، فقط، وكانت مركبا شراعيا من بوسطن يدعى "إليزا" قدرت قيمته بنحو ١٢,٠٠٠ فرنك فرنسى. كانت فرنسا أشد

خطراً على التجارة الأمريكية من الدول المسلمة فى شمال إفريقيا. ورغم أن المتوسط بدا آمنا فلم يكن آدامز ينوى تجاهله. كان مصرا على المحافظة على السلم، وقد أخبر الكونغرس بأنه، رغم أن الولايات المتحدة ليس بمقدورها أن تتطلع إلى تجنب الاحتكاك بدول البربر، أو إلى تجنب "المشكلات التى تنشأ عن سوء التصرف من جانب سفننا التجارية أو حتى سوء الحظ" الذى يحالفها فى المتوسط، فإن الولايات المتحدة بوسعها تقليص هذه المشكلات بتعيين قنصل عام فى الجزائر، يمكن أن تناط به مسؤوليات واسعة سياسية وتجارية[1].

كان اختيار آدامز قد استقر بالفعل على ريتشارد أوبرايان ليكون القنصل العام فى الجزائر. وقد كان أوبرايان، الذى ظل أسيراً عشرة أعوام فى الجزائر، قنصل الأمر الواقع الأمريكى فى تلك البلاد، فى أثناء أسره، إذ قام بدور الناطق باسم الأسرى الأمريكيين الآخرين والمستشار لسلسلة من الوكلاء والقناصل الرسميين الذين بعثت بهم الولايات المتحدة للتفاوض مع الداى. وقد راسل آدامز وجيفرسون وجون جاى والكونغرس الأمريكى وأصبحوا جميعًا أكثر اعتماداً على مشورته حول الشؤون البربرية، أكثر مما اعتمدوا على الوكلاء الذين أرسلوهم للتفاوض. وبعد إطلاقه فى ١٧٩٦ افتتح أوبرايان المفاوضات مع كل من طرابلس الغرب وتونس. وفى الولايات المتحدة فى ١٧٩٧ أشرف على بناء ثلاث طرادات لحساب الداى حسن. وطلبت وزارة الخارجية رأى أوبرايان فى عديد من الأمور المتصلة بدول البربر فى ربيع ١٧٩٧ وكتب أوبرايان تقريرين مطولين يغطيان كل الأمور العديدة والمتنوعة التى تهم وتتعلق بالمصالح والسياسات الأمريكية فى المتوسط.

وأوصى أوبرايان بأن يذهب جويل بارلو، الذى كان لا يزال فى الجزائر قنصلاً بعد نجاحه فى التفاوض حول معاهدة ١٧٩٥، إلى إسطنبول، حيث كان يمكن له "موازنة نفوذ الأمم المسيحية" لدى الباب العالى. لكن بارلو لم يبد اهتمامًا بهذا الدور أو بالبقاء فى الجزائر، رغم أن أوبرايان اعتبره الأكثر تأهيلاً للوظيفة. كان أوبرايان يعلم أن الولايات المتحدة تحتاج إلى إرسال الشخص المناسب إلى الجزائر قنصلا عاما - وعلى وجه السرعة. وعندما لم يتقدم شخص أفضل، وافق أوبرايان على الذهاب.

كان أوبرايان يعلم أن الولايات المتحدة محتاجة إلى أن تتصرف وحدها، ولم يكن بوسعها أن تعتمد على صنيع تسديه إليها أوروبا المسيحية. ففرنسا كانت فى حرب مع الأمريكيين، وكان أوبرايان يتذكر أن بريطانيا هى التى حرضت الجزائر على محاربة الولايات المتحدة فى ١٧٨٥ وفى ١٧٩٣. كان البحث عن الصداقة مع القوى الأوروبية أو توقع أى نوع من التضامن المسيحى ضد الدول المسلمة فى شمال إفريقيا خطأ جسيما. فقد خرج أوبرايان من سنواته فى الأسر، ومن خبراته باعتباره قبطان سفينة تجارية يتفاوض فوق أرصفة الموانئ فى كل أنحاء العالم، برأى واضح وغير عاطفى فى الطبيعة البشرية والعلاقات الدولية. وقد اقتسم رؤيته لعلاقات القوة مع داى الجزائر الذى قال له إنه فى السياسة الدولية فإن الأمم الكبرى "تسن القوانين التى تخدمها" و"السمك الكبير يأكل السمك الصغير". وأدرك أوبرايان أن دول البربر تعمل خارج نطاق القانون الدولى، "لا علاقة لها ببلاكستون أو فاتيل" (السيد وليم بلاكستون فقيه القانون الإنكليزى الأكبر وإيمير فاتيل فقيه القانون الدولى الفرنسى الأكبر فى القرن الثامن عشر- المترجم) اللذين اعتبرتهما دول البربر وبرايان مجرد مقننين لعلاقات القوة فى أوروبا. ورغم إحجام هذه الدول عن اتباع تفسير أوروبى للقانون الدولى، فلم يكن أوبرايان يرى دول البربر أسوأ من بريطانيا أو فرنسا، السمك الكبير الذى ارتكب من أعمال النهب ما هو أسوأ مما ارتكبته "الشعوب الموصومة بالقرصنة فى بلاد البربر"(٢).

وقد تأكدت صحة هذا الرأى عندما وصل أوبرايان إلى الجزائر فى ١٧٩٨، فقد وجد ثلاث سفن تجارية أمريكية فى الميناء، مختبئة من قراصنة الحكومة الإسبان والفرنسيين. فالسلام مع الدول البربرية ومع تركيا كان من شأنه أن يمنح الأمريكيين مزيداً من الحماية ضد دول أوروبا ويساعدهم على ضمان حرية التجارة فى المتوسط. لكن أوبرايان حذر من أنه إذا لم تتحرك الولايات المتحدة للمحافظة على سلامها مع دول البربر "فأنا أخشى أن ينهار السلام وتنهار آمالنا فى حصة من الفروع القيمة للتجارة فى المتوسط المعرضة للخطر"(٣).

وقد أشار أوبرايان على الولايات المتحدة، وبما يتوافق مع رؤيته لعلاقات القوة، بأن تبنى سلاحها البحرى. فقد أراد زيادة الأسطول البحرى المكون من ست فرقاطات، الذى كان تحت الإنشاء، زيادة كبيرة، بإضافة ست بوارج وست سلوبات حربية (SLOOP سفينة ذات شراع واحد – المترجم) وست بريغيات (BRIG سفينة ذات شراعين – المترجم) وست سكونات (SCHOONER سفينة ذات شراعين أو أكثر – المترجم) وسلوبين أصغر حجمًا، وأسطول من الطرادات الصغيرة. وإذا كانت هذه البحرية مكلفة بأكثر مما هو مستطاع، فقد اقترح أوبرايان نسخة مبسطة – بارجتين وسلوبين وثلاث بريغيات وثلاث سكونات وأحد عشر قاربًا لصيد الحيتان، يحمل كل واحد منهما مدفعًا من مدافع الأرطال الستة. ويمكن لقوارب صيد الحيتان جمع الاستخبارات ونقل الرسائل، وتكون نافعة فى البحيرات والأنهار ويمكن أن تشتغل بالتجارة. ولا بد للولايات المتحدة من إقامة مدارس لتدريب البحارة. وتوقع أوبرايان أن تكون الحرب التالية، سواء مع فرنسا أو إسبانيا أو إنكلترا حربًا مع القراصنة الحكوميين (قراصنة ينهبون السفن الأجنبية بتكليف من حكوماتهم وبناء على تعاقد معها، يعطى الحكومة حصة مما ينهبون، وإن كانت حصيلة النهب البرى تعود لهم وحدهم، وقد يكون أشهرهم هنرى مورغان الذى حصل على لقب فارس وأصبح السير هنرى– المترجم) والبحرية المنتشرة فى أنحاء العالم والقناصل الأمريكيون فى الموانئ البعيدة، قد يكونون جزءا حيويا من الدفاع الوطنى، وعندما جاءت الحرب أوصى أوبرايان بفرض الحظر على الموانئ وبوقف التجارة الأمريكية وإجبار "أساطيل القراصنة تلك ولصوص البحر على العودة إلى أوروبا"(٤).

وقد كان رد المعتدين الإنكليز والفرنسيين إلى أوروبا نتيجة واحدة فقط لهذا الحظر. وبقطع إمدادات الغذاء عن الهند الغربية كان ممكنًا للولايات المتحدة دفع العبيد فى تلك الجزر إلى التمرد. وقال أوبرايان "تملك الولايات المتحدة كثيرًا من مقدرات تلك الجزر بيديها، فى الوقت الحاضر"، وكلما كانت ثورة الزنوج أسرع وكان استقلال جزر الهند الغربية تحت حكم السود أقرب كلما كان هذا أفضل لبلدنا "فاستقلال الجزر وحرية أهلها يعنيان التوسع التجارى بالنسبة للأمريكيين. لكن أوبرايان بعد أن قضى

عشر سنوات فى الجزائر ينتظر أن تمنحه الولايات المتحدة حريته، لم يكن متفائلاً بأن الأمة ستنتهز الفرص المتاحة لها"[٥].

وقد أراد أوبرايان أن تحترم الولايات المتحدة معاهداتها فى المتوسط، وأن تقوم بإرسال الذخائر العسكرية وغيرها من مكونات الجزية الموعودة للجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وقد نصت المعاهدة مع الجزائر على أن ترسل الولايات المتحدة إلى الداى ما قيمته ٢٠,٠٠٠ دولار من الإمدادات البحرية، كل سنة. ولم تعد الولايات المتحدة تونس أو طرابلس الغرب بإمدادات سنوية لكنها وعدت بهدايا ضخمة. هذه الهدايا، وتلك التى يتوقع أن يقدمها القناصل عندما يصلون وعندما يغادرون، وفى مختلف المناسبات الرسمية، كانت ثمن السلام فى المتوسط. وقد أراد أوبرايان أن تحفظ الولايات المتحدة هذا السلام بالدفع الفورى لتضمن بذلك قاعدة محايدة فى شمال إفريقيا وغرب المتوسط ضد أعمال النهب الأوروبية.

وقد وصل أوبرايان إلى الجزائر فى فبراير ١٧٩٨ على ظهر الفرقاطة "الهلال" التى بنيت فى بورتسموث، هامبشير، هدية إلى الداى حسن. وعندما وصل هو و"الهلال" إلى الجزائر فإن السفينة التجارية الجزائرية "موكينى" كانت تفرغ شحنتها فى بالتيمور، وكانت أول سفينة تجارية من الجزائر تعبر الأطلسى. ورغم هذه العلامات على تحسن العلاقات، فقد قابلت المتاعب أوبرايان فى الجزائر. كانت الولايات المتحدة، حتى ذلك الوقت، متقاعسة عن تسليم الذخائر العسكرية الموعود بها وفقًا للمعاهدة، وما وصل منها كان يحتوى على أخشاب لبناء السفن وقذاف مدفعية أصغر مما يجب (وعلم أوبرايان أن الجزائر والولايات المتحدة استعملتا معايير قياسية متباينة) وكان قماش القلوع مهترئًا. واضطر أوبرايان إلى اقتراض المزيد من المال من ديفيد وسولومون بكرى، أهم مصرفيين فى الجزائر، وكان قد أقرضا الولايات المتحدة، بالفعل، ٤٠,٠٠٠ دولار خلال مفاوضات ١٧٩٥. وإضافة إلى هذا الدين كانت الولايات المتحدة مدينة للجزائر بنحو ١٠٠,٠٠٠ دولار قيمة شحنتين من الذخائر البحرية التى لم تصل (٢٠,٠٠٠ دولار لكل منهما) وقيمة الهدايا التى كان متوقعاً أن يقدمها أوبرايان باعتباره قنصلاً جديداً،

لدى وصوله، إضافة إلى الهدايا السنوية المعتادة، التى قدم آخرها فى ١٧٩٦. واقترض أوبرايان ٤٠,٠٠٠ دولار أخرى من البكريين أعطاها للداى[٦].

ووجد أوبرايان أن مكانة الولايات المتحدة لدى الجزائريين متدنية للغاية، كنتيجة لحادثتين تظهران مشكلات ممارسة التجارة الشريفة فى المتوسط. فالمغامرات سيئة الحظ لسفينتين - "فورتشن" المملوكة للبكريين و"إليزا" وهى سكونة من بوسطن - إضافة إلى عجز الأمريكيين عن دفع الجزية بسرعة، جعلت كثيرين على الساحل البربرى، من تجار وحكام، من يهود ومسلمين، من جزائريين وتونسيين، يفقدون الثقة بالأمريكيين ويعتبرونهم كذابين ولصوصاً.

وفى يناير ١٧٩٦ كانت "إليزا" فى جبل طارق تنتظر توصل الولايات المتحدة إلى سلام مع "القوى المحمدية". وعندما سمع مالكها إدوارد راند من بوسطن، وكان على متنها، شائعات عن السلام، قرر الإبحار فى المتوسط. وكانت الشائعات سابقة لأوانها - فلم تكن تونس وطرابلس وقعتا على معاهدات. وكان جويل، الموجود حتى ذلك الحين فى الجزائر، يخشى أن يبحر الأمريكيون من أمثال راند، بكل حماقة، إلى المتوسط بمجرد سماع شائعات زائفة عن السلام، وقد كان بارلو يعلم أن القباطنة الأمريكيين يمكن "أن يبحروا إلى فم الجحيم" ليبيعوا ما لديهم من سمك القد إن سمعوا أن الشيطان تحول إلى الكاثوليكية[٧].

ظن راند أن المتوسط سلم من أذى القوى البربرية، وهكذا فربما خفف من حرصه. وفى ميناء آدجيه الفرنسى سلبه رجال مسلحون ٨٠٠٠ دولار، وقضت "إليزا" ثلاثة أشهر هناك تنتظر أن تقبض الحكومة الفرنسية على اللصوص أو أن تعوض راند. ولم يحدث أى من الأمرين، وكان راند بحاجة يائسة إلى تعويض خسائره. وفى يونيو أبحرت "إليزا" إلى ملقا، لكن طرادا تونسيا أوقفها واعتبرها غنيمة. وقد أسر راند و "إليزا" قبل توقيع تونسى على اتفاق بعدم أسر سفن أمريكية، بيوم واحد.

هذا التتابع لمظاهر الحظ السيئ بالنسبة إلى راند كان سبب متاعب للولايات المتحدة. وقد وافق جويل بارلو، وهو فى الجزائر مشرفًا على مفاوضات الولايات المتحدة مع تونس،

على دفع ١٠,٠٠٠ دولار للتونسيين للإفراج عن "إليزا" وطاقمها. وظن أن بوسعه استخدام السفينة لنقل السجناء الأمريكيين الذين أطلق سراحهم من الجزائر إلى مارسيليا. وغادرت "إليزا" تونس محملة بشحنة قمح تخص البكريين وتاجرا يهوديا آخر هو سامبسون الذى أبحر معها.

لكن سوء حظ "إليزا" كان لا يزال مستمراً. قرر القبطان صمويل غريفز معاقبة سامبسون "على ما قاساه الأمريكيون فى بلاد البربر" وأمر بجلده وتغطيسه فى المحيط. وعندما وصلت "إليزا" إلى صقلية، أنزل غريفز سامبسون إلى البر وأقلع بالقمح الذى باعه فى قادش، ودفع الرسوم للقنصل الأمريكى هناك، وأبحر عائداً لبلاده بأرباح قمح سامبسون.

ونجح سامبسون فى العودة إلى الجزائر ليحتج لدى الداى حسن على وحشية الأمريكى. وطلب الداى، الذى كان ينتظر، فى قلق، الشحنات المتأخرة من الجزية الأمريكية، تفسيراً من جويل بارلو. قال حسن لبارلو "أنت كاذب وحكومتك كاذبة" وكان بارلو يدرك أن الموضوع كله كان "ضربة مخجلة ومذلة لأقصى درجة للشخصية الأمريكية فى بلاد البربر". واعتبرها التجار اليهود والمسلمون برهاناً على أنه لا يمكن الوثوق بالأمريكيين، بخاصة بعد أن علموا أن غريفز، وليس بعض اللصوص الفرنسيين المجهولين، هو من سرق ٨٠٠٠ دولار من راند فى آدجيه. فالأمريكيون لا يسرقون اليهود أو المسلمين فقط، بل ويسرق بعضهم بعضاً. وكان بارلو يعلم أنه رغم أن حكومته يمكن أن تعوض سامبسون والبكريين فإن حقيقة "الخسائر، فيما يخص الشرف والشخصية، لن يكون من السهل حصرها". لكنه نجح فى إقناع الداى حسن أن غريفز وسامبسون كان بينهما خلاف ما وأنه "ربما كان هناك ما يستحق اللوم، على الجانبين" وأن عاصفة أجبرت السفينة على الجنوح إلى صقلية. وتوسل إليه أن لا يعاقب سامبسون على المبالغة، ووعد بأن تعوضه الولايات المتحدة، هو والبكريين عن خسائرهما. ووصل أوبرايان إلى الجزائر فى ١٧٩٨ ومعه ٦٠٠٠ دولار لهما. وفى الولايات المتحدة لم يوفق إدوارد راند فى التماسه من حكومته بتعويض مماثل،

زاعمًا أن الولايات المتحدة كان يجب أن تحذره من التونسيين. وقد كانت الولايات المتحدة تدرك، إذا لم يكن راند يدرك، أن القراصنة التونسيين كانوا أهون مشكلاته(٨).

ونشب بين بارلو والبكريين خلاف آخر حول السفينة "فورتشن" التي كان بارلو أجرها من البكريين في ١٧٩٧ لتأخذ السجناء الأمريكيين إلى خارج الجزائر. ولأن الجزائر كانت في حالة حرب مع جنوا وتوسكانيا فلم يكن بارلو يريد لمجموعة الأمريكيين الذين قضوا سنوات في الأسر في الجزائر، أن يعتقلوا وهم في طريقهم إلى الحرية ويستعبدهم الإيطاليون. وليحول دون ذلك، سمح للسفينة بأن تبحر تحت علم أمريكا. وأدرك البكريون أن العلم الأمريكي يمكن أن يحمي السفن الجزائرية من الأسر بأيدي الإيطاليين، وهكذا فعندما وصلت "فورتشن" إلى مارسيليا، طلبوا من القنصل الأمريكي هناك جوزيف دونالدسون الذي ساعد في التفاوض على المعاهدة الأمريكية - الجزائرية أن يصدر مجموعة أوراق أمريكية للسفينة "فورتشن" التي يملكها البكريان، وإن كان طاقمها من الأمريكيين الذين كانوا سجناء في الجزائر، قبل ذلك، القمح من شمال إفريقيا إلى مارسيليا بل وإلى جنوا، تحت حماية العلم الأمريكي. ولكن على الرغم من أن العلم الأمريكي كان يحمي السفينة "فورتشن" من إيطاليا، فإن إنكلترا لم تكن تريد أن يتاجر أي إنسان، تحت أي علم، مع فرنسا. وأسرت فرقاطة إنكليزية "فورتشن" وأرسلت بالطاقم إلى الولايات المتحدة، وأخذت قمح البكريين غنيمة حرب.

وغضب البكريان وطلبا تعويضًا من الولايات المتحدة. وغضب بارلو أيضًا وعنف دونالدسون لأنه أعطى "فورتشن" أوراقًا أمريكية زائفة. وأظهر بارلو براعته الدبلوماسية بالخروج من هذا الموقف الصعب. كانت الولايات المتحدة، بالفعل، مثقلة بالديون للبكريين، وكان يعلم أن بلاده ما زالت تحتاج لاقتراض المزيد منها. فكتب إلى وزير الخارجية يقول : "من المعروف جيداً أن آل بكري هم ملوك الجزائر وأن معارضة مصالح الداي أسهل من معارضة مصالحهم". لكن بارلو هدد بفضح دور آل بكري في هذه الخدعة للداي، ووعد بتعويض البكريين عن جزء من خسائرهما. وغادر بارلو الجزائر،

سعيداً بالإفلات من هذه المشكلات، وتاركاً لأوبرايان مشكلات استعادة الثقة فى أمانة الأمريكيين ومصداقيتهم وشخصيتهم[٩].

وقد كان أوبرايان يعلم أنه لا يملك مهارات بارلو الدبلوماسية. وقد كان بوسع الأمريكيين أن يماطلوا البكريين اللذين كانا لا يزالان مستعدان لإقراض الولايات المتحدة ما دامت تعد بالسداد مع الفوائد. وكان بوسع أوبرايان أن يقول للداى حسن إن الجزية الواجبة له عطلها الشتاء القارس ووباء الحمى الصفراء. لكن أوبرايان لم يكن يستطيع أن يقول لماذا لم تمنع الحمى الصفراء والأنهار والموانئ المتجمدة السفن التجارية الأمريكية من المجىء إلى المتوسط. وأصبح يدرك أن نصائحه السديدة حول الشؤون الجزائرية، وإن جعلته يفوز بمنصب القنصل العام، فهى لم تقنع إدارة جون آدامز بأن تفعل ما يشير به. فبعد أن أرسلته الولايات المتحدة قنصلاً فقد تجاهلته، ولم تحترم الالتزامات المترتبة على المعاهدة ولم تستعد للحرب التى أصبح أوبرايان يدرك أنها محتومة. وإن كانت الولايات المتحدة اختارت ألا تحترم معاهداتها ، فلم يكن لديها خيار سوى الحرب أو الانسحاب من المتوسط. وحذر أوبرايان وزير الخارجية بيكرينغ[١٠] "تأكد يا سيدى أننا سنخوض حرباً".

قضى أوبرايان فى الجزائر عشر سنوات، بالفعل، ينتظر أن تتوصل بلاده إلى السلام، والآن بعد أن توصلت إلى السلام لم يعد يبدو أنها مهتمة بالحفاظ عليه. وقد جلب السلام مع الجزائر والملكيات الأخرى مليوناً ونصف مليون دولار أرباحاً للتجار الأمريكيين، فى السنة، هكذا كتب أوبرايان، والحرب ستتكلف مليوناً ونصف مليون دولار فى السنة" دون أية أرباح". وقد كان واجب الولايات المتحدة أن "تتصرف فى الموعد المناسب أو بقوة" لتحقق هذه الأرباح، متجنبة "الجمهرة الكامنة فى الجانب الآمن من السفينة، الكونغرس. "كان أوبرايان مستعداً لأن يفعل كل ما بوسعه فى الجزائر لمصلحة أمريكا، لكن لا أستطيع أن أكون نافعاً لهذا البلد وأنا لا أملك مالاً أو ائتماناً".

وقد وجد نفسه "كأنى فى سفينة فى العاصفة... محاولاً... أن أبقى فى إطار المسارات المحددة". وحتى تسلم الداى حسن الجزية الموعودة والطرادات الثلاثة التى

كلف الأمريكيين ببنائها، لم يكن بوسع بارلو إلا أن يماطل، وأن يقترض من البكريين ليدفع للجزائريين ولطرابلس الغرب وتونس "عائشًا على أمل الإغاثة مثل بحار فوق حطام سفينته"(١١).

وعندما وصلت السكونة "ليلة عيشة" أولى السكونات التى أمر بها حسن، أخيراً، إلى الجزائر فى يناير ١٧٩٩، كان حسن قد مات منذ عام تقريبًا، وطلب خليفته مصطفى بوبا أن تعتبر هدية. لقد أعطت الولايات المتحدة حسن "الهلال" هدية. ألم يكن هو، أيضًا، جديراً بهدية؟ ورغم أن أوبرايان لم يكن أمامه سوى الموافقة، فقد حاول أن يرفض. قال إنه لا يستطيع أن يتنازل عن السفينة، وأنه لا يملك إلا انتظار سداد ثمنها من مصطفى. ورفض مصطفى ذلك وأمر بتنكيس الراية الثلاثية الحمراء الخاصة بالجزائر والمعلقة فوق "ليلة عيشة"، فى أثناء وجودها فى الميناء، إشارة إلى أن السفينة غير مرحب بها. فإذا لم يكن بوسعه أن ينالها هدية، فهو لا يريدها. ورد أوبرايان بمناورة خطر له أن يقدم عليها. فأمر برفع العلم الأمريكى مكان الراية الثلاثية الجزائرية وبطلقة مدفع إعلانًا بالحرب.

الخيارات المتاحة لأوبرايان كانت محدودة. فقد كانت الجزائر، شأن الولايات المتحدة، فى حرب مع فرنسا، ولا تريد حرباً، بالفعل، مع الولايات المتحدة، رغم أن الأمريكيين لم يبرهنوا بقوة على رغبة فى القتال.

كان أوبرايان يعلم أن رئيس الوزراء ووزير البحرية يريدان الحفاظ على السلام مع أمريكا، لكنه كان يعلم أيضًا أنه لم يكن ليستطيع أن يمنع مصطفى من أخذ "ليلة عيشة". وقد كان بوسع أوبرايان أن يماطل بأن يطلب مهلة ليشاور حكومته، وربما كان ذلك أعطاه ستة أشهر أو سنة. لكنه كان يعلم أن بلاده لن ترد سريعًا: وقد جاءت "ليلة عيشة" لأوبرايان بأول أخبار رسمية من الولايات المتحدة تصله منذ عام، تقريبًا. ولم يكن محتملاً أن ترد الولايات المتحدة بسرعة على أى طلب بالتعليمات وكان مستحيلاً أن يتلقى تعليمات تخوله الاحتفاظ بالسفينة.

وكما جرى مع بارلو، فقد وجد أوبرايان نفسه فى مركز الضعف. وقرر المساومة متظاهراً بالقوة. كان يعلم أن رئيس الوزراء يريد السلام، وهكذا اتخذ خطا متشددا، قائلاً إن بلاده لم ترسله "ليبعثر أموالها ويضحى بشخصيته التى عاش طول حياته معتزًا بها". وحذر أوبرايان من أنه إذا أخذ الداى "ليلة عيشة" فسوف يطلب من كل السفن التجارية الأمريكية أن تتجنب المتوسط، وسوف تأتى الفرقاطات الأمريكية التى تبنى لتحارب فرنسا، إلى الجزائر. الولايات المتحدة لا تريد السلام إذا كان الجزائريون لا يمكن الوثوق بهم.

فى هذه اللحظة وصلت ثانية السفن التى طلبها الداى حسن، إلى الجزائر. وكتب أوبرايان أن السفينة "حسن باشا" كانت "أجمل وأكمل السفن" التى رآها فى حياته وأن "نظامها الكامل" و "ترتيبها" أبهرا الجزائريين وأقنعاهما بأننا "نملك القدرات والموارد فى الولايات المتحدة التى تجعل منا عدوا نشيطا وعنيدا". وهدأت السفينة حمى الحرب فى الجزائر وشجعت الرسائل التى حملها أوبرايان بدرجة أكبر. وقرأ أوبرايان رسالة الرئيس آدامز إلى الكونغرس بخصوص "قضية المجهولين الثلاثة"(*).

(*) قضية المجهولين الثلاثة XYZ AFFAIR هى حادثة مشهورة فى تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وفرنسا كادت أن تشعل الحرب الشاملة بين البلدين فى القرن الثامن عشر وقد حدثت بالفعل مناوشات بحرية بين الطرفين، لكن المفاوضات وصلت بالخلافات إلى نهاية متفق عليها بين الطرفين فى ١٨٠٠. وقد وقعت هذه الحادثة إبان "حروب نابليون" التى دارت بين فرنسا وبريطانيا، عندما اعتبرت فرنسا أن الولايات المتحدة أصبحت دولة معادية، بخاصة بعد توقيع المعاهدة المعروفة باسم "معاهدة جاى" فى ١٧٩٤ التى كانت تستهدف حل الخلافات التى وترت العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا، عقب نيل المستعمرات فى أمريكا استقلالها فى ١٧٨٣.

وقد عين الرئيس جون آدامز تشارلز بنكنى وزيراً لدى فرنسا فى ١٧٩٦ لتحسين العلاقات مع باريس، ولأن وزير خارجية فرنسا العتيد شارل تاليران رفض اعتماد بنكنى، فقد عين آدامز لجنة ثلاثية بدلا من بنكنى. لكن تاليران استبق المفاوضات بإرسال ثلاثة وكلاء لمقابلة أعضاء اللجنة. وكان المبعوثون الفرنسيون الثلاثة هم جان كونراد هوتنغير، وبيير بيلامى، ولوسيان هوتفال الذين يشار إليهم بالمجهولين الثلاثة.

وقد نقلوا عن تاليران طلباً موجهاً إلى الولايات المتحدة بدفع مائتين وخمسين ألف إسترلينى منحة لفرنسا وعشرة ملايين دولار قرضاً لها من الولايات المتحدة، ورشوة شخصية للوزير تاليران. ونحن نورد هذه القصة بالتفصيل حتى نشير إلى القارئ إلى أن طلبات الداى حسن فى الجزائر أو الباشا يوسف فى =

وتأثر بتعهد الرئيس بعدم إرسال "وزير آخر إلى فرنسا إلا بضمانات باستقباله بكل احترام وتكريم باعتباره ممثلاً لأمة عظيمة وحرة وقوية ومستقلة". وبعد أن قرأ أوبرايان هذا الكلام ذهب لمقابلة مصطفى "باعتباره ممثلاً لأمة عظيمة وحرة وقوية ومستقلة". وأبلغ أوبرايان الداى بأنه "شاهد الولايات المتحدة فى حرب ثم فى سلام مع الجزائر" وأنه لم ير فارقًا كبيراً بين الحالين. الأمريكيون جاهزون للقتال والسفينتان "ليلة عيشة" و"حسن باشا" تثبتان أن الولايات المتحدة ستكون عدوا صعبا(١٢).

ورغم ذلك لم يكن لدى أوبرايان الكثير ليستخدمه فى التفاوض. ولكن لما علم أنه لا رئيس الوزراء ولا الداى يعلمان، على وجه الدقة، شروط المعاهدة التى نصت على الدفع بإمدادات بحرية أو بالنقد، فانتهز الفرصة للتخلص من كل الديون الأمريكية. بالغ فى قيمة الطرادات التى بنتها أمريكا، والتى لم تتجاوز تكلفتها ٧٠,٠٠٠ دولار، وقال للجزائريين إن كلفتها تجاوزت ١٠٠,٠٠٠ دولار وإن البرتغال عرضت شراء الثلاثة جميعا مقابل ١٢٠,٠٠٠ دولار. ثم أقنع الداى بقبول السفينتين الأصغر "ليلة عيشة" و "سكجولد براند" مقابل كامل مبلغ الجزية الأمريكية، ثم قال إنه سيمنح الداى "حسن باشا". وقال إنه وافق على ذلك، فقط، لأن "الولايات المتحدة يسرها أن تزيد قوة الجزائر حتى تسحق الفرنسيين، الذين تحولوا إلى لصوص ومضطهدين للأمم المسيحية والمحايدة". تخلى أوبرايان عن ثلاث سفن، لكنه حصل فى المقابل على ما هو أكثر بكثير. وقد طلب من الداى إيصالاً مكتوبًا وإقراراً بأن الولايات المتحدة سددت ما عليها بالكامل. كان أوبرايان بحاراً مجربًا ومعتاداً على المساومات على أرصفة الموانئ،

= طرابلس الغرب أو مولاى محمد فى مراكش لم تكن سلوكًا مستهجنًا فى ذلك الوقت. فهكذا كانت تسلك الدول الكبيرة والصغيرة. وإذا كانت دول البربر قد أسرت سفنًا أمريكية، فإن فرنسا أسرت، فى هذه الأزمة وحدها، ثلاثمائة سفينة أمريكية.

وقد استقبل الأمريكيون الطلب الفرنسي بالغضب، ورد بنكنى على الوفد الفرنسي قائلاً: لا. لا. ولا ستة بنسات. وقدمت اللجنة الأمريكية تقريراً عن المقابلة إلى آدامز الذى وضع الحروف الثلاثة XYZ مكان أسماء المبعوثين، قبل رفع التقرير إلى الكونغرس، واهتاج الرأى العام الفرنسى، وظلت المناوشات البحرية بين البلدين مستمرة فى ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ - المترجم.

ولم يكن يريد أن يعرف الداى أن أوبرايان هو الفائز فى الصفقة. وقال للداى إنه يخشى أن يطاح برأسه عندما تصل الأخبار عن الصفقة إلى الولايات المتحدة. وربما فى هذه اللحظة أدرك مصطفى أن أوبرايان خدعه. وقال مصطفى إذا فقد أوبرايان رأسه "فيجب أن يأتينا قنصل جديد، رجل لا يعرف المكان جيداً مثلك".

وفيما كان أوبرايان يبحث عن طريق للخروج من الأزمة وصل القناصل الأمريكيون الآخرون، المبعوثون لبقية دول البربر، إلى الجزائر: وليم إيتون مبعوثاً لتونس وجيمس ليندر كاثكارت لطرابلس الغرب. كان إيتون عقيداً فى الجيش الأمريكى حصل على هذا المنصب عبر صداقته مع وزير الخارجية بيكرينغ. ولم يكن إيتون قد غادر الولايات المتحدة، من قبل، لكنه خدم على حدود جيورجيا. واعتبرت حكومته أن مفاوضاته مع قبائل الكريك والشيروكى (من الهنود الأمريكيين - المترجم) تؤهله للتفاوض مع تونس. وأخبره أحد المسؤولين الأمريكيين قبل أن تقلع السفينة أن القناصل المبعوثين إلى دول البربر "مجموعة من الوكلاء الملاعين المتوحشين، وكلاء هنود - نعم أنتم حفنة من الوكلاء الهنود الملاعين أيها القناصل فى بلاد البربر! "وكان إيتون يميل إلى الموافقة. وعندما اعترف قنصل الجزائر لدى تونس بأنه صديق للأمريكيين، لم يكن ذلك مصدر انبهار بالنسبة لإيتون" الذى قال إن "أحد زعماء قبائل الشيروكى كان يمكن أن يفعل الأمر ذاته من أجل قنينة روم وبندقية"، وكاستعداد إضافى لمهمته قرأ إيتون كتاب فولنى "أسفار عبر مصر وسوريا فى السنوات ١٧٨٣ و١٧٨٤ و١٧٨٥"، ووجد وصف فولنى للتراخى والفساد عند الأتراك ينطبق على تونس، بل وبدرجة أكبر(١٣).

وقدم أوبرايان إيتون وكاثكارت إلى الداى مصطفى، بعد عدة ساعات من إطلاق البحارة الأمريكيين على السفينة "صوفيا" خمس عشرة طلقة تحية ليوم ميلاد جورج واشنطن. وسأل الداى عما يحتفل به الأمريكيون متوقعاً أن نقدم له ولبلاطه الهدايا، احتفالاً بالمناسبة لكن أوبرايان كان يعلم ذلك فقال له إن هذا نخب مرفوع فى صحته. وأعجب إيتون بالمهارات الدبلوماسية لدى أوبرايان بخاصة "موهبته الموفقة" فى استخدام "الحجج السرية" أو الرشاوى مع نظرائه الجزائريين "الذين لا تمنعهم وطنيتهم من الإصغاء إليها"(١٤).

وكان أوبرايان ينتظر منذ أكثر من عام ليسمع من الولايات المتحدة ردا، وأخبر إيتون بأنه لا يجب عليه أن يتوقع مساندة كبيرة من حكومته. ونصح إيتون بأن يعتمد على فطنته وأن "يضع التعليمات في جيبه" وإلا فسوف يجد نفسه "في أزمة لعينة" بعيداً عن حكومته بآلاف الأميال. يجب "أن يقبل بحكم الظروف" ورغم أن بلاده تميل إلى أن توجه تصرفاته، فهي لا تستطيع أن تحدد له المسار" وسط الرياح المتغيرة على هذا الساحل الغادر". وقارن أوبرايان القناصل بالقباطنة البحريين والحكومة بملاك السفن. وسأل: هل يكتب القبطان، في أثناء عاصفة في البحر، إلى ملاك السفينة طالبًا الإذن بقطع الصواري أو بالتخلص من المدافع بإلقائها في البحر؟ ووافق إيتون على أن القبطان في أزمة لا يجب أن ينتظر التعليمات، لكن الملاك بوسعهم رسم خريطة بمسار عام نحو الوجهة النهائية. اتفق إيتون وأوبرايان على الوجهة النهائية، التي كانت السلام في المتوسط واتفقا أيضاً على المسار العام. يجب على الولايات المتحدة أن تنفذ الالتزامات المقررة في المعاهدة في موعدها وأن تمارس "مقاومة رجولية للمطالب غير المبررة". وقال إيتون، ببساطة : "سدد وحارب"(١٥). ومع هذه الرؤية المشتركة للسياسات الأمريكية ومع الصراحة الصادمة في شخصيتيهما، أصبح إيتون وأوبرايان صديقين، يتبادلات خطابات دافئة، ليس بوصفهما دبلوماسيين زميلين ولكن باعتبارهما روحين شقيقتين في مواقع خارجية منعزلة، وقد اتخذت مراسلاتهما لغة لا بد أن نتوقعها من قبطان بحري وجندي حدودي.

ورغم التشابهات بينهما، ورغم الصداقة في البداية. فقد انهارت العلاقة. والحقيقة أن التباعد بينهما كان بسبب العضو الثالث في المفرزة الدبلوماسية جيمس ليندر كاثكارت الذي قضى عشر سنوات أسيراً في الجزائر ثم أصبح السكرتير المسيحي الرئيسي للداي حسن. وقد قبل المنصب في طرابلس الغرب بعد تردد، غاضبًا لأن أوبرايان وقع عليه هو الاختيار – وليس على كاثكارت – قنصلا عاما. وفي النهاية فإن خبرة كاثكارت أعطته معرفة بدخائل الشؤون الجزائرية. وهو، شخصيا، الذي أعطاه أوبرايان الدفعة الأولى في الحياة العامة، في ١١ سبتمبر ١٧٩٥ التاريخ الذي اعتبره "عيد الميلاد السياسي" لأوبرايان، عندما قدمه كاثكارت للداي في الجزائر. وربما اعتقد

كاثكارت حقا أن الرجل الذى راسل واشنطن وجيفرسون وآدامز وجاى والكونغرس الأمريكى لم يعد ليعد كائنا سياسيا حيا إلا عندما التقى داى الجزائر(١٦).

والآن فإن كاثكارت ساءه أن أوبرايان، وليس هو، عين قنصلا عاما وأغضبه أن أسيراً سابقًا آخر غيره عين قبطانًا للسفينة "الهلال". كان يرى نفسه أكثر من كفء، لأى من المهمتين. وفى الرحلة عبر الأطلسى، على متن السفينة "صوفيا" أغضب كاثكارت القبطان عندما عرض أن يقود هو السفينة. رفض القبطان العرض، وإشمأز وشاركه الاشمئزاز معظم من كانوا على السفينة، من "السلوك المنفر" والشخصية "المرورة، المنفرة، المغرورة" وتبين أن الأكثر نفوراً من كاثكارت كانت إليزابيث روبسون، خادمة زوجة كاثكارت الحامل ذات الأعوام الخمسة عشر. وعندما وصلت السفينة الجزائر، طلبت روبسون إعادتها الفورية إلى بلدها، رافضة أن تذهب إلى طرابلس مع كاثكارت، الذى قالت إنه راودها عن نفسها. وبدلا من إعادتها إلى بلدها، قدم لها أوبرايان المأوى فى القنصلية الأمريكية. وأغضب هذا الأمر كاثكارت ثم شعر بالمهانة عندما حضر للعشاء مع مسز كاثكارت، فوجدا إليزابيث روبسون جالسة إلى المائدة. وخرج كاثكارت تتبعه زوجته جين، قائلاً إنه لن يتساوى مع خادمته. أن يرفض ممثل لأمريكا الجمهورية أن يأكل على مائدة واحدة مع خادمة، لم يكن فى نظر كاثكارت أغرب من فكرة أن الحياة السياسية تنبع من داى الجزائر. ورفض أن يكون بينه وبين أوبرايان أى تعامل، بعد ذلك(١٧).

وحاول إيتون مصالحة كاثكارت، قائلاً له إنه "من غير المجدى الغضب من إهانة لا يمكن الرد عليها – اطرح المعتدى أرضًا، أو اصفعه على وجهه، أو دع الإهانة تمر دون اهتمام بها"(١٨). ولم يهدأ كاثكارت. وبعدها بشهرين وجد إيتون ما يسره فى أن يرسل، من تونس، كلمة إلى كاثكارت فى طرابلس الغرب، قائلاً إن أوبرايان تزوج من إليزابيث روبسون. وكتب "يا للأسف، سوف يلاقى هذان الشيطانان التعيسان كثيراً من الملاحاة، بسبب هذا الأمر". وأضاف "لكن تأكد أن هذا مصدر سرور عظيم لدى – إيتون" أما كاثكارت الذى كان يسوؤه أن خادمته صارت ندا له، فقد أذهله أنها صارت تفوقه اجتماعيا(١٩).

وفى مارس سافر إيتون وكاثكارت إلى تونس حيث كان يتعين التفاوض حول ثلاث مواد من معاهدة ١٧٩٦، مجدداً. كان الذى تفاوض حول المعاهدة هو التاجر الفرنسى جوزيف إيتين فامين، الذى كان شديد الحرص على مصالحه الخاصة. وقد أضاف إلى المعاهدة بنداً يضع تعرفة مقدارها ثلاثة بالمائة على البضائع التونسية الواردة إلى الولايات المتحدة وعلى البضائع الأمريكية التى تشحن إلى تونس على سفن أمريكية وعشرة بالمائة رسوماً جمركية على البضائع الأوروبية التى تأتى بها إلى تونس سفن أمريكية. ولأن معظم الأمريكيين المشتغلين بالتجارة مع تونس كانوا يتجرون فى السلع الأوروبية، فإن هذه المادة كان من شأنها أن تمنع الأمريكيين من التجارة فى تونس، حيث كان يمكن أن ينافسوا فامين. كانت الولايات المتحدة قد حددت عشرة بالمائة رسومًا على معظم الواردات وضمنت للدول "الأولى بالرعاية" بأن لا تفرض على تجارهم رسوم أعلى مما يفرض على تجار أى دولة أخرى. والثلاثة بالمائة التى منحت لتونس أعطت فامين ميزة على كل التجار الآخرين فى العالم لكنها كانت، بالنهاية، قمينة بأن تدمر نظام الموارد الأمريكية بكامله، باعتبار أن كل الدول "الأولى بالرعاية" سوف تتمتع بمعدل الثلاثة بالمائة للتعرفة الجمركية. وقال بيكرينغ لإيتون إن هذه المادة من مواد المعاهدة "لا يمكن أن تكون مهمة للباى ومملكته، وإن كانت مدمرة لنا" وإذا نجح إيتون فى أن يتحرك بحذر مع فامين فسوف يكون بوسعه أن يعيد التفاوض حولها(٢٠).

لكن فامين كان رجلاً خطيراً. كان الوكيل التجارى لبعض التجار التونسيين المهمين بمن فيهم حامل الأختام المستشار الأقرب إلى حمودة باشا الباى. وأغضب فامين أيضًا أن الولايات المتحدة أرسلت إيتون ليرعى الشؤون الأمريكية، وهو ما كان يحرمه من الاستفادة من التجارة الأمريكية. ونصح وزير الخارجية بيكرينغ إيتون بأن "يتوقع" إدعاءات فامين و "يحول دون غضبه". وكان إيتون يعلم أنه يتعين عليه التصرف بحذر، لكن أدهشه أن يجد أن التجار البريطانيين واليهود يكرهون فامين. بالنهاية، فالبريطانيون يكرهون كل فرنسى، وهذا ما كان يعلمه إيتون، واليهود رأوا فى فامين منافسًا فى التجارة. ولم يكن إجرامًا من فامين أن يحافظ على مركزه التجارى من

خلال النفوذ السياسي. وكتب إيتون إنه ربما "ضمن إلى جانبه عبدة الذهب غير المستقيمين" لكن لا التجارة الدولية ولا السياسة الدولية كانت تحركها الاستقامة. وكتب إيتون "وفقًا لما هو في عالمنا فقد تصرف بحكمه"(٢١).

ورغم نفوذ فامين، فلم يستغرق الأمر من الأمريكيين إلا أيامًا قليلة، لإعادة التفاوض حول المعاهدة. بدأت إيتون وكاثكارت بأن ذكرا للباى أن الرسوم بقيمة ثلاثة بالمائة لا يمكن أن تكون لصالحه، بما أن التجار التونسيين قد لا يذهبون إلى الولايات المتحدة، أبداً. ورد حمودة باشا: "صحيح أن رعاياى لم يذهبوا إلى أمريكا قط، لكن لماذا تستنتجون من هذا أنهم لن يذهبوا أبدًا؟" وبلهجة المتفضل بالتوضيح قال له الأمريكيان إن التونسيين لا يعرفون الطريق إلى أمريكا. وقال الباى "لم يعرفوه حتى الآن، لكن النوع الإنسانى يتحول الآن إلى الاستنارة والمبادرة التجارية" وهو يأمل أن يرسل كثيراً من السفن إلى أمريكا. ولم يتقبل إيتون استيلاء الباء على هذين الموضوعين المفضلين لدى الأمريكيين، المبادرة التجارية والاستنارة. وقد استخدم الباى وحامل الأختام الموضوعين لصالحهما، مجدداً عندما قال إيتون إنه ليس بوسع الولايات المتحدة أن تدفع مقابل المعاهدة مثل ما دفع الإسبان، الذين عندهم من الذهب والفضة "الكتل المستخرجة من جوف الأرض: نحن نحصل نقودنا بالنصف بنس، بالكدح على سطحها". لكن حامل الأختام كان يعرف كيف يوجه الحوار مع الأمريكيين، "لكنكم شعب قوى ومبادر" هكذا قال لهم مضيفًا إنهم سوف يستولون، فى القريب العاجل، على مناجم العالم الجديد الإسبانية. ورد إيتون وكاثكارت قائلين أن بلادهم ستبعث بهدية إلى الباى عندما تتملك المناجم الإسبانية(٢٢).

وسرعان ما وافق التونسيون على كل التعديلات التى طلبها الأمريكيون مظهرين مجرد مقاومة محدودة وعابثة. وقد تحدد طابع التفاوضات بمجرد أن اعترض الأمريكيان على مادة فى المعاهدة تتطلب أن تقدم الولايات المتحدة إلى الباى برميلاً من البارود مقابل كل طلقة مدفع يحيى بها التونسيون سفينة أمريكية لدى وصولها. ومتظاهراً بنفاد الصبر قال حمودة باشا إنه لن يبدد البارود فى تحية الأغراب، وإنه سيحيى فقط السفن الأمريكية التى تطلب التعارف. وأسقطت المادة(٢٣).

وبعد الاتفاق المرضى على كافة النقاط وزع إيتون ما يساوى ٦٠٠٠ دولار من الهدايا على الباى وأعضاء أسرته وبلاطه. وشكا رئيس الوزراء من أن هديته ليست بمستوى هدية حامل الأختام، وطلب أمير البحر عصا برأس ذهبى، وساعة ذهبية، واثنتى عشرة قطعة من الملابس. وأعطى إيتون هؤلاء الرجال ما أرادوه، لعلمه أنه يجب أن يبقيهم فى صفه. ولكن عندما طلب ريس المرفأ هدية قال إيتون إنه لا يسارع إلى محاولة إرضاء هذا العطش إلى الهدايا إلا "كما يسارع إلى إرضاء القبر، والرحم العقيم، والنارالمهلكة" ووعد ريس المرفأ بنسخة من المعاهدة. وكتب إيتون إلى أوبرايان : "وهكذا أنهيت الفصل الأول من الأحداث فى أرض الاغتصاب واللواط هذه". كان مقتنعًا، أكثر من أى وقت مضى، بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى إظهار القوة فى المتوسط. وفيما كان يتفاوض ويوزع الهدايا، كان يدرس القوة العسكرية للجزائريين والتونسيين. وقال إن هذه الممالك يصعب أن تشبع فصيلة بريطانية - ولا يمكن أن تكفى لوجبة إفطار للقوة التى يمكن للولايات المتحدة" أن تبعث بها. ورغم أن الحكومة قد أرسلت إيتون أن كاثكارت لتنمية السلام والتجارة. فقد كان إيتون لا يزال يتخيل العمل العسكرى. ووافقه أوبرايان، لكنه كان يعرف أن الممالك الثلاثة "وجدت، بالخبرة، أنها عندما تضغط علينا نستجيب". وقد أصبح واضحًا أن حكومته، إما أنها لا تنصت إليه أو أنها لا تملك قوة تظهرها فى المتوسط(٢٤).

وقد حافظ إيتون وأوبرايان على السلام فى تونس والجزائر، لكن كاثكارت لم يكن حتى قد نزل من السفينة فى طرابلس الغرب حين تسبب فى أزمة. صعد برايان ماكدونوغ، الوكيل البريطانى فى طرابلس الغرب إلى السفينة ليرى كاثكارت عندما كانت السفينة "صوفيا" تدخل إلى المرفأ. وربما شعر ماكدونوغ بكراهية كاثكارت لأوبرايان، ولعب على ذلك لمصلحته. وقال إن أوبرايان أخطأ فى حقه هو الآخر ولم يعترف بخدمات ماكدونوغ القيمة فى أثناء التفاوض على معاهدة ١٧٩٦ الأمريكية مع طرابلس الغرب. وأضاف أنه ما زال، رغم ذلك، حريصًا على مساعدة كاثكارت والأمريكيين. لكن يوسف قرامانلى لم يكن فى حالة مزاجية مناسبة للتعامل مع الأمريكيين لأن أوبرايان أساء معاملته، هو أيضًا. وقال ماكدونوغ إن أوبرايان وعد قرامانلى فى ١٧٩٦

بأن يعطيه طرادا، لكنه لم يفعـل ذلك، قط. والباشا لن يستقبـل كاثكارت حتى يعطيه الأمريكيـون سفينـة (وكان ماكدونـوغ يعتبر أن السفينة صـوفيا مناسبة) أو ١٨,٠٠٠ دولار.

وكان كاثكارت سيئ الظن بأوبرايان، فكتب إليه ليعترض على الطريقة القبيحة التى عامل بها "صديقنا الدكتور ماكدونوغ". واقترض ١٨,٠٠٠ دولار من المقرض اليهودى ليون فارفارا، وأعطاه مستندات قابلة للدفع بواسطة إيتون أو أوبرايان، وأعطى ماكدونوغ ٨٠٠ دولار لقاء مساعداته، وهنأ نفسه على إصلاح حالة أخرى من حالات سوء التصرف من جانب أوبرايان. لم يكن كاثكارت يعلم أنه خـدع. أوبرايان لم يعد قرامانلى بسفينة وماكدونوغ كان وكيلاً لبريطانيا[٢٥].

وبعد دقائق من معرفة إيتون بهدية كاثكارت للباشا، كان وكيل فارفارا واقفًا على بابه فى تونس يطلب المبلغ. لم يكن للولايات المتحدة أى ائتمان فى تونس، ولم يكن بوسع إيتون أن يفهم لماذا كتب كاثكارت، وهو يعلم ذلك، فاتورة قابلة للدفع هناك. كان إيتون قد أعطى كاثكارت، بالفعل، قرضا شخصيا قيمته ٢,٠٠ دولار، لكن هذا خارج الموضوع. وقال كاثكارت إنه لو لم يدفع للباشا لكانوا ضربوه وألقوا به فى سرداب. وكتب إيتون "كان حريا بأمريكى أن يحتقر التهديدات المتبجحة ويحتقر الأغلال، وأن يربأ بنفسه عن الاحتماء منها على هذا النحو". لكن لسوء الحظ، كما كتب إيتون، فإن السنوات العشر التى قضاها كاثكارت فى خدمة داى الجزائر جعلته عاجزًا عن التصدى لمثل هذه التهديدات، وجعلته أكثر رعبًا من "إيماءة رأس من تركى" عنه "من مدافع سفينة حربية - هذا هو تأثير العادة، وربما قلت التربية". أما بالنسبة لماكدونغ فقد رأى فيه إيتون "مارقًا، وهو بالطبع أفاق". لم يكن إيتون يحب أن يوضع فى المنتصف، مضطراً إلى أن يجد النقود لفارفارا أو أن يخاطر بالحرب مع طرابلس الغرب. ولو أن أوبرايان هو الذى قدم هذا التنازل، معطيًا قرامانلى أو أى شخص آخر ١٨٠٠٠ دولار، لكان ضروريا أن يلام على ذلك. ولكن، رغم خطأ كاثكارت، فلم يكن إيتون يعتبر أنه يجب فصله فرغم أن كاثـكارت لم يكن لديه إلا القليـل من الحنكـة السيـاسية،

وكانت مهاراته الدبلوماسية منعدمة، وكان جبانًا، ولديه الخصلة الغريبة المتمثلة فى قدرته على جعل الناس يكرهونه، فقط كان إيتون يعتقد أنه شريف وأنه كان، فى تلك اللحظة، زوجًا وأبا لطفلة رضيعة. لم يكن إيتون يقبل بمسؤولية انتزاع اللقمة من فم طفل، وهكذا فقد اقترح أن يمنح كاثكارت مزيداً من الوقت ليتعلم فنون الدبلوماسية[٢٦].

وبعد أن أمن إيتون السلام بين الولايات المتحدة وتونس وجد أن إقامة السلام بين كاثكارت وأوبرايان أمر أصعب. ورد كاثكارت على الهدنة التى دعا إليها إيتون بقائمة من الإهانات التى شعر بأن أوبرايان وجهها له. قال إن أوبرايان مدين له بمال منذ كان الاثنان أسيرين، وأنه شن حملة ضد تعيين كاثكارت فى طرابلس الغرب، بعد الإفراج عنه، وإضافة الإهانة إلى كل هذه الجراح عندما تزوج من خادمة كاثكارت. وبعد أن قرأ إيتون هذه المطولة التى ملأت سبع صفحات مطبوعة، اعتبر أن "شكاوى كاثكارت ضد أوبرايان ليست من النوع الذى يقبل المصالحة" واعتذر عن إثارة الموضوع وأخبر وزير الخارجية بيكرينغ بأن أوبرايان وكاثكارت "لا يمكن أن يعترف أحدهما بأى خصال طيبة لدى الآخر". وقال لكاثكارت إن بيكرينغ نظر فى الخصومة "كما ينظر القاضى السماوى فى أمر الروح التى توجه الاتهامات إلى المختارين" واقترح على أوبرايان أن يترك كاثكارت لحاله، بكل بساطة[٢٧].

وقد ترك أوبرايان كاثكارت لحاله. وشكا كاثكارت من أن أوبرايان يهمله ولا يرد بالتفصيل على رسائل كاثكارت المطولة المشوشة. ولخص إيتون إحدى رسائل كاثكارت، وكانت تملأ سبع صفحات مطولة فى خمسة سطور: اليهود يسببون الاكتئاب لكاثكارت – خطر ظهور الأمريكيين فى طرابلس – وصول قنصل الدينمارك – مغاردة قنصل السويد – القراصنة يبحرون بجوازات سفر سويدية. وقد ضايق عجز كاثكارت عن تكثيف أفكاره إيتون الذى كان مضطراً لقراءة الرسائل والرد عليها وأوبرايان الذى لم يكن مضطراً لذلك. وعندما مرر إيتون إلى أوبرايان شكوى كاثكارت من أن القنصل العام لم يكن يرد، بشكل مناسب، على المراسلات من طرابلس الغرب، رد أوبرايان، كتابة،

بالقول "كل تقارير المستر كاثكارت لا تتجاوز أنه قدم بدلاً من إيصال مطبوع آخر مكتوبًا و٢٠٠ دولار أرسل إليك ردا على مجلداته العديدة[٢٨].

والإطالة ليست، بالضرورة، عيبًا في الدبلوماسي، وحتى الشفقة البالغة على الذات يمكن أن تتحول إلى ميزة. لكن رغم أن كاثكارت قدم نفسه باعتباره خبيرًا في شؤون بلاد البربر، فقد أثبت عجزًا ملحوظًا عن فهم الكيفية التي تبدو عليها تصرفاته، بنظر أولئك الذين يحاولون التأثير عليهم. وعندما علم القناصل الثلاثة أن جورج واشنطن مات، تماسك كل من أوبرايان وإيتون، حيث إنهما يعلمان أن الجزائريين والتونسيين يعتبرون أن إظهار المشاعر الوطنية هو مناسبة للحصول على هدايا. فالهدايا تقدم عندما يرتقي رئيس الدولة منصبه، أو يتزوج، أو ينجب، أو يموت. وكان أوبرايان وإيتون يعلمان أن تونس والجزائر ستتوقعان تعبيرًا مناسبًا عن الحداد عندما يسمعان أن واشنطن مات، رغم أنه لم يكن في منصب الرئاسة عندئذ. وصادر أوبرايان كل الصحف الأمريكية التي حملت أخبار وفاة واشنطن، واكتفى إيتون بارتداء شارة سوداء على ذراعه. وعندما سأله حمودة باشا عن السبب، رد ببساطة: "أحد الأغوات في المعسكر سبق لي أن خدمت تحت رئاسته في المعسكر وقد كنت أحترمه أعظم الاحترام، وقد مات". واقتنع المسؤولون التونسيون بذلك. لكن كاثكارت أمر بتنكيس العلم على القنصلية الأمريكية، وبأن تفعل كل السفن الأمريكية في المرفأ الأمر ذاته وأن تطلق واحدًا وعشرين طلقة تحية. ولفتت الضجة انتباه يوسف. وانتهز الفرصة ليعاود المطالبة بالطراد الذي حاول الحصول عليه، قبل عام. وأبلغ كاثكارت بأن ١٠,٠٠٠ دولار إضافية يمكن أن تهدئ حزنه على رحيل واشنطن. وفوجئ كاثكارت بهذا الطلب، لكن أوبرايان اعتبر المبالغة في إعلان الحداد من جانب كاثكارت "منبع النيل" الذي من دونه لم يكن لطرابلس أن تتوقع أي هدايا[٢٩].

لم يسع كاثكارت للتعيين على الساحل البربري باعتباره دبلوماسيا، ولهذا فربما لم يعتبر أن عدم صلاحيته للدبلوماسية مهمة. وفي الحقيقة، فقد كان كاثكارت متلهفًا على دور في التجارة في المتوسط، بعد أن خلقت خدمته للداي ميلاً إليها. وبمجرد وصوله إلى طرابلس الغرب بدأ يشتري ويبيع البضائع لزيادة دخله. وفي يوليو ١٧٩٩،

بعد أسابيع قليلة، لا أكثر، من بداية خدمته فى طرابلس، أرسل إلى إيتون شحنة نبيذ ليبيعها فى تونس، وطلب بالمقابل أن يرسل إليه إيتون شحنة ملابس ليبيعها فى طرابلس الغرب. وكتب كاثكارت: "لو أن البضاعة وصلت سريعًا فسوف نحقق عائدًا طيبًا إلى حد معقول"، وأبلغ إيتون بضرورة إعداد فاتورتين للملابس، واحدة بالسعر الحقيقى والأخرى مزيدة بنسبة ٢٥ بالمائة "لحكومتى". وسحب كاثكارت إيتون إلى شراكة تجارية وراح يبحث عن الفرص فى كافة أرجاء المنطقة. وكتب إلى توماس أبلتون، القنصل الأمريكى فى ليغهورن (بإقليم توسكانيا الإيطالى- المترجم) مستبقًا استئناف التجارة بين طرابلس الغرب وإيطاليا، "وعندى أمل أن تسعدنى بأن تكثر من الكتابة إلى". وطلب دليلا تجاريا وأخبر أبلتون بالبضائع التى بوسعه أن يبيعها فى طرابلس الغرب والبضائع التى يمكن أن تأتى من طرابلس[٣٠].

لكن بداية دخول كاثكارت للتجارة الطرابلسية كانت مخيبة للآمال. فقد أخذ ليون فارفارا، الذى قام بدور وكيله التجارى، بعض الملابس التى تخص كاثكارت إلى يوسف قرامانلى، الذى قبلها ولم يدفع ثمنها. وهاج كاثكارت على فارفارا وكل التجار اليهود، وكتب إلى إيتون يقول: "ليس فى قدرة ولا طبيعة يهودى من بلاد البربر أن يسدى خدمة إلى مسيحى" وأضاف "لكنهم غالبًا ما يؤذون المسيحى" لكن غضب كاثكارت كان موجهًا، فى الغالب، إلى أوبرايان، الذى كان يعتقد أنه على علاقة وثيقة مع البكريين، المصرفيين اليهوديين اللذين أقرضا الولايات المتحدة كل هذا المال. وقد كان البكريان منافسى كاثكارت أيام كان فى الجزائر، والآن فهما، حسب اعتقاده، يخشيان قوته التجارية. وقد احتاج أوبرايان البكريين باعتبارهما مصدر ائتمان للولايات المتحدة، وبالضبط كما قال بارلو، فقد كان بارلو مترددًا فى تحدى مصالح البكريين. وقد تجاهل كاثكارت الفارق الجوهرى بين معاملاته الخاصة مع فارفارا ومعاملات أوبرايان الحكومية مع البكريين. وانتقد أوبرايان ، بشكل لاذع، لأنه ترك المصالح الأمريكية تعانى بسبب تورطه مع مصرفيين يهوديين. وقضى كاثكارت معظم شتاء ١٧٩٩-١٨٠٠ يحاول،

دون جدوى، أن يجعل الباشا يدفع له. وأخيرا، كذب وقال للباشا إن أسطولا أمريكيا فى الطريق إلى طرابلس الغرب، ودفعت الكذبة يوسف قرامانلى إلى سداد حقوق كاثكارت(٣١).

وقد راقب إيتون هذا كله، ضعف موقف أوبرايان بسبب اعتماده فى عمله الحكومى على البكريين وكاثكارت الغارق فى ارتباكات تجارية. ورأى فى هذا درسًا: أن القناصل لا يجب أن يعملوا بالتجارة. فقد كان مستحيلاً، بالنسبة للقنصل، أن يكون دبلوماسيا يمثل الولايات المتحدة، ويمارس تجارة خاصة ساعيًا إلى تعميق مصالحه الشخصية، فى الوقت ذاته. لا يمكن له أن يخدم سيدين. لكن إيتون أصبح، بالتدريج، متورطًا فى مشروعات كاثكارت، بعمق، وبرر أنشطته التجارية الخاصة بأنها تتوافق مع المصالح الأمريكية. وقال إيتون، إن تحوله إلى التجارة مكنه من تحويل التجارة التونسية إلى السفن الأمريكية، وهو أمر نافع للأمريكيين، كما مكنه من تعليم التونسيين المحاربين منافع التجارة السلمية(٣٢). وقال لوزير الخارجية: "لا شىء أبعد عن أفكارى" من المضاربات. فقد كان بوسعه التعاون مع حامل أختام المملكة فى مشروعاته التجارية، ولأن هذا الأخير تاجر كبير ومستشار للباى وعشيقه، فإن العلاقة التجارية معه يمكن أن تحقق الاستقرار للعلاقات الأمريكية مع تونس. ووافق وزير الخارجية بيكرينغ، وأخبر إيتون أن الباى من شأنه أن يقع "تحت التزامات قوية وباقية إزاء القنصل والدولة اللذين يضعانه فى مركز تجارى ممتاز وبعد أن أعمتهما هذه المنافع المتوقعة، فإن بيكرينغ وإيتون نسيا، فيما يبدو، الأخطار الحقيقية التى قد تترتب على تحول القناصل الأمريكيين إلى تجار. ونسى إيتون، أيضًا، تحفظاته السابقة، عندما وجد للتجارة فوائد عظيمة قصيرة المدى. وكتب إلى كاثكارت: إنى أغتنى رغمًا عنى(٣٣).

وبدلاً من أن تؤدى التجارة إلى انتشار السلم فى العالم، فقد وسعت الحرب فى المتوسط. ضغط البكريان فى الجزائر، نظرا لعلاقاتهما التجارية القوية مع فرنسا، على الداى مصطفى بوبا ليتحول عن ولائه لتركيا التى كانت فى حرب مع فرنسا،

وأن يحارب إنكلترا، بدلاً من ذلك. وتحت تأثير البكريين وجه الداى قراصنة الجزائر ضد حلفاء بريطانيا، الدول الإيطالية والبرتغال وروسيا. كانت فرنسا وإنكلترا وحلفاؤهما يحتاجون القمح الجزائرى، واستخدمت الدولتان نفوذهما للحصول عليه. وهذه التجربة التى جعلت فرنسا وإنكلترا تخطبان ود الداى كانت نتيجتها، بكلمات أوبرايان أن "الدنيا أصبحت كقطعة من الجبن الهولندى - تحت قدميه وهو يركلها. كل الأمم تنحنى أمام الداى القوى". وهذا التقديس جعله يعتقد أنه "PATROON GRANDI (السيد الأعلى بالإيطالية - المترجم) للعالم كله". وبدأت الجزائر تهاجم السفن الأوروبية، لكنها تركت الأمريكيين المحايدين وحدهم، لأن فرنسا فى أواخر ١٧٩٩ كانت مهتمة بالحفاظ على السلام مع الولايات المتحدة. وفى تونس، أدرك حامل الأختام قيمة السلام مع الولايات المتحدة بالنسبة لتجارته الخاصة وأصبح ودوداً مع إيتون. كان حامل الأختام يأمل أن يستخدم السفن الأمريكية التى كانت، هى وحدها، المعفاة من هجمات الفرنسيين والجزائريين والإنكليز، لتحمل القمح الخاص به إلى الأسواق الإسبانية[٣٤].

ورغم أن تونس كانت تزداد مودة تجاه الولايات المتحدة وإيتون يغتنى، رغماً عنه، فسرعان ما تذكر أن التجارة فى المتوسط خطيرة. فى ١٨٠٠ جاء جوليوس سيزار البيرغانتى، وكيل مؤسسة سوامى وشوارتز فى ليفورنو (هى ذاتها ليغهورن الإيطالية - المترجم) إلى تونس ليشترى كل ما فى تونس من قمح، ليرتفع سعر هذه السلعة الأساسية فى إيطاليا. واستثمر التجار التونسيون ووكلاء البيوت التجارية، بكثافة، فى المشروع، الذى كان يمكن أن يدر أرباحًا هائلة على شمال إفريقيا، لو أنهم نجحوا. ففى صيف ١٨٠٠ انهار سوامى وشوارتز آخذين معهم أكثر من ١٢٠,٠٠٠ دولار من استثمارات التجار التونسيين والجزائريين. وكان هذا الفشل ينطوى على تأثيرات مدمرة محتملة للولايات المتحدة. فقد ادعى البيرغانتى أنه مواطن أمريكى، كما أنه عرض على إيتون خدماته فى مبادلة فواتير الائتمان بين تونس والجزائر وليفورنو. ورفض إيتون العرض. ولو كان قبله لأصبح البيرغانتى وكيلاً معترفًا به للولايات المتحدة،

التى كانت حكومتها ستصبح مسؤولة عن ديون سوامي وشوارتز. وزار وفد من تجار الجزائر اليهود أوبرايان ليطلبوا التعويض. قالوا إن البيرغانتى تاجر أمريكى ولهذا فالولايات المتحدة عليها أن تعوض خسارتهم(٢٥).

ورغم أن إيتون نجح فى تجنب الارتباط بالبيرغانتي، فقد اعتبر ما جرى أكثر من محاولة من تاجر أن يستدين على حساب غيره. وقد تغذت مشاعر العزلة عند إيتون وهو فى تونس، بعيد عن الوطن وواقع بين أوبرايان الذى كان يميل إليه ولا يثق به، وكاثكارت الذى كان يثق به ولا يميل إليه ، على بارانويا أصيلة فيه وألقت به من فوق حافة الهاوية. فقد اقتنع إيتون، أخيراً، بقصص كاثكارت المبالغ فيها عن أوبرايان، ورأى فى مشروعات البيرغانتى مؤامرة دخل فيها يهود الجزائر وكاثوليك إيطاليا الذين أرادوا تدميره. وقد تسبب انهيار سوامي وشوارتز "كثيراً من الاضطراب بين شعب الميثاق القديم مع الرب". وأقنعت حادثة البيرغانتى إيتون بأن اليهود "جنس من البشر خوان وكذاب ومنافق وخطير" أصبحوا منافسيه التجاريين، كما أنهم الدائنون الرئيسيون لبلاده فى شمال إفريقيا. وبدأ إيتون يرى استدانة أوبرايان من البكريين باعتبارها خيانة. فهل كان أوبرايان غارقًا فى الديون للبكريين لدرجة تجعله يخرب مصالح بلاده لصالح المصرفيين اليهوديين ؟ بقى متفقًا مع أوبرايان بخصوص السياسة الأمريكية فى شمال إفريقيا، لكن إيتون أصبح ينظر إلى أوبرايان باعتباره عدوا متورطًا فى مؤامرة هائلة ضده. وعندما حذر أوبرايان من أن حكومة الولايات المتحدة قد لا تتصرف، بدأ إيتون يشك فى أن أوبرايان لا يريد أن تتصرف الحكومة. وإذا كان اليهود قد حاولوا تدمير إيتون، فلماذا يستمر أوبرايان فى علاقته التجارية معهم ؟ قرر إيتون قطع كل علاقة مع المصرفيين اليهود وطلب إلى أوبرايان أن يفعل مثله(٢٦). لكن أوبرايان رأى الأمور بشكل مختلف. "بالنسبة لليهود الجزايرلية فى تونس أو فى الجزائر" هكذا كتب أوبرايان إلى إيتون "... بوسعك التصرف معهم على النحو الذى تراه مناسبًا". كان أوبرايان يعلم أن البكريين قادران على أن يستغلا أموالهما فى أمور أفضل من إقراضها للأمريكيين، الذين لم يكونوا يسدون معروفًا للبكريين بالاقتراض منهما. كانت الحرب الأوروبية قد قطعت خطوط الائتمان الهولندية والسويسرية،

وكان أوبرايان بحاجة لاقتراض المال، لأن حكومته كانت تتأخر، بشكل مزمن، فى دفع الجزية. "إذا أمكن لك الاقتراض من تونس أو من أوروبا بشروط أفضل للولايات المتحدة، فهذا يجب أن يكون مفضلا على شروط الاقتراض فى الجزائر، فأنا أفضل أن أسارع إلى فعل أى شىء عن أن أشحذ وأتوسل وبعد ذلك أدفع"، وأخطأ إيتون فهم هذا الكلام فاعتبره تبريراً للارتباط مع البكريين. وعلى ظهر الرسالة التى وصلته من أوبرايان كتب إيتون "مروج لليهود"[٢٧].

وفى سبتمبر ١٨٠٠ وصلت إلى الجزائر الفرقاطة الأمريكية "جورج واشنطن" بالجزية التى مر وقت طويل على أوان سدادها. وفى لحظة وصولها كان مصطفى يواجه متاعب فى علاقته مع السلطان العثمانى، وكان بحاجة إلى أن يرسل سفيره بالجزية الواجبة عليه إلى إسطنبول. وفى السنة السابقة، عندما كان مخططًا إرسال بعثة أمريكية إلى إسطنبول حذر أوبرايان من أن وقوف فرقاطة أمريكية فى الجزائر، فى طريقها إلى تركيا قد يجعل الداى يصر على أن تحمل سفيره معها. وقد سمحت إسبانيا للداى بأن يستخدم واحدة من فرقاطاتها فى مهمة كهذه، لكن أوبرايان اعتبر أن الولايات المتحدة لا يجب أن تسمح بذلك[٢٨]. وحدث ما كان أوبرايان يخشاه، فعندما وصلت الفرقاطة جورج واشنطن إلى الجزائر، طلب مصطفى أن تحمل جزيته إلى تركيا. ولم يكن لدى أوبرايان والقبطان وليم بينبريدج قائد السفينة ما يساومان به. فرغم أن جورج واشنطن جاء بالجزية، فقد جاءت متأخرة، ولم يكن لدى أوبرايان لا مال ولا ائتمان. كانت الولايات المتحدة غارقة فى الدين للداى وللبكريين. وتفاوض أوبرايان وبينبريدج بأفضل ما استطاعا، ونجحا فى إعفاء سفينة تجارية أمريكية من المهمة. وقد كان أسهل على الأمريكيين أن يحتفظوا بفرقاطتهم لو أنها حملت الجزية من أن يحتفظوا بالسفينة التجارية الأصغر وغير المسلحة. ورغم أن أوبرايان بقى على اعتقاده بأن الحرب ضد الجزائر ستكون ضرورية لمنع هذا النوع من الإذلال، فقد كان يعلم أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة للحرب. ولأن أوبرايان وبينبريدج، وقامت جورج واشنطن بأول زيارة رسمية أمريكية لتركيا.

واعتبر أوبرايان هذا الحادث محبطًا بعمق. لقد كان فى نفس الموقف الذى وقفه عندما وصل إلى الجزائر، قنصلا عاما، بالضبط، وبشكل أكثر تشابهًا مع موقفه عندما وصل إلى الجزائر أسيرًا فى ١٧٨٥. وجد بعض العزاء فى أن جورج واشنطن وصلت، على أية حال: جاءت بكلمة من وزير الخارجية الجديد جون مارشال بأن إدارة آدامز سوف تعطى مزيدًا من الاهتمام لشؤون دول البربر. وبترفيع جون مارشال أصبح آدامز مسيطرًا على إدارته، باستبدال أعضاء الحكومة الأكثر ولاء لها ميلتون منهم للدولة. فقد حل مارشال محل تيمونى بيكرينغ الذى حاول نسف مفاوضات آدامز حول السلام مع فرنسا. لكن الاتجاه الجديد للإدارة هو، الآن، مصدر سلوى لأوبرايان. تعهد مارشال بأن "شؤون منطقة البربر سوف تكون محل اهتمام" هذا ما كتبه أوبرايان، ومع التزام الإدارة الجديدة بالسلام مع فرنسا، صار متاحًا للأسطول الفرنسى، الآن، أن يلتفت إلى الجزائر. وكتب أوبرايان : "كلما تستقر عليه إرادة الشعب صحيح"[٣٩].

ورغم أن موضوع السفينة جورج واشنطن كان مصدرًا لبعض العزاء، بالنسبة لأوبرايان فلم يستطع مقاومة الاكتئاب، لأن عدم وصول شخص يحل محله على ظهر السفينة أصابه بخيبة أمل. كتب إلى إيتون "امتلأ قلبى بالملل من بلاد البربر" مشيرًا إلى أنه طلب أن يعفى فى يونيو، مضيفًا "أظن أن أى وظيفة فى الولايات المتحدة ستكون أفضل من مكانتنا المتدنية فى بلاد البربر". ويوم أبحرت سفينة جورج واشنطن إلى تركيا كتب أوبرايان إلى كاثكارت، الذى كان لا يزال يلوم القنصل العام على استبعاده، بالمناورات، من المنصب المرموق فى الجزائر " أنا... سوف أعود إلى الولايات المتحدة. لقد مللت بلاد البربر"[٤٠]. ولام الولايات المتحدة على إرسالها القناصل إلى الدول البربرية ثم تجاهلها لهم، وهو الآن يحث، ليس فقط على زيادة الوجود العسكرى فى المتوسط – ست فرقاطات مثل جورج واشنطن – بل وعلى العمل العسكرى. "لا شيء يجعل الولايات المتحدة، أو أى دولة أخرى، محترمة فى الجزائر إلا بالحرب" هكذا كتب إلى كاثكارت، وتساءل "هل يمكن أن نكون أمة من الأحرار ونحتمل هذه المهانات ؟" كان يعتبر الحرب أفضل، عندئذ "من المهانة ومن حالة التبعية لحثالة آسيا وإفريقيا"[٤١].

وشعر أوبرايان بالضجر فيما كانت جورج واشنطن تقلع باتجاه تركيا، أما وليم إيتون فكان مهتاجًا. وهتف إيتون "يا روح بلادى، كم أنت ذليلة !" وتساءل " أليس هناك أمريكى واحد تتمرد روحه، تنتفض أعصابه، تنفجر شرايينه، ينتفخ قلبه بالغضب" فى مواجهة هذا العار ؟ وقد حدث هذا كله لروحه هو ولأعصابه ولشرايينه ولقلبه، ولم يشف من ذلك، قط. اتجه غضب إيتون الحقيقى ناحية أوبرايان الذى صار يعتقد أنه أداة البكريين الذين ظن أنهم هم الذين رتبوا لاختطاف جورج واشنطن لتنفيذ خطة من خططهم الغامضة. وإلا فإذا كان البكريون بالقوة التى كان أوبرايان يصر على وصفهم بها، فلماذا- تساءل إيتون- لم يمنعوا "الإذلال الوطنى" الذى حاق "بسفينة حربية أمريكية تجبر على خدمة قرصان الجزائر ؟" كانت هذه "خطيئة أصلية" يعتبر أن "دم كل يهود بلاد البربر لا يمكن أن يمحوها" وأنها "سوف تُلحق شخصيتنا بعار أصيل"(٤٢). واتهم إيتون أوبرايان بأنه لم يقاوم طلب الداى المتعلق بالسفينة لأنه كان شريكًا فى مخطط البكريين، وأكثر من ذلك فقد اعتبر أن أوبرايان كان يتآمر مع البكريين، ويهود تونس، وكاثوليك ليفورنو، وأعداء بيركرينغ الأمريكيين لإسقاط إيتون. وقد ارتاح أوبرايان لعزل بيكرينغ لكن إيتون ضاق بذلك. كان الأمر أكثر من فقدانه لراعيه. فقد رأى إيتون فى بيكرينغ رجلاً نزيهًا، مثله، يحيط به المتآمرون. وتساءل "بحق الله، ما هو سبب عزل السيد بيكرينغ ؟ إذا لم يكن هو رجــلاً نزيهًا فإنى سأبدأ بالارتياب فى وجود رجال بهذه الصفة".

كل هذه الأحداث المتفرقة - قضية البيرغانتى، والاستيلاء على الفرقاطة جورج واشنطن، وعزل بيكرينغ - بدت لإيتون أجزاء من مؤامرة غامضة، وكان أوبرايان، رغم أنفه، أداة البكريين فيها أو أنه كان الروح الشريرة وراء كل هذا. وتحول الخلاف إلى صراع قاتل. كتب إيتون "باختصار، إما أن يسقط أوبرايان أو إيتون !" وأضاف "إذا كان هناك عدل فى السماء أو عقل يفهم فى الحكومة، فسوف أصعد"(٤٣). ولسوء حظ الولايات المتحدة، فإن الصراع المرير بين قناصلها فى نفس اللحظة التى وصلت فيها علاقاتها مع طرابلس الغرب إلى نقطة التأزم. كان يوسف باشا قرامانلى يتفاوض مع السويد حول معاهدة، وبمجرد إبرامها، وعد بأن ينقلب على الولايات المتحدة. وقد أجلت

أوامر تركيا لدول البربر باستئناف الحرب ضد فرنسا إعلان طرابلس الغرب الحرب على الولايات المتحدة. لكن القناصل كانوا يعلمون أن السيد الأعلى لم يكن بوسعه أن يمنع يوسف قرامانلى من أن يفعل، بالنهاية، ما يريد. وكتب أوبرايان "إن تعقيد الموقف فى المشرق أنقذنا، حتى الآن". وكتب إيتون إلى كاثكارت أنه "يأمل أن هذا الحدث (تعليمات السيد الأعلى لطرابلس الغرب بإعلان الحرب على فرنسا) سوف يتيح لك فرصة لاستعادة الهدوء فى علاقاتنا معه". وكان القناصل يعلمون أن إصرار تركيا على جبهة موحدة لن يكن إلا فرصة: وكان متروكًا للولايات المتحدة أمر الاستفادة منها. وكما توقعوا، فلم تفعل الولايات المتحدة شيئًا. وتأخرت الحرب أكثر لأن حكومة طرابلس الغرب كانت منقسمة: وزير الخارجية محمد دغيس لم يكن يريد الحرب، لكن أمير البحر مراد ريس، وهو مارق إسكتلندى كان اسمه، سابقًا، بيتر ليزل أراد الحرب وأراد أن يلقن الأمريكيين درسًا لأنهم تمردوا على إنكلترا. وقد تؤجل هذه الانقسامات الحرب، لكن لا أوبرايان ولا إيتون توقعا أن تنقذ حكومتهما أو الإمبراطورية العثمانية أو محمد دغيس أو كاثكارت السلام[٤٤].

وفى فبراير ١٨٠١ حاول أوبرايان تأجيل الحرب الملوح بها بترويج شائعات عن ثمانى سفن حربية أمريكية وبريغيتين كانت فى طريقها إلى المتوسط ويتوقع أن تصل فى ١٠ مارس، على وجه التقريب. وأبلغ أوبرايان إيتون وكاثكارت بالشيفرة أنه اختلق هذه الشائعة لكى يعطل خطط يوسف قرامانلى الحربية. وقد أطلق كاثكارت تقريراً مماثلاً فى ١٧٩٩ عندما أراد أن يدفع له الباشا يوسف ثمن شحنة ملابس. والآن، عندما أطلق أوبرايان الإشاعة للمحافظة على السلام رفض إيتون وكاثكارت مجاراته. وكتب إيتون على نسخته من الرسالة "لن أكون أداة لرؤية السيد أوبرايان"[٤٥].

ولم يكن أمل القناصل فى تلقى المساعدة من الولايات المتحدة كبيراً، وبدا أن احتمال مجيء رئيس جديد يعد بمزيد من التأجيل وليس بتغيير فى السياسات. وكتب أوبرايان: "فيما تنشغل الولايات المتحدة فى اختيار الصارى الرئيسى والصارى المتقدم للسفينة الصالحة، فإن هذه الدول تضع الخطط لأسر الأمريكيين واستعباد مواطنى

الولايات المتحدة". لكن مجازات إيتون ربما كانت أكثر ملاءمة. "الآنسة حرية تمضى وقتًا طويلاً للغاية فى انشغالها بغطاء رأسها، حتى إنها تخاطر بتعريض أجزاء لا تقل أهمية لمؤثرات غير محدودة". واقترح كاثكارت تعديل الدستور حتى لا يتولى الرئاسة أى شخص إلا إذا كان قضى ستة أشهر قنصلاً فى شمال إفريقيا. ولم يكن لدى أحد من المرشحين: جون آدامز أو توماس جيفرسون أو تشارلز كوتسويرث بينكنى هذه الخبرة. وتوقع أوبرايان "تنافسًا شديداً بين آدامز وجيفرسون وبينكنى" وكان يفضل بينكنى الذى وافق عليه الاتحاديون نائبًا للرئيس، لكن هاميلتون، الآن، يعزز ترشيحه رئيساً. واعتبر أوبرايان أن بينكنى لديه "من الأمريكى الحقيقى أكثر مما لدى الاثنين الآخرين" وكان إيتون يميل إلى جون آدامز، ليس لأنه لم يكن يثق بجيفرسون ولكن "لأن السيد آدامز.. قادنا خلال ليلة عاصفة – دعه ينعم براحة يومنا الهادئ". لكن إيتون رأى قليلاً من الاختلاف الحقيقى بين الاثنين. فهو "لم يفترض قط أن مصير البلاد يتوقف على هذه الانتخابات". هكذا كتب، وبين آدامز وجيفرسون كان الاختيار "ستة من أحدهما وستة من الآخر". أما عن معتقدات جيفرسون الدينية غير الراسخة فقد تساءل إيتون "ما العلاقة بين التفاوض حول معاهدة والعشاء الربانى؟" وفى أبريل ١٨٠١ سمع أوبرايان أن جيفرسون وبير قد تم انتخابهما، لكن إيتون قرأ فى صحيفة بريطانية أن آدامز أعيد انتخابه وأن بينكنى أصبح نائب الرئيس. وكانت أخبار أوبرايان صحيحة، وكان إيتون يأمل أن يتبع جيفرسون سياسة جديدة إزاء "الملكيات الإفريقية... فمن الصعب وضع سياسة أسوأ من الحالية"[٤٦].

فى ذلك الحين، فى أبريل ١٨٠١، بدت الحرب محتومة. رفض أوبرايان اقتراح الداى بأن تعطى الولايات المتحدة طرابلس الغرب ١٠٠,٠٠٠ دولار. لم يكن أوبرايان قد تلقى أى مراسلات من الولايات المتحدة منذ وصول الفرقاطة جورج واشنطن، وقد رفض البكريان اللذان كانت الولايات المتحدة مدينة لهما بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ دولار تقديم المزيد من القروض. وحاول أوبرايان إقناع الداى باستخدام تأثيره المحدود على يوسف قرامانلى لتجنب الحرب، لكن الداى لم يكن يستطيع التأثير على يوسف الذى طرد العثمانيين من طرابلس الغرب واعتبر أنه لا يتبع أحداً ولا يتبع مملكة. وينبع جزء

من عداء يوسف للولايات المتحدة، فى الحقيقة، من إصرار الأمريكيين على أنه كان، بشكل ما، تابعًا للجزائر. وكان أوبرايان يعلم أن الحرب مع طرابلس الغرب تكاد تكون محتومة ونصح كاثكارت "احترس. لا تبرم أى معاهدات جديدة. احرص على شرف بلادك وهيبتها وعلى مسؤولياتك"(٤٧).

وقد كان كاثكارت حريصًا على مسؤولياته، فأبلغ جميع القناصل فى حوض المتوسط بأن الحرب محتومة. لكن اهتم، أيضًا، بتجارته الخاصة. فكتب إلى تاجر بريطانى فى مالطا، مبلغًا إياه بأن من المحتمل أن تتحارب الولايات المتحدة وطرابلس الغرب خلال ثلاثة أسابيع، ولكن إذا تم تجنب الحرب، فهل يكون بوسع التاجر أن يجد له موظفا شابا قادرا على الكتابة بإنكليزية مقبولة، وإذا أمكن، بالفرنسية والإيطالية ؟ وتساءل كاثكارت إن كان بوسع التاجر أن يصبح وكيله لتجارى فى مالطا لشراء "أية أشياء بسيطة" قد يحتاجها كاثكارت من هناك(٤٨).

وفى ٩ مايو اجتمع يوسف قرامانلى، الذى كان ما زال يتأرجح بين الحرب والسلام، إلى كاثكارت خمس مرات لكنهما لم ينجحا فى التوصل إلى تفاهم(٤٩). وقال يوسف إن الوقت وحده هو الموضوع، كان مستعداً لأن يمنح كاثكارت مهلة ثمانية أشهر ليعطيه الهدايا والمبالغ السنوية التى اعتبر أنها حق لطرابلس الغرب. وحاول كاثكارت تمديد فترة السماح إلى سنة، مذكراً يوسف بأنه لم يتلق أخباراً من الولايات المتحدة منذ خمسة عشر شهراً، وبأن بلاده اشتهرت بأنها بطيئة فى التجاوب مع قناصلها فى بلاد البربر. لكن يوسف عيل صبره. وقال إنه إن لم يفاوضه كاثكارت على معاهدة جديدة تسلم طرابلس الغرب بمقتضاها مبالغ سنوية، فليس سوى الحرب. وقال إن المبالغ ستكون صغيرة فى زمن السلم وكبيرة عندما تتحارب الدول. وقال كاثكارت إن بوسعه أن يقبل فترة سماح لثمانية أشهر، وليس بوسعه أن يعد بزيادة مالية. وعندما توقفت المفاوضات بين كاثكارت وقرامانلى اقترح دغيس، عبر القنصل الدينماركى نيكولاس نيسين، أن يمنح كاثكارت يوسف ٤٠,٠٠٠ دولار، ورفض كاثكارت. وأشار دغيس على كاثكارت أن يرسل زوجته، التى كانت جيلى مجدداً، وطفلته ذات العامين إلى قنصلية أخرى حتى لا تنزعجا عندما يتم إنزال العلم الأمريكى أمام المنزل، فى الصباح التالى.

وفى اليوم التالى، الاثنين، انتظر كاثكارت فى القنصلية، ولم يأت أحد. وبحلول الساعة الحادية عشرة، وعندما لم يظهر ما يشير إلى الطاقم الذى سيأتى لإنزال العلم، زار دغيس. حاول أن يحصل على وعد من وزير الخارجية بأن طرابلس سوف تحجم عن مهاجمة السفن الأمريكية لأربعين يومًا. لكنهما لم يتفقا على شىء. وأرسل يوسف مساء ذلك اليوم، يقول إنه سيأمر بتنزيل العلم يوم الخميس. ويوم الأربعاء طلب كاثكارت عشرة أو اثنى عشر يومًا أخرى، مذكرًا يوسف بأنه لم يتلق أى مراسلات من أمريكا طيلة خمسة عشر شهرًا، وربما قال له إن هناك رسالة فى الطريق. وحث دغيس يوسف على إمهال الأمريكيين، لكنه أخبر كاثكارت بأن يوسف يتوقع أن يكسب من الحرب مع أمريكا أكثر مما يكسب من الحرب مع السويد أو الدينمارك، وأنه إذا كان قد قر قراره على الحرب مع الولايات المتحد ة فإن هدية قيمتها ٥٠,٠٠٠ دولار أو ٦٠,٠٠٠ دولار لن تثنيه عن عزمه. وكتب كاثكارت إلى إيتون يقول له إنه آت إلى تونس، وأن يتوقع مجيئة فى خلال أربعين يومًا. وكتب أوبرايان إلى كاثكارت أنه يأمل أن يساعد خطاب الداى إلى يوسف فى كسب وقت كاف لتحذير السفن التجارية الأمريكية، لكنه كان يعلم أن هذا هو كل ما يمكن الحصول عليه من خطاب الداى "والحرب سوف تكون نتيجة التباطؤ والتجاهل" (٥٠).

ويوم الخميس ١٤ مايو أبلغ يوسف كاثكارت بأن الرجال فى طريقهم لإنزال العلم الأمريكى. وقدم كاثكارت عرضًا واحدًا أخيرًا بدفع ١٠,٠٠٠ دولار، ورفضه يوسف. ووصل الرجال إلى القنصلية، محاولين فى البداية أن يقطعوا صارى العلم قطعتين، لكنهم وجدوه صلبًا لا ينكسر بسهولة. وقضوا الساعة التالية يضربون الصارى بالبلطات، وأخيرًا "حققوا الإنجاز الكبير" ورقد صارى العلم على المصطبة أمام القنصلية، علامة على أن طرابلس الغرب أعلنت الحرب على الولايات المتحدة. وقضى كاثكارت وأسرته عشرة أيام يحزمون متاعهم، ولم يعد يوسف متعجلاً فى تحركاته. أطلقت طرابلس الغرب عدة سفن حربية يومى ٢٦ و٢٧ مايو، ولكنها لم تعد إلى

تحضيرات أخرى. وترك كاثكارت الشؤون الأمريكية بين يدى ينسين، القنصل الدينماركى، وغادر طرابلس الغرب[٥١].

بقى إيتون يتوقع وصول كاثكارت وأسرته، يومًا بعد الآخر، إلى تونس لينسقا الإستراتيجية الأمريكية. ولكن بدلاً من الذهاب إلى تونس، اتجه كاثكارت بأسرته إلى ليفورنو، حيث واصل عمله التجارى، بكل اجتهاد. وأخيراً كتب إلى إيتون فى ١٣ يونيو، بعد ثلاثة أسابيع من مغادرته طرابلس الغرب، يطلب منه دفع فاتورة قيمتها ٢٠٠ دولار وائتمانًا قيمته ١٠٠٠ دولار "لأنى يجب أن آكل". كان الحصار الذى ضربته بريطانيا على إيطاليا قد رفع أسعار القمح، وإذا أمكن أن يرسل إيتون شحنة قمح قبل موسم الحصار فى إيطاليا فإن ذلك، كما كتب كاثكارت، يمكن أن يدر عائداً كبيراً. وقد أرسل كاثكارت واحدة من سفنه الخاصة إلى تونس لتحمل بالقمح، لكنه طلب أن تبقى ملكيته لها سرا. وأقلعت السفينة تحت علم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، باعتباره العلم الوحيد الذى يأمن البريطانيين. ووعد كاثكارت بأن يحيط إيتون علماً "إذا كان من المجدى إرسال شحنة من القمح إلى هنا، أم لا. وفى الأسبوع التالى حثه على السرعة. كان سعر القمح يتصاعد سريعاً، وكان يمكن لإيتون أن ينجز "صفقة كبرى" إذا نجح فى إدخال شحنة أو اثنتين قبل أن تصل المراكب الأخرى. وكان كاثكارت يريد أن يستثمر عدة ألوف من الدولارات، فقط إذا كان بوسع إيتون أن يضمن عدم وجود مخاطر، "باعتبارى فقيراً مثل النبى أيوب". ولكى يبقى قادراً على مواجهة الظروف، حتى تصل هذه السفن، طلب من إيتون قرضًا قيمته ١٠٠٠ دولار. وصادق إيتون على ائتمان لصالحه فى ليفورنو ومارسيليا[٥٢].

وأخيراً جاء كاثكارت إلى تونس فى سبتمبر حيث ناقش مع إيتون فكرة استخدام أحمد قرامانلى، الأخ الأكبر المخلوع ليوسف، وكيلا أمريكيا فى طرابلس الغرب. كان أحمد يعيش، آنذاك، فى تونس. وكانت مهمة إيتون أن يقنع كلاً من أحمد والولايات المتحدة بأن مصالحهما متطابقة. وأصبح هذا الأمر هاجسًا ملحًا عند إيتون، باعتباره طريقته فى إصلاح ما أفسده "المتآمرون" المحيطون به. وبعد أن أطلق كاثكارت الخطة

باتجاه التنفيذ رجع إلى ليفورنو لينتظر الأسطول الأمريكى. وكان يتوقع أن يرسلوه إلى الجزائر ليحل محل أوبرايان، لكنه لم يقبل. وهكذا فعندما حاربت الولايات المتحدة طرابلس الغرب، ظل كاثكارت يطوف حول المتوسط قبل أن يعين قنصلاً فى قاديش. وقبل أن يغادر ليفورنو، تشاجر كاثكارت مع المؤسسة التى ترعى مصالح إيتون هناك. وقال إن بوسع إيتون أن يفعل ما يشاء لكنه لن يتعامل مع المؤسسة، بعد ذلك. وربما لم تكن المؤسسة عديمة النزاهة، لكنهم كانوا يعرفون كيف يتلاعبون بفواتير المبيعات. كان أصحاب المؤسسة يشاركون إيتون مخاوفه المؤرقة. وكتب أحدهم "هناك لحظات، فى الحقيقية، يكون فيها التعامل مع السيد (ك) أو فهمه أمراً مستحيلاً". وغاظ كاثكارت أن إيتون ظل يتعامل مع المؤسسة وأخيراً أرسل إلى رفيقه السابق كل دفاترهما المشتركة، وأغلق كل حساباته مع إيتون، وقال إنه يأمل أن يبين هذا لإيتون "الفارق بين الأصدقاء الحقيقيين والمصلحجية". وكان هذا آخر ما وصل إيتون من جهة كاثكارت حتى بعد تقاعده فى مزرعته فى ماساشوسيتس، بوقت طويل. وكتب كاثكارت، بعد تعيينه قنصلاً فى مدريد، ليشجع إيتون على الاستثمار فى مشروع تجارى مشترك جديد(٥٢).

ولم يكن لدى كاثكارت وإيتون ما يقولانه عن أوبرايان إلا الكلام المقذع. لكن أوبرايان امتدح معالجة كاثكارت لأحداث الشهر الأخير الذى سبق إعلان طرابلس الغرب الحرب. ورغم أنه لم يكن يعتقد أن كاثكارت يصلح للدبلوماسية فإنه قال: "لقد مضى فى محاولاته لإنقاذ سلام الولايات المتحدة إلى أبعد مما كنت أنا سأمضى إليه أو ستأمر الحكومة بالمضى إليه" ولكن بقيت لدى أوبرايان انتقادات لحكومته ولقناصل أمريكا فى إسبانيا، الذين رفضوا نشر تحذيرات كاثكارت من أن طرابلس الغرب تحارب أمريكا. وقد كان قناصل الولايات المتحدة لدى دول البربر الوحيدين الذين يتلقون رواتب لقاء خدماتهم، وكان الآخرون تجاراً محليين يكسبون من حصتهم فى الرسوم المفروضة على السفن الأمريكية. وكان من مصلحة هؤلاء القناصل أن يستمر قدوم هذه السفن: فإبلاغ الأمريكيين بوقف التجارة كان يؤذى مصالح هؤلاء االتجار، حتى وإن كان يساعد المصالح الأمريكية. وكانت أنانية هؤلاء القناصل تعنى أن "أبناء وطننا سيقعون فى المتاعب بغبائهم" هكذا كتب أوبرايان. كان أوبرايان يعلم أن هذه المصاعب آتية لكنه

كان يأمل أن لا تظهر الولايات المتحدة، بعد أن تدخل الحرب، اللامبالاة والإهمال اللذين تسببا بالحرب. وكتب يقول : "أريد رجلاً مثل الجنرال سكوول" وما دام الباشا يوسف مصمماً على الحرب "فبحق الله أعطوه كفايته منها"(٥٤).

وعندما جاءت الحرب اتبع القناصل الثلاثة مسارات مختلفة. كانوا قد وصلوا إلى شمال إفريقيا قبل أربعة أعوام، مبعوثين لتنفيذ سياسة أمريكية لم تكن محددة بوضوح. لم يكن الأمريكيون على أرض الوطن متفقين حول دور أمريكا فى العالم، وكانوا يعتبرون ممالك شمال إفريقيا أدوات بأيدى القوى الأوروبية أو رموزاً للفساد واللاقانون. لقد سبق أن نشب الخلاف بين إيتون وأوبرايان وكاثكارت، ووضعت الحرب خلافاتهم فى صورة أكثر وضوحاً. وسوف نناقش حل إيتون العسكرى، بتفصيل أكثر، فى الفصل التالى، وقد يكون أوضح جوانب السياسات الأمريكية فى شمال إفريقيا. وقد اعتبر كاثكارت نفسه ذا أهمية مركزية للسياسات الأمريكية. وقد تقدم لشغل وظيفة أوبرايان قنصلا عاما فى الجزائر، لكن الداى رفض استقباله. وبقى فى منطقة المتوسط يمارس تجارته الخاصة، حتى نهاية الحرب، ثم عاد إلى الولايات المتحدة. وعندما أرسلت تونس سيدى سليمان ميللميللى سفيراً لدى الولايات المتحدة فى ١٨٠٥، كلف كاثكارت بمرافقته من واشنطن إلى بوسطن. لكن ميللميللى اتهم كاثكارت بأنه كان مخموراً وغير نزيه ولا يظهر الاحترام. وأرسل كاثكارت إلى ماديرا وإلى مواقع قنصلية ثانوية أخرى، ثم أرسله الرئيس مونرو إلى فلوريدا ولويزيانا مفتشاً على الأخشاب ويبدو أن أفضل سنوات كاثكارت كانت تلك التى قضاها أسيراً فى الجزائر. كان شابا وناجحا. والأحلام الجسورة التى اشتعلت فى لحظة النجاح تلك، لم ينجح قط فى أن يجعلها تثمر. واستمرت الجائزة الكبرى التى كان يسعى وراءها، هى منصب القنصل العام فى الجزائر، تراوغه فى حين كانت تلاحقه الديون المتزايدة التى راكمتها الأحلام الباذخة والأسرة التى يتزايد حجمها. وطوال السنوات العشرين الأخيرة من حياته كان موظفًا صغيراً فى وزارة الخزانة، يقضى لحظات الفراغ فى تحريك دعاوى عقيمة ضد الولايات المتحدة مطالبًا بديون، اعتقد أنها مدينة بها له، لقاء خدماته فى منطقة المتوسط. وكان يخطط لإنشاء مزرعة فى إنديانا، لو دفعت حكومته ما يدعيه من ديون. وبخلاف الزراع الذين يبدأون بغرس البذور وبناء مخازن الغلال، قبل أن يشيدوا

مساكنهم، فإن كاثكارت كان يخطط بأن يبدأ ببناء البيت الكبير، على طراز "المقار الريفية قرب بوسطن". وكان يتوقع أن يبقى منزله خمسين عاماً، على الأقل، فى كاثكارت سيت، قرب لابوانت، فى إنديانا. لم يكن يمل من الأحلام، رغم أن الواقع كانت له طريقة غير سارة فى اقتحام أحلام يقظته. وتحت إسكتش منزل الأحلام كتب كاثكارت: "إن خسرنا القضايا، خسرنا المنزل!" وفى آخر خطاب من خطاباته الباقية، وقد كتبه قبل موته فى ١٨٤٢ بوقت قصير، كان كاثكارت لا يزال ممرورا بسبب "خدمته المخلصة لند ناكر للجميل"(٥٥).

وبعد إعفاء أوبرايان من منصبه قنصلا عاما فى الجزائر، فقد بقى فى منطقة المتوسط مستشاراً للأسطول الأمريكى. وبعد الحرب انتقل إلى بنسلفانيا، حيث انتخب نائباً عن الولاية لمدة واحدة، ثم تقاعد مع زوجته إليزابيث، فى مزرعة قرب كارلايل. كان قد قضى قرابة عشرين عاماً فى الجزائر وأصبح عارفاً بمدينة لم يكن لها إلا وجود رمزى، بالنسبة لمعظم الأمريكيين. كانت الجزائر تعنى اللاقوز والقرصنة والنهب. كانت النموذج الأكثر وضوحاً للطغيان المسلم. لكن أوبرايان تعلم، وحاول أن يقنع حكومته، بما تعلمه من أن هذا العالم أعقد مما تخيلوا. كانت الولايات المتحدة تعتقد، عندما أرسلت أوبرايان قنصلا عاما، أن بوسعها أن تعلم الجزائريين جدوى التجارة الشريفة، وأن تفطمهم عن الحرب والقرصنة. لكن أوبرايان وصل إلى الجزائر ليجد أن المجتمع التجارى المحلى، من مسلمين ويهود، ليست لديهم ثقة فى الأمريكيين، الذين كانوا غير قادرين أو غير مستعدين لتغيير صورتهم هذه. أما كاثكارت وإيتون اللذان أرسلا لتعزيز السلام والتجارة الشريفة فى منطقة المتوسط، فقد انصرفا، بدلا من ذلك، إلى متابعة مصالحهما التجارية الخاصة، التى خلطا بينها وبين المصالح الأمريكية. أما حكومة الولايات المتحدة، المشغولة بالسياسات الأوروبية، فقد أهملت الساحل البربرى والقناصل الذين أرسلتهم إليه. لقد كان العالم المسلم، دائماً أعقد مما ظن الأمريكيون. ونموذج التجارة الشريفة التى اقترحه الأمريكيون، والدروس فى التجارة التى أعطاها رجال مثل القبطان غريفز والقنصل كاثكارت لم تكن مغرية لرجال التجارة فى شمال إفريقيا بأن يغيروا الطرق الخاصة بهم. وبعد أن لم ينجح الأمريكيون فى الحفاظ على

الفصل الثامن

تذكر الحرب الطرابلسية

لم يكد الأمريكيون يبدأون حربهم ضد طرابلس الغرب حتى حولوها إلى خرافة أخلاقية. أصبح انتصار آندرو ستيريت فى معركة بحرية فى أغسطس ١٨٠١ أساسًا لمسرحية "الجائزة الطرابلسية أو الملاحون الأمريكيون على شاطىء إنكليزى" التى عرضت فى نيويورك فى نوفمبر ١٨٠١. ولا توجد نسخ من هذه المسرحية، رغم أن خسارتها لا تعنى شيئًا خطيراً للأدب. وما نعرفه عن المسرحية مصدره عرض نقدى جاد لها كتبه واشنطن إيرفينغ. وما زال بمقدورنا الاستمتاع بحكم إيرفينغ الساخر الخشن على هذه المسرحية المنسية. لكن الأكثر إزعاجًا هو حكم إيرفينغ القاسى على الجمهور. ويكاد يكون إيرفينغ الوحيد الذى أدان المسرحية، وقد أربكته استجابة الجمهور - كان يبتسم ساخراً، وكان بقية الجمهور يهتفون ويضربون الأرض بأقدامهم ويهللون(١).

وقصة "الجائزة الطرابلسية" بسيطة للغاية: سفينة أمريكية أسرت سفينة طرابلسية، وطيرت عاصفة السفينتين من المتوسط إلى القنال الإنكليزى. ويقع ابن القبطان الأمريكى فى غرام صبية إنكليزية ويرغب فى التخلى عن خدمته فى البحرية ليبقى مع محبوبته، ما ينشأ عنه صراع بين الواجب والحب. فى الوقت ذاته، كانت سفينة طرابلسية أخرى قد طاردت الأمريكيين حتى إنكلترا، وبعد معركة بحرية مطولة (يتابعها جمهور إنكليزى على المسرح) يكسب الأمريكيون، ويستسلم الطرابلسيون، ويدرك ابن القبطان أن واجبه نحو بلاده هو قبل كل شىء آخر.

حبكة بسيطة وإن كانت غير جديرة بالتقدير. وقد يكون لنا نحن وإيرفينغ أن نظهر عدم اقتناعنا، لكن جمهور نيويورك اقتنع. فمعظم أحداث الرواية كانت "تستقبل بالتهليل وصيحات الاستحسان التى خصوا بها القبطان وطاقمه ومنصة القيادة". أما القبطان الذى يصفه إيرفينغ بأنه كان ابن جنية ضخم الجثة وشتاما، وقد احتقر ابنه لأنه خان الشرف البحرى من أجل، صائحًا "ماذا؟! بحار أمريكى يهرب من الواجب؟! ويرد عليه الجمهور: "مستحيل، البحار الأمريكى راسخ للأبد! الأزرق الحقيقى لا يبهت أبدًا!"

ولو كان هناك نص مطبوع لهذه المسرحية، فلم يكن ليحتوى على هذا الحوار بين الممثلين والجمهور. وعرض إيرفينغ يعطينا الحبكة، وأهم منها رد فعل الجمهور. كره إيرفينغ الرواية، وأحبها الجمهور. شعر إيرفينغ بالاشمئزاز. وابتهج الجمهور. مال الجمهور، صاخبًا متحمسًا، إلى جانب الواجب والبحارة الأمريكيين. وجاءت الإثارة الحقيقية عند نقطة الذروة فى المسرحية، عند المعركة بين الأمريكيين والطرابلسيين. كان من غير المتصور أن تقع معركة كهذه قبالة الساحل الإنكليزى، وهى حقيقة استخدمها إيرفينغ ليسخر من المسرحية. لكن هذا المستحيل الجغرافى أدى وظيفة درامية ووطنية بحق. فعلى المسرح، تجمع جمهور على الشاطئ الإنكليزى ليتابع الانتصار الأمريكى، وهكذا قدمت للجمهور مسرحية داخل المسرحية، ولذة مشاهدة البحارة الأمريكيين ينتصرون ورد الفعل الإنكليزى على هذا الانتصار. وكتب إيرفينغ أن "المعركة سارت وقائعها باللطف والكياسة المناسبين، فاستسلم الطرابلسى بكل أدب – على اعتبار أنه من قلة الأدب أن ينتصر فى حضرة جمهور أمريكى" أو حتى فى حضرة جمهور إنكليزى.

ورغم أن هذه المسرحية لم يبق أثر منها، فقد بقيت هى الطريقة التى ظل الأمريكيون يتذكرون بها الحرب ضد طرابلس الغرب. ففيها كل التيمات التى تتكرر فيما تبقى من شعر وأغنيات ولوحات وكتب ومسرحيات. تحارب الأمريكيون مع الطرابلسيين، ففاز الأمريكيون، ولكن ليس بفضل تفوق القوة العسكرية أو حتى الشجاعة.

لقد هزم الأمريكيون الطرابلسيين لأن الأمريكيين كانوا الأزرق الحقيقى (TRUE BLUE وهى عبارة ذات منشأ غامض ويرجعها البعض إلى ما كان يقال عن القماش الأزرق الذى كان يصبغه أهل كوفنترى فى إنكلترا، بصبغة زرقاء لا تبهت رغم مرور الزمن، وقد أصبح رمزاً للثبات على المبدأ نظراً لمعارضة أهل كوفنترى لطغيان الملك جيمس الأول، ملك إسكتلندا، وكان هؤلاء المعارضون يعتبرون الأزرق رمزاً لهم، ولأنهم كانوا من أتباع الكنيسة المشيخية البروتستانتية، فقد جعل صمويل تبلر منهم رمزاً للمشيخية البروتستانتية فى إحدى قصائده الساخرة - المترجم) وكان البحارة الأمريكيون أصحاب مبادرة تجارية (ENTERPRISE على غرار الاسم الذى حملته أول سفينة أمريكية منتصرة وهو إنتربرايز كما أنهم كانوا شجعاناً وأذكياء بقدر ما كانوا أقوياء. ورغم أن الجنود الطرابلسيين أجبروا على الحرب بالترهيب، فإن الأمريكيين كانوا متطوعين وحاربوا بدافع حب البلاد ومثلها الجمهورية. أما الحشد الواقف على منصة فى السفينة يشهد مسرحية فكان دوره يتجاوز مجرد الهتاف للفريق الوطنى، كان، فى الحقيقة، يشعر بالصلة مع الرجال الذين يحاربون فى نصف الكرة الأرضية الآخر.

وقصيدة جوزيف هانسون فى ١٨٠١ "إذلال المسلمين، أو قصيدة بطولية احتفالاً بالشجاعة التى أظهرها البحارة الأمريكيون، فى الصراع مع طرابلس الغرب" تتساءل "ما الذى يمكن أن ينجزه عبيد الطغاة ؟ الذين يحاربون من أجل النهب ومن أجل السادة المستبدين، الذين لا يدافعون عن قانون، إلا إذا كان قمعياً، ولا يحمون سلطة، إلا تلك التى تهينهم" فى حين أن الأمريكيين، من ناحية أخرى، كانوا يستلهمون تلك الكنوز التى لا يمكن تقديرها" حقوقهم وحقوق كولومبيا" و "القوتين الهائلتين للعدل والحرية" اللتين أعطتا الأمريكيين "تلك الشجاعة التى لا تهزم، التى أرعبت وأعجزت السادة النهابين التابعين للباشا المتجبر"(٢).

وتعطى أغنية "الإزدهار الوطنى" فى ١٨٠٤ هذا الاختلاف بين الأمريكيين والطرابلسيين شكلا سياسيا صريحا. فلم يكن كافياً أن الأمريكيين مختلفون، كما قالت هذه الأغنية " فقد كان مصدر بركات الأمريكيين هو قيادة جيفرسون "رئيس

الأمة الذى أحسن اختياره" الذى تناسى الفرقة و "التشهير الحقير" ولم يهتم إلا بالحكمة والنظام والقانون. وتحتفى هذه الأغنية بفرار أمريكا من الورطات الأوروبية، ومن التصعيد العسكرى فى سنوات آدامز، ومن التشكك الدينى. ذلك لأن "الأمة السعيدة المباركة" تحت قيادة جيفرسون، التى تنعم "بالسلام والوفرة" قادرة على ذلك، لأن الناس الذين يجدُّون فى عملهم لا يتعين عليهم أن يدفعوا ضرائب مرهقة. و "أقصى طموحات" الأمة ليس الغزو أو التسلط، ولكن "الحرية والتجارة". وقد حسنت لويزيانا "وهى حلقة جديدة فى الاتحاد" فرص الأمريكيين فى تحقيق طموحاتهم فى بلدهم، ووعدت الأغنية بأن "قراصنة طرابلس الغرب" سوف يتعين عليهم فى القريب العاجل إما "أن يوفونا حقوقنا أو يتحملوا ضرباتنا"(٣).

وقد ناقش الاتحاديون مدى مسؤولية جيفرسون عن تدبير هذا الذى جرى، وزعموا بأنه لهوج الحرب. لكن جيفرسون اتبع سياسة مختلفة عن سياسات أسلافه، وكانت النتيجة مختلفة على نحو ذى مغزى. ويمكن أن نقارن، هنا، بين اثنتين من قصائد الأسر: "الأسير الأمريكي فى الجزائر" المكتوبة فى ١٧٩٥ وقصيدة وليم راى "أنشودة للحرية" التى كتبت عندما كان راى أسيراً فى طرابلس الغرب فى ١٨٠٥. فى قصيدة "الأسير الأمريكى فى الجزائر" المجهولة المؤلف فإن العبد المجبر على العمل فى سفينة لا يجد الحرية إلا فى الموت. ويجد راى الحرية، أيضًا، ويبارك "القوة التى حققت الإفراج". لكن هذه القوة ليست إلهًا، بل هى البحرية الأمريكية. وقد يكون هنا تجريف لكنه يشير إلى تغير فى المفاهيم. فلم تعد الحرية منحة من اللَّه. بل صارت شيئًا يتعين أن يحميه الرجال والنساء من أجل أنفسهم. ولم يجمع الأسرى الأمريكيون العائدون من الجزائر على امتداح حكومتهم لسرعة مبادرتها إلى العمل. وأولئك الذين كانوا فى طرابلس ربما تعذبوا فى كل يوم من أيام الأسر، لكنهم رأوا أيضًا القصف البحرى المذهل بل وشهدوا على إغارة ديكاتور فى فبراير ١٨٠٤ على مرفأ طرابلس ليحرق السفينة "فيلادلفيا" وهو ما اعتبره أعظم الأبطال البحريين فى ذلك العصر هو راشيو، اللورد نيلسون "العمل الأجرأ والأكثر جسارة فى هذا العصر".

وكما أشرنا فى فصل سابق، فإن إغارة ديكاتور حولت الخسارة المشينة للسفينة فيلادلفيا إلى عرض للبأس الأمريكى. وحاول من انتقدوا معالجة جيفرسون لشؤون الحرب من الاتحاديين أن يستخدموا مغامرة ديكاتور لصالحهم، قائلين إنه دمر السفينة ولم يستردها، وإن بطولته عجزت عن أن تطلق سراح ولو أسير واحد، وإنه لو أن جيفرسون وجه قوة كافية إلى المتوسط، لما كانت هناك حاجة لهذا كله. واستخدم الاتحاديون أمور النسب فى نقدهم: ديكاتور كان ابنًا لأحد الاتحاديين المخلصين، والبحرية كلها فكرة اتحادية، وافتتحت "إيفننغ بوست" فى نيويورك تقاريرها الأولى عن إغارة ديكاتور "بقولها سوف نبتهج لأننا وجدنا أن الأفضل، بالنسبة لنا، أن نحرق واحدة من فرقاطاتنا، وهى التى كلفتنا أربعمائة ألف دولار". ولم يؤثر هذا الخطاب، بأكثر مما أثر نفور واشنطن إيرفينغ من صخب الحشد الذى كان يشاهد "الجائزة الطرابلسية". وأعادت "أوروا" الموالية للإدارة، بكل سرور، سخرية "إيفننغ بوست" قائلة إنها كريهة لدرجة تجعل التعليق عليها غير ممكن. وكاعتراف بالتحولات التى أحدثها ديكاتور فقد رقاه جيفرسون إلى رتبة الكابتن، على الفور، ووافق الكونغرس ذو الأغلبية الجمهورية، على إعطائه سيفًا.

ولم يكد يمر أسبوع على وصول خبر إغارة ديكاتور إلى الولايات المتحدة إلا وكانت موضوعًا لمسرحية صامتة PANTOMIME، بعنوان "الاستعدادات لإعادة السيطرة على الفرقاطة فيلادلفيا". وظهر فى العرض موكب يحيى انتصار ديكاتور "على القراصنة الطرابلسيين" وانتهت بالطاقم الشجاع يترنم بأغنية وطنية جديدة و "يحمل العلم الأمريكى المنتصر". وخلال أسبوعين من وصول الأخبار إلى أمريكا وضع مؤلف موسيقى من نيويورك افتتاحية تصف فقد فيلادلفيا وهجوم ديكاتور. وربما لم يستطع أن ينتهى من العمل قبل عرضه الأول فى ٧ يونيو، وهكذا انتهت الافتتاحية بالأغنية "المجد لكولومبيا". ووعد كاتب أغنيات معاصر آخر بأنه إذا تجرأ أى طاغية آخر على إهانة العلم الأمريكى "فسوف نرسل إليهم ديكاتور ليعلمهم (السلوك القويم)"(٦).

وقد خلق ديكاتور للأمريكيين نسخة حية من "الجائزة االطرابلسية". لكنه لم يكن قد فعل كل ما عنده. ففى أثناء قصف طرابلس الغرب، فى أغسطس، كان ستيفن ديكاتور وشقيقه جيمى يقود كل منهما سفينة على أحد طرفى خط المواجهة. وفى نهاية اليوم، كان ستيفن ديكاتور وجنوده المنتصرون يبحرون خارجين من المرفأ، عندما علم أن أخاه جيمس قتل بيد قبطان طرابلسى أسير. وعلى الفور، أمر ستيفن بعودة سفينته إلى المرفأ، حيث عثروا على قاتل أخيه. وصعد ديكاتور ورجاله إلى السفينة، واشتبكوا بالأيدى مع الأعداء، وقتلوا القبطان، واستولوا على السفينة. وهنا ما يكفى من الشجاعة، حيث عاد أحد الأخوين إلى حيث وقعت المعركة لينتقم لأخيه. ولكن مع إعادة رواية القصة، أصبح بحار يدعى دانييل فرايزر هو البطل، وإن كان غيَّر اسمه، بعد ذلك إلى روبين جيمس. وفى هذه الزيادة التحسينية، وفيما يشتبك القبطانان الأمريكى والطرابلس على ظهر السفينة، فإن بحارا طرابلسيا رفع سيفه فوق رأس القبطان الأمريكى. لكن فرايزر، أو روبين جيمس، يضع نفسه بين السيف وقبطانه، ليتلقى الضربة وينقذ حياة ديكاتور. وهكذا فقد كان بوسع كل فرد أن يظهر الشجاعة والتضحية بالذات. ويبقى فرايزر أو روبين جيمس بطلاً من أبطال البحرية يضاهى القبطان الذى أنقذ حياته، من حيث العظمة. أثبت فرايزر/جيمس أن الأزرق الحقيقى لا يبهت أبداً، فكسب هو وقبطانه، ليس فقط إعجاب الجمهور الإنكليزى، بل وأعجاب أعظم بطل بحرى إنكليزى، فى كل العصور.

بين ديكاتور ما يمكن أن يفعله الأمريكيون، وما غاظ الاتحاديين هو أن براهينهم عززت موقف جيفرسون. ذلك أن صحيفة "أورورا" فى فيلادلفيا أعربت عن الرجال فى أن بطولة ديكاتور سوف تقــرب ذلك "اليوم المجــيــد" الذى يوحد الأمة شعــور واحد "لا تعكره روح الانقسام، ولا يغويه تأثير دولة أجنبية، دأبت على إزعاج السلام، وإفساد مواطنيها، ونهب كل ثروة" حتى ننتظر "بروح ترفض الانقسام، فضائل وبسالة أبطالنا ورجال الدولة عندنا، الذين بذلوا الجهد للحفاظ على حقوقنا، وتأكيد استقلالنا وشرفنا". وتمنت "أورورا" أن ترى "الفرحة الوطنية" و "التهانى المدنية" تحل محل الروح الحزبية وأن يحل "الحب المشترك للبلاد" محل التشرذم(٧).

وتمسك الجمهوريون بقصة ديكاتور لا يريدون أن يفلتوها. أصبحت بطولته بؤرة احتفالاتهم بيوم ٤ يوليو، فتحول الجمهوريون الذين كانوا الأشد انتقاداً للسلاح البحرى فى عهد آدامز إلى أكثر المعجبين به حماساً. ورفعت الجمعية الديمقراطية - الجمهورية فى تشيستر كاونتى، بنسلفانيا نخبًا فى صحة ديكاتور و "رفاقه البواسل" آملين أن تبقى شجاعتهم وبسالتهم "رعبًا لأعداءهم، ومثالاً لأبناء وطنهم، وأخيراً أن تضمن لهم الاحترام من كل أمريكى حقيقى". أما الديمقراطيون - الجمهوريون فى فيلادلفيا فإن نخبهم كان فى صحة "البحرية والجيش فى الولايات المتحدة - عسى أن يكونوا، دائمًا، مثل ديكاتور الشاب شجعانًا فى خدمة قضية عظيمة" وعبر نخب فى موريستاون، نيوجيرسى، عن الأمل فى أن تكون البحرية "قادرة، دائمًا، على حماية تجارتنا ضد التخريب، وأن تؤمن حرية مواطنينا، من الأوروبيين والإفريقيين البرابرة، على السواء". وعكس نخب فى إحدى سرايا الميليشيا فى فيلادلفيا ما جاء فى أول خطاب افتتاحى ألقاه جيفرسون، بامتداح "التجارة، خادمة الزراعة" وبالتطلع إلى إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين "عبر مبادرات إدارة حكيمة" ليخلص إلى امتداح ديكاتور والميليشيا والبحرية "عسى أن لا يستخدموا إلا لردع الطغاة وأساساً للحرية الغربية". واستخدمت سرية أخرى من الميليشيا فى فيلادلفيا ديكاتور لتمجيد جيفرسون: "لقد قيل إن قائدنا التنفيذى بافتقاره قوة الأعصاب لن يحترم نداء المجد من بلاده، فاسألوا قوى البربر واسمعوا ما سيقولون. هل أجبره هؤلاء القراصنة قط على أن يدفع لهم ؟ نعم، ودفع بالبارود والقذائف"(٨).

وقدم مسرح ساوثويرك فى فيلادلفيا برنامجا جمهوريا كاملا فى ٤ يوليو، محتفلاً بالاستيلاء على لويزيانا وبانتصار ديكاتور على طرابلس الغرب. لقد مجدت مسرحية جديدة من خمسة فصول صنفت باعتبارها "كوميديا وطنية" بعنوان "الحرية فى لويزيانا" استيلاء جيفرسون على الإقليم، وتبعها "معبد الحرية" وهو رسم شفاف للحرية والعدالة وكولومبيا مع صفوف من جنود البحرية "تكريمًا للكابتن ديكاتور ورفاقه البواسل". فالجمهوريون الذين عارضوا إنشاء البحرية هم الآن أخلص أصدقائها. وأصبحت صور الحرية والمواطنين الجنود والفضيلة الجمهورية مرتبطة بالصورة البطولية لديكاتور.

فقد جعل جيفرسون وديكاتور البحرية آمنة للجمهورية. فقد الاتحاديون ديكاتور كبطل. ومع مغادرة الأمريكيين للساحل الشرقى للاستيطان فى المناطق الحدودية، حملوا معهم اسم هذا الضابط البحرى الأرستقراطى من فيلادلفيا. وأطلق اسم ديكاتور على مدن فى جيورجيا وآلاباما ومسيسيبى وتنيسى وإنديانا وإلينوى، ومع عبور الجيل التالى من الأمريكيين المسيسيبى، فقد أطلقوا اسمه على مدن فى تكساس وآكانصو وآيوا وكانزاس ونيبراسكا(٩).

ورأى كثير من الأمريكيين الدليل على شجاعتهم فى الأعمال الباسلة التى قام بها ديكاتور ورفاقه. حدث هذا قبل نهاية الحرب بكثير. ورغم أن ديكاتور احتفل به فى صيف ١٨٠٤، فقد جاءت نهاية الحرب بعد عام كامل. كانت هناك فرص أخرى للشجاعة وللبطولة ولكن مع تدفقات الحماس الوطنى فى ١٨٠٤. كان من المدهش أن لا تنتهى الحرب على الفور. وكان المنتقدون الاتحاديون محقين: إن عمل ديكاتور الشجاع لم يضع نهاية للحاجة إلى الحرب. لكن بطولة ديكاتور غيرت الطريقة التى فهم بها الأمريكيون الحرب وأنفسهم. وكما أكد جوزيف هاتس فى "إذلال المسلمين" على هذا الجانب من الأطلسى، يعيش جنس من المخلوقات! مكافئ فى الروح للأوائل بين الأمم. لقد أثبت ديكاتور أن الأمريكيين أنداد لأى كان. ولم يكن الأمريكيون وحدهم من قالوا ذلك: فمن الفاتيكان أعلن البابا بيوس السابع أن "القائد الأمريكى، ومعه قوة صغيرة، وفى زمن قصير، فعل من أجل المبدأ المسيحى أكثر مما فعلته أقوى أمم العالم المسيحى منذ عصور!" وقد كان الاعتراف بذلك من الكنيسة الكاثوليكية وكذلك من لورد نيلسون أمرًا مرضيًا، على نحو خاص(١٠).

لقد أخذ ديكاتور الهزيمة وحولها إلى نصر، بتدمير السفينة فيلادلفيا وبالانتقام لموت أخيه. وكان الأمريكيون مستعدين لأن يفعلوا الأمر ذاته مع أى نازلة. ففى سبتمبر ١٨٠٤ حاول الأمريكيون أن يفعلوا بقلعة يوسف قرامانلى ما فعله ديكاتور بالسفينة فيلادلفيا. شحنوا الزورق المسلح "انتريبد" بالمتفجرات، محولين إياه إلى قنبلة عائمة، وتطوع خمسة عشر بحارًا بالإبحار به إلى المرفأ تحت جنح الليل، ليرسوه تحت القلعة ويفجروه. لكن شيئًا ما مضى فى غير المسار المقرر له. وقبل أن يبلغ "إنتريبد"

القلعــة انفجر، فمــات كل من فيــه. ولم يعــرف أحــد ما حدث. ربمــا كــانت شــرارة غير مقصودة أو قناصًا من رجال العدو، هو ما فجر الزورق. لكن التفسير الرسمى تجاهل هذين الاحتمالين. ووفقًا لهذا التفسير فإن البحارة الشجعان أدركوا أن العدو اكتشفهم، ففجروا قاربهم مفضلين ذلك على الوقوع فى الأسـر. وفى لوحة بانورامية فى ١٨٠٦ "تفجير الزورق المسلح" يسبح أفراد الطاقم مبتعـدين عن الحطام المشتعل فيما هم "يحاولون المشاركة فى صيحات صاخبة تتحدى العــدو". وأشــارت "أورورا" فى فيلادلفيا إلى أن التاريخ ملىء بأمثلة الشجاعة والتضحية بالنفس، لكنها كلها كانت من صنع رجال "مدربين منذ طفــولتـهم فى ميادين الحرب، ومعتادين على الخـطـر" وإنه لمصدر "شرف متفرد" للأمريكيين أن يجدوا أنهم يظهرون شجاعة مماثلة رغم أنهم "يخوضون الحرب لأول مرة". لقد أثبت الأمريكيون أنهم أفضل كبحارة وكمحاربين من أهل طرابلس الغرب وأفضل كشعب من الإنكليز[١٢].

كان انتصـار إنكلترا على فرنسـا فى مصر ما زال طازجًا فى ذاكرة الجمهور الأمريكى. وفى ١٨٠٤ طافت لوحة بانورامية ضخمة عن معركة النيل بالمدن الأمريكية. وفى هذا الرسم كانت البحريتان البريطانية والفرنسية تتصارعان للسيطرة على العالم، قبالة الإسكندرية. وفى مارس ١٨٠٥ أنتج فنان أمريكى بديلاً لهذه اللوحة التاريخية "البحارة فى طرابلس الغرب" التى تصور البحرية الأمريكية وهى تقصف طرابلس الغرب. الأسطول الأمريكى فى المقدمة، وفى الخلفية قلعة الباشا يوسف ومسجد، وقد طيرت أحد الأبراج طلقة من مدافع السفينة الأمريكية "كونستيتوشن". والمغزى هو أن القوة السياسية للطاغية والقوة الدينية للإسلام دمرتهما طلقات مدافع محكمة التصويب من الفرقاطة الأمريكية. وبدا أن هذا يحقق وعدًا آخر من وعود قصائد الأسر التى كتبها وليم راى، "الأمريكى الأسير فى طرابلس الغرب" التى تتحدث عن "قباب شاحبة" وعن "أعمدة تترنح" وهى شواهد على "اليد المدمرة للطاغية" والتى ستدمرها سماء عادلة، وأبناء كولومبيا و "واشنطن الخالد" الذى سيجعل "الطغاة المخلصين" من "البكوات والبشوات" يركعون خاضعين، وهو ينقذ المساواة فى الحقوق و "الحرية العذبة". وقد دمرت كونستيتوشن هذه الأعمدة المترنحة، وانتصر البحارة المبادرون، على الأقل فى الأشعار واللوحات، على قوى الظلام[١٣].

كانت لدى البحارة الأمريكيين قدرة مدهشة على أن يفعلوا ما لم يفعل من قبل، قط. ورغم ذلك فقد كانت هناك سوابق تاريخية لشجاعتهم وإقدامهم فقد نظم رسام المشاهد التاريخية جون سكدر فى فيلادلفيا فى ١٨٠٨ معرضًا كانت المادة الترويجية له تصور نسراً قبض على راية نقش فوقها "بنكرهيل/طرابلس الغرب". وتصور أهم لوحتين فى هذا المعرض هاتين المعركتين الأمريكيتين المهمتين. وبنكرهيل فى ١٧٧٥، رغم أنها كانت هزيمة للأمريكيين، فقد أثبتت أنهم قادرون على الرد على البريطانيين بالسلاح. أما القصف البحرى لطرابلس فقد أثبت لإنكلترا، ليس فقط أن الأمريكيين قادرون على الحرب، ولكن أيضًا أنهم لن ينزلوا إلى مستوى الرشوة والفساد اللذين يسترضى بهما الأوروبيون دول البربر. وهكذا، فهاتان المعركتان فى ١٧٧٥ أو فى ١٨٠٤-١٨٠٥ أثبتتا للعالم الطبيعة الاستثنائية لشخصية الشعب الأمريكى وتصميمه واستقلاليته. ولم ينفرد سكدر بهذا الربط بين بنكرهيل وطرابلس الغرب، فإن مسرحًا فى نيويورك قدم برنامجًا من فقرتين فى فبراير ١٨٠٦. المأساة التاريخية فى بنكرهيل أو موت الجنرال وارين، كانت الجزء الأول. أما الجزء الثانى فكانت مسرحية موسيقية جديدة من فصلين وهى بحارة من طرابلس الغرب، وقد انتهت بتقديم "العمود البحرى المنتصر" تحية للبحارة، الذين رقص ممثلوهم بالزى على المسرح، وفى الختام الباذخ "تهبط كولومبيا تساندها الحرية والعدالة". وقد ألقت كولومبيا خطابًا، ثم صعدت عائدة إلى السماء، تاركة بأسفل "*الطرابلسيين ينحنون أمام بيانها*"[١٤].

ولم يتمكن الاتحاديون من إطلاق سراح ديكاتور الذى خطفه الجمهوريون واستعادته، لكن كان بوسعهم التقدم ببطل آخر. فبينما كان ديكاتور والأبطال الآخرون يشغلون خيال الجمهور، كان وليم إيتون القنصل السابق لدى تونس منخرطًا فى مغامرة عسكرية خاصة به. فقد تتبع إيتون شقيق قرامانلى سيئ الحظ أحمد، الذى خلعه يوسف فى تسعينيات القرن الثامن عشر وتكرر نفيه ثم إعادته للحظوة الرسمية، عدة مرات. وقد عين أحمد حاكمًا لدرنة، وهى إقليم فى شرق البلاد، لكنه كان قليل الكفاءة هناك، كما كان وهو باشا لطرابلس الغرب. التقى إيتون مع أحمد، لأول مرة، عندما كان الأخير منفيا فى تونس وظن أن الأمير الشارد قد يكون أداة نافعة للدبلوماسية الأمريكية.

واعتقد أنه لو تمكن من الزحف بأحمد عائداً به إلى طرابلس الغرب مع مساندة عسكرية كافية، فسوف يهب الشعب ضد يوسف، ليعيدوا أحمد إلى السلطة، ويكافئ أحمد الأمريكيين بالسلام والصداقة. ونجح إيتون فى الحصول على دعم غير مباشر من إدارة جيفرسون. وأصدر وزير الخارجية ماديسون أوامره لضباط البحرية بالتعاون مع إيتون، لكنه طلب من إيتون أن يبلغ أحمد بأن الولايات المتحدة لن تتركه فى موقف أسوأ من ذلك الذى وجدته عليه. ولم يكن لإيتون أن يعد أحمد بأن تخصص الولايات المتحدة قوة عسكرية لإعادته للسلطة.

وبحث إيتون عن أحمد حتى وجده فى مصر، ووقع معه إتفاقًا، وأنشأ قوة من المرتزقة اليونانيين والألبان والعرب ومعهم حفنة من مشاة البحرية الأمريكية. ووفقًا لهذا الاتفاق أصبح إيتون جنرالاً، وقد كانت أرفع رتبة وصل إليها فى الجيش الأمريكى رتبة كولونيل، لكن من تلك اللحظة صار هو الجنرال إيتون. وزحف هو وأحمد وجنودهما عبر شمال ليبيا واستولوا على مدينة درنة فى يونيو ١٨٠٥. ولكن ما غاظ إيتون هو أنهم لم يفلحوا فى أى شيء آخر. رفض الشعب فى طرابلس الغرب أن يثور، والسفينة الحربية التى ظهرت قبالة ساحل درنة لم تأت بتعزيزات. جاءت بأخبار تقول إن الولايات المتحدة أبرمت سلامًا مع يوسف. وصدرت الأوامر لإيتون بإخلاء الأمريكيين من درنة، وبعد مداولات تمكن من إقناع القبطان بأن يأخذ أحمد أيضاً.

وشعر إيتون بأن جيفرسون وماديسون خاناه. وعاد إلى البلاد والأمريكيون يحتفلون بشجاعة ديكاتور والبحرية. وتم التقليل من شأن مساهمته. وشجب الاتحاديون إيتون. وفى ١٨٠٤ هاجمه "أمريكى" لأنه تدخل فى الشؤون الداخلية لطرابلس الغرب، على صفحات "إيفننغ بوست" وفى أغسطس ١٨٠٥ نددت به "بوليتيكال ريجستر" الاتحادية باعتباره زعيمًا "لحملة قطاع الطرق". ولكن عندما أدرك الاتحاديون أن إيتون يمكن استخدامه لنزع المصداقية عن جيفرسون احتضنوه[١٥].

واقترح الاتحاديون تقديم سيف رمزى إلى إيتون، تمامًا كما قدم سيف إلى ستيفن ديكاتور. وأثار هذا الاقتراح تساؤلات، لأن ديكاتور كان يقود بحارة من

الأسطول الأمريكي، أما إيتون فكان يقود عصابة من المرتزقة اليونانيين والعرب. وقد تسبب الاقتراح بتقديم سيف إلى إيتون في مشاكل للإدارة: لو أنها أقرت بأن إيتون كان يعمل بتعليمات منها، فهل كان هذا اعترافًا بأنها خانت إيتون وحليفه ؟ كانت القضية الحقيقية وراء رغبة الاتحاديين في تكريم إيتون، كما قالت "أورورا" هي "العداء للسلطة التنفيذية". وفي حين استخدم الاتحاديون إيتون لاتهام جيفسون بالتناقض فقد كان بوسع الصحافة الجمهورية أن تشير إلى تناقض الاتحاديين أنفسهم. فقد تساءلت "أورورا" لماذا نسوا في غمرة "حماسهم الكبير" لتكريم إيتون "التحية" التي قدمتها "بوليتيكال ريجستر" باعتباره هو ورجاله "قطاع طرق" ؟ والتفسير الوحيد الذي فكرت به "أورورا" كان أن "ما عبروا عنه من إعجاب" كان "نتيجة لتدبير، وتمثيل، وقلة إخلاص"[١٦].

ولمواجهة أي ضرر يمكن أن يتسبب به إيتون، عكست الصحافة الجمهورية صورتي يوسف وأحمد قرامانلي. فعندما كانت الإدارة تساند أحمد قرامانلي، فقد كان يدعي "الباشا الشرعي" وكان يوسف يدعي "المغتصب". والآن تغيرت الأدوار. "يصور أبناء بلادنا شخصية الأخوين بألوان شديدة الاختلاف" هكذا كتبت "إنكوايرر" في خريف ١٨٠٥. فقد تبين، حقيقة، أن أحمد كانت "قدرته محدودة" للغاية، وكان "مدمنًا لعادات سيئة" في حين كانت لدى يوسف "مشاعر راقية" و "طموح سام" و "فهم قوي". أما وزير خارجية طرابلس الغرب محمد دغيس فإنه "يزين أيا من مجالس الوزراء في أوروبا". بل إن الصحافة الموالية لجيفرسون أصبحت تصر على أنه ليس حكيمًا فحسب بل وله شعبية. وقد تأكدت شرعية يوسف ونظامه عندما أتاح إيتون للشعب الطرابلسي الفرصة للتخلص من يوسف وإعادة أحمد فرفضوها. فقضية أحمد البعيدة عن كونها قضية الشعب هي قضية المغتصب[١٧].

ولم يكن بوسع الكابتن وليم بينبريدج أن يتخيل كيف أن "إجراء غير حكيم وغير طبيعي" مثل خطة إيتون لاستخدام أحمد "فرضت نفسها على حكومتنا". ودعا بينبريدج أحمد "اللاجئ المخنث التعيس"الذي لم يكن بوسعه أن يساعد الولايات المتحدة أو يلحق

الضرر بيوسف. وقد قضى أحمد بالفعل عشر سنوات مشرداً "فى المنفى، بعيداً عن بلاده وزوجته وأطفاله.. دون أن يسبب لحاكم طرابلس الغرب الحالى أقل إزعاج" وعندما كانت لديه سلطة "لم تكن لديه الشجاعة" للاحتفاظ بها، ولم يتوفر له "تأثير كاف على أبناء ملته ليعيدوه لمنصبه"(١٨).

ولكن الاتحاديين الباحثين عن أى شيء من شأنه أن يحرج جيفرسون، تشبثوا بأحمد قرامانلى وبأى وعود ربما كانت الإدارة قد بذلتها له. وكتبت إيفننغ بوست فى نيويورك "يا له من عار! عار! من ذاك الذى لا يحمر وجهه خجلاً، من أجل شرف بلاده، وهو يقرأ تاريخ هذه الصفقة الخسيسة الحقيرة السافلة الخيانية ؟" وأعادت إيفننغ بوست نشر تقرير عن مسلك الإدارة الذى أعده حليف إيتون ستيفن برادلى، وهو اتحادى من فيرمونت، متسائلة كيف أن "صحفًا فى ريتشموند مثل إنكوايرر وأورورا وسيتيزن ومثل بوسطن كرونيكل" أو غير ذلك من الصحف الجمهورية أمكنها تبرير مسلك جيفرسون. لقد جعل جيفرسون أحمد قرامانلى يعتقد أنه سوف يساعد على استعادة السلطة. وعندما أصبح أحمد على وشك الزحف على طرابلس الغرب، عقد جيفرسون سلامًا منفصلاً مع يوسف الخائن(١٩). وقد شكك معظم ضباط البحرية، الذين كانوا مصممين على الحفاظ على شرف سلاحهم، فى ادعاءات إيتون والاتحاديين. وقال ريتشارد أوبرايان إن مشروع إيتون كان بلا قيمة. ورافقه معظم رجال البحرية الملمين بحقائق الأمور. واستغل جون كوينسى آدامز وهو اتحادى مذبذب فرصة تقرير برادلى ليدين محاولة الاتحاديين تشويه سمعة جيفرسون. وقال آدامز إن التقرير "تأسس على مجموعة مفترضة من الحقائق، هى بكاملها غير صحيحة، وعلى رؤية لكامل الموضوع، هى بكاملها خاطئة، "وكرر آدامز ما كان يعرفه بينبريدج والكومودور بيارون ويوسف قرامانلى: أن أحمد قرامانلى كان لا يملك قوة أو مساندة شعبية. ورغم اعتقاد إيتون بأن مجرد وجود أحمد فى درنة من شأنه أن يلهم الناس بالثورة، فإن ذلك المنفى أجبر على الفرار بمجرد سحب المساندة الأمريكية. وقد تساءل آدامز "ما هى الوسائل والموارد التى كانت لدى هذا الأمير ذى السيادة" الذى اضطر أن يهرب من بلاده، من إقليم كان يحكمه ذات يوم، على ظهر سفينة حربية أمريكية؟ وتساءل آدامز "هل هكذا يكون الزحف للاستيلاء على عرش طرابلس الغرب"(٢٠)؟

واهتاج وليم إيتون. وبعد أن انتهى آدامز من سحق ادعاءات أحمد "هذا الرجل باع شرف بلاده". ورغم ذلك فإن زعماء الاتحاديين لم يكفوا عن مساندة ادعاءات إيتون. أما وليم بلامر الذى بدأ يعتبر إيتون متبجحًا مختالاً فقد بدا له أن الاتحاديين الآخرين "مبالغون فى إطرائه" مما جعل الناس "يهللون" لإيتون ويخلطون بين ما أبداه من "طيش" وبين "الشجاعة".

وقد كان إيتـون، شأنه شأن الشعب الأمريكى، يخلط بين الأمرين. وقد اعتقد جيفرسون أن إيتون لم يكن يريد إلا زيادة أهميته بتدمير سمعة ليروبارون. ولم يصل الأمر بالرئيس إلى أن يقول إن الاتحاديين كانوا يستخدمون إيتون لتدمير الإدارة ولزيادة أهميتهم هم، لكن الاتحاديين رأوا فى إيتون أداة مناسبة. وربما لم يكن إيتون يدرك أنه يستخدم، لكنه كان مستعدًا للاستمتاع بالاعجاب الذى عاش لحظته العابرة. ورأى إيتون فى تقرير برادلى برهانًا على أن "شخصية الأمة لم تتشبع بجبن الإدارة، بشكل كامل"، أن "الشرف والعدل والثورة على السفالة" ما زال لها مكان، على الأقل فى مجلس الشيوخ[٢١].

ولم يكن الاتحاديون وحدهم الساعين إلى استخدام وليم إيتون. فقد اعتقد نائب الرئيس السابق آرون بير أن إيتون يمكن أن يكون نافعًا لغايات تخصه. وحتى الآن فالمؤرخون لا يستطيعون أن يتفقوا حول نوايا بير الحقيقية. هل كان يحاول فصل واديى النهرين أوهايو ومسيسيبى عن الولايات المتحدة وضمهما إلى المكسيك، وخلق إمبراطوريته الخاصة؟ أم أنه كان يخطط لعمل ما عملته الولايات المتحدة ذاتها بعد أربعين عامًا، بغزو المكسيك وضم أقاليمها الشمالية إليها ؟ أيا كانت خطط بير، فقد ظن أن وليم إيتون يمكن أن يكون جزءًا منها. وامتن إيتون لاهتمام بير به واعتقد، لفترة قصيرة، أن نائب الرئيس السابق عازم على استعادة كرامة الولايات المتحدة وشرفها بانتزاع المكسيك من إسبانيا. لكن إيتون تحول إلى الحذر من بير وهدد بتدميره "بكلمة واحدة... مغتصب!" لقد أطلق الاسم ذاته على يوسف قرامانلى، ولم يدمر هذا الاسم لا قرامانلى ولا بير.

وقد كان إيتون الشاهد الوحيد لدى الحكومة فى محاكمة بير بتهمة الخيانة. ورغم أن جيران إيتون الاتحاديين فى بريمفيلد انتخبوه لمجلس ماساشوسيتس التشريعى، فإنه قضى معظم المدة فى الإدلاء بشهادته فى ريتشموند. وأطلق كبير القضاة جون مارشال الذى ترأس المحكمة دعاباته الساخرة على بطل درنة، بعد أن أرهقه إيتون بسردياته المطولة عن مغامراته فى ليبيا. ألم يكن صحيحاً أن إيتون كان يدلى بشهادته ضد بير فى نفس الوقت، تقريبياً، من يناير ١٨٠٧، الذى وافقت فيه حكومة الولايات المتحدة على أن تدفع له ١٠,٠٠٠ دولار عن خدماته فى طرابلس؟ وقد وجد مارشال والمحلفون أن رواية بير أكثر مصداقية من رواية إيتون. وبرئ بير، وعاد إيتون إلى ماساشوسيتس، واتخذ مقعده فى المجلس التشريعى، فى الوقت المناسب لشن هجوم مشوش على مارشال، وهو ما نفر منه من كان يمكن أن يساندوه من الاتحاديين فى منطقته. ولم يعد انتخابه، وعاد إلى بيته ليخسر معركة خاضها طوال حياته ضد البارانويا والكحول[٢٢].

ومات وليم إيتون مهزوماً وممروراً. انتهى مجده إلى مناكفات حزبية وانتهت حياته إلى خبابية السكر. لكن الاتحاديين نجحوا فى أن يرفعوه فوق الأمرين معًا. فالاتحاديون فى ماساشوسيتس بنوا عاصمة جديدة للولاية كانوا يأملون أن تصمد فى وجه المد الصاعد للتيار الجمهورى الجيفرسونى، وجعلوا مقرها فوق شارع بيكون، وأسموا الشارع الذى يقع خلف المقر مباشرة ماونت فيرنون، تكريمًا لواشنطن، وبموازاة ماونت فيرتون شارع درنة، الذى سمى هكذا، ليس فقط لتكريم إيتون، ولكن الأهم من ذلك أنه ملامة دائمة للرئيس الذى رفعه عاليًا ثم تخلى عنه.

وبعد ثمانين عامًا من عثور إيتون على أحمد قرامانلى فى مصر كتب هنرى آدامز أنه "منذ نصف قرن، على الأقل، وكل صبى فى أمريكا يصغى للقصة بالمتعة ذاتها التى كان يقرأ بها ألف ليلة وليلة" ورغم أن إيتون، فى الحقيقة، لم ينجز شيئًا مما خطط لإنجازه، فقد كان فشله بطوليا. واحتفلت جمعية نيران الجنرال إيتون فى بوسطن بمآثر إيتون فى ١٨٠٨ بأغنية للشاعر الاتحادى روبرت تريث باين. وعلى غرار "حفظ الله الملك" جعل باين من إيتون البطل الوحيد فى الحرب الطرابلسية:

إيتون، اسم مجيد

قدمت صخور المجد

شرارة، بحرارتها السحرية

صهرت أغلالهم

عبر رمال الصحراء الليبية

قاد عصاباته المغامرة

منطلقًا نحو الإنقاذ

حيث لم ينشر المجد جناحيه قط

فوق رأس الإسكندر

حيث انحنى كاطو ونزف

في مقبرة العظمة.

ورغم أن الأرض لا تجود بماء

فالعرب يحملون خناجرهم

ويواجهون المجاعة

فيما يتحدى إيتون كل خطر

جسوراً عند احتدام المعركة

ملوحًا بعلم كولومبيا

فوق أسوار درنة المتعالية(٢٣)

وهكذا فلم يتخذ إيتون مكانه بجوار أبطال التاريخ القديم فحسب، بل حل محلهم. لقد نجح حيث فشل الإسكندر وكاطو. وبدلاً من أن يكون حصار درنة، امتدادا ثانويا لقصف طرابلس الغرب، فقد تحول إلى مفتاح للنصر الأمريكي. وكتب شاعر مجهول إن

"إيتون كان يخطو منتصراً فوق عدوه/حيث حارب هاينبغل وسيبيو" ولم يكن إيتون مختلفًا عن الأبطال الكلاسيكيين من حيث إنه نجح، فحسب، بل ومن حيث طبيعة مهمته. فالأبطال الكلاسيكيون "عبروا الصحارى ليستعبدوا الأمم" فى حين أن إيتون "القائد الأمريكى" تحدى الصحراء "ليحرر أبناء وطنه الشجعان". وفى هذه التذكارت الشعرية أنجز إيتون، بالفعل، ما خطط له. لقد حطم أغلال الأسرى، وأصبح النصر حاسماً، بأثر رجعى(٢٤).

وبعد وفاة إيتون فى ١٨١١ بستة أشهر، افتتح العرض الأول لمسرحية قامت، جزئيا، على مغامراته، فى بوسطن. وتثير مسرحية جيمس إليسون "الأمريكى الأسير، أو حسار طرابلس" سؤالين مهمين: على أى شىء تتأسس القوة المشروعة ؟ وما هو الأمريكى ؟ فى هذه المسرحية يستولى عبد المهدى على السلطة فى طرابلس، معلنًا أن شقيقه الأكبر على بن مهادى أضعف من أن يحكم. وهذا يماثل الحالة الطرابلسية حيث حل يوسف محل أحمد. ويتخذ عبد المهدى من ابنة شقيقه رهينة، ويقول لها إن أباها "أضعف من أن يحكم" وإن "ضعفه قلب عليه الرأى العام" فعلى "سعى إلى السلام، والسلام الذى تحقق جعل من الضرورى فرض ضرائب باهظة !" وكان يجب على على، بدلاً من السلام أن "يطلب يد الحرب القرمزية" وترد إيمورينا المخلصة لأبيها قائلة "للمغتصب السافل" الذى هو عمها إن أباها كان رحيمًا لكنه كان عادلاً. وهو "لم يسع إلى الدم" لكنه كان شجاعًا وينعم بتأييد من الشعب "إلى أن رميته أنت، أنت أيها الشيطان، بسهام الموت" وخدعت الشعب(٢٥).

يستمتع عبد المهدى بالسلطة ويقسم أن "الرغب العزيزة على النفس" سوف يتم إشباعها، وأن "النهب" سوف ينقذ عرشه ورعاياه من "تلك الهوة اللعينة، التى ألقاهم فيها أخى بضعفه وبسياساته الناعمة" فلا يأتى من السلارم سوى "التعاسة والفقر" والنهب وحجده "يستطيع أن يرفع مملكتنا الغرقى". ويأسف سليمان خطيب إيمورينا لانتصار "الطمع" على "الفضيلة" معزيًا نفسه بأن "الجريمة قد تنتصر لبعض الوقت" لكن "الفضيلة" هى القادرة وحدها على أن تضمن "سعادة الملك وازدهار بلاده وحب رعاياه"(٢٦).

وفيما كان الطرابلسيون يتفكرون فى أمور الفضيلة والطمع أسر أحد قراصنتهم سفينة أمريكية وحمولتها. وهذا يثير سؤالاً ثانيًا. "وهل نعلم ما الأمريكيون؟" هكذا تسأل الثرثارة العجوز صوفيليا إيمورينا. وتجيب الأميرة المستنيرة : "بشر، أليسوا كذلك؟ مثل بقية البشر؟" وترد صوفيليا: "هه !!" ليس الأمريكيون بشراً، بل هم "هنود! فى الحقيقية هم هنود ! هم كذلك" وهؤلاء "الأمريكيون، أى الهنود" يسلخون جلد رأس أى رجل أو امرأة يقع فى أيديهم "وأنا واثقة أن هذا يثبت أنهم ليسوا بشراً" وبدلاً من أن تواصل منطقها القائم على المساواة ليشمل حتى الهنود، تصحح إيمورينا انطباع صوفيليا الخاطئ عن الأمريكيين. فتقول إن الهنود هم سكان أميكا الأصليون لكنهم ليسوا سوى "سكان القسم الغربى من تلك البلاد الشاسعة، وهم متوحشون وبربريون مثل الأعراب المتوحشين عندنا". من ناحية أخرى "فأولئك الذين ندعوهم أمريكيين" يشبهون الأوروبيين فى "العادات والسلوك" متحضرون، متأنقون، ومبادرون، وشجعان، ومضيافون[٢٧].

وتصف هذه الخصال الرئيسية، أندرسون، قائد السفينة الأمريكية المأسورة. ويتضح التناقض بين القبطان الأمريكى أندرسون وحاكم طرابلس عبد المهدى فى اللقاء الأول بينهما. يرتدى عبد المهدى وفقًا "لأسلوب البذخ التركى" عمامة مزدانة بهلال ماسى ضخم، وإهابه المزدان بالماس لا يكاد يخفى الخنجر فى خاصرته، ويسأل أندرسون إن كان أبوه نبيلاً. ويرد الأمريكى: "إن كانت النبالة أن أكون ابن من خدم بلاده، فى وقت الشدة، فأنا من أنبل السلالات، أما إذا كانت النبالة تنحدر من السادة المدللين والأمراء الأشرار، فلست كذلك". ويقول أندرسون إن أباه كان يحمل "أعظم لقب يمكن أن يحمله رجل": لقد كان "رجلاً نبيلاً".

ويتناقض أندرسون، باعتباره ابن رجل نزيه، مع عبد المهدى الفاسد، ولكن الأكثر أهمية هو التناقض بين أندرسون والشخصيات الأمريكية والأوروبية الأخرى فى المسرحية. فالمسرحية تبدأ بسائق عبد يشكو عبداً أيرلنديا سليطًا لا يريد أن يعمل. فثورة الأيرلندية عنيفة وغير مؤثرة وتسحقها القوة القاهرة للدولة ويتساءل جاك بيناكل، وهو بحار يقع فى الأسر مع أندرسون، لماذا لا تقوم الولايات المتحدة، ببساطة

"بنسف الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وتضع نهاية لشبكات القرصنة هذه ؟ وهذا يمكن أن يحقق، على نطاق واسع، ثورة الأيرلندى الصغيرة النطاق. لكن أندرسون يقول له إن شيئًا من هذا، لو حدث، فسوف يكون بلا معنى: دمر المدن الساحلية، وسوف يتجه "المعتدون" إلى المناطق الداخلية فى بلادهم. ورغم أن أندرسون يحيى روح بيناكل، ورغم أنه هو أيضا مستعد لأن ": يحارب حتى تتمزق نياط قلبه" مفضلاً ذلك على "دفع الجزية لأية دولة" فهو يريد حلا دائما. وبدلا من التمرد المندفع أو القوة العسكرية الغالبة، فأندرسون يخطط لأن يهرب، ساعيًا إلى نوال المساعدة من الأميرة إيمورينا ومن إسماعيل اليهودى. وبمجرد أن يخرج أندرسون من طرابلس الغرب، فإنه سيضمن مساندة البحرية الأمريكية لعلى بن مهادى، الذى سيعود إلى السلطة وينهى عذابات العبودية فى بلاد البربر، إلى الأبد. ويوافق بيناكل المندفع على أن يلزم الصمت ويترك أندرسون يتمم مشروعه، وعندما يعلم أن أندرسون هرب فإنه يغنى أغنية عن صبى فلاح فاضل[٢٩].

وتنجح خطة أندرسون، ويعود إلى طرابلس الغرب، عودة مجيدة، فى صحبة على. وعند نقطة الذروة فى المسرحية يحاول على وإيمورينا قتل عبد المهدى، لكنهما يفشلان. وفيما كان عبد المهدى يستعد لقتل على يعلن أندرسون أن "العبد لديه القوة على أن يسدد للطاغية ضربة مميتة" ويقتل الطاغية الشرير. هذه القدرة على قتل الطاغية مصدرها التخطيط الدقيق، وليس المحاولات المندفعة للتغلب على قوى قاهرة. لقد تحالف أندرسون، بكل ذكاء، مع أولئك الذين يشاركونه الهدف - على وإيمورينا وإسماعيل. ورغم أن إيمورينا تخبر أندرسون بأنه يعد الآن "بين الأنبياء" فإن الأمريكى يظهر اهتمامًا أكبر بأن يضع نفسه إلى جوار واشنطن. ويدخل أندرسون وعلى طرابلس الغرب على نغمات "مارش واشنطن" ويدعو أندرسون أن يملأ الله روحه "بتلك الشجاعة البطولية، تلك الطاقة الروحية، التى ميزت أبانا الوطنى، البطل الغربى الذى لا يضاهى"[٣٠] اتخذ أبطال طرابلس الغرب مكانهم إلى جوار واشنطن وأبطال الثورة، الذين وضعهم الأمريكيون فوق الأنبياء فى بانثيون المجد.

وبقى إيتون نفسه، فى أفضل الحالات، بطلاً ملتبس البطولة، ولم يتحول إلى شخصية أسطورية إلا بعد وفاته. وعاد الآخرون إلى الوطن ليتخذوا مكانهم، على الفور، بجوار واشنطن، ذلك البطل الغربى الذى لا يضاهى. وفى آلبانى، نيويورك، تم تكريم الملازم جوناثا ثورن بأغنية كتبت على لحن "أناكرون فى السماء" (ANACREON شاعر يونانى عاش بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد - المترجم) وهو لحن صعب، زاد من صعوبته استخدام المؤلف لأسماء أبطال آخرين من طرابلس الغرب: بارى، وبريبل، وتراكستون، وديكاتور". اسم ثورن الذى تحمله قائمة الشرف منذ زمن/سوف يزين صفحة التاريخ العادل" هكذا أعلنت الأغنية، ووعدت اللازمة المتكررة بأن التجارة الأمريكية "سوف تنشر أشرعتها، زمناً طويلاً، فوق العباب" فيما "تبقى الحرية التى نحميها فى بلادنا".

لقد تأثر كل قلب أمريكى بالأمريكيين الذين أظهروا شجاعتهم فى طرابلس الغرب "وسوف يقرأ أطفالنا، فى المستقبل، وهم مندهشون/كيف أن أحرارنا أذلوا أمة متوحشة". وقد احتفت "أنشودة إلى ثورن" بالبحرية التى كانت تحمى التجارة الخارجية والحرية فى الداخل. وقد انتصرت البحرية بفضل التزامها بالتجارة وبالحرية، وسوف تلهم الروح التى دافعت بها عن الحرية والتجارة كل الأمريكيين(٢١).

وقد رفعت الشهادات أبطال طرابلس الغرب إلى مصاف الآباء الثوريين، ووضعت جيل ما بعد الثورة فى ضوء بطولى جديد. هزم الثوريون البريطانيين، وهذا الجيل هزم من عذبوا العالم المسيحى. وقد جعلت "أنشودة إلى ثورن" الأجيال التالية مبهورة بأفعال الأبطال فى طرابلس الغرب، وعكست أغنية أخرى معاصرة، على اللحن ذاته، هذا الترتيب - فالآباء الثوريون سوف يقرأون، مندهشين، الأفعال البطولية التى أنجزها أبناؤهم. وهذه الأغنية التى كتبها المحامى من ماريلند فرانسيس سكوت كى، تكريماً لديكاتور فى ١٨٠٥، عبرت عن هذه الفكرة بنجاح، حتى إن كى أعاد كتابتها، بعد ذلك بتسع سنوات، وأصبحت النشيد الوطنى.

عندما يعود المحارب من المعركة البعيدة

إلى البيت والوطن اللذين دافع عنهما فى نبل

آه! فليكن الترحيب دافئًا ليسعد بسماعه

ولتهتف الفرحة بانحسار الأخطار!

وفى عنفوان اندفاع الأغنية، فليمض مجده إلى الأمام

ولنتزاحم على المائدة العامرة ممتنين.

حيث نضفر الغاو الزيتون

ونصنع إكليلا مضيئا نتوج به الشجعان

ويمكن أن ينطبق هذا النظم على أى محارب، فى أى معركة. لكن النظم الثانى يصبح أكثر تحديداً:

أيها الأمريكيون، انظروا عصبة من إخوانكم!

يطلبون مكافأتهم بدفء عواطفهم القلبية:

فعندما كانت قضيتكم وشرفكم يحثان الجسور على التقدم،

لم يجد غضب الصحراء - ولم يجد زئير المحيط،

فإلى الشاطئ الشديد البعد - إلى هدير المعركة الوحشى،

رفعوا ذكركم المجيد عاليًا، وحموا حقوقكم.

ثم نسجوا من الغار المخلوط بالزيتون

إكليلا مضيئا لجبين الشجعان.

أما النظـم الثالث فيدخل صور الصراع بين العالم المسلم والولايات المتحدة:

تحملوا كل عناء فى الصراع صابرين ،
حتى تراجع العدو وقد أحبطه عنف الحرب :
وشحب ضوء الهلال واحتجبت عظمته ،
بنور علم أمتنا المرصع بالنجوم ،
حيث توهج كل نجم مشتعل كقذيفة حربية ،
وانحنى الرأس المعمم أمام الوهج المخيف .
ثم نسجوا من الغار المخلوط بالزيتون ،
إكليلا مضيئا لجبين الشجعان .

وأخيراً ، وبخلاف "أنشودة إلى ثورن" التى تجعل أطفال الأبطال يصغون مبهورين لحكايا عن أعمال آبائهم، ففى النظم الأخير الذى وضعه كى يسمع الآباء، بكل فخر، ما يحكى عن شجاعة أبنائهم:

آباؤنا الواقفون فوق قمة الشجاعة .
بكل بهجة سيسمعون ، من أبنائهم ، قصة الكبرياء ،
كيف توهجت فى صدورهم الشابة شعلة الوطنية .
كيف حاربوا ، كيف سقطوا ، فى ساحة مجدهم ،
كيف مضوا منتصرين ، فوق التيار المتلاطم ،
ولوثوا المياه الزرقاء بدم كافر ،
وكيف نسجوا بالغار المخلوط بالزيتون
إكليلا مضيئا لجبين الشجعان

تخيل كى، بكل قوة، بشاعات معركة بحرية حتى إنه عندما شهد، بالفعل، معركة بعد تسع سنوات، كان يعرف ما الذى يتعين عليه أن يبحث عنه. وخطوط التوازى بين هذه الأغنية وتلك التى كتبها بعد أن شاهد البريطانيين يقصفون قلعة ماكهنرى فى سبتمبر ١٨١٤ مذهلة. اللحن هو هو، وكذلك نظام القافية عند الكورس. وفى النسخة المتأخرة الأكثر شهرة، يبقى مصير "العلم المرصع بالنجوم لأمتنا" محاطًا بالشكوك طوال المعركة المدمرة. لكنه فى هذه الأغنية يحجب بضوئه الهلال المسلم، الذى تصبح فخامته الخاوية ظلا للمجد الحقيقى للعلم الأمريكى وللجمهورية التى يرمز إليها. وتؤكد أغنيتا كى، أنشودته لأبطال طرابلس الغرب وأنشودته للعلم، التزام الأمريكيين بتراث آبائهم. ففى هذه الأنشودة الطرابلسية، سوف يتذكر الآباء الثوريون أفعال أبنائهم، الذين لا يجب أن ينسوا مبادئ الآباء. وفى الأنشودة إلى أبطال طرابلس الغرب، سوف يسمع آباؤهم "بكل بهجة" عن انتصارات الأبناء، حيث واصل ديكاتور ورفاقه العمل الثورى الذى بدأه واشنطن، مبرهنين على التزامهم بالجمهورية التى خلقها آباؤهم.

الفصل التاسع

جيمس رايلى، عودة الأسير

فازت الولايات المتحدة بالسلام فى المتوسط وكانت مصممة على الحفاظ عليه. ولتحول دون المزيد من سوء التفاهم أو مظاهر الضعف التى أفضت إلى الحرب مع طرابلس الغرب، رأى جيفرسون أن حسن التصرف يقتضى الإبقاء على السفن الأمريكية فى المتوسط. كانت هناك سفينتنان فى الشهور الأولى من ١٨٠٧، السفينة "إنتربرايز"، بطلة الاشتباك الأول فى ١٨٠١، كانت تطوف بالساحل الإفريقى، والفرقاطة كونسيتتوشن كانت فى نابولى لنقل النصب التذكارى المصنوع من الرخام الإيطالى تخليداً لذكرى البحارة الذين ماتوا فى الهجمات على طرابلس الغرب. وفى يونيو ١٨٠٧ أرسل جيفرسون الفرقاطة تشيزبيك لتحل محل "إنتربرايز"، واستودع سلام الأمة وسلامتها وشرفها قائد السفينة جيمس بارون[1]، معتمداً على "يقظته ووطنيته ومهارته".

لكن بارون لم يصل المتوسط، قط. ففى خلال ساعات من مغادرته الميناء، أوقفت سفينته السفينة البريطانية "ليوبارد". كان القبطان البريطانى يعتقد أن بعض الجنود البريطانيين الهاربين من الخدمة ضمن طاقم "تشيزبيك"، وطلب عودتهم. ورفض بارون، ففتحت "ليوبارد" النار، وعلمت البحرية الأمريكية التى أثبتت شجاعتها أمام طرابلس الغرب، أنها ليست ندا للبريطانيين. لم يتوقع الكومودور بارون قتالاً على هذه المسافة القريبة من الساحل الأمريكى وتقاعس عن تزويد المدفعيين من طاقمه بالثقاب. وأطلق البريطانيون ثلاث دفعات لم تستطع "تشيزبيك" الرد عليها، فقتل ثلاثة أمريكيين

وأصيب ثمانية عشر بجراح خطيرة، وأصبحت "تشيزبيك" معطوبة، وليس أمام بارون سوى الاستسلام.

وكانت هذه كارثة أعظم من فقدان "فيلادلفيا". وكانت الإدارة تعلم أن البلاد ليست جاهزة للحرب مع إنكلترا. لكن لم يكن هناك من سبيل لوقف هذا النوع من المضايقات من جانب البحرية البريطانية، إلا بالحرب. ولأن الخيارات محدودة فقد اتجهت الإدارة، مرة أخرى، إلى ستيفن ديكاتور. حوكم بارون محاكمة عسكرية، وتولى ديكاتور قيادة "تشيزبيك"، مع أوامر باستعادة قدرة الفرقاطة المعطوبة على الدفاع عن واشنطن العاصمة ضد أى هجوم بريطانى. كانت قصيدة بطولية من قصائد الحرب الطرابلسية قد وعدت أى طاغية يتجرأ على إهانة العلم الأمريكى بأن يرسل إليه ديكاتور ليعلمه حسن السلوك. ولم يكن أحد يعلم أفضل من ديكاتور وجيفرسون أن تعليم هذا الدرس للبريطانيين من شأنه أن يكون أصعب كثيراً من تعليمه للطرابلسيين. وفى نوفمبر عادت كونستيتوشن إلى بوسطن بالنصب التذكارى الرخامى لأبطال طرابلس الغرب. وعندما كان النصب ينقل، بالبحر، إلى واشنطن، كان جيفرسون وإدارته يدرسون الرد على الهجمات البريطانية المستمرة. كان جيفرسون يعتقد أن الحرب ضد طرابلس الغرب أثبتت أن الولايات المتحدة ليست مقيدة بالسوابق الأوروبية. وإن كانت أوروبا كلها آمنت برشوة دول البربر فالولايات المتحدة لم تؤمن بذلك. والآن، مع خطر جرهم إلى حرب تدور بين بريطانيا وفرنسا، قرر جيفرسون أن يعلم الأوروبيين درسًا آخر عن الروح الأمريكية. ومع اعتقاده بأن كلا من بريطانيا وفرنسا كانت تعتمد على المنتجات الأمريكية لمساندة حربهما المستمرة ضد بعضهما بعضًا، فقد ظن أنه إذا رفضت الولايات المتحدة أن تبيع لبريطانيا وفرنسا فسوف تشل البلدين حتى يدركا غباء سياساتهما. وحين ارتفع النصب التذكارى للأبطال الذين سقطوا فى طرابلس فى ساحة البحرية بواشنطن، أغلق جيفرسون والجمهوريون كافة الموانئ الأمريكية، وفرضوا الحظر على التجارة الدولية الأمريكية، مستخدمين التجارة الأمريكية باعتبارها أقصى سلاح ضد أوروبا المحاربة[٢].

واستمر الحظر عامًا لينتهى يوم خروج جيفرسون من منصبه. وجرب خليفته جيمس ماديسون إستراتيجيات أخرى ليحافظ على الحياد الأمريكى، ولكنه كف عن المحاولة فى١٨١٢. نشبت الحرب بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وكانت الحرب كارثة برية على الأمريكيين. فقد استولى البريطانيون على ديترويت، وأحرقوا واشنطن العاصمة، وكادوا يأسرون جيمس ماديسون. وتعب أهل نيو إنغلند من الشلل الذى أصاب اقتصادهم بسبب الحظر، أولاً، ثم بسبب الحرب، ومن تبعيتهم لحكومة الجمهوريين من فيرجينيا، فتحدثوا صراحة عن الانسحاب من الاتحاد. لكن الأمريكيين كانوا ناجحين فى البحر، وعلى طاولة المساومات. لقد أثبتت البحرية نفسها، بالفعل، ضد طرابلس الغرب، والآن، ينتصر البحارة الأمريكيون على إنكلترا فى البحيرات العظمى وفى عرض المحيط. وكان السلك الدبلوماسى البريطانى مشغولاً بمفاوضات حساسة مع الأوروبيين، فى محاولة للحفاظ على تحالف دولى ضد نابليون. ولم ترسل بريطانيا أفضل مفاوضيها لمؤتمر السلام فى غينت، أما الأمريكيون فأرسلوا أفضل من عندهم، جون كوينس آدامز ورئيس مجلس النواب هنرى كلاى ووزير الخزانة آلبرت غالاتين قادوا فريق التفاوض الأمريكى. واتفق الجانبان، ببساطة، على وقف القتال. ولم يفقد الأمريكيون أيا من الأقاليم التى استولى عليها البريطانيون، فى ماين أو فى الشمال الغربى. ووقع الدبلوماسيون المعاهدة فى أواخر ١٨١٤. ووصلت أخبارها إلى واشنطن العاصمة، فى نفس اليوم الذى علمت فيه العاصمة المبتهجة بانتصار آندرو جاكسون المؤزر فى نيو أورليانز حيث ذبح جاكسون ومعه قوة من ميليشيات كنتاكى وتنيسى، وعدد من الكريوليين (CREOLES الزنوج الناطقين بغير الإنكليزية - المترجم) المحررين، وقراصنة من البحر الكاريبى، قوة بريطانية تفوقهم بكثير. أمن جاكسون نهر المسيسيبى للولايات المتحدة، والأهم أنه أنهى هذه الحرب غير السارة بنغمة منتصرة.

انتهت الحرب مع بريطانيا. لكن مشكلات الولايات المتحدة تحددت فى المتوسط. أعلن الحاج على باشا، داى الجزائر، الحرب على الولايات المتحدة فى ١٨١٤، متوقعًا انتصارا بريطانيا على الأمريكيين. وثبت أن توقعاته خاطئة، واتبع الرئيس ماديسون السياسة التى ساعد فى صياغتها عندما كان وزيرًا للخارجية مع جيفرسون،

التفاوض من موقع القوة. وفى خلال أسابيع من تلقى أنباء الانتصارات الأمريكية فى نيو أورليانز وغينت، أرسل ماديسون فريقًا من المفاوضين لتسوية الخلافات مع الجزائر وليعيد تأكيد المعاهدات مع تونس وطرابلس الغرب. ولا بد أن جيفرسون الذى أراد، قبل عشرين عامًا، أن يرسل جون بول جونز إلى الجزائر، سره من اختارهم ماديسون من المبعوثين. كان ستيفن ديكاتور ووليم بينبريدج المفاوضين الرئيسيين، إذ أرسل أحدهما إلى موقع انتصاره الأعظم، والآخر إلى موقع شهد أعظم إذلال له، لصياغة معاهدة سلام. وأرسل ماديسون مع الاثنين وليم شالر، وهو دبلوماسى ورجل أعمال كان سيبقى بعد أن ترحل البحرية، باعتباره القنصل العام فى الجزائر.

وفيما كان ماديسون يتحرك، على هذا النحو، لحماية التجارة الأمريكية حول العالم، سارع رجال الأعمال الأمريكيون أنفسهم لاستئناف المشروعات التى خربتها ثمانى سنوات من الحرب والحظر. وشيدت مجموعة من التجار من هارتفورد، كونيكتيكت، بريغية تجارية جديدة أسموها كوميرس (COMMERCE تجارة – المترجم) استباقًا لدور توقعوه لها فى السوق الدولية التى أعيد فتحها. أحد المستثمرين، جيمس رايلى الذى سوف يصبح قبطان "كوميرس" كان فى أمس الحاجة إلى أن يجود عليه القدر بالحظ الحسن، ولو مرة. فقد أشرف رايلى على الإفلاس بعد ثمانى سنوات من الحظر والحرب. فى ١٨٠٧ كان قبطانًا فى الثلاثين من عمره، بعد أن شق طريق الترقى من خادم القمرة فى سفينة من نيولندن، إلى قبطان تجارى ناجح لسفينة من الميناء الغنى والقادر على المنافسة فى نيويورك. ولكن فى ١٨٠٧ تغير حظ رايلى رغم أن قدرته على العمل الشاق لم تتغير. طاردت سفينة حربية بريطانية سفينته حتى دخل ميناء إسبانيا، حيث كان بأمن من البريطانيين ولكن ليس من الفرنسيين الذين استولوا على السفينة والشحنة. وقضى رايلى سنتين فى فرنسا، وهما سنتا الحظر، غير قادر على العودة إلى بلاده من أجل زوجته وأطفاله ومن أجل عمله. وعندما عاد نما إلى علمه أن القباطنة الأمريكيين يكاد يستحيل عليهم أن يكلفوا بشحن بضائع من أوروبا. ولم تكن الوطنية تكفى، مهما كانت درجتها، لإقناع الأمريكيين بالشحن على سفن أمريكية من الأرجح أنها سيتم أسرها. واشتغل رايلى بوظائف مختلفة وبالزراعة، محاولاً سد

احتياجات أسرته بالعمل الشريف والشاق، فى ظروف تدعو إلى اليأس. وعندما نشبت الحرب فى ١٨١٢، تقدم للخدمة ضابطًا فى سلاح البحرية، فلم يقبل. وظهرت فرصة أخرى: المهربون والمتاجرون بالمواد المهربة، الذين كانوا يتعاملون حتى مع العدو فى كندا وفى جزر الهند الغربية، كانوا يتلهفون على تشغيل قباطنة من ذوى الخبرة فى عمل خطير وإن كان مربحًا للغاية. لم يكن رايلى يخاف المخاطرة وإن كانت الثمار مغرية، لكنه رفض العرض. ورغم أن بلاده لم تستدعه للخدمة، فهو لم يكن ليخدم العدو. بقى رايلى على ولائه، رغم أن كثيرين فى نيو إنغلند لم يحرصوا على الولاء. ورغم أن آخرين تحدثوا عن الانفصال، صراحة، فقد نظم رايلى البحارة العاطلين فى وحدة ميليشيا للدفاع عن الساحل.

اتبع رايلى المثال الأخلاقى الذى قدمه له والده. لقد ولد فى ١٧٧٧، رابع أطفال بلغ عددهم ثلاثة عشر لآشر وريبيكا ساج رايلى. وكان آشر مزارعًا ناجحًا. لكن فى السنوات التى تلت مولد جيمس رايلى، تدهورت أحوال العائلة. مرض آشر، ودمرت الثورة الاقتصاد. لكن آشر وريبيكا صمدا، فعملا بجد، وجعلا أطفالهما يعملون بجد. انتظم جيمس أربع سنوات فى الدراسة، حتى بلغ الثامنة وتعين أن توظفه الأسرة لدى الأسر المزارعة الأوفر حظا. وكانت أسرة رايلى تعترض عندما تمنعه الأسرة التى أجروه لها من الذهاب إلى المدرسة. لكن أسياد الغلام أقنعوا آشر وريبيكا بأنه تلقى كفايته من التعليم. فقد كان بوسعه أن يقرأ، وكان يعرف عن التوراة والمحفوظات الشيخية ويرتل المزامير بأفضل من أترابه من الصبية. ووافق آشر وريبيكا كانا قد علما جيمس، بالفعل، أهم الدروس اللازمة لاستكمال تعليمه الرسمى الموجز: "أن يكون شريفًا وحاذقًا وعفيفًا، أن يتحكم بأهوائه (وقد كانت عنيفة) أن يشعر بآلام الآخرين ويسعى لتخفيفها، قدر المستطاع" وفوق كل شىء، أن السلوك المعتدل والمنشرح والفعال الطيبة كانت المقياس الحقيقى للسعادة. وقد أعد آشر وريبيكا جيمس، كما أعدا كل أطفالهما، لحياة مليئة بالصعوبات يمكن التغلب عليها بالعمل الشريف والجاد وبالدأب[٣].

وأقلع رايلى بالسفينة "كوميرس" ومعه طاقم من عشرة بحارة، فى رحلتها الأولى إلى نيو أورليانز فى مايو ١٨١٥، فى ذات الشهر الذى أبحر فيه ديكاتور وبينبريدج وشالر إلى الجزائر. وتعاقد رايلى على شحنة إلى أوروبا. وأسر المفاوضون الأمريكيون، فى طريقهم إلى المفاوضات، سفينتين جزائريتين. أقلع رايلى بسفينته فى إتجاه جبل طارق، فيما أقلع ديكاتور وأسطوله باتجاه الجزائر. وعلم الأمريكيون وهم فى الجزائر أن الحاج على باشا خنقه الانكشاريون الذين انتخبوه، ثم خنقوا خليفته المباشر. ووافق الداى الجديد عمر أغا الذى، كان حريصًا على السلام، وربما كان، أيضًا، قد أخافه حجم الأسطول الأمريكى، قليلا، على كل الشروط الأمريكية، فى ثمان وأربعين ساعة. وأقلع رايلى إلى أوروبا فى ظل علم أمريكى. كان، لأول مرة فى التاريخ، فى سلام مع العالم كله.

ولكن السفينة "كوميرس"، وإن كانت أبحرت إلى عالم مسالم، فإنها لم تسلم من ضربات القدر ولا من جبروت الناس الذين لا يعترفون لا بعلم ولا بقومية. فى أغسطس ١٨١٥ اصطدمت "كوميرس" بصخرة قبالة رأس بوجادور، فيما يعرف الآن بالصحراء الإسبانية (يعرفها العالم الآن باسم الصحراء المغربية أو أقليم البوليساريو - المترجم). وقد تمكن رايلى والطاقم من النجاة، فيما كانت السفينة تغرق، آخذين معهم، فى القارب الطويل، كل ما من شأنه أن يكون نافعًا لهم على الساحل الأجرد. وأخذ رايلى معه أيضًا ذهب السفينة. صحيح أنه لم يكن ليجدى فى مواجهة الجوع والعطش والشمس المحرقة، لكن تفكير رايلى كان يسبق الأحداث، لعلمه أنه إن نجا رجاله من قسوة الطبيعة وقابلوا أيا من الصحراويين الرحل، سيساعدهم الذهب ثمنًا للطريق إلى الحرية، إلى مدينة ساحلية مثل موغادور، طنجة، أو حتى الجزائر أو طرابلس. وقسم رايلى الذهب بين الرجال، موضحًا لهم أنه فى حال تفرقهم فلا بد لهم من انتهاز أى فرصة للاتصال بالقنصل الأمريكى فى طنجة جيمس سيمبسون أو أى قنصل أوروبى فى موغادور.

ولم تأت أول مقابلة لهم مع أهل المنطقة بخير. رأى رايلى رجلاً لون بشرته بين سواد الزنوج وسمرة الهنود، عاريًا إلا من قطعة قماش تغطيه من الصدر إلى الركبتين،

بشعر كثيف على الرأس والوجه وعينين حمراوين وفم واسع وأسنان كاملة بيضاء حادة. لمح رايلى ذلك الرجل الذى كان أقرب شبهًا بأورانغ أوتان منه بالإنسان، وهو يتفحص حطام "كوميرس" وبضاعتها الذى ساقه الموج إلى الشاطئ. وأدى رايلى الإيماءات الأكثر ودا، فى حدود ما يستطيع، لكن الرجل لم يكن معنيا بالصداقة. وبدلاً من ذلك فقد عاد ومعه عائلته: امرأتان برزت أسنانهما الأمامية كأنياب الخنازير البرية، فتاة بين الثامنة عشرة والعشرين، قال عنها رايلى "لم تكن قبيحة"، وخمسة أو ستة أطفال. وانخرط الجميع فى العمل ليفتحوا الصناديق ويأخذوا منها ما شاؤوا. ومزقت النساء حشية (مرتبة بالعامية المصرية – المترجم) رايلى، لم تكونا تريدان إلا الكيس، لكنهما استمتعتا بجعل الرياش تطير وتدور حولهما كسحابة. وكان يعلم أن بمقدوره أن يبعد أكلة الجيف هؤلاء، هو ورجاله، بسهولة، لكنه كان يعلم أيضًا أن رجاله لا يعرفون إلى أين يمضون، فيما كان هؤلاء النهابون قادرين – ربما – على الإتيان بتعزيزات والعودة إليهم ليفعلوا ما هو أسوأ من تمزيق الحشايا.

لم يكن هؤلاء الرحل الوحيدين بين من نهبوا حطام "كوميرس". فقد فتح بعض أعضاء الطاقم براميل النبيذ، وما إن حل الأصيل حتى كان السكر قد أعجزهم عن أى فعل طيب. وفى مثل هذه الحالة اليائسة، ربما لم يكن هناك فرق كبير إن واجهوا واقعهم سكارى أو صاحين. لكن رايلى وثلاثة رجال آخرين انكبوا على العمل وأصلحوا القارب الطويل. وليقينه بأنه هالك، راح رايلى يفكر بأطفاله الخمسة، الذين خلفهم وراءه، الذين سينشأون بغير أب. لكنه لم يسمح لنفسه باليأس. وفى الصباح التالى هاجمهم الرحل. وكان صفاء الذهن عند رايلى مجديًا، لأنه انسحب مع طاقمه، مستفيدين من الجزر، عائدين إلى هيكل السفينة "كوميرس" ولم ينجح المسافر الوحيد معهم وهو أنطونيو مايكل فى أن يتحرك بنفس سرعتهم. ووقف رايلى وطاقمه يرقبون، فى رعب، كيف غرس الرجل حربه فى صدره، وجروا جثته، مع بقية ما نهبوه، فوق الكثبان. وأدرك رايلى الحقيقة الكئيبة: أن مايكل مات لكن أحد عشر رجلاً آخرين كانوا أحياء، وربما كان موت مايكل تضحية ضرورية. أدرك أنه بين يدى الله، ولم يكن من حقه أن يتساءل حول مشيئة الرب، بل كان عليه أن يواصل التحرك، هو ورجاله.

وعبأ رايلى ورجاله القارب الطويل بكل ما استطاعوا من مؤن، واحتموا للمرة الأخيرة فوق سطح "كوميرس"، هذه المرة بغرض الصلاة. قاد رايلى رجاله فى الصلاة، طالبًا للجميع الرحمة من الله، والحماية للزوجات والأطفال على أرض الوطن. وكان رايلى يعلم – وكل رجاله يعلمون – أنه يكاد يستحيل أن يروا عائلاتهم، مجدداً. ولكن فى تلك اللحظة، وكأنما هو الرد على صلاتهم من أجل الخلاص، سكنت الريح وأمكن للرجال الابتعاد بالقارب الطويل عن السفينة. تركوا "كوميرس" لمصيرها، ومضوا بدرجات متفاوتة من الإيمان واليأس إلى مصيرهم. ولأنهم لا يملكون دفة، فقد وجه رايلى القارب بقطعة من خشب مكسور. ووسط الضباب المانع للرؤية والأمواج الساحقة، قضوا تسعة أيام وليال فى القارب، الذى رشح إليه الماء كأنه سلة. وبعد تسعة أيام فى الفجر، رسوا عند كيب بلانك، على مبعدة ٣٥٠ ميلا من المكان الذى تحطمت فيه سفينتهم. عندئذ حل بهم اليأس. تحطم قاربهم، ولم يكونوا يعرفون أين هم، وكانوا وحدهم على هذا الشاطئ الغريب. وفوق رؤوسهم كانت تشمخ صخور سوداء هائلة، لا تتيح – على ما يبدو – سبيلا للصعود وحتى إن بلغوا القمة فلم يكن هناك ضمان، أو حتى إشارة، إلى ما سيجدونه هناك سيكون أفضل مما وجدوه على الشاطئ، من احتمال الغرق أو الجوع أو الموت عطشاً. ومثل سندباد فقد كان رايلى ورجاله ينجحون فى النجاة من كارثة ليواجهوا غيرها: تحطمت سفينتهم ونجحوا فى الوصول إلى الشاطئ، فهاجمهم النهابون من العائلات البدوية، هربوا إلى السفينة المعطوبة ليواجهوا الموت المؤكد وسط الأمواج الهائلة، قضوا تسعة أيام فى البحر على قاربهم الطويل ليصلوا إلى هذا المكان الأكثر وحشة. وأيا كان ما ينتظرهم، فلم يكن بوسع رايلى إلا أن يثق، مرة أخرى، فى أن للمشيئة الإلهية، غرضاً آخر يتجاوز فهمه.

تحرك الرجال باتجاه الشمال. مزقت الصخور أقدامهم، أحرقت الشمس لحمهم. نفذ ماؤهم، لم يتبق ما يشربوه سوى بولهم. وفكر رايلى فى إلقاء نفسه فى لجة البحر ليهرب من هذا الشقاء، لكن عشرة رجال كانوا يعتمدون على قيادته. ولمجرد أنه بدا لهم أنه يعرف إلى أين يذهب، وبدا لهم أنه لا يخاف، فقد تبعه الرجال. وكان رايلى يعلم كما يعلمون بالضبط، وربما أكثر، أن موقفهم يائس. لا محالة سيموتون من العطش إن

لم يجدوا الماء، فى القريب العاجل، وحيثما يكون الماء سيكون البشر. وأى بشر يقابلونهم لن يكونوا أقل شرا، بل وقد يكونون أكثر شرا، من أسرة النهابين الذين نهبوا "كوميرس" وقتلوا مايكل. لكن رايلى تعين عليه أن يواصل التظاهر بالأمل والثقة ليواصل رجاله التحرك.

وفى ليلة التاسع من سبتمبر آنس واحد من الرجال ناراً. وكانوا جميعًا، باستثناء رايلى، شديدى البهجة. فالنار تعنى مخيمًا، حيث من المؤكد أن يجدوا ماء كانوا فى حاجة يائسة إليه. سوف يركعون أمام المخيم ويتوسلون الماء. نام الرجال بعمق فى تلك الليلة، بوعد الخلاص فى الصباح. ولم يستطع رايلى أن ينام. فرغم أنه يعلم أنه لم يكن بوسعه أن يبقى حيا ليوم آخر، من غير ماء فقد كان يعلم أن الرجال سيباعون فى سوق الرقيق من قبل العرب، على الأرجح، بمجرد وصولهم إلى المخيم. كان يعلم أنه لا يستطيع احتمال العبودية، طويلاً، لكنه عاد إلى التفكير، مجدداً، فى الرجال الآخرين. ربما احتملوا هم. ربما تمكن واحد منهم من الهرب والوصول إلى موغادور، وتمكن من الاتصال بالقنصل جيمس سيمبسون فى طنجة، أو بقنصل أمريكى فى الجزائر أو تونس أو طرابلس الغرب أو حتى جبل طارق. وأدرك رايلى أن العبودية فى نهاية ليلة مؤرقة هى الوسيلة التى اختارتها العناية الإلهية لرجاله لبلوغ النجاة. ولم يكن بوسعهم رفضها.

وقبل أن يقود رجاله إلى مخيم العرب أبلغهم بمصيرهم المحتمل. سوف يكونون عبيداً، لكن يجب أن ينتهزوا كل فرصة لتذكر رفاقهم الأسرى وأن يخاطروا، دون تردد، بالهرب. وإن وصل أى منهم إلى موغادور، فيجب أن يتصل بأى قنصل أوروبى هناك. وذكرهم، مجدداً، بأن جيمس سيمبسون هو القنصل الأمريكى فى طنجة. يجب أن يتذكروا اسمه، وإن لاحت الفرصة، فيجب أن يقولوا له أين رأوا آخر الناجين. وإن تصادف وجودهم قرب الجزائر أو طرابلس الغرب أو تونس، فيجب أن يكتبوا للقنصل الأمريكى هناك، أو فى جبل طارق، لو أتيح لهم. تعين على رايلى ورجاله أن يقبلوا بالعبودية باعتبارها ضرورة مؤقتة، النجاة كانت الهدف المباشر. وإن نجا أى واحد، فإن رايلى واثق أنهم

سيعودون كلهم أحراراً. وذكرهم بأن العناية تدخلت لصالحهم طوال نضالهم، فى الأسبوعين الماضيين. ونبههم إلى أن الاعتدال والتسليم قد يكونان الآن السبيل لإنقاذ حياتهم، وأن التصلب قد لا يزيدهم إلا تعاسة وأقل قدرة على النجاة.

وتقدم الرجال باتجاه المخيم، حيث قابلهم قطيع من الجمال، أولاً. وعندما لمح العرب أحد عشر رجلاً مهزولاً ملوحاً، اندفعوا تجاههم، ينتزعون ما تبقى من ملابسهم، يريد كل واحد منهم هذا أو ذاك لنفسه، ويتحاربون لما يزيد على ساعة مع عرب آخرين حاولوا أخذ الرجال عبيداً. وأخذ رايلى وريتشادر ديلايل، الطباخ الأسود، معًا. وسيقا عاريين إلى المخيم وبصقت عليهم النساء الفضوليات اللاتى جئن ليرين هذه المخلوقات الغريبة. وسيق رايلى وديلايل إلى بئر وأعطيا دلو ماء. وبعد أن شرب الأمريكيون من الدلو، كالجمال، أضافت النسوة بعض اللبن وشرب رايلى وديلايل، مجدداً. ذهب الظمأ، لكنهما أصيبا بتقلصات معوية حادة وإسهال.

وبعد أن حسم العرب حقوق الملكية استفهم زعيمهم، وهو شيخ وقور، من رايلى، بالعربية والإسبانية عن الوجهة التى جاؤوا منها، وماذا يفعلون، وكيف وصلوا إلى هنا. وسأل رايلى إن كان يعرف أين مراكش. وأومأ رايلى برأسه وأشار صوب الشمال. وأخبر العربى أن السلطان صديق رالى ودولته ويمكن أن يفتدى رايلى والطاقم. وطلب رايلى أن يأخذوه إلى موغادور أقرب مدينة ميناء. ورفض العربى قائلاً إنها بعيدة للغاية، ولم يكن لديهم ما يكفى لإطعام الجمال طوال الرحلة. ولن يكون مجزيًا لهم أن يأخذوا الرجال الأحد عشر هؤلاء إلى موغادور لاستلام الفدية الموعودة.

وكانت ليلة مؤرقة أخرى بالنسبة إلى رايلى. ولكن، أخيراً، لم تعد تعاسته ومخاوفه تؤرقه، فراح فى سباته يحلم. رأى نفسه "عاريًا ومستعبداً"، والعرب يقودونه بحراب احمرت من السخونة عبر حريق طوله ميل كامل. وتوسل رايلى إلى الله القدير أن يخلصه من العذاب. وردا على توسلاته، رأى رايلى عينا فوق خط الأفق، وتحتها سهم يشير إلى الشمال. وفهم رايلى أنه لو اتجه شمالاً فسوف ينجو، وهكذا غير مساره من الجنوب إلى الشمال، وخبت النار، رغم أن العرب واصلوا دفعه برماحهم الحديدية.

وسرعان ما وجد رايلى نفسه فى واد أخضر حيث كانت الماشية والأغنام والثيران تأكل الكلأ وتشرب من نبع بارد، صاف. ألقى بنفسه أرضًا وشرب، شاكرًا الله على هذه الرحمات. وواصل آسروه دفعه باتجاه الشمال، نحو العين العالية. عبر الجبال والممرات المليئة بالشوك مشوا، حتى لقيهم شاب فى ملابس أوروبية. وضع هذا الرجل أمام رايلى مائدة حافلة، فأغمى عليه لمرآها. قال له الغريب : "تشجع أيها الصديق العزيز. قضى ربك أن تعود إلى معانقة زوجتك المحبوبة وأطفالك".

صحا رايلى. لم يكن الحلم شيئًا يعتد به، لكنه كان كل ما لديه طوال الأيام التالية، حين كان هو ورجاله يقاسون من أيام التعرض للشمس والعمل الشاق والعطش وليالى الجوع وسخرية مستعبديهم. ورغم أن سيد رايلى بدا أنه الزعيم الدينى للجماعة، فلم يكن يظهر شفقه بالأسرى، وكانت زوجاته أقل شفقة منه. وتعين على رايلى أن يقف موقف المتفرج فيما كان بعض رجاله يضربون وبعضهم يباعون عبيداً. وضعف إيمان رايلى بالعناية الإلهية وبالخلاص، لكنه لم يخف.

وفى نهاية سبتمبر، جاء غريبان إلى المخيم العربى. وقالت النسوة لرايلى إن هذين الرجلين سيدى حامد وشقيقه سعيد، كانا تاجرين وقد يكونان قادران على شراء الأمريكيين والذهاب بهم إلى مراكش. وأدهش اهتمام النسوة رايلى. فسلوكهن تجاهه لم يجعله يتوقع أى شفقة. لم يعتقد قط أن هذين العربيين قد يخلصانه، لكنه كان باقيًا على اعتقاده فى الخلاص. وقد أظهر العربيان اهتمامًا. أخذ سيدى حامد الذى لم يكن يتكلم سوى العربية رايلى، وانتحى به جانبًا، وبذل كل جهد لديه ليسأله عن موطنه، وأسرته، والنبى محمد. وبكى سيدى حامد عندما قال رايلى إنه ترك وراءه خمسة أطفال، فقد كان للعربى نفسه أطفال فى مراكش. وردا على سؤال سيدى حامد عن الإسلام، كان رايلى قد لاحظ من الطقوس التعبدية التى كان يؤديها سيده ما يكفى لأن يفهم أن محمداً عاش فى مكة، لكنه الآن فى الجنة. وكان هذا كافيًا بالنسبة إلى سيدى حامد الذى بدأ ينادى على رايلى بكلمة "ريس" أو "قبطان"، كناية عن الاحترام. وأخذ رايلى بعيداً عن مسامع آسريه ووعد بأن يشتريه هو ومن يستطيع شراءهم من أفراد الطاقم، وأن يمضى بهم إلى موغادور. ومرة أخرى وعد رايلى بمكافأة سخية مقابل أتعابه.

ورغم اعتراضات شقيقه اشترى سيدى حامد رايلى وأربعة من بقية الطاقم. كان سعيد يريد بيع الأسرى فى صفقة مربحة أو أن يقتل غير القادرين منهم على الحركة السريعة. كانت الرحلة طويلة وخطيرة إلى موغادور، ولم يكن بيد العرب سوى وعد رايلى بمكافأة. ولم يكن سعيد قادراً أن يفهم حماس أخيه لمساعدة هؤلاء المسيحيين. لكن سيدى حامد لم يكن ليترك أخاه يؤذى الأسرى أو يبيعهم. وعندما اقتربوا من موغادور كتب رايلى رسالة إلى القنصل الإنكليزى، داعياً الله أن يكون القنصل هناك، ومضى سيدى حامد بالرسالة.

كان قنصل إنكلترا فى موغادور هو وليم ولشير. وكان فى بيته عندما وصل سيدى حامد، وعندما قرأ الرسالة أسرع بالعمل من أجل الأسرى الأمريكيين. دفع ولشير إلى سيدى حامد مقابل إحضاره الرجال من الصحراء ، وبعثه ببغال لتحمل رايلى والرجال بقية الطريق إلى المدينة. ثم خرج بنفسه ليقودهم إلى الطريق. والتقى سيدى حامد ورايلى والباقين عند قرية على مشارف المدينة. وذهل رايلى، وليم ولشير كان نفس الرجل الذى وضع أمامه مائدة عامرة فى الحلم واعداً إياه بالخلاص. وعند تذكر ولشير الوعد وحمل رايلى والناجين إلى موغادور. ووعد بأن يسعى للعثور على بقية الناجين من بحارة "كوميرس" بعد أن تشتتوا بين قبائل الصحراء.

ولم يدرك رايلى ما لاقاه من عذاب إلا بعد أن وصل منزل القنصل. دبر ولشير أمر حلاقة الذقن وحلاقة الشعر الأشعث المغمور بالآفات لرايلى ورجاله، وقدم لهم طبيب يهودى وُلِدَ وتعلم فى موسكو دواء، وتناول الرجال، لأول مرة منذ ثلاثة أشهر، طعاماً صلباً وراحة. كان وزن رايلى، من قبل، ٤٠ رطلاً، أما الآن فقد أصبح وزنه ٩٠ رطلاً. وفجأة انهارت قدرته التى ظل يستجمعها للنجاة وللحفاظ على حياة رجاله وللتركيز على نجاتهم. فبعد أن وجد نفسه آمنا فى بيت ولشير، انهار عقل رايلى وعواطفه. ظل يبكى بغير انقطاع لثلاثة أيام، وكان يرتعد خوفاً لمرأى أى إنسان آخر. وراح، فى ركن معتم فى غرفته، يصارع الذكريات والرؤى التى سيطرت عليه وعذبته. وطوال الأيام الثلاثة كان ولشير والرجال الآخرون يخشون أن لا يخرج رايلى سالماً، مما هو فيه، وكادوا

يـيـأسـون من سـلامـة عـقله. ولكن كـمـا خـرجت مـاريا مـارتن من عـذابـاتـهـا، بالضـبط، وبتصميم متجدد، صحا رايلى من هذيانه بفهم جديد للحكمة الإلهية. وفى اليوم الرابع، نظر فى المرآة. لم يصدمه الوجه الذابل الملوح. تذكر كل ما قاساه هو ورجاله، وبدلاً من اليـأس، فـإن رايلى "راح يتـأمل فى مسـرة وعرفـان القـوة والحكمة والمعـرفـة الشـاملة (قـال المؤلف FOREKNOWLEDGE وهى تعنى مـعـرفـة الأمـر قـبل حـدوثه، وهى كلمـة تتعلق بالكائن الزمنى الذى يوجد بالنسبة له قبل وبعد، أما بالنسبة للخالق فالمعرفة كلية وشـاملة – المترجم) للخـالق، وكذلك رحمته وخيره غير المحدود". وأصبح الآن يدرك أن حياته لم تكن كما كان يظنها. فالأحداث التى ظنها سوء حظ كان القصد منها أن تعده لهذا العذاب العظيم. "رأيت بوضوح أنى لم أتعلم فى مدارس المحنة، إلا لأكون مستعداً لإنجاز الهدف الذى خلقت من أجله". خلق رايلى لينقذ رجاله، وكل شىء فى حياته كان يعده ليفعل ذلك.

عاد جيمس رايلى إلى الولايات المتحدة فى ١٨١٧. وبعد أن خلص من أسره وقاد بعض رجاله إلى السـلامـة، أصبح رايلى أشبـه ببطل فى أمة تبـحث عن الأبطال. التقى الرئيس مونرو مع رايلى فى واشنطن العـاصـمـة، وتوجـه القـبطـان لزيارة هنرى كـلاى وجون كالون وجون كوينس آدامز. وأظهر حاكم نيويورك ديويت كلنتون اهتمـامًا بالغًا برايلى، وقرأ فى شغف المخطوطة التى كتبها رايلى عن مغامراته. وظن رايلى أنه فرغ من حيـاة البحـر، كانت مفاصله لا تزال تئن من أسـفاره فى الصـحراء العربية. وحتى يرتـاح، وربما ليريح ذاكرته، فقد قرر أن يرتحل عبر الداخل الأمريكى. وبلهـفة الراغب فى نسـيـان المحيط، راح رايلـى يسـعـى من أجل وظيـفـة حكومـيـة كـمـشـرف أو كوكـيل لشؤون الهنود، ظانا أن الحكومة قد تكون بحاجة إلى رجل نزيه ورزين، لكنه لم يحصل على منصب.

وارتحل رايلى عبر كنتاكى وإنديانا وأوهايو، ثم عاد إلى نيويورك عبر البحيرات العظمى وقناة ييرى. وشرب رئيس جامعة بنسلفانيا وغيره من المحترمين فى الغرب نخب رايلـى، ولاحظ بطل الصـحـراء العربيـة، بكل فـخـار، مواقع الانتـصـارات البـحـرية الأمريكيـة فى البـحيرات العظمـى. لقد أمنت حرب ١٨١٢ للولايات المتحدة التـجـارة فى

هذا "المتوسط الداخلى فى أمريكا" وتوقع رايلى مستقبلاً عظيمًا لمدن مثل بافالو وكليفلاند. كان الداخل يزدهر، ولم يكن الرجال الطموحون مثل رايلى بحاجة إلى الذهاب إلى البحر. كان بوسع أمريكا أن تتحول باهتماماتها إلى الداخل. وقرر رايلى نقل أسرته إلى أوهايو، وفى مايو ١٨١٢ بدأوا حياتهم كرواد على نهر سانت مارى، بقطع الأشجار وبناء الأكواخ وطاحونة فى مستوطنة أسموها "ولشير" على اسم القنصل البريطانى المحسن.

لكن حياة الرواد ثبت أنها خطيرة كحياة البحر. اشتغل رايلى وأسرته بكل جد، وكافأه جيرانه على عمله الجاد بإرساله إلى المجلس التشريعى للولاية. لكن الأسرة كانت تمرض، كلها، بالحمى من آخر الربيع إلى مطلع الشتاء. واجتاحت أمطار الربيع أسوار الطاحونة، واعتمد الجيران المعدمون على رايلى ليساعدهم فى أوقات الضيق، ومرة أخرى رفض طلبه لوظيفة حكومية (كوكيل هندى فى فوت واين القريبة، فى إنديانا، فلم يكن من سكان إنديانا" . وقضى مدة واحدة فى المجلس التشريعى فى أوهايو، محاولاً أن يحمل هذه الولاية على أن تتبنى نظام المدارس العمومية مثل كونيكتيكت. وثبت أن الحياة فى المناطق الحدودية محبطة، ومفقرة، وبالنهاية فهى تكاد تكون قاتلة. وفى ١٨٢٦، بعد عشر سنوات من نجاته من رعب الصحراء العربى، انهارت صحة رايلى تمامًا فى أوهايو. وحملته أسرته، مبحرة إلى المناخ الأفضل للصحة فى مدينة نيويورك. وعندما شفى، عاد إلى البحر. أبحر رايلى إلى مراكش، ليعود إلى رؤية ولشير الذى أحسن إليه، وليرى الإمبراطور، ثم أبحر إلى الجزائر. وقضى رايلى بقية حياته فى البحر، ليموت فى رحلة تجارية إلى جزر الهند الغربية ١٣ مارس ١٨٤٠. وألقى بجثمانه إلى أمواج البحر، بعدها بيومين.

لكن هذه لم تكن نهاية القبطان جيمس رايلى. لقد فشل كرائد أمريكى، وحالت سنوات الحظر والحروب وتحطم السفينة بينه وبين الثراء كقبطان بحرى تجارى. لكنه فعل شيئين عظيمين فى حياته. أولهما، أنه خرج سالمًا من مشاق الصحراء العربية وخبز ذلك الرضا غير الظاهر الذى علمه إياه والداه. والثانى، أنه ألف كتابًا عاد عليه

بالشـهرة والنفوذ، إن لم يكن بالمال. وقد كـان كتاب رايلى "السـردية الحقـيقـية لفـقد السفينة الأمريكية كوميرس" واحداً من أكثر الكتب شعبية فى القرن التاسع عشر، وقد طبع لأول مرة فى ١٨١٧ فى هارتفورد، نيويورك، ولندن، وفى السنة التالية ترجم إلى الفرنسية والألمانية ليقرأه الأوروبيون. وأخذ رايلى مخطوطته معه إلى الغرب. ونشر الكتاب فى لكسنغتون وكنتاكى وأوهايو، وظلت النسخ تظهر بانتظام فى هارتفورد حتى الحرب الأهلية. وقد طبع من الكتاب فوق مليون نسخة، وبعد أحد عشر عامًا على وفاة رايلى فإن ابنه وليم ولشير رايلى أصدر ملحقًا له. وبعد الحرب الأهلية نشرت أجزاء من "السردية" تحت عنوان "ما رأه وفعله فى إفريقيا"، فبعد ثلاثين عامًا من وفاته وستين عامًا على مغامرته كانت "سردية" رايلى لا تزال تحتفظ بقوتها كقصة.

وقد كانت "سردية" رايلى الأكثر نجاحًا بين حكايا الأسرى الأمريكيين، ورغم أن أسرى غيره عانوا ما عاناه وكتبوا عن خبراتهم، فلم يحظ أى من كتبهم بما حققه كتاب رايلى من نجاح. وقد نشر دانييل سوندز، الذى كانت سفينته تدعى "كوميرس" أيضاً، وتلقت قبالة الساحل العربى فى١٧٩٢، تقريراً عن عذابه يشابه تقرير رايلى. لكن تقرير رايلى اختفى بعد طبعة واحدة. وقد أسر الجزائريون جون فوس فى ١٧٩٣ وعاد إلى وطنه فى ١٧٩٧. وظهرت من قصته طبعتان فى ١٧٩٨، ولم تظهر طبعات أخرى بعدهما. وقد طبعت رواية رويول تيلر التى أخذها عن هذه القصص، وعنوانها "أسير الجزايرلية" مرتين فى أمريكا: إحداهما فى ١٧٩٧ والثانية فى ١٨١٦، ثم اختفت. وكانت آخر طبعة من رواية ماريا مارتن فى السنة ذاتها التى شهدت أول طبعة لرواية رايلى. ورايلى نفسه شجع جوداه بادوك، الذى تلفت سفينته قبالة الساحل المراكشى فى ١٨٠٠ وآرشيبالد روبنز، الذى شارك رايلى النجاة بعد تلف " كوميرس" على أن يكتبا قصتيهما، وساهم رايلى فى تمويل النشر. لكن هذه الكتب لم تبق كما بقى كتاب رايلى[٥].

وقد أعجب جاريد سباركس، رئيس تحرير "نورث أميركان ريفيو" الذى سيصبح فى المستقبل رئيساً لجامعة هارفارد بما اتصف به رايلى من "حسن الطوية وصراحة تليق ببحار" وامتدح بساطة الكتاب[٦]. ولا يزال كتاب رايلى، فى الحقيقة، قصة مؤثرة،

وبساطة أسلوبه لها نصيب كبير من جاذبيته. لكن الأسرى الآخرين كتبوا عن عذابهم بصراحة وبساطة مماثلتين. فالأسلوب وحده لا يوضح السبب فى أن كتاب رايلى بيعت منه كل هذه النسخ، ولا الاستجابة الاستثنائية له من جانب القراء. فقصة رايلى مشابهة لتلك التى رواها سوندرز، وفوس، وتيلر، ومارتن، وروبنز، وبادوك. فلماذا كان كتابه أكثر نجاحًا، إلى هذا الحد ؟ لقد ملك رايلى خيال قرائه وأثار عواطفهم، على نحو يثير الدهشة أو يثير الحسد لدى أى كاتب. وقد أطلق إليجا براون من ساوث كارولينا على ابنه سيدى حامد، على اسم المحسن العربى. وقال قارئ فى فلات روك، نورث كارولينا، إنه كان مستعدًا، بعد قراءة "السردية" أن يحمل بندقيته على كتفه، وأن يذهب ليثأر من أولئك العرب. وعندما كتب رايلى إلى هذا القارئ الذى كان يدعى سى بارنيت، تجمعت فلات روك كلها لتسمع ما كتبه رايلى فى الخطاب، كان بعضهم يشك فى أن رايلى له وجود حقيقى. لكن رايلى كان حقيقيا وإن كانوا تماهوا مع شخصيته - القوية، المصممة، ذات الإيمان الراسخ بقوة المشيئة الإلهية - حتى إنهم لم يعد بوسعهم أن يحسبوا أنه حقيقى. وقد كان قارئ من ماساشوسيتس يدعى هنرى دافيد ثورو يفكر فى رايلى ويمشى على ساحل كيب كود البعيد، متفكرًا فى تلف السفن والصراع الأزلى بين رغائب البشر والقوى الطبيعية الغلابة. ورغم أن بارنيت وثورو وجدا رسالتين مختلفتين فى كتاب رايلى، فقد وجد كل منهما أنه مؤثر ولا ينسى(٧).

امتدح جاريد سباركس رايلى لمجرد أنه وصف رحلاته، تاركًا لكتاب أكثر تأهيلاً "القضايا الأخطر والأقل وضوحًا، المتعلقة بالحكومات والشخصية الوطنية، وأمور البحث التاريخى". لم يكن سباركس يعتبر أن لدى رايلى الكفاءة لمناقشة هذه الأمور الجسيمة، واعتبر أنه كان حكيمًا فى اعترافه بمحدوديته. اعتبر أن كتاب رايلى جدير بالاهتمام ومشوق وخلص إلى أن رايلى أظهر حسن الفطن فى الاكتفاء بسرد القصة دون أن يفرض خلاصتها الأخلاقية. لكن سباركس أخطأ. لقد أصبح كتاب "السردية" شعبيا، بالضبط، لأنه شغل القارئ بمسائل أخلاقية وسياسة. وقد كانت "السردية" التى كتبها رايلى، أكثر من أى وصف أفرزته الخبرة الأمريكية بالعالم المسلم، تعليقًا على

الشخصية الأمريكية وموعظة حول الخطايا الأمريكية. فهو كتاب قوى، ليس أن رايلى يسرد حكاية معاناته الخاصة بطريقة مؤثرة، ولكن لأنه يستخدم معاناته الخاصة ليبلغ هدفًا أهم.

أدرك رايلى فى موغادور، وهو يستعيد صوابه، أن مهمته لم تكتمل. لسوف يعود إلى بلد "مؤسساته السياسية والأخلاقية، هى فى ذاتها أفضل ما هو قائم فى الأجزاء المتحضرة من المعمورة". حيث يتمتع إخوانه المواطنون "بأوفر نصيب من الحرية الشخصية، والحماية، والسعادة". لكن، وإن كان هذا غريبًا، "لكن بنى وطنى الأحرار ذوى الأرواح الأبية لا يزالون يمسكون، قرابة، المليون ونصف المليون من النوع البشرى، فى أقسى أغلال العبودية، وكثير منهم مجبرون على العمل الشاق ويتألمون تحت السياط الوحشية من سائقى العبيد المرتزفين غير الإنسانيين، وفى حالات كثيرة فإنهم يحتملون مع عذابات الجوع والعطش والحبس والبرد والعرى بل والتعذيب". وقد احتمل رايلى ورجاله كل هذه العذابات، وقد جعلت "السردية" التى كتبها قراءه يشعرون بها بالحدة التى قاساها. وطرح التحدى الأخلاقى ذاته، الذى طرحه فرانكلين ومؤلف "عازم" فى تسعينيات القرن الثامن عشر. وكان رايلى يقول فى أسف "ليس هذا من تصاوير الخيال" فقد رأى بعينيه هذه المشاهد. لكن معاناته علمته درسًا "سوف أكرس كل ما تبقى لدى من طاقات سعيًا لتحرير المستعبدين". وساند جهود الجمعية الاستعمارية الأمريكية لإلغاء الرق بالتحرير التدريجى(٨).

وقد انتقد جاريد سباركس رايلى لأنه ضمن كتابه فصلاً طويلاً، هو الخامس والعشرون، يروى فيه قصة سيدى حامد. وقلل سباركس من أهمية القصة التى رواها العربى عن رحلته التجارية إلى تمبكتو وإلى مملكة زنجية فى مكان ما فى الجنوب الغربى من تلك المدينة التى حيكت حولها الأساطير. اهتم سباركس بما جاء من وصف لتمبكتو لكنه لم يثق فى سيدى حامد، باعتباره مصدراً، لقد فات سباركس إدراك التماثل الخلقى والأدبى بين قصتى رايلى وسيدى حامد. فقد كان سيدى حامد، شأنه شأن رايلى، مشتغلاً بالتجارة. وبدلاً من الإبحار عبر المحيط قاد سيدى حامد القوافل

عبر الصحراء العربية. وقد غادر مراكش، فى مهمة تجارية، إلى تمبكتو بقافلة ضخمة: ١٠٠٠ رجل و٤٠٠٠ جمل. لكن القافلة واجهت كارثة تلو الأخرى، فنزل سيدى حامد إلى مستوى الاتجار فى العبيد فى "وسنه" وهى مملكة زنجية فى الجنوب الغربى من تمبكتو. ومثل رايلى، فقد أدرك سيدى حامد، تحت الجهد الهائل لمحاولة البقاء حيا فى عالم الرجال والتجارة الشرير، أن أمله الوحيد هو فى جناب الله. فمن القافلة الهائلة التى خرجت معه، لم يرجع إلا أربعة رجال. وكان سيدى حامد من المحظوظين بالنجاة، لكن عامين من الاتجار فى الذهب والمر والعبيد على امتداد النيجر لم يبق له منها إلا الفاقة. وتعهد حموه بالسفر لشراء ريش النعام، وخرج سيدى حامد وأخوه لتنفيذ هذه المهمة، وهى أدنى درجة من عمله باعتباره قائداً لقافة فى الصحراء العربية. لكن سيدى حامد وجد خلاصة فى هذه المهمة. فقد فشلت تجاريا: فلم يحقق سيدى حامد من النجاح فى شراء ريش النعام أكثر مما حقق فى التجارة فى تمبكتو. لكن سيدى حامد قال لرايلى: "قاد الرب القادر خطانا إلى خيمة سيدك، ورأيتك" نبه مرآى رايلى سيدى حامد إلى الشعور بخطاياه وبإمكانية الخلاص. فكل رجل من الرجلين، المسلم من مراكش والمسيحى من كونيكتيكت، رأى أن الله ساقه إلى هذا المكان، وأن الله فعل ذلك لسبب مهم للغاية.

اعترف سيدى حامد بأنه عاش إنسانًا سيئًا، تاجر عبيد. وقد غيرته رؤيته لرايلى وللأمريكيين المهزولين الذين أحرقتهم الشمس. "لقد كنت فى محنة وفى أرض غريبة، ووجدت الأصدقاء الذين احتملونى وردونى إلى أسرتى، ولما رأيتك عارياً مستعبداً، وبجلدك ولحمك اللذين احترقا حتى العظام بفعل الشمس وسمعتك تقول إنك كانت لك زوجة وأطفال، فكرت فى محنتى التى سلفت، وألان الله قلبى، وأصبحت صديقك". وبعد أن عمل على الوصول برايلى، سالمًا، إلى منزل القنصل البريطانى أصبحت لدى سيدى حامد "المسرة العالية النابعة من معرفة أنى فعلت شيئًا من الخير فى الدنيا" وتعهدت بأنى "فى المستقبل سوف أفعل ما بوسعى لتخليص المسيحيين من العبودية". وعاد إلى الصحراء ليبحث عن بقية طاقم "كوميرس". وقد مات سيدى حامد وهو يسعى لإنقاذ رفاق رايلى من البحارة(٩).

لقد جمعت المشيئة الإلهية بين هذين التاجرين العاديين جيمس رايلى وسيدى حامد. وشاءت إرادة الله أن يفعل رجلان عاديان أموراً غير عادية. وترك سيدى حامد رايلى مكلفاً برسالة: أن يخلص المستعبدين.

واختتم رايلى "السردية" بالرسالة ذاتها. فقد دعا الواحد القهار الذى أنقذه أن يستميل قلوب أبناء بلده إلى اقتلاع "شجرة الرق الملعونة، التى تركت لتضرب جذرها عميقاً فى أرضنا التى تحظى بكثير من المنن، باستثناء هـذه الشجرة". وتعلم رايلى، كما تعلم سيدى حامد بعض "الدروس النبيلة" من المحن. وقد تذكر العبيد الأمريكيين الذين رآهم فى نيو أورليانز، هذه الذكرى "جمدت دمائى من الرعب". وقد تعهد رايلى "بتحرير المستعبدين، وبتحكيم عصا القمع، وجعلها شذرات" آملاً أن ينظم إلى هذا العمل النبيل كل "مواطن خير ودين وحر وعالى الهمة" وجميع "المحبين للإنسانية فى كل أنحاء العالم المتحضر"(١٠).

وشأن الإنسانيين الداعين إلى التبرع فى تسعينيات القرن الثامن عشر، فقد أراد رايلى أن يحتشد الأمريكيون لتحطيم عصا الطغيان. وفى معاناته هو على أيدى المسلمين رأى رايلى انعكاساً لما ينزله الأمريكيون بالآخرين من عذاب. ولم يكن ممكناً أن تكون رسالة رايلى المناهضة للعبودية أكثر وضوحاً. فهو يكاد يكون الوحيد بين الأمريكيين الذين كتبوا عن معاناتهم بأيدى المسلمين، الذى انفرد برؤية هذه الصلة ولم يقبل أن يفلت بنى وطنه من شرك الإدانة. العبودية خطأ، وهى خطأ بحق قبطان من كونيكتيكت بقدر ما هى خطأ فى حق إفريقى أسود(١١).

هذه النقطة فاتت سباركس، لكنها لم تفت قراء آخرين. ففى ١٨٦٠ عندما كان آبراهام لينكولن مرشحاً لرئاسة الولايات المتحدة، سئل عن أكثر الكتب تأثيراً عليه. وذكر ستة كتب: التوراة، ورحلة الحاج، وخرافات آيسوب، وحياة واشنطن التى كتبها ويمز، والسيرة الذاتية لفرانكلين، وسردية رايلى. كل هذه الكتب عززت أفكار الاعتماد على النفس والعمل الجاد التى شرعتها الإرادة الإلهية، لأنها قد تفرض على أى إنسان

عادى، فى أى لحظة، أن يفعل أشياء غير عادية. فكل حياة الإنسان يمكن أن تكون تحضيراً لتلك اللحظة التى تدعوه فيها الإرادة الإلهية إلى الفرض. وكل واحد من هذه الكتب أوصل هذه الرسالة، وفي كتاب رايلي، وحده، دعت العناية الإلهية البشر لينهوا العبودية، القضية التى استدعى سيدى حامد وجيمس رايلى وأبراهام لينكولن للعمل عليها(١٢).

استخلص جيمس رايلى درسا قويا من تجربته فى الأسر. ورغم أن الولايات المتحدة انتصرت على طرابلس الغرب وعلى الجزائر، فإنها لم تنتصر على خطاياها هى. فكل فقد للحرية هو عبودية، ولم يكن بوسع الأمريكيين أن يقبلوا لا "بالعبودية" لمواطنيهم فى الجزائر أو مراكش، ولا بالعبودية للإفريقيين أو للأمريكيين الأفارقة فى بلادهم. ولم يكن ممكناً للأمريكيين أن يبقوا لا مبالين فى مواجهة الظلم، لا فى بلادهم ولا فى الخارج. وقد صمد رايلى رافضاً الخضوع، معتمداً على العناية الإلهية وعلى روحه التى لا تقهر، من أجل خلاصه. ولم يكن الاحتمال كافيًا. فقد كان ضروريا بالنسبة لرايلى وللآخرين أن ينتصروا. وقد استثار رايلى قراءه لينظروا فى قلوب وفى قلب بلادهم بحثًا عن برهان على أن الانتصار ممكن، بطريقة تجعل المحاولة أمراً يستحق. وقد قدم رايلى من مراكش درساً عن الاعتماد على الذات، والتحمل، والتوكل على العناية الإلهية التى لا تمنح الخلاص لا للظالم ولا للمستنيم إلى الظلم.

الهوامش

هوامش الفصل الأول

(١) من توماس جيفرسون إلى جيمس كارى، باريس فى ٢٧ سبتمبر ١٧٨٥.
Julian P. Bouad et al., eds.,The papers of Thomas Jefferson (24 vols.,Princeton, 1950-)
(يشار إليها فيما بعد بـ PTJ8:559).
من توماس جيفرسون إلى بنجامين فرانكلين، باريس فى ٥ أكتوبر١٧٨٥ PTJ 8:585-586.

(٢) New York Journal and Patriotic Register – بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٧٨٥، وقد أشار إليها سيد زين العابدين فى أطروحته للدكتوراه، جامعة بنسلفانيا ١٩٧٤ التى كان عنوانها:
In Defence of Freedom: America's First Foreign War. A New Look at United States- Barbary Relations, 1776-1816" 81.
من جون بانيستر إلى توماس جيفرسون، ٢ ديسمبر ١٧٨٥ PTJ 9:75-76
من صمويل هاوس إلى توماس جيفرسون، ٢٨ مايو ١٧٨٥ PTJ 8:169

(٣) من جيمس لومير إلى باتريك هنرى، ريتشموند، ٣ ديسمبر ١٧٨٥
Calender of Virginia State Papers and other Manuscripts, William P. Palmer, editor and compiler (Richmond,Va: 1884) .4:70 (يشار إليها فيما بعد بـ CVSP)

(٥) Ray Watkins Irwin, The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers 1776-1816 (Chapel Hill, 1931), 25 - 28 ; Gray Edward Wilson," American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816" 29-32 (أطروحة الدكتوراه من جامعة ولاية نورث تكساس ١٩٧٩).
بناء على طلب من إسبانيا، أفرجت مراكش عن السفينة بيتسى فى أوائل صيف ١٧٨٥
من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون، مدريد فى ٢٨ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:321-322

(٦) من جون بيج إلى توماس جيفرسون، روزويل، فيرجينيا، فى ٢٨ أبريل ١٧٨٥، أوراق توماس جيفرسون PTJ8:119، ريتشارد هنرى لى إلى توماس جيفرسون، نيويورك فى ١٦ مايو ١٧٨٥ PTJ 8:154.
وأبلغ هنرى لى جيفرسون، أيضًا، بأن واحدة من أوليات السفن الأمريكية التى تعمل بالتجارة مع الصين عادت من كانتون بعد رحلة دامت أربعة عشر شهرا.

(٧) من جون آدامز إلى بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون، أنتواى فى ٢٠ مارس ١٧٨٥ PTJ 8:46-47

(٨) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٢٩ مارس ١٧٨٥ PTJ 8:64 - 66
انظر أيضا من كارمايكل إلى فرانكلين، فى ١٥ أبريل ١٧٨٥ PTJ 8:83 -84

(٩) من جون جاى إلى المفوضين الأمريكيين (١١) فى مارس ١٧٨٥ PTJ 8:20

(١٠) من وليم فوشى إلى باتريك هنرى، ريتشموند فى ٦ ديسمبر ١٧٨٥ CVSP 4:71

(١١) من جيمس ماديسون إلى توماس جيفرسون، ريتشموند فى ٢٢ يناير ١٧٨٦ PTJ 9:196

(١٢) وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ١٩ أبريل ١٧٨٥ PTJ 8:95

من فرانسيس هوبكنسون إلى توماس جيفرسون، نيويورك فى ٢٠ أبريل ١٧٨٥ PTJ 8:99

من إليزا هاوس تريست إلى توماس جيفرسون فى ٢٤ يوليو ١٧٨٦ PTJ 10:169

(١٣) من توماس جيفرسون إلى جون آدامز فى ١١ يوليو ١٧٨٦

Lester J. Cappon , ed., The Adams-Jefferson Letters (Chapel Hill and London, 1988), 142.

(يشار إليها فيما بعد بـ Cappon)

من توماس جيفرسون إلى جون بيج فى ٢٠ أغسطس ١٧٨٥ PTJ 8:418-419

من توماس جيفرسون إلى مونرو فى ١١ مايو ١٧٨٥ PTJ8:150

(١٤) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٢٩ مارس ١٧٨٥ PTJ 8:64-66

من توماس جيفرسون إلى كارمايكل فى ١٧ أبريل ١٧٨٥ PTJ 8:95

من توماس جيفرسون إلى كارمايكل فى ١٨ أغسطس ١٧٨٥ PTJ 8:401

(١٥) من كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٥ مايو ١٧٨٥ PTJ 8:138

من توماس جيفرسون إلى فيليب مازاى فى ١٢ مايو ١٧٨٥ PTJ 8:152

من توماس جيفرسون إلى دى بايو فى ٢١ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:309

(١٦) من جون بوندفيلد إلى توماس جيفرسون بعد ١٤ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:294

من توماس جيفرسون إلى جون آدامز فى ٢٨ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:317

من توماس جيفرسون إلى جون جاى فى ١٤ أغسطس ١٧٨٥ PTJ 8:376

من توماس جيفرسون إلى ناثانييل ترايس ١٧ أغسطس ١٧٨٥ PTJ 8:399

(١٧) من جون بول جونز إلى توماس جيفرسون فى ٣١ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:334

(١٨) من جون آدامز إلى جون جاى فى ١٦ فبراير ١٧٨٦

The Diplomatic Correspondence of the United States of America from the Treaty of Peace to the Adoption of the Present Treaty (7 Vols., Washington, D.C: Francis Preston Blair, 1833-1834; Diplomatic.

(يشار إليها فيما بعد بـ Correspondence) ٤:٤٨٦-٤٨٧

من توماس جيفرسون إلى دافيد هاويل فى ٢٧ يناير ١٧٨٦ PTJ 9:233

من توماس جيفرسون إلى ناثانييل غرين فى ١٢ يناير ١٧٨٦ PTJ 9:168

من جون جاى إلى توماس جيفرسون فى ١٩ يناير ١٧٨٦ PTJ 9:186

من لويس غوييوم أوتو إلى توماس جيفرسون فى ١٥ يناير ١٧٨٦ PTJ 9:176

من إيزرا ستايلز إلى توماس جيفرسون فى ١٤ سبتمبر١٧٨٦ PTJ 10:386

(١٩) من جون آدامز إلى توماس جيفرسون فى ٣ يوليو ١٧٨٦ Cappon, 138-139

فيما يتعلق بالجدل حول البحرية انظر

Marshall Smelser, The Cngress Founds the Navy, 1787 - 17998 (Notre Dame Indiana, 1959);

Craig Lee Syminds , Navalists and Anti Navalists : The Naval Policy Debate in the United States , 1784 - 1827 (Newark,1980)

Joseph George Henrich, "The Triumph of Ideology: The Jeffersonians and the Navy"

رسالة الدكتوراه من Duke University فى ١٩٧٠-١٩٧١

Julia H. Macleod, "Jefferson and the Navy: A Defence" Huntington Library Quarterly 8 (February 1945).

(٢٠) من ريتشارد أوبرايان إلى توماس جيفرسون فى ٢٤ أغسطس ١٧٨٥ PTJ 8:440 441

من توماس جيفرسون إلى ريتشارد أوبرايان فى ٢٩ سبتمبر ١٧٨٥ PTJ 8:567-568

من كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٢ سبتمبر ١٧٨٥ PTJ 8:465

(٢١) من توماس جيفرسون إلى مونرو فى ١٠ مايو ١٧٨٦ PTJ9:500

من بيرنيل كارنيس إلى توماس جيفرسون، نانت فى ١٠ يونيو ١٧٨٦ PTJ9:628

من توماس جيفرسون إلى توماس بلينرانتس فى ٨ مايو ١٧٨٦ PTJ9:472-473

(٢٢) من لافاييت إلى هنرى نوكس فى ٦ مارس ١٧٨٦ PTJ9:319n

من لافاييت إلى توماس جيفرسون فى ٦ مارس ١٧٨٦ PTJ9:318-319

(٢٣) من جون آدامز إلى جون جاى فى ٢٠ فبراير ١٧٨٦ Diplomatic Correspondence 4:494

(٢٤) من جون آدامز إلى توماس جيفرسون فى ٢١ فبراير ١٧٨٦ CAPPON 123

(٢٥) من جورج واشنطن إلى هنرى لى فى ٥ ابريل ١٧٨٦

The writings of George Washington, John C. Fitzpatrick, ed.(39 vols., Washington D.C. ,1931-1944) 28:401-403

(٢٦) Irwin, United states and Barbary Powers, 32-34-

من توماس جيفرسون إلى باتريك هنرى فى١٣ أغسطس ١٧٨٦ TJ10:206:207

لافاييت منقولا عنه فى إيروين، ٣٤

(٢٧) من جون آدامز إلى توماس جيفرسون فى ٢٩ يونيو ١٧٨٦ PTJ10:79 والمذكرة من ديل بويو إلى توماس جيفرسون فى ٤ يوليو ١٧٨٦ PTJ10:88 والمذكرة.

(٢٨) من واشنطن إلى لافاييت فى ١٨ يونيو ١٧٨٨ Fitzpatrick, Writings of Washington, 29:523-524

Gilbert Chinard, Volney et L'Amerique d'apres de Documents Inedites et sa Correspondence avec Jefferson (Baltimore and Paris 1923),14.

(٢٩) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ١٨ يوليو ١٧٨٦ PTJ 10:150

من توماس جيفرسون إلى مونرو فى ١١ أغسطس ١٧٨٦ PTJ 10:224-225

كتب جيفرسون فى ديسمبر إلى سفيرى روسيا والبرتغال يقترح إنشاء تحالف ولا أثر لهذه الرسائل أو للردود عليها PTJ 10:559

(٣٠) من لافاييت إلى توماس جيفرسون ٢٣ أكتوبر ١٧٨٦ PTJ 10:486

كتب لافاييت إلى واشنطن وإلى ماكهنرى فى ٢٦ أكتوبر ١٧٨٦ وإلى جاى فى ٢٨ أكتوبر ١٧٨٦ PTJ 10:562-563 n.

(٣١) جاريد سباركس MS32 آثار ونسخ متنوعة من مخطوطات فحصت فى لندن وباريس ١٨٢٨-١٨٢٩
Vol 1, 105-106, Sparks Papers, Houghton L,brary, Harvard University.

(٣٢) من روبرت مونتغمرى إلى توماس جيفرسون، الليكانتى فى ٢٥ أغسطس ١٧٨٧ PTJ 12:57-58

(٣٣) انظر توماس جيفرسون إلى ريتشارد هنرى لى فى ١٢يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:287

من توماس جيفرسون إلى إيزرا ستايلز فى ١٧ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:300

(٣٤) Chinard , Volney et l'Ameriue, 14.

من توماس جيفرسون إلى جون جاى فى ٢٢ سبتمبر١٧٨٧ PTJ 12:166-167

من جون بول جونز إلى توماس جيفرسون، سان بطرسبورغ فى ٣١ يناير ١٧٨٩
Diplomatic Correspondence (1834), 7:395

انظر أيضًا حون بول جونز إلى الوزير فى سان بطرسبورغ، مذكرة سرية فى ٦يونيو ١٧٨٩، المرجع السابق ٣٩٥-٣٩٦

(٣٥) من توماس جيفرسون إلى إدوارد كارنغتون فى ٢١ ديسمبر ١٧٨٧ PTJ 12:446-447

(٣٦) من دافيد همفريز إلى توماس جيفرسون، هارتفورد فى ٥ يونيو ١٧٨٦ PTJ 9:609

من و. س. سميث إلى توماس جيفرسون، بوردو فى ١٩ مايو ١٧٨٧ PTJ 11:366

(٣٧) من توماس جيفرسون إلى جون جاى فى نوفمبر ١٧٨٧ PTJ 12:313

(٣٨) تقرير وزير الخارجية حول السجناء الأمريكيين فى الجزائر فى ٢٨ ديسمبر ١٧٩٠ Naval Documents Related to the United States Wars with the Barbary Powers (7 vols., Washington D.C.,1939-1946) :18-22

(يشار إليها فيما بعد بـBW).

Report of secretary of State on Mediterranean Trade, 28 Dec. 1790, BWI:22-26

(٣٩) من واشنطن إلى مجلس الشيوخ فى ٢٢ فبراير ١٧٩١ BW1 :26-27

قرار مجلس الشيوخ بدفع فدية السجناء فى ٢٢ فبراير ١٧٩١ BW1:34-35

القانون المتعلق ببحرية الولايات المتحدة فى ٣ مارس ١٧٩١ BW1 :27

من وزير الخارجية إلى توماس باركلاى فى١٣ مايو ١٧٩١ BW1:30-32

قرار اللجنة الخاصة بالتجارة فى المتوسط فى ٦ يناير ١٧٩١ BW1:26

(٤٠) من وزير الخارجية إلى جون بول جونز فى أول يونيو ١٧٩٢ BW1:36-41

(٤١) حول همفريز انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ١٣١-١٣٣ و ١٤٣-١٤٤

(٤٢) من جورج واشنطن إلى مجلس الشيوخ والنواب فى ١٦ ديسمبر ١٧٩٣
Fritzpatrick, Writings of Washington, 33:185-186.

(٤٣) ٢٧ ديسمبر ١٧٩٣، تاريخ الكونغرس، الكونغرس الثالث، الجلسة الأولى ١٤٩-١٥٠

(٤٥) ليمان، ١٠ فبراير١٧٩٤، تاريخ الكونغرس، الكونغرس الثالث، الجلسة الأولى، ٤٤٥ كلارك فى ٦ فبراير ١٧٩، ٤٣٣-٤٣٤.

(٤٦) "المعاهدة الجزايرلية" من جريدة تشارلستون الرسمية، أعيد نشرها فى "ذا مير كيرى" فى بوسطن فى ٦ سبتمبر ١٧٩٦، فى صحيفة بوسطن "أدرى" الاتحادية فى ٨ سبتمبر ١٧٩٦، وفى "إمبارتشيال هيرالد" فى نيوبريبورت (ماساشوسيتس) فى ١٠ سبتمبر١٧٩٦.

(٤٧) "دوميستيك انتييلجنس" بفيلادلفيا فى ٢٢ يونيو ١٧٩٦، وفى "أوراكـل أوف ذا داى" فى بورتسـموث (نيو هامبشير) فى ٧ يوليو ١٧٩٦.

(٤٨) توماس جيفرسون، الخطاب الافتتاحى الأول، ٤ مارس ١٨٠١

James D. Richardson , ed., A compilation of the Messages and Papers of the Presidents (11 vols. , Washington , D.C.,1908) 1:322-323.

(من الآن يشـار إليـه بـ Richardson جـيـفـرسـون، الرسـالة السنوية الأولى، ٨ ديسـمـبـر ١٨٠١ .(Richardson 1:326-327

(٤٩) برأى كولا فولايان أن قرار الحرب لم يستهدف وقف القرصنة الطرابلسية؛ لقد أسرت طرابلس الغرب سـفينة أمريكيـة واحدة فى الفترة من ١٧٩٧ إلى ١٨٠١. ويرد فولايان الحرب إلى امتناع أمريكا عن الاعتراف بسيادة طرابلس، واعتمـاد أمريكا المستمر على داى الجزائر لقمع باشا طرابلس. وتفسير فولايان أكثر إقناعًا، بكثير، من التفسيرات التى طرحها معظمالمؤرخين الأمريكيين. فالولايات المتحدة لم تدخل الحرب لوقف القرصنة أو لوضع حد لمطالب من مجحفة من باشا طماع. ويقف سيد زين العابدين، الدارس الجدير بالثقة للعلاقات بين الولايات المتحدة وشمال إفريقيا، على أرض أقل صلابة عندما يدفع بأن قرار جيفرسون بإرسال الأسطول لم يكن أمراً استدعاه الموقف، بل كان تحركا إستراتيجيا لإسكات المعارضين من أهل وطنه للبحرية ولتخليق أزمة خارجية. وقد تجاهل زين العابدين التزام جيفرسون، منذ وقت طويل، بمبدأ القوة العسكرية وتهديدات يوسف باشا بعمليات عسكرية إن لم تتعامل الولايات المتحدة معه باعتباره سلطة سيادية على قدم المساواة مع داى الجزائر. وتحليل زين العابدين أقدر على تفسير خليج تونكين منه على تفسير ما جرى فى سيدره.

وقد اتخذ قرارن بالحرب، بالفعل، أحدهما فى طرابلس الغرب والآخر فى واشنطن. ولم يكن أحد الطرفين مدركًا لما يفعله الآخر. كان جيفرسون ينتوى الحرب، ووصل إلى منصبه ليقرأ تقارير كاثكارت عن تدهور العلاقات مع طرابلس الغرب، وهى تقرير يعود بعضها إلى بواكير١٨١. ودون أن يعلم الباشا يوسف أن جيفرسون قرر إرسال الأسطول، فقد قرر تحطيم صـارية العلم الأمريكى فى مايو. وبعد ذلك، بسبعة أيام، أقلع الأسطول الأمريكى، بأوامر للتحرك بطول السـاحل ومنع الأعمـال العدوانية. كانت هذه هى الحرب التى أرادها جيفرسون منذ ١٧٨٥.

See Kola Folayan, Tripoli During Reign of Yussuf Pasha Qaramanli (I1e-Ife,) Nigeria, 1979), 31-35; Sayyed Zainul Abedin, "In Defence of Freedom: American's First Foreign War" xxxvi).

(٥٠) من غالاتين إلى جيفرسون، هوامش على رسائل الرئيس، نوفمبر ١٨٠١ The Writings of Albert Gallatin, Hery Adams, ed., (3vols., New York ,1960 , (1879)), 1:63.

رسالة جيفرسون السنوية الأولى، ٨ ديسمبر ١٨٠١ Richardson 1:326-327

(٥١) ١٥ ديسمبر١٨٠١، موجز مناقشات الكونغرس من ١٧٨٩ إلى ١٨٥٦، المحرر توماس هارت بنتون (نيويورك ١٨٦٣) يشار إليه من الآن بـ Benton, Debates in Congress نيويورك، إيفننغ بوست، نوفمبر ١٨٠٤.

(٥٢) جيفرسون، الرسالة السنوية الثانية، ١٥ ديسمبر ١٨٠٢ Richardson 1:343

(٥٣) ناشيونال انتلجنسر، ٧ ديسمبر ١٨٠٣

من جيفرسون إلى مجلس النواب والشيوخ في ٥ ديسمبر ١٨٠٣ Richardson 1-365

(٥٤) نقل عنها هنرى آدامز فى كتابه

History of the United States During the Adminstrations of Thomas Jefferson and James Madison (4vols., New Yorl,1917), 2:431

(٥٥) إيفننغ بوست، نيويورك، ١٣ أبريل ١٨٠٤.

(٥٦) من غالاتين إلى جيفرسون، مسجل بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٠١ Writings of Gallatin 1:7

(٥٧) تشارلستو كوريير،٧ ابريل١٨٠٤، استشهد بها فى

Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816" 250, n.24.

نيويورك، إيفننغ بوست، ٢٨ مارس ١٨٠٤

وليم بلامر، ٢٦ مارس ١٨٠٤ مذكرة بالمداولات فى مجلس الشيوخ الأمريكى ١٨٠٣-١٨٠٧، المحرر إيفرن سومر نيل براون (نيويورك ١٩٢٣) ١٨٠

(٥٨) إيفننغ بوست، نيويورك، ٢٩ سبتمبر و ٢٦ أكتوبر١٨٠٤. انظر أورورا، ٢٩ سبتمبر ١٨٠٤.

(٥٩) تحية بوسطن إلى رفوس كينغ فى ١٧ أكتوبر ١٨٠٤، إيفننغ بوست، نيويورك، ٢٦ أكتوبر ١٨٠٤.

(٦٠) إيفننغ بوست، نيويورك، ١٢ أبريل ١٨٠٤، نقلاً عن فريدريك تاون هيرالد.

إيفننغ بوست، نيويورك، ٢٩ نوفمبر ١٨٠٤

بلامر، ٣١ ديسمبر ١٨٠٤، مذكرة ٢٣٤-٢٣٥

(٦١) وليم بنتلى، ١٦ مايو ١٨٠٤، Diary 3:86

(٦٢) وجهة نظر كولا فولاين التى تقول إن انتصار الأمريكيين بهذا الحسم، أو حتى بهذا الوضوح اللذين يزعمهما المؤرخون الأمريكيون، يستند إلى الاتهامات الغاضبة التى ووجهت بها المعاهدة فى الصحافة وفى الكونغرس الأمريكى. فقد اتهم الاتحاديون جيفرسون بأنه يروج لأحمد قرامانلى وبالسماح لتوبياس لير بالتوصل إلى معاهدة رديئة. لكن الاتحاديين اضطروا إلى الصمت لأن لير الذى تفاوض على المعاهدة كان من المساعدين المقربين إلى جورج واشنطن، كما أن ضباط البحرية اعترضوا، كلهم تقريباً، على مشروع أحمد قرامانلى. وتوضح ملاحظات فولاين، أيضاً، أن الجيش والبحرية فى طرابلس الغرب نجحا فى التصدى للقوات الأمريكية، بغض النظر عن شجاعة ديكاتور ورفاقه. وبإيجاز، فمعاهدة السلام كانت أفضل ما يكون للأمريكيين الحصول عليه، ولم تكن انتصاراً حاسماً.

(٦٣) إيفننغ بوست، نيويورك، فى عددى ١٥ و ٢٢ نوفمبر ١٨٠٥.

(٦٤) أورورا، فيلادلفيا، فى عددى ٤ و ١٩ أكتوبر ١٨٠٥.

(٦٥) أورورا، فيلادلفيا ١٧ أكتوبر ١٨٠٥، من إنكوايرر، ريتشموند.

(٦٦) بلامر، فى ٢ أبريل ١٨٠٦، مذكرة، ٤٧٠. للإطلاع على تقرير ذكى وكاشف عن جيفرسون وطرابلس الغرب انظر

David A.Carson, "Jefferson, Congress, and Leadership in the Tripolitan War," Virginia Magazine of History and Biography 94 (1986).

(٦٧) إيفننغ بوست، نيويورك، أعداد ٤ و ٥ و ٩ و ١١ مارس و٤ أبريل ١٨٠٥، كرونيكل، نيويورك، ٥ مارس ١٨٠٥.

See also George C. Odell, Annals of the New York Stage (New York, 1927), 2:229-230.

(٦٨) أورورا، فيلادلفيا، ١٩ أكتوبر ١٨٠٥.

هوامش الفصل الثانى

(١) Royall Tyler, The Algerine Captive (New Haven, 1970 (orig. pub.1797), 216.
حول المفاهيم الغربية عن الإسلام انظر، بشكل خاص
Norman Daniel, Islam and the west: The making of an Image (Edinburgh, 1960) and Islam Europe and Empire (Edinburgh, 1966); Maxime Rodinson, Europe and the Mystique of Islam, Roger Veinus, trans. (Seattle and London,1987).

(٢) The Life of Mahomet: or, the History of that Imposture which was Begun, Carried on, and Finally by Him in Arabia; and Which has Subjugated a Larger Portion of the Globe, than the Religion of Jesus has Yet Set at Liberty. To Which is Added, an Account of Egypt. (Worcester, Mass., 1802), 85, 83-84.

(٣) "Account of Egypt," Life of Mahomet, 153-154.

(٤) Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the life of Mahomet (Philadelphia, 1796), introduction, 3, 117. On Prideaux (1648-1724), see Rev. Alexander Gordon in Dictionary of National Biography, 46: 352-354. On Moyle (1672-1721), see William Prideaux Courtney, DNB, 13: 1143-1145.

(٥) Prideaux, Imposture, 13, 17.

(٦) Prideaux, Imposture, 20-21.

(٧) John Adams, "Discourses on Davila" (1790), in The Works of John Adams, Charles Francis Adams, ed. (Boston, 1851), 6:275; John Quincy Adams quoted in Merrill D. Peterson, Thomas Jefferson and the New Nation: A Biography (London, Oxford, and New York, 1970), 440.

(٨) Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the life of Mahomet (Fairhaven, Vermont, 1798).
باستثناء التصوير، الذى تسقطه طبعة فيرهافن، فإن النصين فى فيلادلفيا وفيرهافن متماثلان.

(٩) ٢٢ فبراير ١٧٩٩، بنتون، مناقشات فى الكونغرس، ٢:٣٦٧ حول ليون وقانون العصيان، انظر
James Morton Smith, Freedom's Fetters: The Alien and Sedition Laws and American Civil Liberties. (Ithaca, N.Y., 1956), ch. 11, 221-246.

(١٠) Imposture, 76-77. Prideaux,

(١١) نبتون، مناقشات فى الكونغرس، ٢:٣٦٧ Prideaux, Imposture, 17.

(١٢) ريببليكان ماغازين، فيرهافن، فيرمونت، ٤ أعداد (١٧٩٨) الغلاف.

(١٣) فرانسوا مارى أرو دو فولتير، التعصب أو ماهوميت النبى (باريس١٧٤٢) حورها جيمس ميللر ووضع لها العنوان "ماهوميت"، المزيف (لندن ١٧٤٤) وفى هذه المناقشة التى تقوم على ما جاء فى معالجة ميللر، حافظت على هجاء الاسم "ماهوميت" الذى كان يكتب به اسم محمد (ﷺ - المترجم) فى أوروبا، فى القرن الثامن عشر، لأميز بين هذا المخلوق الخرافى (ماهوميت) وبين محمد التاريخى. ويرى دافيد رينولدرز أن فولتير استخدم الصور المتعلقة بالمسلمين ليطعن التشدد المسيحى. ورغم أن رينولدز لا يشير إلى ماهوميت فقد كان بوسعه أن يفعل ذلك. وفى مسرحية فولتير، فإن القادة الوثنيين فى مكة كان يمكن للمؤلف أن يجعلهم الإنسانيين العلمانيين ويجعل "ماهوميت" المتعصب الدينى. لكن إذا كانت لدى فولتير نوايا دينية خالصة، فمن الأرجح أن جمهوره استجاب للدلالات الأوسع للقصة، سياسية كانت أو اجتماعية أو دينية.

David S. Reynolds, Faith in Fiction: The Emergency of Religious Literature in) America (Cambridge, Mass., and London, 1981), 13-14 and passim).

(١٤) ماهوميت، الفصل الخامس، ٧٥-٧٦. كتب الفصل الختامى كاتب الرسائل اللاأخلاقى جون هودلى.

(١٥) George C. Odell, Annals of the New York Stage (New York, 1927), 1:215.

حول موضوع قتل الأب فى الأدب الأمريكى، انظر

Jay Fliegelman, Prodiglas and Pilgrims: The American Revolution Against Patriarchal Authority, 1750-1800 (Cambridge and New York, 1982).

(١٦) (John Trenchard and Thomas Gordon), Cato's Letters (4 vols., London, 1723), 2: 194-195; Cotton Mather, The Christian Philosopher (1721) in Selections from Cotton Mather, Kenneth B. Murdock, ed., (New York, 1926), 301-302; John Foss, A Journal of the Captivity and Suffering of John Foss, Several Years a Prisoner at Algiers: Together with some account of the Treatment of Christian Slaves when Sick:-----and Observations on the Manners and Customs of the Algerines (Newburyport, Mass., 1798), 75-76.

(١٧) Abbe Constantin Francois de Chasseboeuf Volney, Travels through Egypt and Syria in the years 1783, 1784, & 1785 (2 vols., New York, 1798), 1: 7; Volney, "Manners and Character of the Inhabitants of Syria," Massachusetts Magazine, vol.2 (May 1790), 367. Other extracts from Volney appeared in the ladies magazine (London), 1787, and in America in the weekly magazine, 1799, and the Philadelphia Repertory, 1811.

(١٨) Volney, "Manners and character," 266-267.

(١٩) أورورا، فيلادلفيا، ١٧ ديسمبر ١٨٠٦. وحول فولتن انظر

George Dangerfield, Chancellor Robert R. Livingston of New York 1746-1813 (New York, 1960), 403-407.

(٢٠) Volney, The Ruins, or a survey of the Revolutions of Empires (London, 1792; first American edition New York, 1796; new translation, Philadelphia and Richmond, 1799; Barlow translation, Paris 1802). See also Gilbert chinard, Volney et l'Amerique.

أنا مدين للسيد روبرت رابيل على ما ساعدني على فهمه فيما يخص فولني وخرائب بعلبك.

(٢١) Jean Charles Leonard Simonde de Sismondi, "Arabian Literature," John S. Smith, trans., American Register (1817), 235-249.

(٢٢) Edward Stanley, Observations on the City of Tunis, and the Adjacent Country: With a view of Cape Carthage, Tunis Bay, and the Goletta, Taken on the spot (London, 1786), 36; (Mathew Carey?), Short Account of Algiers, and of its several wars, etc. (Philadelphia, 1794), 3; See Foss, 2d ed., p.45.

طبع من كتاب The Short Account طبعتان في ١٧٩٤ ثم أعيد الطبع في ١٨٠٥ من قبل إيفارت دويكنك في نيويورك، وقد ضمه مجلد واحد إلى تاريخ أسـر ومعاناة ماريا مارتن (بوسطن ١٨٠٧). ومع إعادة طبع كتاب ماريا مارتن، لم يعد الفارق واضحًا بين سرديتها وبين التاريخ، حتى إنه في ١٨١٥ طبع كتاب "تقرير تاريخي عن مملكة الجزائر، تأليف ماريا مارتن" وكان الناشر روتلند، فيرمونت. وهذا الـ "تقرير تاريخي" هو مجرد طبعة أخرى من The Short Account (التاريخ الموجز).

(فيما يتعلق بماريا مارتن، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص٧٩-٨٣).

Henry Adams, History of the United States during the Administration of Thomas Jefferson, 1: 13-14.

(٢٣) (Penelope Aubin), The Noble Slaves. Being an Entertaining History of Surprizino Adventures and Remarkable Deliverances from Algerine Slavery of several Spanish Noblemen and Ladies of Quality (Boston, 1797), preface.

وقد نشر إيفارت دويكنك طبعتين في نيويورك، في ١٨٠٦ و ١٨١٤. انظر أيضًا Aubins Strange Adventuers of the count de uinevil and his family... whilst they Resided at Constantinople (2d ed.,London, 1728).

(٢٤) Cato, 2: 194 - 195, 2 : 47 - 48, 1 : 192.

(٢٥) John Foss, A Journal of the Captivity and Suffereings of John Foss,Several Years a Prisoner at Algiers (2d ed., Newburyport, Mass.,1798), 66. Compare Cato 1:193.

(٢٦) William Eaton, Letterbook, 13 Feb. 1799, 28-29, Eaton Papers, HEH. Eaton to Pickering, 24 June 1800, (Charles Prentiss). The Life of the late General William Eaton (Brookfield, Mass., 1813). 140, Eaton to Pickering, 15 June 1799.

Prentiss, Life, 95-96, Eaton Journal, 5 Aug. 1799. Prentiss, Life 123, Eaton to Eliza Danielson Eaton, 6 Apr.1799, Prentiss, Life, 153.

(٢٧) Mordecai Manuel Noah, Travels in England, France, Spain, and the Barbary States in the Year 1813-14 and 15 (New York,1819), 133-134.

حول رؤية التنوير الأوروبى للساحل البربرى، انظر

Ann Thomson, Barbary and Enlightenment, European Attitudes towards the Maghreb in the 18th Century (Leiden and New York, 1987).

(٢٨) (Carey), Short Account, 12-13, "A Concise History of the Algerines," Massachusetts Magazine, Vol. 1, 1-4 (Jan-Apr. 1789), 198.

نشر، على الأقل، الجزء الأول من هذا التاريخ الموجز Concise History فى إمبارتشيال هيرالد، نيوبريبورت، ماساشوسيتس،٣ يناير١٧٩٤. وربما استعار رويول تيلر هذا الوصف، انظر "أسير الجزايرلية" ١٧١.

(٢٩) Cato 2:260 -261 نقلت آن طومسون فى "التنوير والبربر" إشارة غيبون إلى مؤلف مونتسكيو" حول عظمة الرومان، ٥٥، ريبكا بليكان ماغازين، المجلد ١ (أكتوبر ١٧٩٨)، ٣٧.

The papers of james Madison, v0l,17:31 march 1797-3 march 1801, david B.mattern et al., eds. (char-lottesville, va., and London, 1991), 165, n. 7.

(٣٠) Isaac Bickerstaffe, "The Sultan, or a Peep into the Seraglio" (London,1787), Watkins, "An Interesting Description of Constantinople" New York Magazine, or Literary Repository (July 1795), 6;418-419, Lady Mary Wortley Montagu to Elizabeth Hervey, Countess of Bristol, 1 Apr. 1717, The Letters and Works of Lady Mary Montagu, Lord Wharncliffe, ed. (2 vols., Philadelphia, 1837), 1; 254.

(٣١) Dallard, South Carolina Convention, 22 May 1788, in The Debate on the Constitution, Bernard Bailyn, ed. (2 vols., New York, 1993), 2: 593-594, Webster, "A Citizen of America," Debate on the Constitution, 1 :150-151, Patrick Henry, Virginia Convention, 16 June 1788, Debate on the Constitution, 2:696.

(٣٢) Alexander Hamilton, Federalist 35, in The Federalist, Jacob E. Cooke, ed. (Middletown, Conn., 1961) 188.

هوامش الفصل الثالث

(١) [Penelope Aubin], The Noble Slaves (1797), preface.

(٢) Claypoole's American Daily Advertiser, Philadelphia, 20 Mar. 1798.
نقلاً عما كان "يعترف بأنه مقتطف من بغداد غازيت" ١٧ ديسمبر ١٧٩٦

(٣) Susanna Rowson, Slaves in Algiers, or A Struggle for Freedom (Philadelphia, 1794), 60.

(٤) Major George Henry Rooke, "Description of the City of Mocha," The Boston Magazine (August 1786), 3: 333; Saint-Sauveur quoted in Lucette 1790-1830, Kenneth J. Perkins, trans. (New York and London, 1977), xx.

(٥) John Foss, Journal of the Captivity and Sufferings, 2d ed., (1798), 65; Volney, "Manners and Character of the Syrians," Massachusetts Magazine (May 1970), 265-266.

(٦) Charles Secondat, Baron de Montesquieu, The Spirit of the Laws, Thomas Nugent, trans. (New York, 1949), 255-257.

(٧) Volney, "Manners and Character of the Syrians," 265-266.

(٨) Volney, "Manners and Character of the Syrians," 265-266; Montesquieu, Spirit of the Laws, 254; [O'Brien] to Eaton, 10 [Jan, 1800], EA 434; Eaton to Secretary of State, 15 June 1799, Prentiss, Life, 97-98.

(٩) من ليدى مارى وورتلى مونتاغيو إلى ليدى إليزابيث ريتش، قرية بلغراد، فى ١٧ يونيو (١٧١٧).

(١٠) The Letters and Works of Lady Mary Montagu, Lord Wharncliffe, ed. (2 vols., Philadelphia, 1837), 1: 291.
انظر أيضًا Embassy to Constantinople: The Travels of Lady Mary Wortley Montagu, Christopher Pick, ed., (London, 1988)
فالكتاب يحتوى على حواش نافعة ومقدمة فى شكل مقالة ممتازة عن ليدى مونتاغيو بقلم ديرفلاميرفى.

(١١) Lady Mary Wortley Montagu to Frances Erskine, Countess of Mar, 1 Apr. 1717, Letters and Works, 1: 258-259; Lady Mary Wortley Montagu to Alexander Pope, 12 Feb. 1717, Letters and Works, 1: 244.

- Lady Mary Wortley Montagu to Lady Elizabeth Rich, 1 Apr. 1717, Letters and Works, 1: 247-248.

كتب القس جيمس دالاوى، فى مقدمته التى سطرها فى القرن الثامن عشر، أنه ليس واردًا أن تكون ليدى مارى قد دعيت إلى الحمام فى ١٧١٧، لأن زوجة سفير بريطانى لاحق لدى إسطنبول، رفض السماح لها بالدخول فى ١٧٩٩ ولأن "عادات الشرق معروف عنها أنها لا تتغير، وتحترمها أمم الشرق أكثر مما نحترم قوانيننا" وهذه فكرة من أخص ما يتميز به الغربيون الذين يعتبرون أن الشعوب الأخرى تتقيد بالتقاليد، وأن ما ينطبق على زوجة سفير بريطانى ما ينطبق على نظيرتها، بعد ثمانين سنة. .(Letters and Works, 1:71)

(١٢) Lady Mary Wortley Montagu, "Specimen of Turkish Manners," The New York Magazine (March 1795), 6: 148-150.

هذا مقتطف من رسالة من ليدى مارى وورتلى مونتاغيو إلى إليزابيث هيرفى، كونتيسة بريستول، فى مايو ١٧١٨، فى "رسائل وأعمال" و "سفارة إلى القسطنطينية"

Letters and Works, 1: 308-314, and Embassy to Constantinople, 188-194.

- susanna Rowson, Slaves in Algiers, or, A Struggle for Freedom (Philadelphia, 1794), 13.

- The Portfolio, Series 2, 21 Mar. 1807, 3: 179- 181. In [Washington Irving, James Kirke Paulding, et al.], Salmagundi, or the Whim-Whams and Opinions of Launcelot Langstaff (New York, 1857), 30-33.

- Eaton Journal, 5 Aug. 1799, Prentiss, Life, 123.

- Montesquieu, Spirit of the Laws, 255

أنشأ بيكرستاف "السلطان" على العملين التاليين، أو على أحدهما: "سليمان الثانى" من تأليف جى. إف. مارمونتل، أو "سليمان الثانى" من تأليف شارل سيمون فافار لعام ١٧١٦. وقد شهدت نيويورك فى ٣ مايو ١٧٩٤ العرض الأول لمسرحية "الأمريكى الأسير" التى اقتبسها جون هودكنسون من بيكرستاف، ولم يأت عام ١٨٤٠ إلا وكانت قد أعيد إنتاجها عشرين مرة، على الأقل. وربما كان هودكنسون وبيكرستاف هما من قدم أنجح معالجة لمسرحية فافار، لكن المعالجة الأبقى كانت تلك التى قدمها وولفغانغ أماديوس موتزارت فى عام ١٧٨٢ فى الأوبرا المعروفة باسم Die enteuhrung aus dem serial أو "اختطاف من السراى". عن بيكرستاف، انظر:

Peter A.Tasch, The Dramatic Cobbler The Life and Works of Isaac Bickerstaff (Lewisburg, Pa., 1971).

(١٧) Bickerstaff, The Sultan, 575, 574.

(١٨) Bickerstaff, The Sultan, 579.

عن الزواج فى أمريكا، فى ذلك الوقت، انظر:

Jan Lewis, "The Republican Wife: Virtue and Seduction in the Early Republic," William and Mary Quarterly, 3rd series (1987), and Linda K. Kerber, Women of the Republic: Intellect and Ideology in Revolutionary America (Chapel Hill, N.C., 1980).

Volney, The Ruins (Albany, N.Y., 1822), 278, note M. Note from p. 63.
"The Story of Solyman and Almena," Rural Magazine, or Vermont Repository (September 1796), 2: 435-442.
Lady Montagu to Alexander Pope, Belgrade, 12 Feb. 1717, Embassy to Constantinople, 83: The Portable Arabian Nights, Joseph Campbell, ed., John Payne, trans. (New York, 1952).

(٢٢) Rowson,Slaves in Algiers,65 - 68,71.

(٢٣) Rowson,Slaves in Algiers,5.

(٢٤) Rowson,Slaves in Algiers,9-10.

(٢٥) Rowson,Slaves in Algiers,71,72.

(٢٦) Rowson,Slaves in Algiers,73.

(٢٧) "Concise History of the Algerines "Massachusetts. Magazine,Vol.1 (1789), 23-24, 110-112, 170-171, 196-198.

وللإطلاع على دراسة مكثفة للتاريخ الجزائرى فى هذه الفترة، تضعه فى سياق السياسات الأوروبية والتركية المتوسطية، انظر جميل أبو النصر.
A History of the Maghrib (Cambridge and New York,1971) 159-177.

والرسائل المنشورة فى هذا الكتاب قد تكون حقيقية أو مخترعة. وقد ظهرت هذه الرسائل فى كتاب لوجيير دوتاسى الذى صدر فى ١٧٢٧ بعنوان تاريخ مملكة الجزائر Historie du Royaume d,Alge الذى ترجم إلى الإنكليـزية فى ١٧٥٠ بعنوان Compleat History of the Piratical States of Barbary.

وقد كتب لوجيير دوتاسى أن قلة من الجزائريين هم الذين كانوا يعرفون قصة المقاومة العفيفة التى أبدتها الملكة زافيرا. وقد قال الإنكليزى جوزيف مورغان الذى كتب هو أيضًا فى ١٧١٣ Complete History of Algier إن تاسى "محق، دون شك، فى قوله إن قليلين للغاية" عرفوا بقصة زافيرا وبرباروسا، لكن السبب لم يكن جهلهم بالتاريخ، بل كان عدم معرفتهم بما اخترعه هذا المؤرخ الفرنسى. وأصر مورغان على أن دوتاسى قد اخترع هذه القصة. أما المؤلف المسرحى جون براون فكان أكثر اهتمامًا بالتأثير الدرامى منه بالدقة التاريخية، ومن المؤكد أن رغبة برباروسا فى الملكة الجميلة زافيرا يمكن أن تكون محورًا أكثر إثارة لعمل مسرحى من رغبته فى السيطرة البحرية. وقد اقتبس براون قصته من دوتاسى، ولأولئك الذين أثارت المسرحية شهيتهم التاريخية كتب براون رسالة مقتبسة، بدورها، من تاسى. ويكاد يستحيل علينا أن نقرر مدى الصدقية التاريخية لهذه الحادثة. وعلى سبيل المثال فإن فرديناند بروديل، أشمل دارس معاصر للمتوسط يوصى أولئك المهتمين بحياة برباروسا ترجمة يقول عنها بروديل إنها "أضيف إليها الكثير من التوابل والخيال لكنها غالبًا ما تراعى الدقة" كترجمة تهم أولئك الذين يحبون دراسة حياة برباروسا.
(Laugier de Tassy, Historie du Royaume d'Alger [Paris, 1727]; Joseph Morgan, A Complete History of Algiers. To which is Prefixed, an Epitome of the Generai

History of Barbary, from the Earliest times: Interspersed with many Curious Passages and Remarks not Touched on by any writer Whatever [London, 1731], 239; A Compleat history of the Piratical States of Barbary [London, 1750]; John Brown, An Account of Barbarossa, the Usurper of Algiers, Being the story on which the new Tragedy is founded [London, 1755]; Donald D. Eddy, A Bibliography of John Brown [New York, 1971]; Ferdinand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Sian Reynolds, trans. [London, 1973], 905n).

(٢٨) "Concise History of the Algerines," Massachusetts Magazine (1789), 24, 110-111.

(٢٩) [John Brown], Barbarossa, A Tragedy (Boston, 1794), 12.

(٣٠) (Brown), Barbarossa, 46-47.

(٣١) Maria Martin, History of the Captivity and Sufferings of Mrs. Maria Martin, who was Six Years a Slave in Algiers (Boston, 1807), 44.

لا توجد نسخة من الطبعة الأمريكية الأولى، المذكورة لدى إيفانز باعتبار أنها نشرت فى بوسطن فى ١٨٠٤. وتبدو طبعة فى ١٨٠٤ أمرًا غير معقول، لأن ماريا مارتن تزعم أن سفينتها غرقت فى ١٨٠٠، وهكذا تكون الطبعة قبل اكتمال سنوات الرق الست فى الجزائر، التى يوحى بها العنوان. وقد أعيد طبع هذا العمل فى بوسطن فى ١٨٠٦ و ١٨٠٧ و ١٨١٠، وفى فيلادلفيا فى ١٨٠٩ و ١٨١١، وفى ترنتون، نيوجيرسى فى ١٨١١ وفى نيوهافن، كونيكتيكت فى ١٨١٢، وفى نيويورك فى ١٨١٢ و ١٨١٣، وفى سانت كليرزفيل، أوهايو فى ١٨١٥، وفى بروكفيلد، ماساشوسيتس فى ١٨١٨. وطبعة ١٨١٣ فى نيويورك تضم إلى هذا العمل، وفى المجلد ذاته، "التقرير الموجز عن الجزائر" من تأليف ماثيو كارى. وقد أدى هذا إلى إرباك ناشر فى فيرمونت فنشر كتاب مارتن والتقرير معًا، باسم مارتن. وقد تغير اسمها فى طبعة ١٨١٠ فى بوسطن إلى ليوسندا مارتن، فيما تحولت مدينة تينيس الجزائرية إلى تونس. وطبعة بروكفيلد مبسطة بشكل كبير، إذ لم تبق إلا على الخطوط العامة للحبكة. ورغم أن مسز مارتن قالت إنها ولدت فى إنكلترا، ورغم أن تاريخها، كما هو منشور فى أمريكا، يفترض أنه إعادة طبع للنسخة الإنكليزية، فلم أجد أى دليل موثق على أن كتابها نشر فى إنكلترا. أما هنرى مارتن، الذى هو زوج ماريا فى الكتاب، فقد كان قبطانًا لدى شركة الهند الشرقية. وقد تكون مصادفة أن هنرى مارتن الذى مات فى ١٧٢١ كتب كراسة بعنوان "تأملات حول تجارة الهند الشرقية" (١٧٠١) يدافع فيها عن تلك التجارة ضد الاتهامات بأنها أدت إلى فقدان رصيد الذهب الإنكليزى وإلى البطالة بين العمال الإنكليز.

(٣٢) حول سرديات الأسر البيوريتانية، انظر:

Roy Harvey Pearce, "The Significance of the Captivity Narrative," American Literature 19 (March 1947); Alden T. Vaughan and Edward W. Clark, "cups of Common Calamity," Puritans among the Indians; Accounts of Captivity and Redemption, 1676-1724 (Cambridge , Mass., 1981); Laurel Thatcher Ulrich, Good Wives: Image and Reality in the Lives of Women in Northern New England

1650-1750 (New York, 1982), esp chs. 9-12. Capt. Greg T. Siemnski, "The Puritan Captivity Narrative and the Politics of the American Revolution," American Quarterly 42 (March 1990), shows the persistent political relevance of some seventeenth-century narratives at the time of the American Revolution.

(٣٣) Martin, History (Boston,1807), 45-46.

(٣٤) Martin, History (Philadelphia,1809) 58.

(٣٥) Martin, History (Philadelphia,1809) 44.

(٣٦) Martin, History (Boston,1807), 69-70.

(٣٧) Martin, History (Boston,1807),69-70.

(٣٨) "The Story of Irene," Rural Magazine, or Vermont Repository (May 1796), 2: 211-214.

هذه القصة موجودة في Rene Aubert,Abbe de Vertot (1655-1735), The History of the knights Hospitallers of St. john of Jerusalem Styled Afterwards, The Knights of Rhodes, And at Present, The Knights of Malta (5 vols., Edinburgh, 1757), 2: 262-265.

هوامش الفصل الرابع

(١) Jefferson, Notes on the State of Virginia (1787) in Merrill D. Peterson, ed., The Portable Thomas Jefferson (New York,1975), 214-215, John Adams to Jefferson, 22 May 1785, Lester J. Cappon,ed., The Adams- Jefferson Letters (Chapel Hill, N.C., 1959), 21; Charles Thomson to Thomas Jefferson, New York, 2 Nov. 1785. PTJ 9:9.

(٢) Martha Jefferson to Thomas Jefferson, Paris. 3 May 1787. PTJ 11:334.

(٣) The American in Algiers, or the Patriot of Seventy-Six in Captivity (New York, 1797).

(٤) Curses of Slavery," Rural Magazine, or Vermont Repository (March 1795), 118-124. Cato Mungo's story was reprinted in the Salem, Massachusetts, Gazette 13 Jan. 1795; (Boston) Federal Orrery, 29 Jan. 1795; Portsmouth Oracle of the Day, 31 Jan. 1795.

(٥) (Mathew Carey), Short Account of Algiers (Philadelphia. 1794), 16; William Eaton. Letterbook, 24 Feb. 1799, EA 199, 38, Eaton Papers, HEH; Eaton to Eliza Danielson Eaton, Tunis, 6 Apr. 1799, Prentiss, Life, 154.

(٦) Tyler, Algerine Captive, 118,224.

(٧) Tyler, Algerine Captive,139, "Retrospective Review," The Monthly Anthology 9 (November 1810), 346.

(٨) Tyler, Algerine Captive, 142. For a reading of the Algerine Captive that places this debate with the mullah in the context of changing American ideas about religion, see David S. Reynolds, Faith in Fiction: The Emergence of Religious Literature in America (Cambridge, Mass., 1981), 16.

(٩) Humanity in Algiers or, the story of Azem. By an American, Late a Slave in Algiers (Troy, N.Y., 1801), preface.

(١٠) Humanity in Algiers, 3-4,98-99.

(١١) Humanity in Algiers, 5-10; Robert Middlekauf, The Glorious Cause: The American Revolution 1763-1789 (New York, 1982), 140-141.

(١٢) "Copy of a letter from an English slave driver at Algiers to his Friend in England," New York Magazine (October 1791), 584; Salem Gazette, 10 Feb.1795.

(١٣) "Profession vs. Practice," Boston Federal Orrery, 24 Nov. 1794; Boston Mercury, 25 Nov. 1794; Newburyport, Massachusetts, Morning star, 26 Nov. 1794.

(١٤) James Ellison, The American Captive, or Siege of Triploi (Boston, 1812), 37-38.

(١٥) "Slaves in Barbary," The Columbian Orator (Boston, 1797), 112, 115.

(١٦) "Slaves in Barbary," 112, 115; William S. Mcfeely, Frederick Douglass (New York, 1990), 18-19.

(١٧) 11 Feb. 1790, Benton, Debates in Congress, 1:208.

(١٨) Benjamin Franklin, " On the Slave Trade," The Works of Benjamin Franklin, Jared Sparks, ed. (London, 1882), 2:517-521.

هوامش الفصل الخامس

(١) David Brion Davis, Slavery and Human Progress (New York and Oxford, 1984), esp. Part One, ch. 4. انظـــر أيضـــا Paul E. Lovejoy, "Slavery in the Context of Ideology," in The Ideology of Slavery in Africa, Lovejoy, ed. (Beverly Hills, Claif., and London, 1981), and Norman Robert Bennett, "Christian and Negro Slavery in Eighteenth-Century North Africa," Journal of African History 1 (1960).

(٢) Daniel Saunders, A Journal of the Travels and Sufferings of Daniel Saunders, jun. (Salem, Mass., 1794); "A Reader," Salem Guzette, 10 Feb. 1795, reprinted Newburyport, Massachusetts, Importial Herald, 24 Feb. 1795.

(٣) "A Reader," Salem Guzette, 10 Feb. 1795.

(٤) Gary Edward Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816," 320-322 (ph.D. diss., North Texas state University,1979).

(٥) On the Bestey, see Irwin, Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers, 28; on Mercier, see Jefferson to Patrick Henry, 9 Aug. 1786, PTJ 10:206-207; Edmund Randolph to Jefferson, 28 Jan. 1787, PTJ 11:83; Jefferson to Thomas Barclay, 5 May 1787, PTJ 11:347.

(٦) See also Saunders, Travels and sufferings; James Riley, An Authentic Narrative of the loss of the American Brig Commerce, wrecked on the western coast of Africa in the Month of August, 1815 (Hatford, Conn., 1817). Riley's Narrative is discussed in Chapter 9 of this volume.

(٧) Boston, Federal Orrery, 26 Jan. 1795, repr Salem Gazette, 27 Jan.1795; "American Captive in Algiers," New York Weekly Museum 8:378 (8 Aug. 1795).

(٨) William Knight to Thomas L. Bristoll, 1 Nov. 1803, BW 3:180; John Foss to his mother, Algiers, 12 Apr. 1795, Salem Gazette, 11 Aug. 1795; James Taylor to his Owners in United States, 3 Nov. 1793, Newburyport, Massachusetts, Morning star, 22 Apr. 1794; William Ray, Horrors of Slavery, or the American Tars in Tripoli (Troy, N.Y., 1808).

(٩) Laurence Sterne, A sentimental Journey Through France and Italy by Mr. Yorick (1768), Gardner D. Stout, Jr., ed. (Berkeley, Claif., 1967), 195-202.

(١٠) James Leander Cathcart, The Captives, J. B. Newkirk, complier (LaPorte, Ind., (1902), 12, 18, 24.

(١١) Eaton to William L. Smith, Tunis, 18 July 1799, EA 199, 189-190, Eaton Papers, HEH; Eaton to secretary of State, 23 June 1800, BW 1:358.

(١٢) من بريبل إلى الضباط الأصاغر وصف الضباط، وخلافه. (٤ يناير ١٨٠٤) BW 3 : 312 من بينبريدج إلى بريبل، ٨ يوليو ١٨٠٤ BW 4 : 258. وحول العبودية فى الفكر الأمريكى، انظر:
Bernard Bailyn, Ideology Origins of the American Revolution.

(١٣) Richard O'Brien to Cathcart, n.d.(1793), Cathcart Papers, Box 1 File 1, quoted courtesy of Astor, Lenox, and Tilden Foundations, New York Public Library.

(١٤) Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 1 Sept. 1769, 15 Mar. 1797.

(١٥) Bainbridge to Preble, 8 July 1804, BW 4:258; William Wass Langford to Preble, 7 July 1804, BW 4:255; Midshipman James Renshaw to Vaptain John Rodgers, 6 Nov. 1804, BW 5:125-125; Officer quoted in New York Evening Post, 2 Oct. 1804.

(١٦) Jonathan Cowdery, American Captives in Tripoli, or, Dr. Cowdery's Journal (Boston, 1806), 12; William Ray, preface to "Elegy on the death of Hilliard" in poems on various Subjects, Religious, Moral Sentimental, Humorous (Auburn, N.Y.,1821), 73-74. The "Elegy on Hilliard" also appeared in New York evening Post, 9 Oct. 1804.

(١٧) Richmond Virginia, Enquirer, 16 May 1804. See Cowdery's less gothic description of the prison, American Captives in Tripoli, 9.

(١٨) Bainbridge to Presble, 25 Nov. 1803, BW 3: 176; William Ray, "Sketch of Author's Life," in Poems, 233.

(١٩) Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 189, 178, n. 14.

(٢٠) O'Brien to Congress, 28 Apr. 1791, BW 1: 29; Cathcart to [?], n.d, [1794?], Cathcart Papers, Box 1, File 1, NewYork Public Library.

(٢١) John Foss, Captivity and Sufferings, 2d ed., 40-41. This anecdote is not in the first edition.

(٢٢) Mordecai Manuel Noah to James Monroe, Cadiz, 31 May 1814, in Noad, Correspondence and Documents Relative to the Attempt to Negotiate for the release of the American Captives in Algiers, 1813-1814 (Washington, D.C., 1816) 66-67.

Ray quoted in Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 274. (٢٣)

Cathcart, The Captives, 144. (٢٤)

Saunders, Travels and Sufferings, 22-23. (٢٥)

Saunders, Travels and Sufferings, 90, 128. (٢٦)

Philadelphia Aurora, 18 Sept. 1807. (٢٧)

James Simpson to Secretary to State, 7 June 1800, BW 1: 352-353; Simpson (٢٨) to Secretary of State, 28 Mar. 1803, Washington, D.C., National Intelligencer, 27 Mar 1803; Jefferson, Second Annual Massage, 15 Dec. 1802, Richardson, Messages and Papers of the Presidents, I, 343.

Foss, Captivity and Sufferings, 2d ed., 52-53. (٢٩)

James Wilson Stevens, An Historical and Geographical Account of Algiers: (٣٠) Comprehending a Novel and Interesting detail of Events s relative to the American Captives (Philadelphia, 1797), 286-287.

Riley, Narrative, 91-92. (٣١)

هوامش الفصل السادس

(١) William Bentley, Diary, 1 Jan. 1794, Diary of William Bentley, D. D. (Salem, Mass., 1905) 2: 79; Philadelphia meeting reported in Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 4 Apr. 1794; "Benevolence" to [Randolph?], 4 Apr. 1794, State Department, Consular Records, Algiers, Vol. 1, Part 1.

(٢) George Washington to Mathew Irwin, 20 July 1789, Fitzpatrick, ed., Writings of Washington, 30: 357-358.

(٣) Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 4 Apr. 1794. For other examples of Republican attacks on Britain for supporting Algiers, see Phillip S. Foner, ed., The Democratic-Republican Societies 1790- 1800: A Documentary Sourcebook of Constitutions, Declarations, Addresses, Resolutions, and Toasts (Westport, Conn., 1976), 168-169, 191, 267-268, 283, 347, 372. On the debate over British depredations, see especially Drew R. McCoy, The Elusive Republic: Political Economy in Jeffersonian America (NewYork and Oxford, 1980).

(٤) See Washington's Sixth Annual Addresses, 19 Nov. 1794, in Richardson, Messages and Papers of the Presidents, I: 163. On the political atmosphere of the 1790's, see especially Thomas P.Slaughter, The Whiskey Rebellion:Frontier Epilogue to the American Revolution (NewYork and Oxford, 1986.)

(٥) Humphrey's Address, Lisbon, 12 July 1794, reprinted in Salem Gazette, 11 Nov. 1794; Newburyport, Massachusetts, Morning Star, 12 Nov. 1794, Boston Federal Orrery, 17 Nov. 1794; New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795.

(٦) Benjamin Lincoln to Secretary of State, Boston, 19 Sept. 1794, State Department, Consular Records, Algiers, Vol. 1, Part 1.

(٧) Randolph to Humphreys, Philadelphia, 8 Nov. 1794, Frank Landon Humphreys, The Life and Times of David Humphreys (2 vols., NewYork and London, 1917), 2: 227. Robert Montgomery warned Cathcart that Heissel was a British agent. Montgomery to Cathcart, nore dated 22 Apr. 1795, on letter 16 Apr. 1795, Cathcart Papers, Box 1, File 2, NewYork Public Library.

(٨) Heraclitus, Boston Federal Orrery, 13 Nov. 1794.

(٩) Laurence Sterne, A Sentimental Journey, 195-202.

(١٠) Essex, Salem Gazette, 25 Nov. 1794.

(١١) Philadelphia Gazette of the United States, 12 Sept. 1794.

(١٢) Washington, Thanksgiving Proclamation, 1 Jan. 1795, Richardson, Message and Papers of the Presidents, 1: 179-180.

(١٣) "Plan of a Continental Contribution for the relief of our American Brethren in Captivity at Algiers," Newburyport Impartial Herald, 23 Jan. 1795; Boston Federal Orrery, 29 Jan. 1795; Salem Gazette, 3 Feb. 1795; New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795.

(١٤) أورى الاتحادية فى بوسطن، فى ٢٦ يناير١٧٩٥، وأعيد نشرها فى ساليم غازيت، فى ٢٧ يناير ١٧٩٥. وقد حمل الالتماس توقيع "ريتشارد أوبرايان"، رغم أن أوبرايان كان فى الجزائر، وكان من المستحيل، واقعيا، بالنسبة له أن يكون قد علم بإعلان واشنطن. لم يكن قد مر أكثر من ثلاثة أسابيع على إصدار واشنطن للإعلان، وعادة ما احتاج الأمر ضعف هذه المدة لتصل الأخبار من أمريكا إلى الجزائر، وستة أسابيع أخرى لتصل الأخبار من الجزائر إلى أمريكا. والبلاغة الدينية المميزة للالتماس، وإشاراته إلى يسوع، تجعله مختلفًا عن أى شىء كتبه أوبرايان. والسطر الأخير من الالتماس " هكذا يتضرع إخوانكم المواطنون، المقيدون بأغلال سفن ماهوميت المزيف" لا يمكن أن يكون أوبرايان هو الذى كتبه، الذى كان يعلم أن الأسرى الأمريكيين ليسوا مقيدين بالأغلال فوق السفن، والذى لم يكن مهتمًا بحقيقة بنوة ماهوميت. والأرجح أن هذا الالتماس كتبه كاهن من نيو إنغلند استخدم اسم أوبرايان ليعطى ما كتب شيئًا من المصداقية، وقد لجأ إلى صور عبيد السفينة والنبوة الزائفة ليشعر القراء بعذاب الأسرى.

(١٥) William Penrose to a Friend, extract, Boston Independent Chronicle, 12 Feb 1795, reprinted Boston Mercury, 13 Feb.; Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 14 Feb.; Providence, Rhode Island, Gazette, 14 Feb.; Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 17 Feb. 1795.

(١٦) Boston Federal Orrery, 29 Jan. 1795, repr. Philadelphia Gazette of the United States, 10 Feb. 1795.

(١٧) Newburyport Impartial Herald, 3 Feb. 1795, repr. Boston Mercury, 17 Feb. 1795; Portsmouth Oracle of the Day, 11, 14, Feb. 1795.

(١٨) William Bentley, 10 Feb. 1795, Diary, 2: 126; New London Connecticut Gazette, 26 Feb. 1795.

(١٩) New York Minerva, 27 Feb. 1795; Boston Mercury, 10 Mar. 1795; Boston Colombian Centinel, 28 Feb. 1795.

(٢٠) William Bentley, 19 Feb. 1795, Diary 2: 128; Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 21 Feb. 1795: Boston Mercury, 27 Feb., 13 Mar. 1795; NewYork American Minerva, 28 Feb. 1795.

(٢١) Boston Mercury, 27 Feb., 13 Mar. 1795.

(٢٢) Boston Mercury, 20 Feb. 1795.

(٢٣) Albiel Holmesm A Sermon, on the Freedom and Happiness of America; Preached at Cambridge, February 19, 1795 (Boston, 1795), 19-20; Bishop [James] Madison, Manifestations of the Beneficence if Divine Providence towards America (Richmond, Va., 1795), 9.

(٢٤) Isaac Story, A. M., A discourse, delivered February 15, 1795, at the request of the Proprietors' Committee, as preparatory to the Collection on the National Thanksgiving, the Thursday following, for the benefit of our American Brethren in captivity at Algiers (Salem, Mass., 1795), 1, 9, 14. For more on Washington and Moses, see Linda K. Kerber, Federalists in Dissent: Imagery and Ideology in Jeffersonian America (Ithaca, N.Y., and London, 1970), 5-6.

(٢٥) Story, A discourse, 13, 14, 8-9, 20.

(٢٦) New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795, repr. Providence, Rhode Island, Gazette, 28 Feb. 1795.

(٢٧) New London Connecticut Gazette, 26 Mar. 1795, repr. From Boston American Mercury. "Aletina" defended Seabury by attacking "Connecticut and Rhode Island" for trying to stir up trouble. (New London Connecticut Gazette, 16 Apr. 1795, from Newport Mercury).

(٢٨) New London Connecticut Gazette, 12, 19 Mar. 1795.

(٢٩) Philadelphia Gazette of the United States, 25 Feb. 1795; Boston Massachusetts Mercury, 28 Feb. 1797.

(٣٠) Philadelphia Gazette of the United States, 10 Mar. and 23 Feb. 1797.

(٣١) Philadelphia Gazette of the United States, 14 Feb. 1797.

(٣٢) Foss, Captivity and Sufferings, 1st ed., 54-55.

هوامش الفصل السابع

(١) Claypoole's American Daily Advertiser, 19 Mar. 1798; Adams to Congress, 23 June 1797, Richardson, Messages and Papers of the Presidents I: 247-248.

فى ذلك الوقت، وحتى القرن العشرين، لم يكن القناصل الأمريكيون مسؤولين دبلوماسيين، فلم يكونوا يتفاوضون على معاهدات أو يشرفون على علاقات سياسية بين الولايات المتحدة والبلد الذى يقيمون فيه. وفى الغالب فقد كانوا تجارا محليين مهمتهم الرئيسية مساعدة التجارة الأمريكيين المعسرين فى الموانئ. وكان من الممكن لفرد ما، وغالبًا ما حدث ذلك، أن يكون قنصلاً لعدة دول مختلفة. وهؤلاء القناصل إما أنهم لم يكونوا يحصلون على رواتب أو كانوا يحصلون على رواتب ضئيلة، لكن كان متوقعًا منهم أن يعتاشوا، بالأساس، على أرباح مصالحهم التجارية الخاصة، التى كانت تضاعفها الرسوم التى كانوا يحصلونها لقاء خدماتهم. وعندما عين آدامز قنصلا عاما فى الجزائر وقنصلين فى تونس وطرابلس الغرب، ليكونوا مسؤولين عن المصالح التجارية لرجال الأعمال الأمريكيين وعن المصالح السياسية للولايات المتحدة، فإن الرئيس كان يستبق الدور العصرى للقناصل الذين يؤدون وظيفتى الدبلوماسى والوكيل التجارى.

(٢) من أوبرايان إلى وليم إل. سميث، الجزائر فى ١٣ سبتمبر ١٧٩٩(٢٠- ٢٨ أغسطس ١٧٩٩) EA 422, Eaton Papers,HEH.

(٣) من أوبرايان إلى ديفيد همفرين، الجزائر، فى أول مارس ١٧٩٨ BW 1:240.

من أوبرايان إلى وزير الخارجية، فيلادلفيا، ١٦ أبريل ١٧٩٧، وزارة الخارجية، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى.

(٤) من أوبرايان، مذكرة حول التجارة، فى ١٨مايو ١٧٩٧، وزارة الخارجية، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى. جسد أوبرايان بهذه المذكرة، وعلى نحو استباقى، أسس السياسات الدولية فى إدارتى آدامز وجيفرسون بما أوصى به من إنشاء قوة بحرية تقاتل القراصنة الحكوميين فى البحر، كما فعل آدامز ضد فرنسا، وبناء قوارب مسلحة صغيرة لدفاعات المرافئ والأنهار، وفرض حظر تجارى لإجبار الأوروبيين على المسالمة، كما سيفعل جيفرسون.

(٥) أوبرايان، مذكرة حول التجارة، فى ١٨ مايو ١٧٩٧، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى.

(٦) من أوبرايان إلى دافيد همفرين، أول مارس ١٧٨٩ BW 1:240.

(٧) Barlow to Monroe, 21 Aug. 1796, quoted in Milton Cantor, "A Connecticut Yankee in a Barbary Court: Joel Barlow's Algerian Letters to his Wife," William and Mary Quarterly, 3rd series, 19 (1962), 102-103n. I have drawn this account of the Eliza from Barlow, "Declaration on Schooner Eliza," 18 Apr. 1797, EA 29, Eaton Papers, HEH; Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 117-118; and Irwin, United States and Barbary Powers, 86.

(٨) Secretary of State to O'Brien, Philadelphia, 21 Dec. 1789, BW 1:281; Postscript to Joel Barlow, Declaration on Schooner Eliza, EA 29, Eaton Papers, HEH; Rand to Barlow, Tunis, 23 June 1796, BW 1: 157-158; Barlow to Rand, Algiers, 2 Aug. 1796, BW 1: 169; Gorham Parsons and Edward Rand, Petitions to Congress and Restoration of Schooner Eliza, 9 Dec. 1797, BW 1:255-227.

(٩) Barlow to Secretary of State, Marseilles, 24 Aug. 1797, BW 1:209. On the fortune, see George Clark, charge at Algiers, Statement Regarding Ship "Fortune", 19 Jan. 1798, EA 173, Eaton Papers, HEH.

(١٠) O'Brien to Secretary of State, Algiers, 6 Mar. 1798, BW 1: 243; O'Brien to Secretary of State, Algiers, 14 Oct. 1798, BW 1: 262.

(١١) O'Brien to Humphreys, Algiers, 27-30 Dec. 1798, BW 1: 288-289; O'Brien to Humphreys, Algiers, 21 May. 1798, BW 1: 250; O'Brien to Eaton and Cathcart, Algiers, 20 May 1801, EA 468, Eaton papers, HEH.

(١٢) O'Brien, Dispatch 1, 23 Jan.-Mar. 1799, BW 1: 293-295. Adam's Message to the Senate and House of Representatives, 21 June 1798, Richardson, Messages and Papers of the Presidents, 1:266.

(١٣) Eaton to Secretary of State [Tunis, June-July 1800], EA 201, 107; Eaton Journal, 30 Oct. 1799, EA 199;258, Eaton Papers, HEH.

(١٤) Eaton Journal, 22 Feb. 1799, EA 199; 37; Eaton to Pickering, Algiers, 10 Feb. 1799, EA 199;68-69, Eaton papers, HEH.

(١٥) Eaton Journal, 19 Feb. 16 Feb. 1799, EA 199; 36, 31; Eaton to O'Brien, Tunis, 20 July 1799, EA 199; 196, Eaton Papers, HEH.

(١٦) Cathcart to Eaton, 9 Nov. 1799, EA 70, Eaton Papers, HEH.

(١٧) Eaton to Pickering, Tunis, 8 Aug. 1799, EA 199, 205; WE to O'Brien, Tunis, 20 July, EA 199, 195; Cathcart to Eaton, Tripoli, 9 Nov. 1799, EA 70, Eaton Papers, HEH. Reports of Cathcart's attempt to seduce Elizabeth Robeson appear in Abedin, "In Defense of Freedom," 168, and Louis B. Wright and Julia H. MacLoed, First Americans in North Africa (Princeton, N.j., 1945), 30. Cathcart's refusal to make an equal of his servant is omitted from the version of this letter printed in Tripoli, 91-98.

(١٨) Eaton journal, 17 Feb. 1799, EA 199; 33, Eaton Papers, HEH. Though in Eaton's journal this statement refers explicitly to O'Brien's hospitality to Elizabeth Robeson, Cathcart would later recall it as applying to American relations with Tunis.

(١٩) Eaton to O'Brien, 1 May 1799, EA 199, 146, Eaton Papers, HEH.

(٢٠) Pickering, Instructions to O'Brien, Eaton, and CArthcart, [18 Dec. 1798], BW 1: 268-269.

(٢١) Pickering to Eaton, 20 Dec. 1798, EA 296, Eaton papers, HEH; eaton to Pickering, 15 June 1799, Prentiss, 97-98;WE Journal, 15 Mar 1799, EA 199, 91, Eaton Papers, HEH.

(٢٢) Prentiss, 75, 78-79; Eaton to Pickering, 14 April 1799, EA 199; p. 122, Eaton Papers, HEH.

(٢٣) Prentiss, life, 72-73.

(٢٤) Consular Present, Made at Tunis, 26 Mar. 1799, BW 1:314; Eaton to O'Brien, Tunis, 1 May 1799, EA 199; 146, Eaton Papers, HEH; [Eaton?], "Concerning Defences of Algiers and Tunis," [April 1799], BW 1: 315-316; O'Brien to Eaton, 2 Dec. 1799, EA 432, Eaton Papers, HEH.

(٢٥) من كاثكارت إلى بيكرينـغ، فى ١٤ أبريل ١٧٩٩، طرابلس الغرب، ٢٣-٢٤، وفى ١٦ أغسطس ١٧٩٩، كاثكارت، طرابلس الغرب، ٦٦-٦٧، من كاثكارت إلى أويرايان، فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩، طرابلس الغرب ٢٦-٢٧، من كاثكارت إلى أويرايان، طرابلس، فى ١٣ أبريل ١٧٩٩ BW1:322 وقد أنكر جيديس أنه سمع أويرايان يعد بشيء BW1:323, cathcart, Journal of Negotiations,13 Apr.1799,BW 1:306-312 إنكار أويرايان للوعد، من أويرايان إلى جوزيف إينغـــرام، الجـزائر، فى ١٢ يوليـو ١٧٩٨ BW1:252 وقد نعت إيتون ماكدونوغ بأنه "مارق، وأفاق بالطبع". وبعد ذلك بعامين، أدرك كاثكارت خطأه، فقال إن ماكدونوغ "بطبعه ميال إلى خيانة الثقة المنوط به" وأنه كان "محل احتقار كل قنصل فى طرابلس الغرب" إذ أنه كان قد علم، آنذاك، أن ماكدونوغ نفسه هو الذى وضع العقبات فى طريق كاثكارت، وكان كاثكارت يدفع له مقابل إزاحتها.

من إيتون إلى وليم ل. سميث EA 199,189 من كاثكارت إلى إيتون وأويرايان، فى ٢٣ فبراير ١٨٠١، طرابلس الغرب، ٢٧٩.

من كاثكارت إلى وزير الخارجية، ليغهورن، فى ٤ يونيه ١٨٠١. Ea115, Eaton Papers, HEH.

(٢٦) Eaton to O'Brien, Tunis, 2 June 1799, on receiving bill from Cathcart, EA 199, 148-149; Eaton to William L. Smith, Tunis, 18 July 1799, EA 199, 180-190, Eaton papers, HEH; Eaton to Secretary of State, 23 June 1800, BW 1: 358.

(٢٧) Cathcart to Eaton, 9 Nov. 1799, EA 70; Eaton to Cathcart, 25 Nov. 1799, Box 1, File 3, Cathcart Papers, New York Public Library; Eaton to Pickering, 8 Aug. 1799, EA 199, Eaton, HEH; 205, Eaton to Cathcart, 10 Oct. 1799, EA 66, Eaton to O'Brien, 20 July 1799, EA 199, 195, Eaton papers, HEH.

(٢٨) Cathcart to WE, 27 Aug. 1800, EA 80; O'Brien to WE, Algiers, 13 Dec. 1799, Eaton Papers, HEH, commenting on Cathcart to O'Brien, 20 Aug. and 30 Oct. 1799, in Tripoli, 68-71, 83-87.

(٢٩) O'Brien to Cathcart, 25 July 1800, EA 201, 167-173; O'Brien to Eaton, 30 July 1800, EA 445; Eaton to Cathcart, 1 Oct. 1800, EA 201, 174-175, Eaton Papers, HEH.

(٣٠) Catchart to Eaton, Tripoli, 22 July 1799, EA 62; Cathcart to Eaton. Tripoli, 27 Oct. 1799, EA 68, Eaton Papers, HEH; Cathcart to Thomas Appleton, Tripoli, 24 Oct. 1799, Tripoli, 79.

(٣١) Cathcart to Eaton, 5 Nov. 1799, EA 69, Eaton Papers, HEH.

(٣٢) Cathcart to Eaton, 6 Feb. 1800, EA 73; Eaton to John Marshal, Tunis, 21 Nov. 1800, EA 201, 223, Eaton Papers, HEH.

(٣٣) Eaton to Secretary of State, Tunis, 21 July 1800, BW 1: 363-364; Eaton to Secretary of State, 6 Mar. 1801, EA 201, 271-273; Pickering to Eaton, 11 Jan. 1800, BW 1: 343-344; Eaton to Cathcart, Tunis, 27 Apr. 1801, eA 201; 301, Eaton Papers, HEH.

(٣٤) O'Brien to Eaton, 24 Sept. 1799, EA 426; Eaton to John Shaw, Tunis, 14 Dec. 1799, EA 201; 1, Eaton Papers, HEH.

(٣٥) The case of Alberganty has been drawn from Samuel Holmes, Protest filed in chancery office, U.S. Consulate, Tunis, 1 June 1800, EA 201, 69-75; Eaton to O'Brien, Tunis, 2 June 1800, EA 201, 78-79; WE to Thomas Appleton, Tunis, 2 June 1800, EA 201, 80; Eaton to Danish consul, 22 June 1800, EA 201, 87; Eaton to Appleton, 27 July 1800, EA 201, 115; Eaton to Appleton, 27 July 1800, EA 201, 116-117; Eaton to Pickering, 1 Aug. 1800, EA 201, 126-127; Eaton to Appleton, 6 Aug. 1800, EA 201, 136; O'Brien to Eaton, Algiers, 14 Aug. 1800, EA 449, Eaton Papers, HEH.

(٣٦) Eaton to O'Brien, Tunis, 26 Aug. 1800, EA 201, 140-143; Eaton to William L. Smith, 13 Nov. 1800, Postscript 25 Nov. 1800, EA 201, 205, Eaton Papers, HEH.

(٣٧) O'Brien to Eaton, Algiers, 21 Oct. 1800, EA 454, Eaton Papers, HEH.

(٣٨) O'Brien to William L. Smith, 28 Aug. [1799], EA 422, Eaton Papers, HEH.

(٣٩) Marshall to O'Brien, 29 July 1800, EA 451; O'Brien to Eaton, Algiers, 13 Aug. 1800, EA 448, Eaton Papers, HEH. On Pickering's fall, see Stephen G. Kurtz, The presidency of John Adams: The Collapse of Federalism (Philadelphia, 1957) esp. ch. 17.

(٤٠) O'Brien to Eaton, 7 May 1800, EA 441, Eaton Papers, HEH; O'Brien to Cathcart, 19 Oct. 1800, Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York Public Library.

O'Brien to Secretary of State, 20 Sept. 1800, 22 Oct. 1800, BW 1: 317, 389; (٤١)
O'Brien to Cathcart, 21 Oct. 1800, Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York Public Library.

Eaton William L. Smith, 13 Nov. 1800, postscript 25 Nov. 1800, EA 201, 205, (٤٢)
Eaton Papers, HEH; also quoted in Prentiss, Life, 190.

Eaton to O'Brien, Tunis, 26 Aug. 1800, EA 201, 140-143; Eaton to Cathcart, 29 (٤٣)
Dec. 1800, EA 201, 245-247, Eaton Papers, HEH.

Wright and MacLeod, First Americans, 80-81; O'Brien to Eaton and Cathcart, 20 (٤٤)
May 1801, EA 468; Eaton to Cathcart, 17 Feb. 1801, EA 201, 267, Eaton Papers, HEH; Cathcart to Secretary of State, Dispatch 9, 16 May 1801, BW 1: 455-460.

Cathcart, Tripoli, 17; Cathcart to Eaton, 6 Feb. 1800, EA 73; O'Brien to Eaton, (٤٥)
Algiers, 17 Feb. 1801, EA 460, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, Algiers, [22 Feb Feb. 1801], EA 463; Eaton to Cathcart, Tunis, (٤٦)
27 Apr. 1801, EA 201, 301; Cathcart to Eaton, 15 Mar. 1801, EA 102; O'Brien to Eaton, 29 Sept. 1800, EA 452; WE to JLC, 25 Feb. 1801, EA 201, 267; Eaton to William L. Smith, 21 May. 1801, EA 201, 310, Eaton Papers, HEH. On the election of 1800, see especially Page smith, John Adams (2 vols., New York, 1962), 2: 1046-1048, and Merrill Peterson, Thomas Jefferson and the New Nation (New York, 1970), 634-651.

Abedin, "In Defense Of Freedom," 180-181; O'Brien to Cathcart, Algiers, 13 Apr., (٤٧)
1801, EA 465, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to W. England, Tripoli, 14 Apr. 1801, Cathcart, Tripoli, 313-314. (٤٨)

This account of the war's outbreak follows Cathcart to Secretary of State, 16 (٤٩)
May 1801, BW 1: 455-460. See also Cathcart to Eaton, 13 May 1801, EA 113, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Cathcart, [Algiers], 13 May [1801], EA 466, Eaton Papers, HEH. (٥٠)

Nicolai C. Nissen to Eaton, Tripoli, 28 May 1801, EA 379, Eaton Papers, HEH. (٥١)

Cathcart to Eaton, Lazeretto of Leghorn, 13 June 1801, EA 118; Cathcart to Eaton, (٥٢)
Leghorn, 15 June 1801, EA 119, Eaton Papers, HEH. See also a somewhat different version in Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York Public Library; Cathcart to Eaton, Leghorn, 19 June 1801, EA 121, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to Eaton, Leghorn, 5 May 1802, EA 147; W.Y. Purviance for Degen and (٥٣)
Purviance to WE, Leghorn, 3 Aug. 1802, EA 196; Cathcart to Eaton, Leghorn, 10 Dec. 1804, EA 156, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, 1 June 1801, 2 Aug. 1801, EA 470, 473, Eaton Papers, HEH. Cathcart, "Passa Tiempos," Plans for Country Seat, Box 4, Cathcart Papers, Cathcart to Charles W. Cathcart, 19 Aug. 1843, Box 3, File 60, Cathcart Papers, New York Public Library. See also Mella Menni to James Madison, 25 Aug. 1806, U.S. Department of State, Notes from Tunisian Legation, 1805- 1806; Louis B. Wright and Julia H. MacLeod, "Mellimelli," Virginia Quarterly Review (1944); and Walter Prichard, Fred B. Kniffen, and Clair A. Brown eds., "Southern Louisiana and Southern Alabama in 1819: The Journal of James Leander Cathcart," Louisiana Historical Quarterly (1945).

هوامش الفصل الثامن

(١) Irving's "Jonathan Oldstyle" review, New York Morning Chronicle, quoted in William Dunlap, History of the American Theater (New York, 1832), 301-302.

(٢) Joseph Hanson, The Musselmen Humbled; or a Heroic Poem in Celebration of the Bravery Displayed by the American Tars, in the Contest with Tripoli (New York, 1806), 7-9, 3.

(٣) D.Elsworth, "National Felicity," Philadelphia Aurora, 15 May 1804.

(٤) William Ray, "Ode to Liberty," Philadelphia Aurora, 15 Oct. 1805; Nelson quoted in Irwin, United States and the Barbary Powers, 135.

(٥) New York Evening Post, 19 May 1804; Post quoted in Philadelphia Aurora, 21 May 1804.

(٦) New York Evening Post, 21 May, 5 June, 28 May 1804; song 15 Mar. 1806.

(٧) Philadelphia Aurora, 6 Jan. 1806.

(٨) Philadelphia Aurora, 10 July, 9 July, 7 July 1804.

(٩) Philadelphia Aurora, 4 July, 7 July 1804.

(١٠) Hanson, The Musselmen Humbled, 4-5; Pius VII quoted in Eaton to Colonel Timothy Dwight, Malta, 20 Sept. 1804, printed in New York Evening Post, 12 Jan. 1805, also in BW 5:52.

(١١) Philadelphia Aurora, 13 Mar. 1806. Accounts of the Interpid drawn from John Darby, journal, 3 Sept. 1804, BW 4: 506; Nathaniel Haraden, sailing master, U.S.S. Constitution log, 4 Sept. 1804, BW 4: 506-507; Richard O'Brien to John Gavino, Malta, 5 Sept. 1804, BW 4: 516-517.

(١٢) New York Evening, 11 Jan. 1805, reprinted from the Philadelphia Aurora.

(١٣) Robert Ker Porter's "Battle of Alexandria," New York Evening Post, 22 Aug. 1804; Philadelphia Aurora, 21 Dec. 1804; Holland's "Tars in Tripoli," Philadelphia Aurora, 27 Mar. 1805; Ray, "The American Captive in Tripoli," The Portfolio (Philadelphia), 6 Oct. 1804.

(١٤) Philadelphia Aurora, 30 May 1808; "Tars from Triopli," New York Evening Post, 28 Feb. 1806.

(١٥) "An American," New York Evening Post, 25 Oct. 21 Nov. 1804, 12 Jan. 1805; see Philadelphia Aurora, 4 Oct. 1805, referring to Political Register, 2 Aug. 1805; Eaton, Notes on a Speech or Letter, [1804-1809?], EA 261-266, Eaton Papers, HEH.

(١٦) Philadelphia Aurora, 9, 10 Jan. 1806. I am indebted to Paul V. Burke, U.S. Marine Corps, for information on the significance of the Mameluke's sword.

(١٧) Philadelphia Aurora, 17 Oct. 1805, from Richmond Enquirer. On Yusuf Pacha's reign, see Folayan, Tripoli During the Reign of Yusuf Pasha Qaramanli.

(١٨) William Bainbridge to George Davis, Tripoli, 22 Nov. 1804, BW 5: 155-156.

(١٩) New York Post, 24 Mar 1806.

(٢٠) آدامز، فى أول أبريل ١٨٠٦، بنتون، مناقشات فى الكونغرس٣:٣٧٤ صوت الكونغرس لصالح تقديم راتب قدره ٢٤٠٠ دولار إلى أحمد، وكان قرار التخصيص فى ٢١ أبريل ١٨٠٦ (من دايسون إلى تشارلز وغولدزبورو، فى ١١ نوفمبر ١٨٠٧ BW 6:577 من وزير البحرية إلى د. توماس فى ١٦ نوفمبر ١٨٠٧ BW6:579-580.

(٢١) Eaton quoted in Plumer, Memorandum, 468; Plumer, Memorandum, 496-497; Jefferson quoted in Plumer, Memorandum, 468; Eaton to Preble, 21 Mar. 1806, BW 6: 398.

(٢٢) Louis B. Wright and Julia H. MacLeod, "William Eaton's Relations with Aaron Burr," Mississippi Valley Historical Review 13 (March 1945), 523-536, quote on 526; J. Parton, The Life and Times of Aaron Burr (New York, 1860), 491.

(٢٣) Robert Treat Paine, "Ode, Written and Sung for General Eaton Fire Society, January 14, 1808," Works, in Verse and Prise, of the Late Robert Treat Paine, jun., Esq. (Boston 1812), 283-285.

(٢٤) Quoted in E. Shippen, "A Forgotten General," The United Service, vol. 5, no. 1 (July 1881). 1:Philadelphia Aurora, 19 Oct. 1805.

(٢٥) James Ellison, The American Captive, or Siege of Tripoli (Boston, 1812), 35.

(٢٦) Ellison, American Captive, 12, 9.

(٢٧) Ellison, American Captive, 24-25.

(٢٨) Ellison, American, 20-21.

(٢٩) Ellison, American Captive, 18-19, 37-38.

(٣٠) Ellison, American Captive, 51, 34

(٣١) Ode to Thorn, New York Evening Post, 15 Mar. 1806.

(٣٢) New York Evening Post, 9 Jan. 1806; also in the Boston Independent Chronicle, 30 Dec. 1805.

هوامش الفصل التاسع

(١) Secretary of the Navy Robert Smith to James Barron, 15 May 1807, BW 6: 523-524; Smith to Barron, 30 Apr. 1807, BW 6:519.

(٢) See Philadelphia Aurora, 7, 11, 13, 18 July 1807.

(٣) James Riley, An Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce (Hartford, Conn., 18330), 15-16.

(٤) Riley, Narrative (Hartford, Conn., 1817), 257-258, 259.

(٥) Archibald Robbins, A Journal Comprising an Account of the Loss of the Brig Commerce (Hartford, Conn., 1818).

(٦) [Jared Sparks], "Review of Riley's Narrative," North American Review 5 (1817), 390-391.

صارت سردية رايلى من أروج الكتب، على مستوى دولى، ففى ١٨١٧ ظهرت فى هارتفور، نيويورك، وفى لندن، وفى العام التالى ظهرت ترجمة إلى الفرنسية والألمانية، وفى طبعة باريسية باللغة الإنكليزية وفى طبعة ثانية فى نيويورك. وقد ذهب رايلى إلى أوهايو فى ١٩١٨ وأخذ مخطوطته معه. وقد ظهرت فى تشيليكوث، أوهايو، فى ١٨٢٠، وفى ليكسنغتون، كنتاكى، فى ١٨٢٣. وبين ١٨٢٨ و ١٨٥١ كانت تنشر مرة كل عامين، فى هارتفورد. وفى ١٨٣٩ و ١٨٥٩ أعيد نشرها فى نيويورك، ونشرت مختارات منها فى ١٨٧٦ تحت عنوان "ماراه وما فعله فى إفريقيا". ونشر "ملحق لسردية رايلى" فى كولومبوس، أوهايو، فى ١٨٥١، بعد وفاة المؤلف. ونشر غوردون هـ. إيفانز الفصول الستة والعشرين الأولى من "السردية باعتبارها معاناة فى إفريقيا" (نيويورك : كلاركسون ن. بوتر، ١٩٦٥).

(٧) Sequel to Riley's Narrative, 387; Henry David Thoreau, Cape Cod (2 vols., Boston and New York, 1904, [1864]), II: 102.

(٨) Riley, Narrative (Hartford, Conn., 1833), 260-261.

(٩) Riley, Narrative (Hartford, Conn., 1817), 294, 454.

(١٠) Riley, Narrative (Hartford, Conn., 1817), 447, 446.

(١١) Sequel to Riley's Narrative, 384.

(١٢) R. Gerald McMurtry, "The Influence of Riley's Narrative Upon Abraham Lincoln," Indiana Magazine of History 30 (June 1934), 134.

المؤلف فى سطور :

روبرت جى آليسون

- رئيس قسم التاريخ وأمين الأرشيف ومدير الدراسات الأمريكية فى جامعة سافوك.

المترجم فى سطور :

أسامة الغزولى

- عمل مترجمًا للغة الروسية بالقوات الجوية من يناير ١٩٦٩ إلى مارس ١٩٧٣.
- عمل محررًا مترجمًا بجريدة الجمهورية القاهرية.
- وبمجلة الوطن العربى فى باريس.
- وبجريدة الشرق الأوسط فى لندن.
- عمل مترجمًا مع المنظمة البرية الدولية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة وبرنامج الأغذية العالمى والصندوق الدولى للتنمية الزراعية.

وترجم إلى العربية :

- السينما والأيديولوجية وشباك التذاكر، وكاراجانوت، واعترافات قناع (رواية) يوكيو ميشيما.

التصحيح اللغوى: سماح حيدة
الإشراف الفنى: حسن كامل



The Crescent Obscured

The United States and the Muslim World

the legacy of the barbary wars

ROBERT J. ALLISON

من بدايات الحقبة الاستعمارية حتى الصراعات الراهنة فى الشرق الأوسط ساعد الاتصال العام للمسلمين الأمريكيين على تحديد هوية وهدف لوطنهم، وبالتركيز على الكتابات الأمريكية عن الحروب مع دول البربر فى الشمال الإفريقى من ١٧٧٦ إلى ١٨١٥، يتتبع روبرت آليسون المفاهيم والتصورات المغلوطة عن الإسلام فى العقل الأمريكى.

إن تقرير آليسون النافذ والحافل بالمعلومات عن المواجهات التى خاضتها الجمهورية الوليدة مع العالم المسلم هو كشف ملهم له مغزى خاص بالنسبة للمشهد الدولى اليوم.

ريتشارد بوليبت
مجلة العلوم التاريخية

